إليف شافاق

لقيطة إستانبول

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

إليف شافاق

لقيطة إستانبول

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

إليف شافاق: لقيطة إستانبول

إليف شافاق: لقيطة إستانبول، رواية ـ ترجمة: خالد الجبيلي

© Elif Shafak: **The Bastard of Istanbul, 2007**

الطبعة الأولى ٢٠١٢

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٢

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2012*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

١
قرفة

لا يجوز أن تلعني أي شيء يهطل من السماء، حتى لو كان مطراً.

فمهما كان المطر غزيراً، ومهما كانت السماء ملبّدة بالغيوم، أو مهما كان الجليد يكسو سطح الأرض، لا يجوز أن تتلفظي بكلمات نابية لأي شيء تخبئه لنا السماء. الجميع يعرفون ذلك، بمن فيهم زليخة.

ها هي ذي في أول يوم جمعة من شهر تموز، تغذ الخطى فوق الرصيف، وتكاد حركة السير الشديدة الاكتظاظ في الشارع أن تكون قد أصيبت بالشلل. كانت مندفعة بسرعة لتلحق موعداً تأخرت عليه الآن، فراحت تسبّ وتلعن بكلمات بذيئة، وتفحّ كالأفعى وهي تطلق اللعنة تلو الأخرى على أحجار الرصيف المكسورة، وكعب حذائها العالي، والرجل الذي يطاردها، وجميع السائقين الذين يطلقون أبواق سياراتهم على نحو مسعور، رغم الحقيقة المعروفة والراسخة في المدينة بأن الجعجعة لا تؤدي إلى انفراج حركة المرور المكتظة، ولا تؤثر عليها، كما لم تؤثر على سلالة بني عثمان برمتها لأنها احتلت مدينة القسطنطينية ذات يوم، وتشبثت بخطئها. وهي لا تؤثر كذلك على المطر... المطر الصيفي اللعين هذا.

إن المطر معاناة حقيقية هنا. أما في بقاع العالم الأخرى، فإن هطول المطر يعتبر في جميع الإحتمالات نعمة للجميع سواء كانوا أشخاصاً أم جماداً ـ فهو مفيد للمحاصيل، ومفيد للحيوانات والنباتات، وإذا أضيفت

إليه لمسة من الرومانسية، فهو جيد للعشاق. أما في إستانبول، فليس الأمر كذلك. إذ ليس من الضروري، بالنسبة لنا، أن يكون المطر شيئاً يتعلق بالبلل، ولا شيئاً يرتبط بتلويث الثياب وتوسيخها وتلطيخها بالطين. وإن كان يعني شيئاً، فهو يعني أن تغضب. إنه عبارة عن وحل وفوضى وغضب، وكأنه لا يوجد لدينا ما يكفينا من هذه الأشياء الثلاثة. والكفاح. فهو يعني أن تكافح باستمرار. فمثل قطط صغيرة ألقي بها في دلو مليء بالماء، نحارب، نحن الملايين العشرة جميعنا، معركة عقيمة ضد القطرات. ولا نستطيع أن نقول إننا وحيدون في هذا الصراع، بل تدخل معنا أيضاً في هذه المعركة الشوارع بأسمائها العتيقة المكتوبة على لوحات من الصفيح، وشواهد قبور العديد من الأولياء المتناثرة في كل مكان، وأكوام الزبالة المكدسة في كلّ زاوية تقريباً، وحفر الأبنية الضخمة التي سرعان ما ستنتصب بنايات حديثة متلألئة، والنوارس... إنها تثير غضبنا جميعنا عندما تفتح السماء أبوابها وتبدأ تبصق فوق رؤوسنا.

لكن ما أن تلامس الأرض آخر القطرات، وعندما تجثم قطرات أخرى ترتعش بقلق فوق أوراق الأشجار التي زال عنها الغبار الآن، في تلك اللحظة، عندما لا تكون واثقاً تماماً من أن المطر قد توقف أخيراً، بل ولا يكون المطر نفسه واثقاً من أنه توقف، في تلك الفترة الفاصلة، تصحو السماء وتغدو صافية. ولدقيقة واحدة طويلة، تبدو السماء وكأنها تعتذر عن الفوضى التي أحدثتها لنا. ونعود، والقطرات لا تزال عالقة في شعرنا، والوحل الرقيق عالق في ثنايا بناطلينا، والكآبة بادية في أعيننا، نعود ونحدّق في السماء التي أضحت الآن ظلاً لازوردياً أرق وأصفى من أي وقت مضى. ننظر إلى الأعلى، ولا نتمالك أنفسنا إلا أن نبادلها الابتسامة. نغفر لها، كما هو دأبنا.

أما الآن، فلم يتوقف المطر عن الهطول بغزارة، ولم يكد يتبقى في قلب زليخة أية مشاعر من الصفح والغفران. فهي لم تكن تحمل مظلّة،

لأنها ليست بلهاء إلى حد أن تلقي بحفنة من النقود إلى بائع متجول آخر لتشتري مظلة أخرى، ثم تنساها في مكان ما بعد أن تشرق الشمس من جديد، لذلك فهي تستحق أن يبللها الماء حتى العظم. كما أن الآوان قد فات الآن على ذلك. فقد تبللت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. كان هذا هو الشيء المتعلق بالمطر الذي تشبّهه بالحزن: إذ إنك تبذل قصارى ما بوسعك لكي لا يلمسك شيء، وأن تظل سليماً وجافاً، لكنك إذا فشلت، وعندما تفشل، تأتي اللحظة التي تبدأ ترى فيها المشكلة، لا كقطرات، بل كسيل جارف، ولذلك تقرّر أن تتبلل حتى العظم.

قطرات المطر تتساقط من ضفائرها السوداء الملقاة على كتفيها العريضين. ومثل جميع نساء عائلة قازانجي، ولدت زليخة بشعر أسود فاحم أجعد، لكنها بخلافهن جميعهن، كانت تحبّ أن تبقيه هكذا. وكانت بين الحين والآخر تغمض عينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الأخضر، اللتين تكونان عادة مفتوحتين على وسعيهما، المتوهجتين بشعلة من الذكاء، تغمضهما نصف إغماضة، فتصبحان مثل خطين لا مباليين يميّزان ثلاث فئات من الناس وهم: السذج الذين لا أمل يرجى منهم، والمنطوون على أنفسهم على نحو يائس، والمفعمون بالأمل بشكل يائس. وبما أنها لا تنتمي إلى أي من هذه الفئات الثلاث، كان يصعب فهم هذه اللامبالاة، حتى لو كانت مثل هذه الومضة الخاطفة. ففي لحظة تكون هنا، تغلّف روحها طبقة من عدم الإحساس المخدّر، وفي لحظة تالية، تذهب وتبقى وحدها في جسدها.

هذا هو الشعور الذي كان يتملكها في يوم الجمعة ذاك، أول يوم جمعة من شهر تموز، الشعور بأنها فقدت الإحساس وكأنها خُدِّرت، مزاج يتآكل بقوة غريبة في شخص مفعم بالحيوية مثلها. هل يمكن أن يكون هذا هو السبب الذي جعلها لا تكترث مطلقاً بمواجهة المدينة اليوم، أم أن المطر هو السبب؟ وفيما كانت لامبالاتها المتأرجحة، التي تصعد وتهبط

في إيقاع من تلقاء نفسها، كان بندول مزاجها يتذبذب بين قطبين متعاكسين: من نقطة التجمّد إلى نقطة الاستشاطة غضباً.

انطلقت زليخة تشق طريقها بين باعة الرصيف الذين يبيعون مظلات ومعاطف واقية من المطر وأغطية للرأس من النايلون بألوان براقة، والذين راحوا يرمقونها باستغراب. تجاهلت نظراتهم، تماماً كما تتجاهل نظرات جميع الرجال الذين يحدّقون في جسمها بنهم.

وكان الباعة أيضاً يحدقون باستهجان في حلقة أنفها اللامعة، وكأن وجودها في هذا المكان دليل على انحرافها وابتعادها عن الحشمة، لذلك فهي ليست إلا دليلاً على شبقها. وكانت تتباهى بهذه الحلقة بصورة خاصة لأنها صنعتها بنفسها. فقد آلمتها عملية الثقب، لكنها وضعت هنا لتبقى، وكان هذا هو أسلوبها. ورغم مضايقة الرجال، أو نظرات النساء الأخريات المليئة باللوم والاشمئزاز، ورغم استحالة السير فوق بلاطات الرصيف المكسورة، أو القفز فوق العبّارات، بل رغم تذمر أمّها المتواصل... لم تكن ثمة قوة على الأرض يمكنها أن تمنع زليخة، أطول معظم النساء في هذه المدينة، من ارتداء تنورات قصيرة ذات ألوان برّاقة، وبلوزات ضيّقة تكشف عن صفحة صدرها الممتلئ، وجوربها الساتان، ونعم، وهذا الحذاء ذو الكعب العالي الشاهق.

الآن، وبعد أن وطأت قدماها بلاطة مخلخلة أخرى، وبعد أن رأت بركة الوحل تحتها ترشّ لطخاً داكنة من الطين على تنورتها بلون الخزامى، أطلقت زليخة العنان لسلسلة طويلة أخرى من اللعنات والشتائم. فقد كانت المرأة الوحيدة في عائلتها كلها، وواحدة من النساء التركيات القليلات، اللاتي يستخدمن هذه التعابير غير المهذبة بدون تحفظ، وبصوت مرتفع، وبتعمد وعن معرفة؛ لذلك، عندما كانت تلعن وتشتم، كانت تواصل طريقها وكأنها تعوّض عن جميع الأشياء الأخرى. ولم تكن هذه المرة مختلفة عن سابقتها. ففيما أخذت تجري، راحت زليخة تشتم إدارة

البلدية، في الماضي والحاضر، لأنها منذ أن كانت فتاة صغيرة، لم تثبت أو تصلح هذه البلاطات في الأيام الماطرة. لكنها كانت تتوقّف فجأة، قبل أن تنهي شتائمها، وترفع ذقنها عالياً وكأنها سمعت أحداً ينادي اسمها، لكنها بدلاً من أن تتطلع حواليها لترى من يناديها، كانت تنظر عابسة إلى السماء المليئة بالسحب والدخان. تضيّق عينيها، وتطلق تنهيدة تنم عن مشاعر مختلطة، ثم تطلق العنان لشتائم أخرى، لكن هذه المرة للمطر. وحسب قواعد جدّتها ما ـ الهيفاء، غير المدوّنة التي يجب ألا تخرقها، فإن هذا يعتبر كفراً وتجديفاً صرفاً. قد لا يعجبك المطر، وليس بالضرورة أن يعجبك، لكن مهما كانت الظروف، يجب ألا تلعني شيئاً ينزل من السماء، لأنه لا ينزل شيء من الأعلى من تلقاء نفسه، بل إن الله العلي القدير وراء كلّ شيء ينزل من الأعلى.

من المؤكد أن زليخة كانت تعرف قواعد الجدّة ما ـ الهيفاء، غير المدوّنة والتي كان يستحيل خرقها، لكن في يوم الجمعة هذا، أول يوم جمعة من شهر تموز، خطر لها أن تضرب بهذه القواعد عرض الحائط. فإن ما قيل قد قيل، تماماً كما أن ما تم في الحياة قد تم وولّى الآن. لم يكن لدى زليخة الوقت لكي تعبر عن أسفها. فقد تأخرت على موعدها مع الطبيب النسائي. فليست هذه مغامرة تافهة، وخاصة إذا رأيت أنك قد تأخرت عن موعدك مع الطبيب النسائي، فمن الممكن أن تلغي موعدك ولا تذهبي على الإطلاق.

فجأة، توقفت بالقرب منها سيارة تاكسي صفراء امتلأ رفرافها الخلفي بملصقات كبيرة. وكان السائق، الشديد السمرة، ذو القسمات الفظة، الذي كان له شارب يشبه شارب زاباتا[1]، وسنّ أمامية مصنوعة من الذهب، والذي ربما كان يغتصب النساء بعد انتهاء عمله، قد أنزل جميع

(١) ثائر مكسيكي قاد ثورة من أجل الإصلاح الزراعي (١٨٧٩ ـ ١٩١٩م).

نوافذ السيارة، وانبعث صوت مادونا ملعلعاً وهي تغني «مثل عذراء» تبثها محطة إذاعية محلية. وكان ثمة تناقض شديد بين شكل الرجل المغرق في تقليديته، والموسيقى غير التقليدية التي يستمع إليها. أوقف سيارته فجأة، وسُمع صوت صرير الفرامل، ومدّ رأسه خارج النافذة، وقال لزليخة وكأنه ينبح بعد أن صفّر لها: «أريد أن آكل بعضاً منه!» لكن زليخة أخرست الكلمات التالية التي كان سيتفوه بها.

«ما خطبك، أيها المعتوه؟ ألا تستطيع أن تمشي امرأة بسلام في هذه المدينة؟».

«لكن لماذا تمشين عندما يمكنك أن تركبي معي؟ «سألها السائق، ثم أضاف: «من المؤكد أنك لا ترغبين في أن يتبلّل هذا الجسد المثير».

وفيما كانت مادونا تزعق بأعلى صوتها من المذياع» بدأ خوفي يتلاشى بسرعة، وأحتفظ به كله لك»، بدأ سيل الشتائم ينطلق من فم زليخة، وبذلك تكون قد خرقت قاعدة غير مدوّنة ويستحيل خرقها مرة أخرى، هذه المرة ليست قاعدة من قواعد جدّتها ما- الهيفاء، بل إحدى قواعد الحصافة الأنثوية. لا تشتمي الشخص الذي يتحرش بك.

القاعدة الذهبية لحصافة المرأة الإستانبولية: عندما يتحرش بك أحد في الشارع، لا تستجيبي له على الإطلاق، لأن المرأة التي تردّ على المتحرش بها، ناهيك عن شتمه، ستثير حفيظته!

كانت زليخة تعرف هذه القاعدة حق المعرفة، وكانت تعلم أنه من الأفضل لها ألا تخرقها، لكن يوم الجمعة هذا، أول يوم جمعة من شهر تموز لم يكن مثل أيام الجمعة الأخرى، فقد كان ثمة شيء يمور في داخلها الآن، وقد أضحت أكثر اندفاعاً وتهوراً وغضباً على نحو يثير الذعر. فقد كانت زليخة الأخرى هي التي بدأت تشغَل معظم فضائها الداخلي الآن، وهي التي أخذت بزمام أمورها، وبدأت تتخذ قرارات

بالنيابة عنهما. ولا بد أن هذا هو السبب الذي جعلها تلعن وتشتم بأعلى صوتها. وفيما غطى صوتها على صوت مادونا، تجمّع باعة المظلات والسابلة بدافع الفضول للتعرف على سبب المشكلة الناشبة بين هذه المرأة والسائق. وفي غمرة هذا اللغط والاضطراب، أجفل الشاب الذي كان يلاحقها من خلفها، وقرر أنه من الأفضل ألا يعبث مع امرأة مجنونة. أما سائق التاكسي، فلم يكن متعقلاً ولا رعديداً، لذلك رحّب بكلّ هذه الجلبة بابتسامة عريضة. ولاحظت زليخة أن أسنان هذا الرجل بيضاء ناصعة لا يوجد فيها أي أثر لأي بقعة صفراء، ولم تتمالك نفسها عن التساؤل إن كانت مطلية بمادة خزفية أم لا. وشيئاً فشيئاً، بدأت تشعر مرة أخرى بعودة موجة الأدرينالين تتصاعد في بطنها، ترغي وتزبد، وتسرّع من دقات قلبها، مما جعلتها تشعر بأنها، ليس كأي امرأة أخرى في عائلتها، قد تقتل رجلاً ذات يوم.

ومن حسن حظ زليخة، أن صبر سائق سيارة التويوتا الواقفة خلف سيارة التاكسي كان قد عيل، فأطلق العنان لبوق سيارته. وكأنها أفاقت من كابوس، عادت زليخة إلى صوابها وعرتها رجفة من وضعها الصعب. فقد أثار ميلها نحو العنف مخاوفها، كما كان يحدث معها باستمرار. وما هي إلا لحظة، حتى هدأت، وتنحّت جانباً، وبدأت تحاول شق طريقها بصعوبة عبر الحشد. وفي عجلتها هذه، علق كعب حذاء زليخة الأيمن تحت بلاطة مخلخلة. فسحبت قدمها من البركة المتشكلة تحت قطعة الحجر بغضب. وعندما تمكّنت من سحب قدمها وحذائها، كُسر كعب حذائها، فتذكرت قاعدة كان ينبغي ألا تنساها في المقام الأول.

قاعدة الحصافة الفضية للمرأة الإستانبولية: عندما يتحرش بك رجل في الشارع، لا تفقدي أعصابك، لأن المرأة التي تفقد أعصابها أمام المتحرش، ستردّ بإفراط، مما سيزيد الأمر سوءاً!

ضحك سائق التاكسي، وأخذ بوق سيارة التويوتا الواقفة وراءه يلعلع ثانية، وبدا أن المطر قد بدأ يهطل ثانية، وأبدى عدد من المشاة انزعاجهم وغضبهم معاً، مع أنه يصعب على أي شخص أن يعرف السبب الذي جعلهم يغضبون منه. وفي وسط كلّ هذه المعمعة، وقعت عين زليخة على ملصق بألوان قوس قزح يتلألأ على ظهر سيارة: **لا تقل إني بائس. فللبؤساء قلوب أيضاً**. عندما وقفت هناك تحدّق في هذه الكلمات، انتابها فجأة شعور بالتعب الشديد ـ كانت منهكة ومندهشة إلى حد أنه يخيّل للمرء أنها لم تكن تعرف المشاكل اليومية التي يواجهها سكان إستانبول، بل كان رمزاً غامضاً صمّمه عقل حالم وكان عليها أن تفك رموزه، لكنها لن تتمكن من حل رموزه. وسرعان ما غابت سيارة التاكسي وسيارة التويوتا، وتفرّق الناس، وذهب كلّ في حال سبيله، وتركوا زليخة واقفة هناك، تمسك كعب حذائها المكسور برقة وقنوط، كأنها تحمل طيراً ميتاً.

ربما كانت هناك طيور ميتة تدخل في عالم زليخة الفوضوي، من بين الأشياء الأخرى، إلا أنه من المؤكد لم تكن هناك رقة ولا قنوط، وهما شيئان لا تملك منهما شيئاً. اعتدلت في وقفتها، وجاهدت لتسير بكعب واحد. وسرعان ما أخذت تغذّ الخطى وسط حشد من الناس يحملون مظلّات، وهي تكشف عن ساقيها الرائعتين، وتعرج قليلاً على قدمها مثل نوتة موسيقية شذت عن اللحن. كانت خيطاً من الخزامى، لوناً غير ملائم انسلّ من بساط جداري مزخرف باللونين البني والرمادي، ومزيد من اللونين البني والرمادي. ومع أن ألوانها كانت متنافرة وغير منسجمة، كان الحشد مجوّفاً مثل كهف يكفي لابتلاع تنافرها وإعادته إلى إيقاعه الطبيعي. ولم يكن الحشد كتلة مؤلفة من مئات الأجساد التي تتنفّس وتتعرّق وتتألم، بل كان جسداً واحداً يتنفّس ويتعرّق ويتألم تحت المطر. ولم يكن من المهم إن كانوا يقفون تحت المطر أم تحت الشمس. فالسير في إستانبول يعني السير جنباً إلى جنب مع سيل جارف من الناس.

عندما مرت زليخة أمام عشرات من صيّادي السمك ذوي القسمات القاسية، الذين كان يصطف أحدهم بجانب الآخر على امتداد جسر غالاتا القديم، يغلفهم الصمت، ويحمل كلّ منهم مظلّة بيد، وصنارة صيد السمك باليد الأخرى، حسدتهم على قدرتهم على المكوث هكذا دون أن يأتي أحدهم بحركة، وعلى قدرتهم على انتظار سمك غير موجود أصلاً لساعات طويلة، وإذا خرجت لهم سمكة، فإنها تكون سمكة صغيرة جداً لا تصلح إلا لأن تستخدم طعماً لأسماك أخرى لن يتم اصطيادها. حقاً إنها مقدرة مدهشة أن تعمل كثيراً وتنجز قليلاً، أن تعود إلى البيت خاوي الوفاض، ورغم ذلك فإنك تشعر بالرضا في نهاية اليوم! ففي هذا العالم، يولّد الصفاء الحظ، والحظ يولّد السعادة، أو هكذا كانت تظن زليخة. فالظن كان كلّ ما بمقدورها أن تفعله في هذا الأمر بالذات، لأنها لم تذق في حياتها ذلك النوع من الصفاء، ولم يخيّل لها أنها تستطيع أن تتذوقه. على الأقل ليس اليوم. بالتأكيد ليس اليوم.

ورغم اندفاعها، بدأت زليخة تخفف من سرعتها عندما انعطفت إلى البازار الكبير. ورغم عدم توفر متسع من الوقت لديها لكي تتسوق، فقد قررت أن تدخل إلى السوق لإلقاء نظرة سريعة فقط، قالت تؤكد لنفسها، وأخذت تمسح بعينيها واجهات المحلات. أشعلت سيجارة، وفيما راح الدخان ينبعث من فمها في شكل دوائر، شعرت بالارتياح وبالاسترخاء. ومع أن المرأة التي تدخّن في الشارع لا ينظر إليها باحترام كبير في إستانبول، لكن من يكترث بذلك؟ هزت زليخة كتفيها. فألم تشن حرباً على المجتمع كله؟ وعندها بدأت تتحرك باتجاه القسم القديم من البازار.

كان بعض البائعين في البازار لا يعرفون إلا اسمها الأول، وخاصة بائعو المجوهرات. فقد كانت الاكسسوارات التي تشع وتلمع من كل شكل ونوع نقطة ضعفها: دبابيس الشعر الكريستال، ودبابيس الزينة من الماس المقلّد، والأقراط البرّاقة، والأوشحة المخططة، والحقائب المصنوعة من

الساتان، وشالات الحرير الشفافة، والأحذية ذات الكعوب العالية. وكلما كانت تأتي إلى البازار، كان عليها أن تزور عدداً من المحلات، تساوم البائعين، وتدفع مبلغاً أقلّ بكثير من المبلغ المعروض لأشياء لم تكن تنوي شرائها أصلاً. أما اليوم، فقد أخذت تتنقل من كشك إلى آخر، وتتفرج على بعض واجهات المحلات. كان هذا كل ما في الأمر.

توقفت زليخة أمام كشك تكدست فيه جرار وقدور وقوارير مليئة بالأعشاب والتوابل من كلّ نوع ولون. وتذكّرت أن إحدى أخواتها الثلاث كانت قد طلبت منها هذا الصباح أن تشتري قليلاً من القرفة، لكنها لم تتذكّر أي أخت طلبت ذلك. فقد كانت زليخة أصغر أربع بنات لم يكنّ يتفقن على أيّ شيء، وكانت كلّ واحدة منهن تتمسك برأيها وتؤمن إيماناً جازماً بأنها على حق دائماً، وكانت كلّ واحدة منهن تؤمن إيماناً راسخاً بأنه لا يوجد شيء يمكنها أن تتعلمه من أخواتها الأخريات، بل لديها الكثير الذي يمكنها أن تعلّمه لهن. كان الأمر بتلك الدرجة من السوء، مثل أن تخسر جائزة اليانصيب الكبرى بسبب اختلاف رقم واحد فقط: فمن أي زاوية تنظر إلى الأمر، لن تستطيع أن تتخلص من الشعور بأنك تتعرض إلى ظلم فادح لا يمكن استدراكه. ومع ذلك اشترت زليخة كمية قليلة من القرفة، لا مسحوق القرفة، بل أعواد القرفة. وعرض عليها البائع كوباً من الشاي وسيجارة وقليلاً من الدردشة، ولم ترفض أياً من ذلك. وفيما كانت جالسة تحادثه، كانت عيناها تطوفان فوق الرفوف بلا مبالاة، إلى أن شاهدتا طقم كؤوس من الشاي، كان أيضاً من بين الأشياء التي لم يكن بوسعها أن تقاوم نفسها ألا تشتريه: كؤوس شاي نقشت عليها نجوم مذهّبة، وملاعق رفيعة رقيقة، وأطباق هشة في وسطها خطوط مذهّبة. لا بد أنه يوجد لديهن في البيت ما لا يقل عن ثلاثين طقماً من كؤوس الشاي من مختلف الأشكال، وكانت هي التي اشترتها جميعها. لكن ما الضير من شراء طقم آخر، لأنها تنكسر بسهولة. «هذه الكؤوس اللعينة هشّة وسريعة

الكسر. . .» دمدمت زليخة بصوت منخفض. فقد كانت الوحيدة بين نساء عائلة قازانجي التي تستشيط غضباً عندما ينكسر كأس من الشاي. أما الجدّة ما - الهيفاء، ذات السبعة والسبعين عاماً، فكان لها أسلوب مختلف.

«لقد فقئت عين شريرة أخرى!» كانت ما - الهيفاء تصيح في كلّ مرة ينكسر فيها كأس ويتهشم. «هل سمعتن صوت النحس؟ إنه يتصدّع! أوه، إن صداه يتردّد في قلبي! كانت هذه عين شريرة، غيورة وخبيثة جداً. فليحمنا الله جميعنا!».

فإذا انكسرت كأس أو إذا تصدعت مرآة، كانت ما - الهيفاء تطلق تنهيدة تنم عن الارتياح. فبما أنك لا تستطيع أن تقضي على جميع الأشرار على سطح الكرة الأرضية التي تدور بجنون، فمن الأفضل أن ترتطم العين الشريرة بكأس على أن تتغلغل في أعماق أرواح الله البريئة وتدمر حياتها.

وبعد مضي عشرين دقيقة، اندفعت زليخة إلى مكتب أنيق في أحد الأحياء الراقية في المدينة، ممسكة بكعبها المكسور بيد، وبطقم الشاي الجديد باليد الأخرى. وما أن دخلت، حتى اعتراها شعور بالفزع لأنها تذكرت أنها نسيت أعواد القرفة الملفوفة في صرّة في البازار الكبير.

* * *

كانت هناك ثلاث نساء في غرفة الانتظار، شعر كلّ منهن مريع، ورجل يكاد يخلو رأسه من الشعر. ومن الطريقة التي كنّ يجلسن فيها، لاحظت زليخة على الفور، واستنتجت بطريقة ساخرة، أن أصغر النساء بينهن، كانت أكثرهن استرخاء وأقلّهن قلقاً، وكان في يدها مجلة نسائية تقلّب صفحاتها بتؤدة وبكسل إلى حد أنها لم تكن تقرأ المقالات، بل تتفرج على الصور. وربما جاءت إلى هذه العيادة لتجدد وصفة حبوب منع الحمل. أما المرأة الشقراء المكتنزة، الجالسة بجانب النافذة، فقد كانت

تبدو أنها في بداية الثلاثينيات من عمرها، وكانت جذور شعرها السوداء تتوسل لأن تُصبغ. كانت تهزّ قدميها بعصبية، وكان من الواضح أن عقلها كان سارحاً في مكان آخر، فلعلها أتت إلى هنا لتجري فحصاً روتينياً، وتؤخذ منها خزعة من عنق رحمها، الاختبار الذي ينبغي أن تجريه سنوياً. أما المرأة الثالثة التي تضع منديلاً على رأسها، والتي كانت برفقة زوجها، فكانت تبدو أقلهن رزانة، إذ تهدلت زاويتا فمها، وعقدت حاجبيها. وخمّنت زليخة أنها تعاني مشكلة في الحمل. وقدّرت زليخة أن هذا الأمر قد يبدو مزعجاً، لكن من الزاوية التي ينظر فيها المرء إلى المسألة. فالنسبة لها، لم تكن ترى أن العقم هو أسوأ شيء قد يحدث لأي امرأة.

«مرحباً» قالت موظفة الاستقبال وهي تزقزق، وقد أرغمت نفسها على أن ترسم ابتسامة مصطنعة حمقاء، لا بد أنها تدربت عليها طويلاً إلى درجة أنها لم تعد تبدو بلهاء أو متصنعة. «هل أنت صاحبة موعد الساعة الثالثة؟».

يبدو أن موظفة الاستقبال تعاني من صعوبة في نطق حرف الراء، وكما لو أنها كانت تريد أن تخفي ذلك فقد مطّت صوتها كثيراً ورفعّته، وكانت تبتسم ابتسامة أخرى كلما اضطر لسانها إلى لفظ هذا الحرف المشؤوم. ولكي توفّر عليها هذا العبء، هزت زليخة رأسها على الفور، ربما بحماس شديد.

«وما سبب زيارتك بالضبط، يا آنسة صاحبة موعد الساعة الثالثة؟».

حاولت زليخة أن تتجاهل سخافة السؤال. فقد عرفت الآن أن هذه البهجة الأنثوية الغامرة وغير المشروطة هي التي تفتقر إليها في الحياة. إذ إن بعض النساء باسمات وفيات، يبتسمن بسبب شعورهن بالواجب. وتساءلت زليخة كيف تستطيع إحداهن أن تفعل شيئاً غير طبيعي بهذه التلقائية والطبيعية. لكنها تجاهلت السؤال الذي علق في حواف دماغها وردّت: «إجهاض».

تطايرت الكلمة في الهواء، وانتظر الجميع أن تعود وتتلاشى. ضاقت عينا موظفة الاستقبال، ثم توسعتا، وتلاشت الابتسامة من على وجهها، مما جعل زليخة تشعر بالانزعاج. فقد أظهرت مشاعر الأنثى البهيجة غير المشروطة والشاملة قدراً ضئيلاً من الحقد وحب الانتقام لديها. «لديّ موعد. . .» قالت زليخة، وهي تدسّ خصلة من الشعر وراء أذنيها، فيما تركت باقي خصلات شعرها تتساقط حول وجهها وعلى كتفيها مثل برقع أسود سميك. رفعت ذقنها، فبرز أنفها المعقوف، وشعرت بالحاجة لأن تكرر ما قالته، بصوت أعلى مما كانت تنوي، أو ربما لم تكن تريد أن تفعل ذلك. «لأني يجب أن أجري عملية إجهاض».

وقعت موظفة الاستقبال في حيرة بين أن تسجل المريضة الجديدة بشعور من الحياد، وبين أن ترسل لها نظرة مؤنبة على هذه الجرأة والوقاحة. لبثت في مكانها دون حراك، وكان ملقى أمامها دفتر ملاحظات كبير ذي غلاف جلدي. مرت بضع ثوان قبل أن تبدأ أخيراً في الخربشة على الدفتر. في هذه الأثناء تمتمت زليخة:

«إني آسفة لأني تأخرت». فقد أشارت الساعة المعلقة على الحائط إلى أنها تأخرت ستاً وأربعين دقيقة، وعندما ثبتت عينيها على الساعة مرة أخرى، بدا أنها قد سرحت بخيالها. «كان ذلك بسبب المطر. . .».

بطريقة ما لم يكن ما قالته منصفاً للمطر، لأن اكتظاظ وازدحام حركة السير، وبلاطة الرصيف المكسورة، والبلدية، والرجل الذي كان يلاحقها، وسائق التاكسي، ما عدا توقفها في البازار لتتسوق، يجب أن تتحمل جميعها وزر تأخيرها، لكن زليخة قرّرت ألا تذكر أياً من هذه الأشياء. ولعلها خرقت إحدى القواعد الذهبية من قواعد حصافة المرأة الإستانبولية، بل لعلها انتهكت أيضاً القاعدة الفضّية من قواعد حصافة المرأة الإستانبولية، لكنها تمسكت بالقاعدة النحاسية.

القاعدة النحاسية لحصافة المرأة الإستانبولية: عندما يتحرش بك أحد في الشارع، فمن الأفضل أن تنسي الحادثة تماماً وأن تواصلي طريقك، لأن تذكّر الحادثة طوال اليوم لن يؤدي إلا إلى تدمير أعصابك وإتلافها أكثر!

كانت زليخة من الذكاء بحيث تعرف جيداً أنها حتى لو أثارت موضوع التحرش بها الآن، فلن تجد تأييداً من النساء الأخريات، وسينحين عليها باللائمة في مثل هذه الحالة. لذلك أجابت باقتضاب شديد، ملقية اللوم على المطر فقط.

«ما عمرك يا آنسة؟» أرادت موظفة الاستقبال أن تعرف.

كان هذا السؤال مزعجاً، ولم يكن ثمة داع له. ضيّقت زليخة عينيها في موظفة الاستقبال، وكأنها تنظر إلى شيء غير واضح تماماً، واضطرت لأن تعدّل عينيها لكي تراها بشكل أفضل. وبغتة، تذكّرت حقيقة نفسها الحزينة: عمرها. فمثل نساء كثيرات كانت تتصرف بطريقة تتجاوز سنوات عمرها، وأحست بالانزعاج لأنها كانت أصغر بكثير مما كانت تريد أن تكون.

ثم قالت معترفة: «عمري تسع عشرة سنة». ما أن انطلقت الكلمات من فمها، حتى تضرّج وجهها خجلاً، وكأن جميع من في الغرفة رأوها عارية.

«طبعاً، نحتاج إلى موافقة زوجك»، تابعت موظفة الاستقبال، ولم يعد صوتها جذلاً، ولم تضع وقتها في الانتقال مباشرة إلى سؤال آخر، ارتابت في الإجابة عنه. «هل لي أن أسألكِ، هل أنت متزوجة يا آنسة؟».

من طرف عينها، لاحظت زليخة أن المرأة الشقراء المكتنزة إلى يمينها، والمرأة التي تضع منديلاً على رأسها إلى يسارها، تململتا بانزعاج. وفيما بدأت تشعر بوطأة نظرات جميع من في الغرفة، تحوّل تجهم زليخة إلى ابتسامة مبتهجة. لا لأنها كانت تستمتع باللحظة الملتوية،

بل لأن اللامبالاة في أعماقها هي التي همست لها بأن لا تعر بالاً لآراء الآخرين، لأنهم لن يؤثروا عليها في نهاية اليوم. ففي الآونة الأخيرة، كانت قد قررت أن تطهّر مفرداتها وتعقمها من بعض الكلمات. وبعد أن تذكّرت قرارها هذا، قالت لنفسها لم لا تبدأ بكلمة «عيب». ومع ذلك، لم تكن تشعر بالرغبة في أن تقول بصوت عال ما أصبح جميع من في الغرفة يعرفونه الآن تماماً. فلا يوجد هناك زوج لكي يمنح موافقته على هذا الإجهاض. لا يوجد أب. فبدلاً من وجود با ـ با، لم يكن يوجد سوى عد-م.

ومن حسن حظ زليخة، تبين لها أن عدم وجود زوج أمر مفيد في المعاملات الرسمية. إذ لم تكن بحاجة للحصول على موافقة خطية من أحد. فالأنظمة البيروقراطية لا تهتم بإنقاذ حياة الأطفال المولودين خارج القفص الزوجي أكثر من اهتمامها بإنقاذ أرواح الأطفال الذين تنجبهم امرأة ورجل من داخل القفص الزوجي. فالطفل الذي لا أب له في إستانبول ليس سوى لقيط آخر، وليس اللقيط إلا ضرساً مخلخلاً آخر في فكّ المدينة يمكن أن يسقط في أي لحظة.

«مكان ولادتك؟» تابعت موظفة الاستقبال بطريقة مملة وكئيبة.

«إستانبول».

«إستانبول؟».

هزت زليخة كتفيها وكأنها تقول، وأين يمكنني أن أولد؟ في أي مكان يمكنني أن أولد على وجه الأرض غير هذا المكان؟ فهي تنتمي إلى هذه المدينة! ألا يظهر ذلك على وجهها؟ فبالرغم من كلّ شيء، تعتبر زليخة نفسها إستانبولية حقيقية، وكما لو أنها كانت تريد أن توبّخ موظفة الاستقبال لأنها لم تر هذا الحقيقة البادية للعيان، استدارت على كعبها المكسور، وارتمت على الكرسي إلى جانب المرأة التي تضع منديلاً على رأسها.

وهنا لاحظت زوج هذه المرأة، الذي كان جالساً بهدوء، يكاد يشلّه الشعور بالحرج الشديد. وبدلاً من أن ينحي باللائمة على زليخة، بدا أن الرجل يتقلّب ويتمرّغ بالضيق وعدم الارتياح لأنه الذكر الوحيد هنا، في هذه المنطقة النسائية البحتة. ولوهلة أحست زليخة بالشفقة عليه. وخطر لها أن تطلب من الرجل أن يخرج معها إلى الشرفة ليدخنا سيجارة معاً، لأنها كانت متأكدة من أنه يدخّن. لكن قد تسيء الأخريات فهمها. إذ لا يحق لامرأة عازبة أن تطلب ذلك من رجل متزوج، لأن الرجل المتزوج سيظهر مشاعر عدائية تجاه المرأة الأخرى عندما تكون زوجته جالسة إلى جانبه. لماذا تصعب مصادقة الرجال؟ لماذا يجب أن يكون الأمر دائماً هكذا؟ لماذا لا تخرجا إلى الشرفة، وتدخنا وتتبادلا بضع كلمات، ثم يمضي كل واحد منكما إلى حال سبيله؟ جلست زليخة هناك ولاذت بالصمت للحظة طويلة، لا لأنها كانت متعبة، وقد كانت كذلك بالفعل، أو لأنها كانت مستاءة من هذا الاهتمام كلّه، وهذا ما كان يحصل أيضاً، بل لأنها كانت تريد أن تقف بالقرب من النافذة المفتوحة؛ كانت تتوق لسماع أصوات الشارع. عندئذ تسلل إلى الغرفة صوت أجش لبائع في الشارع يصيح: «يوسفي... يوسفي معطّر طازج...».

«جيد، تابع صياحك»، دمدمت زليخة في نفسها. فهي لم تكن تحبّ السكون، بل كانت في واقع الأمر تكره الصمت. ولم تكن تمانع في أن يحدّق الناس فيها في الشارع، في السوق، في غرفة انتظار الطبيب، هنا وهناك، نهاراً وليلاً؛ لم تكن تمانع في أن ينظروا إليها ويحدّقوا فيها، بل ويمعنون النظر فيها مرة أخرى وأخرى وكأنهم يرونها لأول مرة. فبطريقة أو بأخرى، كانت تستطيع دائماً أن تقاوم نظراتهم المتفرسة فيها. أما الشيء الذي لم تكن تستطيع أن تقاومه فيهم فهو صمتهم.

«يوسفي... يوسفي...» «كم الكيلو؟» صاحت امرأة تطل برأسها من نافذة مفتوحة في طابق علوي في إحدى البنايات في الشارع المقابل.

وكانت زليخة تتسلى دائماً برؤية السهولة، وبدون أي جهد تقريباً، التي يستطيع فيها سكان هذه المدينة أن يستنبطوا أسماء لا تخطر على بال لبعض المهن العادية. إذ يمكنك أن تضيف حرفيّ «جي» إلى كلّ شيء تقريباً يباع في السوق، ثم تعرف أن عليك أن تضيف اسماً آخر في قائمة المهن الحضرية الطويلة، فحسب المادة المباعة، يمكنك أن تسمي بسهولة ذلك الشخص بـ «اليوسفجي»، «المائجي» أو «الجواهرجي» أو «المجهضجي».

لم يعد يساور زليخة الآن أدنى شكّ. إذ لم تكن بحاجة لأن تجري اختباراً لتعرف الشيء المتأكّدة منه، فقد كانت قد أجرت فحصاً في العيادة التي فُتحت مؤخراً في حيهم. ففي يوم «الافتتاح الكبير»، استقبل العاملون في العيادة بحفاوة مبهرجة عدداً من المدعوين المختارين، وكانت أكاليل وباقات الزهور قد صفت عند باب المدخل ليعرف المارة في الشارع بهذه المناسبة العظيمة أيضاً. وعندما ذهبت زليخة إلى العيادة في اليوم التالي مباشرة، كانت معظم هذه الزهور قد ذبلت وبهتت ألوانها، أما النشرات والملصقات فبقيت ألوانها زاهية كما كانت من قبل. **اختبار حمل مجاني مع كلّ اختبار سكّر في الدم**، كتبت بحروف كبيرة تلمع بالفسفور. ولم تعرف زليخة العلاقة بين هذين الاختبارين، لكنها مع ذلك أجرت الاختبار. وعندما خرجت النتيجة، تبين أن نسبة السكّر في دمها طبيعية، إلا أنه تبين أنها حامل.

«يا آنسة، يمكنك أن تدخلي الآن»، نادتها موظفة الاستقبال الواقفة أمام الباب، محاولة أن تتغلب على حرف راء آخر هذه المرة، وهذه المرة كان يصعب عليها أن تتفاداه في عملها: «الطبيب... في انتظارك».

قابضة على صندوق كؤوس الشاي وعلى كعبها المكسور، قفزت زليخة واقفة على قدميها. وأحست أن جميع الرؤوس في الغرفة قد استدارت نحوها، تسجل لها كلّ نأمة وحركة. وكانت عادة تسير بأسرع ما

يمكنها. أما الآن، فقد أصبحت حركتها بطيئة بوضوح، بل تكاد تكون واهنة. وما أن أوشكت على مغادرة الغرفة، حتى توقّفت، وكما لو أنها كانت مدفوعة بزرّ، التفتت، وكانت تعرف تماماً الشخص الذي ستلقي عليه نظراتها. فهناك، وسط نظرتها المتفرّسة، كان يوجد وجه مليء بالمرارة. إذ كانت المرأة ذات المنديل تلوي قسمات وجهها، وكانت عيناها البنيتان مغلفتين بشيء من الامتعاض، وشفتاها تتحركان وتلعنان الطبيب وهذه الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً، التي على وشك أن تجهض الطفل الذي كان يجب ألا يمنحه الله إلى فتاة طائشة، بل كان يجب أن يمنحه لها.

* * *

كان الطبيب رجلاً ضخم الجثة تشي وقفته المنتصبة بالقوة. وبخلاف موظفة الاستقبال في عيادته، لم تكن نظرته تشي باللوم، ولم يكن يطرح أسئلة حمقاء. بل رحّب بزليخة بشتى الطرق، وجعلها توقّع على بعض الأوراق، وعلى عدد آخر من الأوراق في حال حدوث شيء أثناء العملية أو بعدها. وشعرت زليخة، الواقفة إلى جانبه، أن أعصابها قد تجمّدت، وجفّ جلدها، وهو أمر سيء للغاية، لأنها عندما تتجّمد أعصابها ويجفّ جلدها، تصبح هشّة مثل كأس الشاي، وعندما تصبح هشّة مثل كأس الشاي، تبدأ الدموع تطفر من عينيها. وهذا ما كانت تكره أن تفعله حقاً. فمنذ أن كانت فتاة صغيرة، كانت تحتقر كثيراً النساء اللاتي يبكين، ومنذ ذلك الحين، قطعت زليخة عهداً على نفسها بألا تصبح واحدة من تلك البائسات اللاتي كنّ يبعثرن دموعهن ويلقينها في كل مكان، ويشتكين ويتذمرن من أي شيء أينما ذهبن، رغم وجود الكثيرات منهن حولها. لذلك أمسكت عن البكاء. وتمكنت حتى هذا اليوم، من الاحتفاظ بوعدها. فإذا اغرورقت الدموع في عينيها، كانت تحبس أنفاسها وتتذكّر الوعد الذي قطعته على نفسها. لذلك، في يوم الجمعة ذاك، أول يوم

جمعة من شهر تموز هذا، فعلت للمرة الثانية ما كانت تفعله دائماً لتحبس دموعها: بأن أخذت نفساً عميقاً ورفعت ذقنها إلى الأعلى كدليل على القوة. أما في هذه المرة، فقد حدث شيء، وخرج نَفَسُها الذي كانت قد حبسته كشهقة.

لم تبد على الطبيب أمارات الدهشة. فقد كان معتاداً على ذلك. إذ كانت النساء يبكين دائماً.

«هيا، هيا»، قال محاولاً أن يواسي زليخة وهو منهمك في ارتداء قفازاته الطبية. «كل شيء سيسير على ما يرام، لا تقلقي. إنها مجرد قيلولة. إذ إنك ستنامين، وستحلمين، وقبل أن ينتهي حلمك، سنوقظك وستعودين إلى البيت. وبعد ذلك، لن تتذكري شيئاً».

عندما بكت زليخة بهذه الطريقة، اندفعت قسماتها، وغار خداها، فبرزت معظم معالم وجهها: أنفها! أنفها المعقوف بشكل ملحوظ، الذي ورثته، مثل شقيقاتها، عن أبيهن، لكن أنفها، بخلاف أنوف شقيقاتها، كان مدبباً أكثر عند أرنبته، وأطول قليلاً عند الجانبين.

ربّت الطبيب على كتفها، وناولها منديلاً ورقياً، ثم قدّم لها علبة المناديل كلها. فقد كانت توجد دائماً علبة مناديل احتياطية جاهزة بجانب طاولته. إذ كانت شركات الأدوية توزع على الأطباء علب المناديل هذه مجاناً. وبالإضافة إلى الأقلام ودفاتر الملاحظات والأشياء الأخرى التي تحمل أسماء شركاتهم، كانوا يصنعون مناديل ورقية للمريضات اللاتي لا يتمكن من إمساك أنفسهن عن البكاء.

«يا تين... تين لذيذ... تين ناضج!».

هل هو البائع نفسه أم بائع جديد؟ ماذا يسميه زبائنه...؟ التينجي...؟ سألت زليخة نفسها، وهي مستلقية هامدة على طاولة في غرفة بيضاء مغرقة في النظافة. ولم تثر فزعها الأدوات، ولا حتى

السكاكين، كما أثارها هذا البياض المطلق. فقد كان ثمة شيء في اللون الأبيض يشبه الصمت. إذ يخلو كلاهما من الحياة.

في سعيها للابتعاد عن لون الصمت، راحت زليخة تشغل نفسها ببقعة سوداء في السقف. وكلما حدّقت فيها أكثر، كانت البقعة تبدو أشبه بعنكبوت أسود. ففي البدء، كان ثابتاً لا يتحرك، لكنه بدأ يزحف بعد ذلك. وبدأ العنكبوت يزداد ضخامة عندما بدأت الحقنة تسري في عروق زليخة. وبعد بضع ثوان، ثقل جسدها ولم تعد تستطيع أن تحرّك إصبعاً من أصابعها. وفيما حاولت مقاومة أن يجرفها النوم بسبب التخدير، بدأت تنشج ثانية.

«هل أنت متأكّدة من أن هذا ما تريدين أن تفعلينه؟ ربما كنت تريدين أن تفكّري في الأمر ثانية»، قال الطبيب بصوت مخملي وكأن زليخة كومة من الغبار، ويخشى أن يزيحها بريح كلماته لو رفع صوته أكثر. «إن كنت تريدين أن تعيدي النظر في قرارك هذا، فلا يزال أمامك وقت».

لكن زليخة كانت تعرف جيداً أنها يجب أن تفعل ذلك الآن، في يوم الجمعة هذا، أول يوم جمعة من شهر تموز. «إما اليوم أو أني لن أفعلها أبداً. لا يوجد شيء أفكر به. لا يمكنني أن أبقيه»، سمعت نفسها تقول.

هزّ الطبيب رأسه. وكأنها تنتظر هذه البادرة، تسلل صوت آذان صلاة الجمعة إلى الغرفة من المسجد القريب. وما هي إلا ثوان قليلة، حتى انضم إليه صوت آذان من مسجد آخر، ثم مسجد آخر وآخر. تشنّج وجه زليخة ضيقاً. فقد كانت تكره أن تسمع صوت آذان كان قد صُمم أصلاً لينبعث بنقاء صوت إنسان، لكنه أُفقد إنسانيته عندما صار ينبعث من صوت كهربائي يدوّي في أرجاء المدينة من مكروفونات ومكبّرات صوت. وسرعان ما أصبح الصخب يصمّ الآذان، وساورها شكّ بأن ثمة خطأ في مكبرات الصوت في جميع المساجد القريبة من العيادة. وإما أن يكون ذلك، أو أن أذنيها هما اللتان أصبحتا شديدتي الحساسية.

«سينتهي الأمر بعد دقيقة. . . لا تقلقي».

كان الطبيب هو الذي يتكلم. نظرت إليه زليخة بتهكم.

هل كانت كراهيتها لصوت الآذان بمكبرات الصوت بادية على وجهها؟ لم تكترث بذلك. فمن بين جميع نساء عائلة قازانجي، كانت هي المرأة الوحيدة غير المتدينة. فعندما كانت طفلة، كانت تتخيل أن الله صديقها الأثير، ولم يكن ذلك شيئاً سيئاً بالطبع، سوى أن صديقتها العزيزة الأخرى، كانت فتاة ثرثارة يكسو وجهها النمش، وقد اعتادت على التدخين وهي في الثامنة من العمر. وصادف أن تلك الفتاة، كانت ابنة المرأة التي تأتي لتنظف بيتهم، امرأة كردية بدينة ذات شارب لم تكن تكترث بحلاقته دائماً. ففي تلك الأيام، كانت تأتي إلى بيتهم مرّتين في الأسبوع، وفي كلّ زيارة، كانت تحضر ابنتها معها. وأصبحت زليخة والفتاة صديقتين بعد فترة من الوقت، حتى أنهما جرحتا سبابتيهما لتمزجا دمهما، وتصبحان أختين عن طريق الدم طوال الحياة. وطوال أسبوع، لفّت الفتاتان اصبعيهما بضمادات مضمخة بالدم دلالة على أنهما أختان. وفي ذلك الوقت، كانت زليخة تدعو ربها أن يصبح الله أختاً لها في الدم أيضاً. . . أختها في الدم. . .

أستغفر الله، كانت تستغفر ربها على الفور، ثم تكرّر ذلك مراراً لأنك عندما تطلب المغفرة من الله يجب أن تفعل ذلك ثلاث مرات: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

كانت تعرف أن هذا خطأ. فلا يجوز للمرء أن يشخّص الله. فليس لله أصابع، أو دم. يجب على المرء ألا يضفي صفات بشرية عليه، وهذا لم يكن بالأمر السهل لأن جميع أسمائه التسعة والتسعين هي صفات ترتبط بالبشر أيضاً. فهو يرى كلّ شيء، لكن ليست لديه عينان. ويسمع كلّ شيء، لكن ليست لديه أذنان؛ ويستطيع أن يصل إلى كل مكان، لكن لا توجد لديه يدان. . . ومن جميع هذه المعلومات، استنتجت زليخة ذات

السنوات الثماني، أن الله قد يشبهنا، لكننا لا يمكننا أن نشبهه. أم أن الأمر بالعكس؟ على أية حال، يجب على المرء أن يتعلّم أن يفكّر به، أي، هو بدون التفكير به على أنه هو.

في أغلب الظن لم تكن زليخة تبدي اهتماماً كبيراً بذلك لو أنها لم تر ضمادة مضمخة بالدم ملتفة حول سبابة أختها الكبرى فريدة في عصر أحد الأيام. فقد بدا لها أن الفتاة الكردية قد جعلتها أختها بالدم هي الأخرى. شعرت زليخة بأنها خُدعت. وعندها فقط، خطر لها أن اعتراضها الحقيقي أنه لم يتبق لله دم، لأنه لديه أخوات كثيرات عن طريق الدم، ليرعاهن، ثم ليتوقف عن رعاية أحد في نهاية الأمر.

إلا أن هذه الصداقة لم تدم طويلاً. كان القناق كبيراً وخرباً، وكانت أمها حادّة الطبع وعنيدة، لذلك تركت عاملة التنظيف العمل بعد فترة وجيزة، وأخذت ابنتها. وعندما لم يعد لها صديقة، التي كانت صداقتها مريبة في الواقع، انتاب زليخة شعور شديد بالاستياء، لكنها لم تعرف سبب ذلك ـ بسبب مغادرة عاملة التنظيف، أم بسبب أمّها التي جعلتها تترك العمل، أم بسبب صديقتها لأنها كانت تلعب على الجانبين، أم بسبب أختها الكبرى لأنها سرقت أختها في الدم، أم بسبب لله. وبما أنها لم تكن تستطيع أن تطال الآخرين، اختارت أن توجه اللوم إلى الله. وعندما أحست أنها كفرت وهي في هذا العمر المبكّر، رأت أنه لا يوجد سبب لا يجعلها أن تفعل ذلك بعد أن كبرت.

انضم إلى الأصوات صوت مؤذن منبعث من مسجد آخر. وتضاعفت أصداء آذان متعددة في الهواء، وكأنها ترسم دوائر داخل دوائر. وكان الشيء الغريب أنها شعرت بالقلق في هذه اللحظة، وهي في عيادة الطبيب، لأنها تأخرت على العشاء. تساءلت ماذا يمكن أن يكون على المائدة في هذا المساء، وأي أخت من أخواتها الثلاث قد طهت الطعام.

فقد كانت كلّ أخت من أخواتها تجيد طهي طبق معيّن، لذلك تستطيع أن تأمل في الحصول على طبق مختلف حسب الأخت التي طهت الطعام هذا اليوم. فقد كانت تشتهي محشي الفلفل الأخضر - وهو طبق معقد ودقيق للغاية، لأن كلّ واحدة من أخواتها كانت تعدّه بطريقة مختلفة. محشي... فلفل... أخضر. وبدأ تنفّسها يتباطأ، فيما بدأ العنكبوت يهبط. كانت لا تزال تحاول أن تحدّق في السقف، أحسّت زليخة بأنها هي وجميع الموجودين في الغرفة، لم يكونوا يشغلون الفضاء ذاته. فقد دخلت الآن إلى مملكة مورفيوس (إله الأحلام).

كان الجو ساطعاً جداً هنا، يكاد يكون براقاً ولامعاً. ببطء وبحذر، راحت تمشي على طول جسر يعجّ بالسيارات والمشاة، وبصيّادي السمك اللابثين في أماكنهم لا يتحركون والديدان تتلوى عند أطراف قصبات صيدهم. وفيما كانت تجول بينهم، وجدت أن كلّ بلاطة على الرصيف تضع قدمها عليها، كانت طليقة ومخلخلة، ولفزعها لم يكن تحتها سوى فراغ. وسرعان ما أدركت برعب شديد أن ما كان تحتها كان فوقها أيضاً، وكلما كانت السماء الزرقاء تمطر بلاطة، كان عدد بلاطات الرصيف يقلّ بلاطة. فوق في السماء، وتحت في الأرض، كان هناك الشيء نفسه: العد-م.

وفيما كانت البلاطات تمطر من الأعلى، كان التجويف من تحتها يزداد اتساعاً، فزعت، وخافت أن تبتلعها الهاوية الفاغرة فمها. «توقّفوا!» صاحت فيما ظلت الأحجار تتدحرج تحت قدميها. «توقّفوا! «قالت وهي تأمر السيارات المسرعة باتجاهها ثم تدهسها. «توقّفوا!» راحت تتوسل إلى المشاة الذين لم يعبأوا بها وكانوا يدفعونها بأكتافهم».

«أرجوكم توقّفوا!».

* * *

عندما أفاقت زليخة، وجدت نفسها وحدها في غرفة غير مألوفة، تشعر بالغثيان. كيف وصلت إلى هذا المكان كان لغزاً لم تكن ترغب في كشفه الآن. ولم تكن تشعر بشيء، لا ألم ولا حزن. لذلك خلصت في نهاية الأمر إلى أن شعورها باللامبالاة لا بد أنه هو الذي فاز في السباق. فلم تكن قد أجهضت طفلها فقط، بل أجهضت أحاسيسها أيضاً على تلك المنضدة ذات البياض النقي في الغرفة التالية. ربما كان ثمة أمل مشجع في مكان ما. لعلها تستطيع أن تذهب الآن لاصطياد السمك، لكي تتمكن أخيراً من أن تقف دون أن تأتي بحركة لساعات طوال دون أن يعتريها شعور بالإحباط، وكأن الحياة أرنب بري سريع تستطيع أن تراه من مسافة بعيدة، لكنها لا تستطيع أن تمسكه أبداً.

«ها قد عدت أخيراً!» كانت موظفة الاستقبال واقفة بجانب الباب، ويداها مستندتان إلى خصرها. «يا سبحان الله! لقد أرعبتنا! هل لديك فكرة كم كانت صرختك مدوية؟ كانت صرخة مرعبة».

كانت زليخة لا تزال مستلقية، لا يرمش لها جفن.

«لا بد أن الناس في الشارع ظنوا أننا نذبحك أو شيئاً من هذا القبيل... إني أتساءل لماذا لم تأت الشرطة!».

لأنك تتحدثين عن شرطة إستانبول، لا عن شرطي مفتول العضلات في فيلم أمريكي، قالت زليخة لنفسها، فيما تركت عينها تطرف أخيراً. كانت لا تزال عاجزة عن معرفة السبب الذي جعلها تزعج موظفة الاستقبال، لكنها لم تر سبباً في أن تزعجها مرة أخرى، فقدمت أول اعتذار خطر ببالها: «ربما صرخت لأنني شعرت بالألم...».

إلا أن هذا العذر، مهما كان مقنعاً، قد سُحق على الفور: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك يا آنسة، لأن الطبيب... لم يجر العملية. حتى أننا لم نلمسك».

«ماذا تقصدين. . .؟» تلعثمت زليخة، ولم تحاول أن تعرف الجواب أكثر من أن تفهم وزن سؤالها. «تقصدين. . . إنكم لم. . .».

«لا، فنحن لم. . .»، أطلقت موظفة الاستقبال تنهيدة، وأمسكت رأسها وكأن داء الشقيقة بدأ ينتابها. «بالتأكيد لم يكن بوسع الطبيب أن يفعل شيئاً معك وأنت تصرخين بأعلى صوتك. لم تفقدي وعيك يا امرأة، أبداً. في البداية كنت تهذين وتثرثرين، ثم بدأت تصرخين وتلعنين. لم أر في حياتي شيئاً كهذا خلال خمس عشرة سنة. لا بد أن المورفين استغرق ضعف الوقت لكي يسري مفعوله في جسدك».

شكّت زليخة بوجود شيء من المبالغة في كلامها، لكنها لم تكن ترغب في مجادلتها. فبعد مضي ساعتين على زيارتها إلى عيادة الطبيب النسائي، بدأت تدرك وجود مريضة يتوقّع ألا تتكلم إلا عندما يطلب منها ذلك.

«وعندما فقدت وعيك أخيراً، لم نصدق أنك لن تبدئي في الصراخ ثانية، وقال الطبيب لننتظر حتى يصفو عقلها. فإذا كانت متأكدة من أنها تريد أن تجهض، يمكنها أن تقرر ذلك في وقت لاحق. لقد أحضرناك إلى هنا وتركناك تنامين، وقد نمت فعلاً».

«هل تقصدين أنه لم يكن يوجد. . .». كان يبدو أنها لم تعد تستطيع الآن أن تقول الكلمة التي كانت قد قالتها بجرأة كبيرة أمام الناس الغرباء عصر هذا اليوم. لمست زليخة بطنها فيما راحت عيناها تبحثان عن عزاء يمكن أن تكون موظفة الاستقبال آخر شخص على وجه الأرض يمكنه أن يمنحه إياها. «إذن فهي لا تزال هنا. . .».

«حسناً، إنك لا تعرفين بعد إن كانت هي أو هو»، قالت موظفة الاستقبال، بصوت تقريري.

لكن زليخة كانت تعرف. ببساطة كانت تعرف.

ففي ذات يوم كانت تسير في الشارع رغم هبوط الظلام. كان الوقت يشبه فترة الصباح الأولى. وكان المطر قد توقّف عن الهطول وبدت الحياة جميلة ومطواعة. ومع أن حركة المرور كانت لا تزال في حالة شديدة من الفوضى، والشوارع مليئة بالوحل، منحت الرائحة الهشّة التي تنبعث بعد هطول المطر، المدينة كلها حلة مقدّسة. وكان الأطفال يخوضون هنا وهناك في البرك الطينية، يستمتعون بارتكاب معصية بسيطة. وإن كان ثمة وقت ملائم لارتكاب المعصية، فهو في هذه اللحظة العابرة، إحدى تلك اللحظات النادرة التي تشعر فيها أن الله لا يراقبنا فقط بل يرعانا ويهتم بنا أيضاً؛ إحدى تلك اللحظات التي تشعر بأنه قريب جداً منك.

وبدا وكأن إستانبول قد أصبحت عاصمة مفعمة بالسعادة، رائعة على نحو رومانسي، تماماً مثل باريس، قالت زليخة لنفسها، مع أنها لم تذهب في حياتها إلى باريس. حلّق نورس بالقرب منها ناقلاً لها رسالة مشفّرة كانت على وشك أن تفك رموزها. وفي نصف دقيقة، أصبحت زليخة وكأنها تقف على حافة بداية جديدة. «لماذا لم تتركاني أجهض، هل هو الله»؟ سمعت نفسها تهمهم، لكن ما أن خرجت الكلمات من فمها، حتى راحت تستغفر ربها بخوف شديد بسبب الذات الملحدة في نفسها.

استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله.

بعيداً وتحت قوس قزح، عادت زليخة وهي تسير ببطء شديد إلى البيت، ممسكة بصندوق كؤوس الشاي وبكعب حذائها المكسور، تشعر بكآبة أقل مما كانت تشعر بها منذ أسابيع.

* * *

وهكذا، في يوم الجمعة ذاك، أول يوم من أيام الجمعة من شهر تموز، عادت زليخة في حوالى الساعة الثامنة مساء إلى القناق ذي السقف العالي العثماني، الذي لم يكن يبدو أنه موجود في مكانه الملائم وسط

عمارات سكنية حديثة أطول منه بخمسة أضعاف على كلا الجانبين. وراحت تصعد الدرج المنحني بتثاقل، ووجدت جميع نساء عائلة قازانجي قد تحلقن حول مائدة العشاء العريضة في الطابق العلوي، وكن منهمكات في تناول طعامهن، ومن الواضح أنهن لم يجدن سبباً يجعلهن ينتظرنها.

«أهلاً بالغريبة! ادخلي، هيا انضمي إلينا وشاركينا العشاء»، هتفت بانو، وهي ترفع عنقها فوق جناح دجاجة مشوية بالفرن. «النبي محمد يطلب منا أن نتناول طعامنا مع الغرباء».

كانت شفتاها تلمعان، وكذلك خداها، وكأنها استغرقت وقتاً إضافياً لتمسح وجهها كله بدهن الدجاج، بل وحتى عيناها المتلألئتان الشبيهتان بعينيّ المها. وكانت تكبر زليخة باثنتي عشرة سنة، ويزيد وزنها عنها بخمسة عشر كيلو غراماً، وكانت تبدو وكأنها أمّها أكثر من كونها أختها. وإذا كان علينا أن نصدق بانو، فإنها تملك جهازاً هضمياً غريباً قادراً على تخزين كلّ شيء يبتلعه، وهو ادّعاء قد يصدقه المرء، لولا أنها تجادل أيضاً بأنها حتى لو شربت ماءً صرفاً، فإن جسمها سيحوّله إلى شحوم ودهون، لذلك لا يمكن أن يحملّها أحد مسؤولية زيادة وزنها، أو أن يطلب منها أن تبدأ حمية غذائية.

«احزري ماذا يوجد على مائدة اليوم؟» تابعت بانو كلامها جذلة، وهي تهزّ إصبعها أمام زليخة قبل أن تقبض بيدها جناح دجاجة آخر. «محشي فلفل أخضر!».

«لا بد أن هذا اليوم يوم سعد لي» قالت زليخة.

بدت أطباق اليوم رائعة. فبالإضافة إلى دجاجة ضخمة، كان هناك حساء اللبن، وبيلاكي، وكفتة بودو كادين من البارحة، ومخللات، وجوريك طازجة، وإبريق عيران، ونعم، محشي فلفل أخضر. وعلى الفور، سحبت زليخة كرسياً، إذ تغلب جوعها على عدم رغبتها الشديدة في مشاركة العائلة العشاء في أمسية هذا اليوم العصيب.

«أين كنت يا بنت؟» سألتها أمّها كلثوم متذمرة، التي لعلها كانت إيفان الرهيب في حياة سابقة. كوّرت كتفيها، ودفعت ذقنها إلى الأعلى، وقطّبت حاجبيها، ثم أدارت وجهها المقطب نحو زليخة، وكأنها ستتمكن بذلك من قراءة عقل أصغر بناتها.

وهكذا وقفتا هناك، كلثوم وزليخة، الأمّ وابنتها، الواحدة تعبس في وجه الأخرى، كلّ واحدة منهما مستعدة للشجار، لكنها لا تريد أن تبدأ الشجار. وكانت زليخة هي من أشاحت بوجهها عن أمّها. فقد كانت تعرف تماماً أنها سترتكب خطأً كبيراً إذا ما أطلقت العنان لغضبها في وجه أمّها، فأرغمت نفسها على أن تبتسم، وحاولت أن ترد عليها، ولو رداً غير مباشر.

«كانت هناك تخفيضات جيدة في البازار اليوم. اشتريت طقم كؤوس شاي. إنها رائعة تماماً! موشاة بنجوم مذهّبة، وملاعق صغيرة مطابقة لها».

«للأسف، إنها تنكسر بسهولة»، همهمت شكرية، الأخت الثانية الكبرى في عائلة قازانجي، ومعلّمة مادة التاريخ الوطني التركي في إحدى المدارس الثانوية الخاصة، وكانت تدأب على تناول وجبات طعام متوازنة صحّية، وتحرص على رفع شعرها بطريقة شينيون وتلفّه في مؤخرة رقبتها دون أن تترك شعرة واحدة طليقة.

«هل ذهبت إلى البازار؟ لماذا لم تشتري أعواد القرفة؟ لقد قلت لك هذا الصباح إننا سنصنع أطباقاً من الرز بالحليب اليوم ولم تتبق في البيت قرفة لنرشها عليها». عبست بانو وسط قضمتين من الخبز، لكن هذه المشكلة لم تشغلها لأكثر من جزء من الثانية. فقد كانت لديها نظرية في الخبز كانت مولعة بترديدها دائماً، وتطبّقها طوال الوقت، ومفادها أنك إذا لم تتناول كمية ملائمة منه في كلّ وجبة، فإن المعدة لن «تعرف» أنها امتلأت، ولذلك فهي تطلب المزيد من الطعام. فلكي تفهم المعدة أنها امتلأت تماماً، يجب على المرء أن يأكل كميات لا بأس بها من الخبز مع

كلّ شيء. لذلك، فإن بانو تتناول الخبز مع البطاطا، والخبز مع الرزّ، والخبز مع الباستا، والخبز مع البُرَكْ. وعندما تريد أن تعطي معدتها رسالة أكثر وضوحاً، فإنها تتناول الخبز مع الخبز. فالعشاء بدون خبز إثم مطلق، قد يغفره الله، أما بانو، فمن المؤكد أنها لن تغفره.

زمّت زليخة شفتيها وصمتت بعد أن تذكرت مصير أعواد القرفة. ولتحاشي السؤال، وضعت محشي الفلفل الأخضر في صحنها. وكانت تعرف بسهولة الأخت التي طهت محشي الفلفل: بانو أو شكرية أو فريدة. فإذا كانت بانو، سيكون ممتلئاً، وإن كانت تعوزه أشياء كثيرة كالفستق واللوز والكاشيو. أما إذا كانت فريدة، فسيكون ممتلئاً بالرزّ، وسترى أن حبة الفلفل الأخضر ممتلئة ومنتفخة ويستحيل تناولها إن لم تقطّعها إلى قطع صغيرة. وعندما يرافق ميل فريدة لحشي الفلفل حبّها للتوابل من جميع الأنواع، فإن الدولما ستكون مبهّرة بالأعشاب والتوابل. وحسب التوليفة، تستطيع أن تعرف إن كانت رائعة أم سيئة حقّاً. فعندما تطهو شكرية يكون الطعام دائماً أحلى، لأنها كانت تضيف السكّر المطحون إلى كلّ شيء يصلح للأكل مهما كان، وكأنها تريد أنّ تعوض عن الحموضة والمرارة اللتين تهيمنان على عالمها. وصادف أنها هي التي أعدت الدولما اليوم.

«كنت عند الطبيب. . .» دمدمت زليخة، وهي تزيل قشرة الدولما الخضراء الشاحبة بعناية.

«أطباء!» كشّرت فريدة، ورفعت شوكتها في الهواء وكأنها عصا تستخدمها لتشير إلى سلسلة جبلية بعيدة على الخريطة، وأن المستمعين إليها ليسوا أفراد عائلتها، بل طلابها في حصة الجغرافية. وكانت فريدة تعاني من مشكلة النظر في العين مباشرة، بل كانت تشعر بارتياح أكبر عندما توجه كلامها إلى أشياء. لذلك راحت تخاطب صحن زليخة: «ألم تقرئي الصحف هذا الصباح؟ لقد أجروا عملية زائدة دودية على طفل في

التاسعة من عمره، ونسوا مقصاً داخل جسمه. هل لديك فكرة كم عدد الأطباء في هذا البلد الذين يجب أن يزج بهم في السجن نتيجة الخطأ والإهمال الطبيين؟».

من بين جميع النساء في عائلة قازانجي، كانت فريدة أكثرهن اطلاعاً على العمليات الطبية. ففي السنوات الستّ الماضية، شخّص الأطباء أنها مصابة بثمانية أمراض مختلفة، كان كلّ منها يبدو أكثر غرابة من سابقه. ولا يعرف أحد إن كان الأطباء لم يتمكنوا من حسم أمرهم، أم أن فريدة نفسها كانت تختلق أمراضاً جديدة. وبعد فترة، لم يعد ذلك يهمها بأي شكل من الأشكال. فالصحة العقلية هي الأرض الموعودة، الشانغري ـ لا[1] التي انتُزعت منها عندما كانت مراهقة، والتي كانت تعتزم أن تعود إليها ذات يوم. وخلال رحلتها هذه، كانت تتوقف لتأخذ قسطاً من الراحة في محطات مختلفة ذات أسماء غريبة ومعالجات كئيبة.

حتى عندما كانت فتاة صغيرة، كان ثمة شيء غريب في فريدة. فقد كانت تلميذة صعبة المراس في المدرسة، ولم تكن تبدي اهتماماً بأيّ شيء سوى حصص الجغرافية الطبيعية؛ وفي حصص الجغرافية هذه، لم تكن تبدي اهتماماً إلا بعدد قليل من المواضيع، بدءاً من طبقات الغلاف الجوي. ومن المواضيع الأثيرة لديها كيفية حدوث ثقب الأوزون في طبقة الغلاف الجوي العليا، والربط بين تيارات المحيط السطحية والأنماط الجوّية. وقد تعلّمت كلّ شيء أمكنها أن تجمعه عن دور الطبقات العليا، وخصائص طبقات الغلاف الجوي الأوسط، ورياح الوديان وأنسام البحر، والدورات الشمسية، وخطوط العرض الاستوائية، وشكل وحجم الأرض. فكلّ شيء تحفظه عن ظهر قلب في المدرسة، كانت تأتي لتلقيه في

(١) الشانغري ـ لا رواية خيالية بعنوان «الأفق المفقود للكاتب البريطاني جيمس هيلتون في عام ١٩٣٣ (المترجم).

البيت، تتبّل كلّ حديث من أحاديثها بمعلومات عن المحيط الجوي. وفي كلّ مرة تظهر فيها معلوماتها في الجغرافية الطبيعية، كانت تتكلّم بحماس منقطع النظير، وتطفو في الأعالي فوق الغيوم، وتقفز من طبقة جوّية إلى أخرى. وبعد سنة من تخرّجها، بدأت فريدة تبدي سلوكاً غريباً، ورغبة في العزلة والانفراد.

ومع أن اهتمام فريدة بالجغرافية الطبيعية لم يتضاءل في الوقت الملائم، بل أوحى إليها بدائرة أخرى من الاهتمام كانت تجد متعة كبيرة فيها: الحوادث والكوارث. ففي كلّ يوم، كانت تنكبّ على قراءة الصفحة الثالثة من الصحف الشعبية. حوادث السيارات، جرائم القتل المتسلسلة، والأعاصير، والزلازل، والحرائق، والفيضانات، والأمراض القاتلة، والأمراض المعدية، والفيروسات غير المعروفة... كانت فريدة تقرأ كلّ هذه الأشياء. وكانت ذاكرتها الانتقائية تستوعب الكوارث المحلية والوطنية والدولية لكي تنقلها للآخرين من حيث لا يحتسبون. ولم يكن يستغرق الأمر طويلاً لكي تضفي الكآبة على أي حديث، وتجعله كئيباً قاتماً، لأنها منذ ولادتها كانت تنحو لأن ترى المآسي في كلّ قصة، وتختلق قصصاً عندما لا يكون فيها شيء من المآسي.

بيد أن الأخبار التي كانت ترويها لم تكن تزعج الآخرين، مع أن أحداً لم يعد يصدقها منذ زمن بعيد. فقد فهمت عائلتها إحدى سبل التعامل مع الجنون، وهو عدم تصديقها.

قال الأطباء في البداية إن فريدة مصابة بـ «قرحة الإجهاد». ولم يأخذ أحد في العائلة هذا التشخيص على محمل الجد لأن كلمة «الإجهاد» كانت قد أصبحت موضة وتتكرر على كلّ شفة ولسان. فما إن أُقحمت عبارة «الإجهاد» في الثقافة التركية، حتى لقيت ترحيباً حاراً من سكان إستانبول جميعهم، وعلى الفور ظهر عدد لا يحصى من الأشخاص المصابين «بالإجهاد» في المدينة. وما فتئت فريدة تتنقل من مرض له علاقة بالإجهاد

إلى مرض آخر، واكتشفت رحابة الأرض وسعتها بعد أن وجدت أنه لا يوجد ثمة شيء لا يرتبط بالإجهاد. ثم أخذت تتنقل بين الاضطراب الاستحواذي القهري، وفقدان الذاكرة اللا ترابطي، والكآبة الذهانية. وبعد أن تمكنت من تسميم نفسها، قال الأطباء إنها مصابة بمرض يدعى «نبات العنب الحلو المرّ»، وهو أكثر الأسماء التي أعجبتها من بين جميع الأمراض التي أصيبت بها.

وفي كلّ مرحلة من رحلتها إلى الجنون، كانت فريدة تغيّر لون شعرها وتصفيفته، إلى درجة أن الأطباء، في سعيهم لتتبع التغيرات الحاصلة في نفسيتها، وضعوا جدولاً بيانياً يرصد حركة شعرها: قصير، متوسط الطول، طويل جداً، وفي إحدى المرات حلقت شعرها بالكامل، وكانت تجعله في بعض الأحيان منتصباً كالقنفذ، أو منبسطاً منسدلاً، أو ذا نهايات مدبّبة، أو بضفائر، وكان يحمل أطناناً من بخاخ الشعر، والجِل، والشمع، أو مراهم التصفيف والتثبيت الأخرى، أو مشابك الشعر والمجوهرات، أو أشرطة الزينة؛ ثم تجعله في قصّة البانك، وتجعله في شكل كعكة مثل راقصات البالية، تلوّنه وتصبغه بجميع الألوان الممكنة. كانت جميع تصفيفات شعرها حوادث عابرة، أما مرضها فقد ظل ثابتاً ومستقراً.

وبعد فترة طويلة من المكوث في مرض «الاضطراب الاكتئابي الرئيسي»، انتقلت فريدة إلى «الحدود» ـ وهو اصطلاح أخذت كل واحدة في عائلة قازانجي تفسّره على طريقتها. فقد فسّرت أمّها كلمة «الحدود»، بأنها مشكلة ترتبط بالشرطة وبموظفي الجمارك، مما يعني البحث عن «مجرم غريب» يقبع في شخص فريدة. لذلك بدا ارتيابها يزداد بهذه الفتاة المخبولة، التي لم تكن تثق بها في المقام الأول. وبتضاد واضح، كان مفهوم «الحدود» بالنسبة لأخوات فريدة يستدعي بشكل رئيسي فكرة الحافة، وقد استدعت فكرة الحافة إلى الأذهان صورة جرف قاتل. لذلك رحن يعاملنها لفترة طويلة بحرص شديد، كما لو أنها كانت تسير في نومها

فوق جدار يعلو عدة أمتار، وقد تهوي من فوقه في أي لحظة. أما بالنسبة للجدة ما -الهيفاء، فكانت كلمة «حدود» تستدعي فكرة تشذيب عريشة العنب، وكانت قد درست حفيدتها باهتمام وتعاطف شديدين.

وكانت فريدة قد هاجرت مؤخراً إلى تشخيص آخر لا يمكن لأحد أن يلفظه، ناهيك عن الجرأة وتفسيره وهو: «خبل البلوغ، أو الفصام المسلكي الصبياني والإصابة بالهلوسة والأوهام». ومنذ ذلك الحين، ظلت وفيّة للمصطلحات الجديدة، وكأنها رضيت أخيراً بالاسم الذي تبحث عنه. ومهما كان التشخيص، فقد عاشت فريدة وفق قواعد عالم الخيال الخاص بها، الذي لم تطأ قدمها خارجه على الإطلاق.

أما في أول يوم جمعة من شهر تموز، فلم تعر زليخة أي اهتمام لكراهية أختها المعروفة تجاه الأطباء. فما إن بدأت تأكل، حتى أدركت كم كانت جائعة طوال النهار. وبشكل يكاد يكون آلياً، تناولت قطعة من «برك الجبنة»، وصبّت لنفسها كأساً من العيران، ووضعت قطعة دولما خضراء أخرى في صحنها، وأفصحت عن المعلومة الحبيسة في داخلها: «لقد ذهبت إلى الطبيب النسائي اليوم...».

«الطبيب النسائي!» كرّرت فريدة على الفور، لكنها لم تبدي أي تعليق محدد. فقد كان الأطباء النسائيون هم الفئة الوحيدة التي لم تكن لديها معهم تجربة مهمة.

«ذهبت إلى الطبيب النسائي اليوم لأجري عملية إجهاض»، أكملت زليخة جملتها دون أن تنظر إلى أحد.

سقط جناح الدجاجة من يد بانو وأطرقت برأسها وراحت تنظر إلى قدميها وكأن لهما علاقة بهذا الأمر؛ وزمّت شكرية شفتيها بشدّة؛ وصرخت فريدة ثم أطلقت العنان لنوبة من الضحك؛ وأخذت أمّهن تفرك جبينها بتوتر، وبدأت تشعر بأول موجة من اقتراب صداع فظيع؛ أما ما -

الهيفاء فقد واصلت تناول حساء اللبن. وربما يعزى ذلك لإصابتها بالصمم التام في الأشهر الأخيرة. أو ربما لأنها كانت تعاني أيضاً من مراحل الخرف المبكّرة. أو ربما لأنها بكل بساطة لم تر شيئاً يستحق إحداث جلبة بشأنه. فمع الجدة ما -الهيفاء، لا يمكنك أن تعرف شيئاً على الإطلاق.

«كيف يمكنك أن تقتلين طفلك؟» سألت شكرية بوجل.

«إنه ليس طفلاً»، قالت زليخة باستهجان، «ففي هذه المرحلة، فأنا أفضّل أن أسميه قُطيرة. فهذا أدقّ علمياً».

«علمياً! إنك لا تعرفين شيئاً عن العلم، إنك لا تعرفين الشفقة»، وانفجرت شكرية في البكاء، وأردفت: «إنك قاسية، عديمة الرحمة! هذا هو أنت».

«حسناً، لديّ أخبار جيدة إذن. لم أقتل. . .ه ـ ها -أياً كان»، التفتت زليخة نحو أختها بهدوء: «لا لأنني لم أرد أن أفعل ذلك. بل كنت أريد ذلك! فقد حاولت أن أجهض تلك القطيرة إلا أن هذا لم يحدث».

«ماذا تقصدين؟» سألت بانو.

ارتدت زليخة وجهاً شجاعاً، وقالت دون أن تغيّر نبرة صوتها: «لقد أرسل لي الله رسالة»، وكانت تعرف أنها يجب ألا تقول هذا لأسرتها، لكنها قالته في جميع الأحوال. «كنت مستلقية مخدّرة، وكان الطبيب يقف إلى جانب، والممرضة تقف إلى الجانب الآخر. وكانت العملية ستبدأ بعد بضع دقائق، وكان الجنين سيولّي إلى غير رجعة! لكني ما أن أوشكت على أن أغيب عن الوعي فوق طاولة العمليات تلك، حتى سمعت صوت آذان العصر من مسجد قريب. . . كان الصوت ناعماً رخيماً، مثل قطعة من المخمل، غلّفت جسدي كله. وما أن انتهى الأذان، حتى بدأت أسمع همهمة وكأن أحداً يهمس في أذني: «يجب ألا تقتلي هذا الطفل».

جفلت شكرية، وأخذت فريدة تسعل بعصبية في منديل المائدة،

وغضّت بانو، وعبست كلثوم وتجهم وجهها. وبقيت ما ـ الهيفاء فقط شاردة في أرض الأحلام، بعد أن أنهت حساءها، وراحت تنتظر باستسلام وصول طبقها التالي.

«ثم. . .» واصلت زليخة قصتها، «وأمرني هذا الصوت الغامض: «أووووووو زليخة! أووووو زليخة، أيتها القاتلة في عائلة قازانجي التقية الورعة! دعي هذا الطفل يعيش! فأنت لا تعرفينه بعد، لكنه سيصبح زعيماً. هذا الطفل سيكون ملكاً».

«هذا غير ممكن»، قاطعتها المعلّمة شكرية، ولم تضع الفرصة لإظهار خبرتها، «فلم يعد هناك ملوك، إننا أمة حديثة».

«أووو أيتها الخاطئة، هذا الطفل سيحكم الآخرين» واصلت زليخة، متظاهرة بأنها لم تسمع الدرس. «ليس هذا البلد فقط، وليس الشرق الأوسط ودول البلقان جميعها فقط، بل العالم بأسره سيعرف اسمه. طفلك هذا سيقود الجماهير، وسينشر السلم والعدل بين البشر».

توقّفت زليخة قليلاً لتأخذ نَفَساً.

«على كل حال، فإني أزفّ لكم جميعكم هذا الخبر السعيد! فما زال الطفل في بطني! وبعد فترة قصيرة، سنضيف صحناً آخر على هذه المائدة».

«لقيط!» صاحت كلثوم. «أتريدين أن تجلبي إلى هذه العائلة طفلاً بدون زواج. لقيط!».

انتشر تأثير الكلمة، مثل حصاة ألقيت في مياه راكدة.

«العار عليك! إنك تجلبين دائماً العار إلى هذه العائلة»، لوت كلثوم وجهها بغضب. «انظري إلى الحلقة في أنفك. . . كلّ هذا المكياج والتنانير القصيرة المثيرة للقرف، وأوه، وتلك الأحذية ذات الكعوب العالية! هذا ما يحدث عندما تتأنقين في ملبسك. . . مثل عاهرة! يجب أن

تحمدي الله ليلاً ونهاراً؛ يجب أن تكون ممتنة لأنه لا يوجد رجال في هذه العائلة. فلو كانوا موجودين لذبحوك».

لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. ربما ليس الجزء المتعلق بالقتل، بل الجزء المتعلق بعدم وجود رجال في العائلة. فقد كان هناك رجال. في مكان ما. لكن صحيح أيضاً أن عدد الرجال يقلّ كثيراً عن عدد النساء في عائلة قازانجي. وكأن عيناً حسودة وشرّيرة أصابت السلالة برمتها. إذ كانت أجيال بعد أجيال من رجال عائلة قازانجي يلقون حتفهم وهم شباب وبشكل مفاجئ. فقد سقط زوج ما ـ الهيفاء مثلاً، رضا سليم قازانجي، فجأة ميتاً وهو في الستين، ولم يعد قادراً على التنفس. وفي الجيل التالي، مات ليفينت قازانجي إثر نوبة قلبية قبل أن يبلغ الحادية والخمسين، حاذياً حذو أبيه وجدّه لأبيه. وأصبح يبدو وكأن فترة حياة الرجال في العائلة أخذت تقصر وتقصر مع كلّ جيل.

وكان هناك أحد أخوال أمها الذي هرب مع مومس روسية سلبته كلّ أمواله، ومات متجمداً في سانت بطرسبرغ؛ وانتقل قريب آخر إلى مثواه الأخير بعد أن صدمته سيارة وهو يحاول عبور الطريق السريع عندما كان مفرطاً في السكر؛ ومات أبناء الأخ وهم في العشرينيات من أعمارهم، إذ غرق أحدهم وهو يسبح سكراناً تحت ضوء البدر، ومات آخر بعد أن أصيب برصاصة في صدره كان قد أطلقها أحد الرعاع مبتهجاً بفوز فريق كرة القدم الذي يؤيده بالكأس، ومات ابن أخ آخر بعد أن سقط في خندق عمقه ستة أقدام كانت البلدية قد حفرته لترميم المجاري في الشارع. وهناك ابن عم ثان، ضياء، أطلق النار على نفسه، لسبب مجهول.

جيلاً بعد جيل، وكأنهم كانوا يمتثلون لقاعدة غير مدوّنة، كان الرجال في شجرة عائلة قازانجي يموتون في سن الشباب. وكان أعلى عمر وصل إليه أحدهم في هذا الجيل هو الحادية والأربعين. ولكي لا يتكرّر هذا النمط في رجال العائلة، حرص أحد أعمام الأب على أن يعيش حياة

صحّية، فامتنع عن الإفراط في الطعام، وعن ممارسة الجنس مع المومسات، وعن الاحتكاك بالرعاع، وعن احتساء الكحول والمشروبات المسكرة الأخرى، وانتهى به الأمر أن سقطت فوقه كتلة خرسانية من موقع بناء صادف أنه كان يمرّ من تحته. وهناك جلال، أحد أبناء العمّ البعيدين، الذي كان حبّ حياة شكرية والزوج الذي فقدته في مشاجرة. فلأسباب ما زالت غير واضحة، حُكم على جلال بالسجن لمدة سنتين بتهمة الرشوة. وخلال هذه الفترة القصيرة من وجود جلال في العائلة، الذي انحصر في الرسائل القليلة التي كان يرسلها من السجن، والتي كانت تتسم بالغموض الشديد وبالبعد إلى درجة أنه عندما وصل نبأ موته، وقع الخبر على الجميع باستثناء زوجته، وكأنك فقدت ذراعاً ثالثة، ذراعاً لم تكن موجودة لديك أصلاً. فقد غادر هذه الحياة في مشاجرة، لا بضربة أو لكمة وجهت إليه، بل لأنه وطأ سلكاً كهربائياً ذا فولطية عالية فيما كان يبحث عن مكان أفضل ليتفرج على السجينين الآخرين وهما يتبادلان اللكمات. وبعد أن فقدت شكرية حبّ حياتها، باعت بيتهما وانضمت إلى بيت عائلة قازانجي كمعلّمة تاريخ ثقيلة الظلّ، تتمتع بإحساس إسبارطي من الانضباط وضبط نفس. كما شنّت معركة ضروساً ضد الانتحال والغش في المدرسة، وأخذت على عاتقها شنّ حملة ضد التهور والطيش والعفويّة في البيت.

وكان هناك صباح الدين، زوج بانو العطوف، الطيب القلب، الجيد الطباع، لكن المتواضع إلى درجة كبيرة. ومع أنه لم يكن واحداً من أقارب الدم، فقد كان يتمتع بصحة جيدة ورقيق القلب. ومع أنهما كانا متزوجين على الورق فقط، باستثناء فترة وجيزة أعقبت شهر العسل، كانت بانو تمضي وقتاً في قناق عائلتها، أكثر مما كانت تمضيه في بيتها مع زوجها. وكان تباعدهما الجسدي ملحوظاً للغاية إلى درجة أنه عندما أعلنت بانو أن بطنها أضحت ثقيلة بطفلين توأمين، راح الجميع يضحكون ويسخرون من استحالة حدوث الحمل من الناحية العملية. ومع ذلك فقد أصاب المصير

المشؤوم الذي ينتظر جميع الرجال في عائلة قازانجي التوأم في سن مبكّرة. وبعد أن فقدت طفليها نتيجة إصابتهما بأحد أمراض الطفولة، انتقلت بانو للإقامة بشكل دائم في بيت العائلة، وأصبح زوجها يزورها بين الحين والآخر في السنوات التالية. وكانت بين الفينة والفينة تزوره لتطمئن عليه، كغريبة قلقة أكثر من كونها زوجة محبّة.

وبالطبع كان هناك مصطفى، الابن الوحيد في هذا الجيل، الجوهرة التي أورثها الله هذه العائلة بعد أربع بنات، والذي كان ثمرة رغبة ليفانت قازانجي الشديدة في إنجاب صبي يحمل اسم العائلة. وهكذا نشأت الأخوات قازانجي الأربع وهن يشعرن بأنهن مجرد زائرات غير مرغوب فيهن. فقد كان أول ثلاثة أطفال فتيات. وكانت بانو وشكرية وفريدة يشعرن وكأنهن مقدمة لمجيء الشيء الأصيل، مقدمة عرضية في حياة أبويهن الجنسية، اللذين كانا عازمين على إنجاب صبي. أما زليخة، الطفلة الخامسة، فقد كانت تعلم أن أبويها كانا يأملان بأن يضرب الحظ ضربته معهما مرة أخرى. فبعد أن أنجبا صبياً أخيراً، كانا يريدان أن يريا إن كانا محظوظين في إنجاب صبي آخر.

منذ أول يوم ولد فيه مصطفى، أُعتبر درة نفسية في العائلة. واُتخذت سلسلة من الإجراءات لحمايته من المصير المشؤوم الذي ينتظر جميع الرجال في شجرة العائلة. فعندما كان رضيعاً، أحيط بالخرزات الزرق والأحجبة لدرء العين الشريرة عنه؛ وكانت العيون مسمّرة عليه عندما أصبح طفلاً يحبو، وأرسل شعره طويلاً مثل فتاة حتى بلغ الثامنة من عمره وذلك لتضليل عزرائيل، ملاك الموت. وعندما كان يريد أحد أن يخاطب الطفل، «البنت» كانوا يقولون له: «يا بنت، تعالي إلى هنا»، ومع أن مصطفى كان طالباً جيداً، دُمّرت معظم حياته في المدرسة الثانوية لعدم قدرته على الاختلاط بالآخرين. فقد كان ملكاً في بيته، وكان يبدو أنه يرفض أن يكون ملكاً بين ملوك كثيرين في قاعة صفه في المدرسة. ومع مرور الزمن، لم يعد أحد من زملائه يحبه، إلى درجة أنه عندما أرادت كلثوم أن

تقيم حفلة لمصطفى وأصدقائه بمناسبة تخرّجهم، لم يجدوا أحداً يوجهون إليه الدعوة.

كان شخصاً غير اجتماعي ومتغطرساً خارج بيته، ومدللاً بشكل لا يقبل الجدل مثل ملك متوّج في البيت، ومع مرور كلّ سنة، كنّ يخشين دنو الموت منه شأن جميع رجال عائلة قازانجي، إلى أن خطرت لهن فكرة جيدة وهي أن يرسلن مصطفى إلى الخارج. وبعد شهر واحد، باعت الجدة ما ـ الهيفاء مجوهراتها لجمع المبلغ المطلوب، وفي الثامنة عشرة من عمره، غادر ابن عائلة قازانجي إستانبول إلى أريزونا، حيث التحق بالجامعة ليدرس الهندسة الزراعية والنظم البيولوجية بأمل أن يعيش ليرى شيخوخته.

لذلك، عندما وبّخت كلثوم زليخة في يوم الجمعة ذاك، أول جمعة من شهر تموز، تطلب منها أن تكون ممتنة لعدم وجود رجال في العائلة، كان ثمة شيء من الحقيقة في هذا الكلام. ورداً عليها، لم تفه زليخة بكلمة، بل توجهت إلى المطبخ لتبحث عن الذكر الوحيد في البيت، وهو القطّ الفضي المبرقع النهم الذي لا يشبع أبداً، والذي كان مولعاً على نحو غير عادي بالماء، والمصاب بأعراض كآبة وتوتر اجتماعية كثيرة، التي يمكن تفسيرها في أفضل الأحوال بأنه مستقل، وفي أسوأ الأحوال، بأنه عصابي. وكان اسمه الباشا الثالث.

تمكنت أجيال القطط في قناق عائلة قازانجي بنجاح في أن تتناسل وفي أن تنجب سلالة بعد أخرى كالبشر؛ وكان جميع أفراد العائلة يكنّون لهذه القطط مودّة بدون استثناء، وبخلاف البشر، لم تكن تجرفها من هذه الدنيا سوى الشيخوخة. ومع أن كلّ قطّة كانت تحتفظ بشخصيتها المتميزة، كان ثمة مورّثان اثنان متنافسان يجريان في السلالة القطيّة في البيت. فمن ناحية، كانت هناك المورّثة «النبيلة» الواردة من القطة الفارسية البيضاء بلون البودرة، ذات الشعر الطويل، والأنف الأفطس، التي كانت

ما ـ الهيفاء قد أحضرتها معها عندما كانت عروساً شابّة في أواخر العشرينيات من القرن العشرين («لا بد أن القطة هي المهر القليل الذي حصلت عليه»، كانت النساء في الحيّ يقلن ساخرات). ومن الناحية الأخرى، كانت هناك مورّثة «الشارع» التي لا يعرف أحد من أين جاءت، لكن من الواضح أنها جاءت من قطة شارع بنية اللون مائلة للاصفرار، تمكنت على ما يبدو من التزاوج مع القطة الفارسية البيضاء في اليوم الذي هربت فيه من البيت. وجيلاً بعد جيل، وكأنها تتناوب على ذلك، كانت إحدى الميزات الوراثية تسود في العائلة القطيّة التي ولدت تحت هذا السقف. وبعد فترة، توقفت عائلة قازانجي عن الاهتمام بإيجاد أسماء بديلة، بل راحت تتبع شجرة النسب القطيّة. فإذا كانت الهرّة تشبه سليلة النسب الأرستقراطي، بيضاء ومكسوة بالفرو، وذات أنف أفطس، كانوا يسمونها على التوالي، الباشا الأول، الباشا الثاني، الباشا الثالث. . . . أما إذا كانت تنتمي إلى سلالة قطة الشارع، فكانوا يطلقون عليها اسم «سلطان» ـ اسم أرفع مقاماً، ويشير إلى الاعتقاد بأن قطط الشارع أرواح حرة تحكم ذاتها، وليست بحاجة لأن تداهن وتتزلف أحداً.

وحتى الآن، كان امتياز الاسم، بدون استثناء، ينعكس في شخصيات القطط التي تعيش تحت هذا السقف. فقد تبين أن القطط التي تنتمي إلى طبقة النبلاء من النوع المنعزل، المحتاج، الهادئ، تلعق نفسها باستمرار، تمحي أي أثر لأي اتصال إنساني بها عندما يربت عليها أو يمسدها أحد؛ أما المجموعة الثانية، فكانت من النوع الفضولي والأكثر قوة ونشاطاً التي تجد متعة في وسائل ترف غريبة، مثل تناول الشوكولاتة.

وكان الباشا الثالث يجسّد مزايا وخصائص نسبه العريق، وكان دائماً يمشي متبختراً وبأبهة، وكأنه كان يسير على أطراف أصابعه فوق زجاج مكسور. وكان يشغله أمران أثيران لديه، كان يمارسهما في كلّ مناسبة وهما: قضم أسلاك الكهرباء، ومراقبة الطيور والفراشات، وكان يشعر

بالكسل لمطاردتها. فربما شعر بالتعب إذا طاردها، أما قضم الأشرطة ومراقبة الطيور والفراشات فلم يكن يكلّ أو يملّ من ممارستهما. فقد قضم، أو كشط، أو بعج جميع الأسلاك الكهربائية في البيت ما لا يقل عن ثلاث مرات. ووصل الباشا الثالث إلى سن الشيخوخة المتقدمة رغم الصدمات الكهربائية الكثيرة التي تعرض لها.

«هيا، يا باشا، أيها الولد الجيد». راحت زليخة تطعمه قطعاً من جبنة الفيتا، التي يحبها كثيراً. ثم وضعت مئزراً وراحت تنظف تلالاً من القدور والمقالي والصحون. وعندما أنهت الصحون وهدّأت نفسها، عادت إلى مائدة العشاء، حيث وجدت كلمة «لقيط» لا تزال معلقة في الهواء، وأمّها لا تزال متجهمة.

لبثن جميعهن جالسات دون أن يأتين بأي حركة، إلى أن تذكرت إحداهن الحلوى. فعبقت رائحة حلوة لطيفة في الغرفة عندما بدأت شكرية تصبّ الرزّ بالحليب من قدر ضخم في أطباق صغيرة. وفيما واصلت شكرية توزيع الأطباق وكأنها تتصدق عليهن، تبعتها فريدة، وراحت ترشّ جوز الهند المبشور فوق كلّ طبق.

«كان من الأفضل بكثير لو أضيفت له القرفة»، قالت بانو وكأنها تنتحب، «كان يجب ألا تنسي أن تشتري القرفة...».

مالت زليخة إلى الوراء في كرسيها، ورفعت أنفها إلى الأعلى وأخذت نفساً عميقاً وكأنها كانت تسحب نفساً من سيجارة غير مرئية. وعندما بدأت تزفر شعورها بالإعياء شيئاً فشيئاً، أحسّت بأن لا مبالاة «اليويو» أخذ يتباطأ ويتراخى ثانية. غاصت روحها تحت ثقل كلّ ما حدث، وكلّ ما لم يحدث في هذا اليوم الطويل والجهنمي. مسحت بعينيها مائدة العشاء، وأحست بالذنب عندما رأت صحون الرزّ بالحليب مكسوة برقائق جوز الهند. ثم، ودون أن تحوّل نظرتها، همهمت بصوت رقيق، لم يبد أنه صوتها على الإطلاق.

«أنا آسفة...»، قالت: «أنا آسفة جداً».

٢

حمّص

إن السوبر ماركت مكان خطير مليء بالأفخاخ للقانطين والمنبهرين، أو هكذا قالت روز لنفسها وهي تشق طريقها إلى قسم حفاضات الأطفال، بعد أن عزمت هذه المرة على ألا تشتري شيئاً ليست بحاجة إليه حقاً. كما أن هذا ليس وقتاً للعبث والتسكع. فبعد أن تركت ابنتها الصغيرة في السيارة عند موقف السيارات، بدأ القلق يعتريها الآن. فقد كانت تفعل أحياناً أشياء سرعان ما تندم على القيام بها، لكنها لم تكن تستطيع أن تتراجع عنها. وقد تكررت هذه الحوادث إلى درجة مرعبة في الأشهر القليلة الماضية ـ لكي نكون أكثر دقة، ثلاثة أشهر ونصف الشهر. ثلاثة أشهر ونصف الشهر من الجحيم على الأرض وهي تقاوم، تكافح، تصيح، ترفض، تتوسل، وأخيراً استسلمت مذعنة لوضع حد لزواجها. فقد يكون الزواج حماقة عابرة يخدعك، ويجعلك تعتقدين أنه سيكون زواجاً أبدياً، لكن يصعب أن تقدّري هذه الدعابة عندما لا تكوني أنت من يضع حداً له. ففي الواقع، يجب أن يستمر الزواج ويسير ببطء إلى أن يصاب بنكسة لا رجعة فيها، مانحاً انطباعاً زائفاً بأنه لا يزال هناك أمل، حتى تفهمين أنه ليس الأمل بأن تعيشين حياة أفضل، بل الأمل بأن تنتهي المعاناة لكليكما، إلى أن يمضي كلّ منكما في حال سبيله. وأن تذهب في حال سبيلها، كان هذا تماماً ما قررت أن تفعله روز بدءاً من هذه اللحظة. فإذا كان هذا كله

أشبه بنفق من المعاناة التي أرغمها الله على أن تمر زاحفة عبره، فهي لن تخرج منه هذه المرة، تلك المرأة الضعيفة التي كانت في الماضي.

وكدلالة على عزمها وتصميمها، حاولت روز أن تطلق ضحكة خافتة، إلا أنها كبتتها ولم تجعلها تتجاوز حنجرتها. وبدلاً من ذلك أطلقت تنهيدة، تنهيدة تشي بقلق أكثر مما كانت تنوي، وذلك لأنها وصلت إلى القسم الذي لم تكن ترغب في أن تأتي إليه، قسم الحلوى وألواح الشوكولاته. وعندما مرت من أمام رفوف الشوكولاتة الداكنة الخالية من السكّر ذات طعم الفانيلا المخصصة للذين يراقبون الكربوهيدرات في طعامهم، توقفت على الفور. تناولت لوحاً، لوحين. . .ثلاثة ألواح، خمسة ألواح. لا لأنها كانت تراقب الكربوهيدرات في غذائها، بل لأنها كانت تحب هذه العبارة، أو بدقة أكبر، كانت تحبّ إمكانية أن تراقب شيئاً، أي شيء، وخاصة بعد أن أُتهمت مراراً بأنها ربّة بيت فاشلة، وأمّ شنيعة. لكن روز كانت متحمسة لإثبات العكس بأي وسيلة ممكنة.

وبلمح البصر غيّرت روز وجهة العربة، لكنها وجدت نفسها في قسم آخر من أقسام الأطعمة الرخيصة. بحق الجحيم أين هو قسم حفاضات الأطفال؟ ثم وقعت عيناها على كومة من ألواح جوز الهند المحمّص، وكان الشيء التالي الذي عرفته هو أنه أصبح يقبع في عربتها رزمة، رزمتان. . . ستّ رزم. لا، يا روز، لا تفعلي ذلك. . . فبعد ظهر هذا اليوم التهمتِ ربع غالون كامل من الآيس كريم من نوع كرز غارسيا. . . لقد ازداد وزنك كثيراً. . . وإن كان هذا تحذيراً داخلياً، فإنه لم يصل بصوت مسموع. لكنه كان يضغط على زرّ من الإحساس بالذنب في بقعة ما من لا وعي روز، ليجعل صورة عن نفسها تنبثق في مخيلتها. ولوهلة، توقفت وراحت تحدّق في صورتها المنعكسة في مرآة خيالية، مع أنها تمكنت بمهارة من تحاشي المرآة الحقيقية القابعة وراء رفوف الخسّ الصغير. وبقلب حزين أخذت تنظر إلى ردفيها ووركيها التي ازدادت اتساعاً

وعرضاً، لكنها كانت لا تزال تستطيع أن تبتهج من أجل عظام وجنتيها المرتفعة، وشعرها الأشقر الذهبي، وعينيها الزرقاوين، وأذنيها الجميلتين! فالأذن جزء من جسم الإنسان يمكن الوثوق به. فمهما ازداد وزنك، تظل الأذنان على حالهما، وفيّتان دائماً.

لكن للأسف ليس هذا هو الحال مع باقي أجزاء جسم البشر. ويمكن إطلاق أي اسم على شكل جسد روز، إلا أنه لا يمكن تسميته جسداً وفياً على الإطلاق. فقد مرّ جسدها بسرعة في مراحل عديدة إلى حد أنها لم تعد تستطيع أن تصنّفه، كما تصنّف «مجلة الحياة الصحية» أشكال الجسم لجمهور قارئاتها. فإن كانت تنتمي إلى فئة «شكل الأجاص» مثلاً، فيجب أن يكون وركاها أعرض من كتفيها. وإن كانت تنتمي إلى «شكل التفاحة»، فستكون عرضة لزيادة الوزن عند البطن والصدر. وبما أن لديها صفات شكل الأجاصة والتفاحة معاً، لم تعرف روز بدقة إلى أي صنف تنتمي، إلا إذا كانت هناك فئة أخرى لم يرد ذكرها في هذه التصنيفات مثل «شكل المانغا»، التي تكون ممتلئة في جميع أنحاء الجسم، وتكون أكثر اكتنازاً في الجزء السفلي. يا إلهي، قالت لنفسها. عليها أن تفقد هذه الباوندات الإضافية. فبعد أن انتهى جحيم فصل الطلاق هذا، ستصبح امرأة جديدة. بالتأكيد، قالت لنفسها. وكانت كلمة «بالتأكيد» الكلمة التي دأبت روز على استخدامها بدلاً من كلمة «نعم». فبدلاً من أن تقول «لا»، كانت تقول «بالتأكيد لا».

استحوذت على روز فكرة أن تفاجئ زوجها السابق وعائلته الكبيرة الممتدة بالمرأة الجديدة التي ستصبحها قريباً، وجالت عيناها رفوف الممر. ثم امتدت يدها إلى الحلوى والسكاكر ـ «سكاكر منخفضة السكّر وخالية من الزبدة»، «ستاربورست بطعم الفاكهة»، «رقائق عرق السوس الأسود». وما أن ألقت بهذه الأشياء في العربة، حتى أخذت تغذّ الخطى وكأن أحداً يطاردها. لكن لا بد أنه كان لاستسلامها للحلوى بهذا الشكل

تأثير قوي على ضميرها المعذّب، لأنها سرعان ما كانت تجد نفسها تكافح بإحساس عميق من الندم. كيف يمكنها أن تترك طفلتها وحيدة داخل السيارة؟ مع أنها كانت تسمع كلّ يوم في التلفزيون أخباراً عن اختطاف طفلة من أمام بيتها، أو عن أمّ اُتهمت بتعريض طفلتها للخطر. . . ففي الأسبوع الماضي، أضرمت امرأة من تاسكون بولاية أريزونا النار ببيتها، وكادت تودي بحياة طفليها اللذين كانا نائمين داخل البيت. وإذا ما حدث لها شيء قريب من هذا، قالت روز لنفسها، فإن حماتها ستصاب بالهلع. وعلى الفور سترفع شوشان، الأمّ المهيمنة، حاكمة الأسرة، ذات النفوذ، وذات القدرة الكلية، دعوى لضم حفيدتها إلى رعايتها.

في غمرة هذه السيناريوهات الكئيبة، سرت في جسد روز رجفة. صحيح أنها بدأت تسرح في آرائها قليلاً في الآونة الأخيرة، وبدأت تنسى أشياء من طبيعة مختلفة، لكن لا يستطيع أحد، بل لا يمكن لأحد يملك عقلاً سليماً، أن يتّهمها بأنها أمّ سيئة! بالتأكيد لا! وستثبت ذلك لزوجها السابق ولعائلته الأرمنية الضخمة. إذ كانت عائلة زوجها السابق من بلد آخر يحمل أهله أسماء لا يمكنها أن تتهجاها، ويحتفظون بأسرار لم تتمكن من فك رموزها. كانت روز تشعر بأنها غريبة دائماً هناك، وكانت تدرك على الدوام أنها «أودار»، هذه الكلمة الصمغية التي التصقت بها منذ اليوم الأول.

إنه لشيء فظيع أن تظل مرتبطاً بشخص من الناحية العقلية والعاطفية بعد أن تكون قد انفصلت عنه جسدياً. وعندما هدأ الغبار واستقر، بعد مضي فترة السنة والأشهر الثمانية على الزواج، لم يتبق لروز إلا الغضب والاستياء وطفلة.

«هذا كلّ ما تبقى لي. . .»، تمتمت روز لنفسها. في الواقع، فهذا هو الأثر الجانبي المعروف عن الشعور بالمرارة المزمنة بعد الزواج: الذي يجعلك تكلّمين نفسك، مهما كان الحوار الذي تتخيلينه، ولن ينضب منك

معين الكلمات. وخلال الأسابيع الماضية، راحت روز تتجادل في مخيلتها مع جميع أفراد عائلة تشكمكجيان، تدافع عن نفسها بقوة، وكانت في كلّ مرّة تخرج منتصرة في هذا الجدال المتخيل، وتقول بحرية وبطلاقة كلّ ما لم تتمكن أن تقوله قبل الطلاق، وكانت تلوم نفسها لأنها لم تفعل ذلك من قبل.

ها هي! حفاضات الأطفال ذات القدرة الكبيرة على الامتصاص والخالية من المطّاط. ما أن وضعتها في العربة، حتى رأت رجلاً متوسط العمر، ذا سكسوكة وشعر بدأ يدبّ فيه الشيب. كان يبتسم لها. في الواقع، كانت روز تحب أن يلاحظ أحد أنها أمّ، وها هو الآن شخص ينظر إليها، فارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة. مدت يدها، وهي تشعر بالسعادة، لتصل إلى صندوق كبير من الحفاضات المعطّرة التي تحتوي على فيتامين إي. الحمد لله أنه يوجد أناس يقدّرون أمومتها. وبدافع من رغبتها في الحصول على مزيد من التقدير، راحت تتمشى ذهاباً وإياباً في ممر قسم منتجات الأطفال، وها هي ذي تجد أشياء لم يكن في نيتها أن تشتريها في المرات السابقة، أما الآن، فلم تر سبباً لعدم شرائها: ثلاث قناني من مستحضر مضاد للبكتريا للقضاء على الطفح الجلدي الناجم عن الحفاضات، ولعبة صغيرة لحمّام الأطفال تطلق تحذيراً عندما تزداد حرارة الماء في الحوض، ومجموعة من ستّ قطع بلاستيكية لحماية الأصابع الصغيرة، وكيس قمامة صغير مرسوم عليه قرد، وعضّاضة أسنان طرية في شكل فراشة.

وضعت جميع هذه الأشياء في العربة. من يستطيع أن يدعوها أمّاً لا مبالية؟ كيف يمكنهم أن يتّهمونها بأنها لا تأبه لما تحتاج إليه طفلتها؟ ألم تتوقف عن الدراسة في الجامعة عندما ولدت الطفلة؟ ألم تبذل جهداً كبيراً لكي تحافظ على هذا الزواج؟ وكانت روز تحب أن تتذكر بين الحين والآخر، الفترة التي كانت لا تزال فيها طالبة تذهب إلى الجامعة، وعندما

كانت لا تزال عذراء، وعندما كان لا يزال جسدها رشيقاً. لقد وجدت مؤخراً عملاً في مطعم الجامعة، مما قد يساعدها في تحقيق حلمها الأول، لكنه قد لا يساعدها في تحقيق حلميها الآخرين.

ما أن وجدت روز نفسها في القسم التالي، حتى لوت وجهها. «قسم الأطعمة الأجنبية». اختلست نظرة متوترة إلى مرطبانات غموس الباذنجان، وعلب أوراق العنب المملّحة. لا باذنجان بعد الآن! لا سرماس بعد الآن! لا طعام أرمني غريب الشكل بعد الآن! حتى أن مجرد رؤية الخافورما الشنيعة، كانت تجعل معدتها تهتاج وتتلبك. ومن الآن وصاعداً، ستطهو ما يحلو لها. ستطهو لابنتها أطباق الكنتاكي الحقيقية! وقفت روز دقيقة طويلة تعصر دماغها لتجد مثالاً عن وجبة طعام مثالية. وأبدى وجهها شيئاً من الانشراح عندما خطر لها الهمبرغر. بالتأكيد! قالت مؤكدة لنفسها. وأيضاً، بيض مقلي، وفطائر مغمسة بعصير نبات القبقب، ونقانق مع البصل، ولحم الضأن المشوي، نعم وخاصة لحم الضأن المشوي. . . وعوضاً عن شراب اللبن الذي يشبه الوحل، والذي كانت تتقزز من مجرد رؤيته عند كلّ وجبة طعام، ستشربان عصير التفاح! ومن الآن وصاعداً، ستختار هي قائمة الوجبات اليومية من المطبخ الجنوبي، فلفل حار أو لحم خنزير مدخّن. . . أو حمّص. وستقدم هذه الأطباق بدون شكوى أو تذمر. وكان كلّ ما تحتاج إليه، رجل يجلس قبالتها في آخر النهار. رجل يحبّها حقاً، ويحبّ الطعام الذي تعدّه. بالتأكيد، هذا ما كانت روز بحاجة إليه: حبيب بدون أحمال وأثقال عرقية، لا أسماء يصعب لفظها، ولا عائلة لا يعد أفرادها ولا يحصون؛ حبيب جديد طازج يقدّر تناول الحمّص.

مرت فترة من الزمن أحبّت هي وبرصام أحدهما الآخر. الفترة التي لم يكن يلاحظ خلالها برصام، وبالتأكيد لم يكن يمانع، أي طعام تضعه على المائدة، لأن عينيه كانتا معلقتين في مكان آخر، مثبتتين عليها، مفعمتين

بالحبّ. وما أن تذكرت تلك اللحظات الشبقة حتى توزّدت وجنتا روز واعتراهما الدفء، إلا أنهما سرعان ما بردتا وعاد إليهما بياضهما الطبيعي عندما تذكّرت المرحلة التي أعقبت ذلك. فللأسف، دخلت عائلته الشنيعة على المسرح بسرعة شديدة لتهيمن عليه إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين بدأ حبهما يخبو. لو لم تدس عصابة تشكمكجيان أنوفها المعقوفة في زواجها، قالت روز لنفسها، لظل زوجها إلى جانبها. «لماذا تتطفلين دائماً على زواجنا؟» سألت شوشان، التي تخيّلتها الآن جالسة في كرسيها ذي المسند، وهي تعدّ القطب في البطانية التي تحيكها الآن لحفيدتها. لكن حماتها لم تجبها. وكرّرت روز سؤالها بشيء من الإحباط. كان ذلك حقاً، الأثر الجانبي العام لشعورها بالاستياء المزمن بعد الزواج: الذي لا يجعلك تكلمين نفسك فقط، بل يجعلك تصبحين عنيدة أيضاً مع الآخرين. وحتى لو أصبحت على وشك الانهيار، فلن تنحني. «لماذا لم تتركينا في حالنا؟» طرحت روز السؤال نفسه على كل أخت من أخوات زوجها الثلاث ـ العمّة سوربان، والعمّة زاروهي، والعمّة فارسينيغ ـ وهي تحدّق في مرطبانات البابا غنوج المصفوفة على رفوف البقالة.

تركت روز قسم الأطعمة الأجنبية، واستدارت واتجهت بسرعة إلى القسم التالي. وبدافع من شعورها بالغضب والكآبة، راحت تتنقل بين جانبي ممر قسم الأغذية المعلّبة والفاصولياء الجافّة، واصطدمت بشابّ كان واقفاً في الممر، ينظر إلى الرفّ الذي تصطف عليه أصناف مختلفة من الحمّص. بالتأكيد لم يكن هذا الرجل واقفاً هنا قبل ثانية، قالت روز في نفسها. يبدو أنه تجسّد هنا، وكأنه هبط من السماء. كانت بشرته فاتحة اللون، وجسمه رشيقاً ومتناسقاً، وعيناه بلون البندق، وأنفه مدبّباً، مما جعله يبدو شخصاً حذراً وجدياً. وكان شعره الذي يشبه شعر السمور قصيراً. خيّل إلى روز أنها كانت قد رأته في مكان ما من قبل، لكنها لم تتذكر أين ومتى.

«إنها جيدة، أليس كذلك؟» سألته روز، وأضافت، «لكن لسوء الحظ لا يقدّرها الجميع».

عندما خرج من تأمله، أجفل الشابّ، والتفت إلى المرأة ذات الوجه الوردي، المكتنزة الواقفة إلى جانبه، وهي تمسك في كلّ يد علبة حمّص وقد احمرّ وجهها خجلاً. وعندما فوجئ وأُخذ على حين غرة، لم يستطع أن يستعيد حذره الذكوري بسهولة.

«أنا آسف. . .» قال، وأمال رأسه إلى اليمين، وقد تشنجت عضلات وجهه على نحو لا إرادي، فسّرته روز بأنه دليل على الخجل.

ابتسمت روز لتُري الشابّ أنها سامحته، ثم نظرت إلى وجهه بسرعة كومضة، مما زاده توتراً وعصبية. فبالإضافة إلى تعبير الأرنب الرقيق الذي كساها الآن، كان يكسو روز ثلاثة أشكال أخرى تشبه الحيوانات كانت توحي لها بها الطبيعة الأم، وكانت تستخدمها بالتناوب في جميع تعاملاتها مع الجنس الآخر: تعبير الكلب الوفي، الذي كانت تختاره عندما تريد أن تنقل مشاعرها المخلصة التامة؛ وتعبير السنور الشيطاني، الذي كانت تستخدمه عندما تريد أن تغوي أحداً؛ وتعبير ذئب البراري المشاكس، الذي كانت تستخدمه عندما يوجه إليها أحد انتقاداً.

«أوه، أنا أعرفك!» وارتسمت على وجه روز ابتسامة مِلء شدقيها، سعيدة بذاكرتها. «كنت أعصر دماغي وأنا أتساءل أين رأيتك من قبل. لقد تذكرت الآن! إنك تعمل في محلات أ أند يو، صحيح؟ أراهن أنك تحبّ دجاج كيسدوديا!».

ألقى الشابّ نظرة باتجاه الممر، وكأنه يفكّر في الهرب في أيّ لحظة، لكنه لم يكن يعرف في أي اتجاه سينطلق.

«إني أعمل ساعات قليلة في محل شواية الصبّار» ـ بذلت روز جهداً لتساعده على التذكر ـ «المطعم الكبير في الطابق الثاني من مبنى اتحاد

الطلاب، أتذكر؟ إني أقف عادة وراء الكاونتر حيث نقدم الطعام ساخناً ـ عجة وكيسدوديا كما تعرف. إني لا أعمل طوال الوقت، طبعاً، فهم لا يدفعون كثيراً لكن ماذا على المرء أن يفعل؟ إنه شيء مؤقت فقط. أريد أن أصبح معلّمة مدرسة ابتدائية».

بدأ الشابّ يتفحّص الآن وجه روز وكأنه يريد أن يحفظ تفاصيل قسماته عن ظهر قلب لكي يستعيدها في المستقبل.

«في جميع الأحوال، لا بد أني رأيتك هناك»، أنهت روز كلامها. ضيّقت عينيها، وبلّلت شفتها السفلى، وانتقلت إلى تعبيرها الكلبي وقالت: «لقد تركت العمل عندما أنجبت طفلتي في العام الماضي، لكنني أحاول أن أعود إلى الجامعة الآن. . .».

«أوه، حقاً؟» قال الشاب، لكنه أغلق فمه على الفور. لو كان لدى روز أيّ تجربة سابقة مع الأجانب لاكتشفت مقدمة الفعل المنعكس بالنسبة للأجنبي ـ وهي عدم الدخول في حديث خشية ألا يستخدم الكلمات الصحيحة في الوقت المناسب، أو يلحن في لفظها.

إلا أنه كانت لدى روز، منذ أن كانت في سن المراهقة، نزعة للافتراض بأن كلّ شيء حولها يكون إما عنها أو من أجلها أو ضدها. لذلك، فسرت الصمت بأنه إشارة على عدم قدرتها على تقديم نفسها بشكل لائق. ولكي تستدرك خطأها، مدّت يدها.

«أوه، أنا آسفة. نسيت أن أقدّم نفسي. اسمي روز».

«مصطفى. . .» ابتلع الشابّ تفاحة أدم خاصته، التي أخذت تعلو وتهبط بسرعة.

«من أين أنت؟» سألته روز.

«من إستانبول»، أجاب باقتضاب.

رفعت روز حاجبيها وبدت مسحة من الرعب على وجهها.

لو كان لدى مصطفى أيّ تجربة سابقة في التعامل مع الريفيين، لأمكنه أن يكتشف مقدمة الفعل المنعكس لديهم ـ الخوف من ألا توجد لديهم معرفة كافية بجغرافية العالم أو تاريخه. حاولت روز أن تتذكر أين تقع إستانبول على سطح الكرة الأرضية. هل هي عاصمة مصر أو ربما مدينة في الهند...؟ عبست مشوشة التفكير.

أما مصطفى، فقد كان الخوف يتملكه منذ أن كان مراهقاً من أن يفقد قبضته على الزمن وأن يفقد جاذبيته نحو النساء. لذلك فسّر بادرتها بأنها دليل على أن روز انتابها الملل لأنه لم يقل شيئاً مثيراً للاهتمام، ولاستدراك ذلك، أسرع يقاطعها.

«تسرني مقابلتك يا روز»، قال ماطاً الأحرف الصوتية بنبرة رخيمة منخفضة، لكنها واضحة. «يجب أن أذهب الآن...».

وبسرعة كبيرة أعاد علب الحمّص، وحدّق في ساعته، وأمسك سلته وغادر مسرعاً. وقبل أن يختفي، سمعته روز يهمهم «باي ـ باي»، ثم سمعته يقول وكأنه يردد صدى نفسه، «باي ـ باي» أخرى. وانطلق.

بعد أن فقدت روز هذا الرفيق الغامض، أدركت فجأة أنها أضاعت وقتاً طويلاً في السوبرماركت. فأمسكت عدداً من علب الحمّص، بما فيها العلب التي تركها مصطفى، وهرعت إلى صندوق الدفع. عبرت قسم المجلات والكتب، ورأت هناك شيئاً كانت بحاجة ماسة إليه: أطلس العالم الكبير. وقد كتب تحت العنوان الرئيسي: أطلس رايات العالم، حقائق وخرائط تساعد الآباء والطلاب والمعلمين والمسافرين في أنحاء العالم. أمسكت الكتاب، وراحت تبحث عن «إستانبول» في الفهرس، وبعد أن عثرت على الصفحة المطلوبة، نظرت إلى الخريطة لترى أين تقع.

عند موقف السيارات، وجدت سيارة الجيب تشيروكي ١٩٨٤ الزرقاء اللون وهي تغلي تحت أشعة شمس أريزونا فيما طفلتها الصغيرة تغط في النوم في داخلها.

«آرمانوش، استيقظي يا حبيبتي، لقد رجعت ماما».

تحركت الطفلة قليلاً، لكنها لم تفتح عينيها، حتى عندما أخذت روز تمطر وجهها بالقبلات. كان شعرها البني الناعم مربوطاً بشريط ذهبي كبير يكاد يكون بحجم رأسها، وكانت ترتدي ثوباً أخضر من الريش المزيّن بأشرطة وردية وأزرار أرجوانية. بدت مثل شجرة عيد ميلاد قزمة قام شخص مخبول بتزيينها.

«هل أنتِ جائعة؟ ستطهو لك ماما طعاماً أمريكياً حقيقياً الليلة!» قالت روز وهي تضع الأكياس البلاستيكية في المقعد الخلفي، وأبقت علبة من حلوى جوز الهند قريبة منها لكي تأكل منها في الطريق. رتبت شعرها في المرآة الخلفية، ووضعت شريط كاسيت كانت تحب أن تستمع له في تلك الأيام، وأمسكت حفنة من حلوى جوز الهند قبل أن تشغّل المحرّك.

«هل تعرفين أن الرجل الذي التقيت به الآن في السوبرماركت هو من تركيا؟!» قالت روز، وهي تغمز لابنتها في المرآة الخلفية. كان يبدو أن كلّ شيء في طفلتها على ما يرام: أنفها الذي يشبه حبة الرزّ، يداها الملفوفتان، قدماها، كلّ شيء فيها باستثناء اسمها. فقد أرادت عائلة زوجها أن تسمي الطفلة باسم أمّ جدتها. وكم حزنت روز لأنها لم تطلق على ابنتها اسماً أقل غرابة، مثل آني أو كاتي أو سيندي، بدلاً من أن تقبل هذا الاسم الذي فرضته حماتها. يجب أن يكون للطفلة اسم يليق بطفولتها أما اسم «آرمانوش» فهو أبعد ما يكون عن ذلك. فقد بدا الاسم... بارداً جداً، ربما كان يلائم امرأة عجوزاً. هل يجب على روز أن تنتظر حتى تصبح طفلتها في الأربعين من عمرها حتى تستخدم اسمها دون أن تشعر بشيء يثقب لسانها؟ دحرجت روز عينيها، والتهمت قطعة أخرى من الحلوى. وهنا خطر لها خاطر: فبدءاً من الآن ستنادي ابنتها «آمي»، وكجزء من مراسم المعمودية، أرسلت إلى طفلتها قبلة في الهواء.

عند التقاطع التالي انتظرنا إشارة المرور حتى تتحول إلى اللون الأخضر. راحت روز تنقر على المقود، ترافق غلوريا إستيفان في الغناء.

لا يوجد حبّ جديد لديّ، كلّ شيء في هرج ومرج

ما جرى قد جرى، والآن جاء دوري كي أبتهج...

* * *

وضع مصطفى المواد القليلة التي اختارها أمام أمينة الصندوق: زيتون كالاماتا، سبانخ مجمّد، وبيتزا بجبنة الفيتا، وعلبة حساء الفطر، وعلبة حساء بكريم الدجاج، وعلبة حساء دجاج بالمعكرونة الرفيعة. فمنذ وصوله إلى الولايات المتحدة، لم يطه شيئاً مطلقاً. وكلما كان يعمل في المطبخ الصغير في شقته المؤلفة من غرفتين، كان يتملكه شعور بأنه مثل ملك مخلوع يعيش في المنفى. فقد ولّت الأيام التي كانت تخدمه وتطعمه جدته وأمّه وأخواته الأربع الوفيات. أما الآن، فقد أصبح غسيل الصحون، وتنظيف الغرف والكوي والتسوّق بشكل خاص، عبئاً ثقيلاً جداً على كاهله. ولم يكن من السهل أن يتخلّص من الشعور بأنّ شخصاً آخر يجب أن يفعل له هذه الأشياء. فلم يعتد على القيام بهذه الأعمال، أكثر من اعتياده على الوحدة.

وكان يشارك مصطفى في الشقّة، طالب جامعي أندونيسي، لا يكاد يفتح فمه. وكان منكباً دائماً على دراسته، وينصت إلى أشرطة غريبة مثل «خرير جداول الجبل» أو «أغاني الحيتان»، في كلّ ليلة حتى ينام. كان مصطفى يتمنى أن يكون لديه رفيق يشاركه في البيت، ليخفف عنه مشاعر وحدته في أريزونا، لكن ما حدث كان العكس تماماً. ففي الليل، عندما يكون وحيداً في سريره تبعده آلاف الأميال عن عائلته، لم يكن بوسعه مقاومة الأصوات التي تتلاطم داخل رأسه. الأصوات التي تسأله وتوجه إليه اللوم لأنه هكذا. ولم يكن ينام نوماً هانئاً. وكان يمضي ليال كثيرة

وهو يتفرج على مسلسلات كوميدية قديمة، أو يبحر في الإنترنت. وهي أشياء كانت تساعده كثيراً. وعندها فقط كان يتوقف عن التفكير بهذه الأمور، التي لا تني تعود مع ضوء النهار التالي. وكان يذهب من البيت إلى الجامعة سيراً على الأقدام، وفي فترات الاستراحة أو أثناء فترة الغداء، كان مصطفى يجد نفسه يفكّر بإستانبول. وكان يتمنّى أن يتمكن من محو ذاكرته، ويزيل جميع الملفات فيها ليعيد تشغيل برنامج رأسه من جديد.

وكان من المفروض أن تنقذه أريزونا من المصير السيء الذي حلّ بجميع الذكور في عائلة قازانجي. لكن مصطفى لم يكن يؤمن بهذه المعتقدات. فقد كان التخلي عن هذه الخرافات جميعها: الخرزات لدرء العين الشرّيرة، وقراءة فنجان القهوة، وجلسات قراءة البخت في عائلته، اختياراً واعياً منه أكثر من أن يكون ردّ فعل تلقائي. وكان يرى أنها جميعها جزء من عالم مظلم ومعقّد يخص النساء فقط.

وفي جميع الأحوال، كانت النساء لغزاً. فبعد أن نشأ وتربى مع عدد من النساء، كان من الغرابة أن يشعر بالجفاء والابتعاد عنهن طوال حياته.

فقد كان مصطفى قد نشأ وتربى على أنه الصبي الوحيد في عائلة يموت رجالها في سن مبكرة وعلى نحو مفاجئ ودون توقع أيضاً. وكانت تعتريه رغبات جنسية متزايدة وهو محاط بأخوات حُرّمن عليه حتى من حياة التخيّل. ومع ذلك، فقد انزلق في مهاوي أفكار شنيعة عن النساء. ففي بادئ الأمر، كان مصطفى يغرم بالفتيات اللاتي كن يرفضنه. وبما أنه كان يخشى أن ترفضه الفتيات، أو أن يسخرن منه، أو يحتقرنه، بدأ يتوق إلى جسد الأنثى من بعيد. وفي هذه السنة، بدأ يتفرج بتوتر على صور عارضات في مجلات أمريكية ذات صفحات مصقولة، وكأنه فهم الحقيقة المبرّحة بأنه لا توجد امرأة بهذا القدر من الجمال سترغب به أبداً.

ولن ينسى مصطفى تلك النظرة العنيفة التي برزت على وجه زليخة عندما قالت له إنه «أير لا يقدر بثمن». فلا يزال إحراج تلك اللحظة يحترق

في داخله حتى اليوم. فقد كان يعرف أن زليخة تستطيع أن ترى ما وراء ذكورته المفروضة عليه، وترى قصّة تربيته الحقيقية.

فقد كانت تعرف أنه صبي مدلّل تلقمه بالملعقة أمّ مضطهدة يهددها ويضربها أب مستبدّ. فقد قالت له: «لقد أصبحت في نهاية الأمر نرجسياً ولا تشعر بالأمان». هل كان بالإمكان أن تكون الأمور مختلفة بينه وبين زليخة؟ لماذا كان يعتريه شعور بالرفض والكره رغم وجود عدة أخوات وأمّ خرفة إلى جانبه؟

كانت زليخة لا تفتأ تهزأ بمصطفى، وكانت أمّه لا تفتأ تبدي إعجابها به. وكان يرغب في أن يكون رجلاً عادياً جيداً وغير معصوم في الوقت نفسه. وكان كلّ ما يحتاج إليه الحنان وأن تتاح له الفرصة لأن يكون شخصاً أفضل. كم كان يتمنى أن تكون لديه امرأة تحبّه، لتغيّر كلّ شيء. كان مصطفى يعرف أنه يجب أن يعيش في أمريكا لا لأنه كان يريد أن يحقق مستقبلاً أفضل، بل لأنه كان يريد أن يتخلّص من ماضيه.

«كيف حالك؟» سألته أمينة الصندوق الصبية بابتسامة على وجهها.

كان هذا شيئاً لم يعتد عليه مصطفى بعد. ففي أمريكا يسأل كلّ شخص الآخر عن صحته، حتى لو كان غريباً تماماً. وعرف أن هذه الطريقة هي لإلقاء التحية أكثر منها سؤالاً حقيقياً عن الصحة. لكنه لم يكن يعرف كيف يرد التحية بالسهولة السمحة ذاتها.

«أنا بخير، شكراً» قال، «كيف حالكِ؟».

ابتسمت الفتاة. «من أي بلد أنت؟».

قال مصطفى لنفسه سيأتي يوم سأتحدث فيه بطريقة لن يسألني فيها أحد هذا السؤال الوقح لأنهم لن يظنوا، حتى للحظة واحدة، أنهم يتكلّمون مع شخص أجنبي. حمل كيسه البلاستيكي وخرج.

* * *

عبر الرصيف شاب وشابة من أمريكا اللاتينية، هي تدفع طفلاً صغيراً في عربة، وهو يمسك بيد طفل. كانا يمشيان الهوينى فأخذت روز تراقبهما بعين مليئة بالحسد. فبعد أن انتهى زواجها، كان يبدو لها أن كلّ رجل وامرأة تراهما يعيشان في منتهى السعادة.

(«أتعرفين؟ أتمنّى أن تراني جدتك ـ الساحرة أغازل ذلك التركي. هل تستطيعين أن تتخيّلي الرعب الذي سيظهر على وجهها؟ لا يمكنني أن أفكر بكابوس أسوأ لعائلة تشكمكجيان المتباهية والمنتفخة... المتباهية و...»).

لم تكمل روز جملتها لأن فكرة خبيثة طرأت لها على الفور. كان لون إشارة المرور قد تحوّل إلى الأخضر، وبدأت السيارات أمامها تتقدم، وأطلقت الشاحنة وراءها زموراً. لكن روز ظلت واقفة في مكانها ولم تتحرك. كانت المخيّلة لذيذة إلى درجة أنها لم تستطع أن تتحرك. وبدأت تتداعى إلى رأسها صور شتى، فيما أضاءت عيناها بشعاع من الغضب الخالص بزاوية منحرفة. كان هذا في واقع الأمر، ثالث تأثير جانبي نتيجة الإحساس بالقنوط المزمن بعد الطلاق: فهو لا يجعلك تتكلّمين مع نفسك ومشاكسة الآخرين فقط، بل يجعلك أيضاً لا عقلانية وغير منطقية. فما إن تشعر المرأة بالسخط المبرّر، حتى ينقلب العالم رأساً على عقب، ويصبح اللامنطقي منطقياً تماماً.

أيها الثأر الجميل. إن البرء يحتاج إلى فترة طويلة، استثمار مجزٍ لكنه يستغرق وقتاً. أما الانتقام فهو عمل سريع. وكان أول دافع غريزي يعتري روز هو أن تفعل شيئاً، أيّ شيء، لكي تثير حفيظة حماتها السابقة. ولا يوجد شيء على وجه الكرة الأرضية يمكنه أن يثير حنق النساء في عائلة تشكمكجيان أكثر من «أودار»: أي رجل تركي!

يا له من شيء مثير أن تغازل عدو زوجها السابق اللدود. لكن أين يمكنك أن تجدي رجلاً تركياً في وسط صحراء أريزونا؟ فهم لا يعيشون

على نبات الصبّار، أليس كذلك؟ كتمت روز ضحكة، فيما تحوّلت قسمات وجهها من الإحساس بالشكر إلى الشعور بالامتنان الشديد. يا لها من مصادفة رائعة تلك التي جلبها لها الحظ بالتعرف على شاب تركي. يا لها من مصادفة؟

تحركت روز إلى الأمام وهي تدندن مع الأغنية. لكنها بدلاً من أن تنطلق في طريقها مباشرة، انعطفت إلى اليسار، واستدارت استدارة كاملة، وعندما أصبحت في حارة الطريق الآخر، أسرعت في الاتجاه المعاكس.

أيها الحبّ البدائي، أريد ما كان في الماضي.

وبسرعة كبيرة وصلت سيارة الجيب التشيروكي موديل ١٩٨٤ إلى مكان وقوف سيارات سوبرماركت فراي.

لا يجب عليّ أن أفكّر، فقد أوصلتني الآن إلى الحافة

هذه هي كلمة الوداع للأوقات التي بكيت فيها...

استدارت السيارة في شكل نصف دائرة، ثم ناورت بشكل مستعرض، وبهذه الطريقة وصلت إلى بوابة الخروج من السوبرماركت. وما أن بدأت روز تفقد الأمل في العثور على الشابّ، حتى لمحته واقفاً ينتظر بصبر عند موقف الحافلات وإلى جانبه كيس بلاستيكي رقيق.

«هيه، موصطفى!» صاحت روز، ومدّت رأسها من النافذة المفتوحة إلى نصفها، «هل تريد أن أوصلك؟».

«بالتأكيد، شكراً»، أومأ مصطفى، وبذل محاولة ضعيفة ليصحح طريقة لفظها: «اسمي مصطفى».

عندما أصبح داخل السيارة، ابتسمت روز وقالت: «مصطفى، هذه ابنتي، آرمانوش... لكنني أناديها آمي! آمي، هذا مصطفى، مصطفى هذه آمي...».

فيما راح الشابّ يبتسم في وجه الطفلة التي كان النعاس يغالبها، تمعنت روز في وجهه لتكتشف فيه علامات فارقة، لكنها لم تستطع أن تجد أيّ علامة مميّزة. لذلك قرّرت أن توحي له بفكرة أخرى، هذه المرة فكرة أشد وضوحاً: «اسم ابنتي الكامل آمي تشكمكجيان».

لم تظهر على وجه مصطفى أي دلالة على أن هذه الكلمات أوحت له بأي شيء سلبي. لذلك أحست روز بضرورة أن تكرر ذلك، فلعله لم يفهم قصدها في المرة الأولى: «آرمانوش تشكم ـ كشيان».

عندها فقط برقت عينا الشابّ، لكن ليس بالطريقة التي كانت تتوقعها روز.

«تشاك ـ ماك ـ شيان... تشاك ـ ماك ـ جي...! هيه، إنه يشبه اسماً تركياً» صاح بسعادة.

«حسناً، في الحقيقة إنه اسم أرمني»، قالت روز، وفجأة اعتراها شيء من القلق، «أقصد أبوها، زوجي السابق»، وابتلعت ريقها بصعوبة، وكأنها تحاول أن تتخلص من طعم حامض في فمها. «كان، أقصد، إنه، أرمني».

«أبوه؟» قال بلا مبالاة.

لم يفهم الأمر، أليس كذلك؟ سألت روز نفسها وهي تعلك اللحم داخل فمها. وكما لو كانت تطلق نَفَساً مكبوتاً منذ زمن بعيد في حنجرتها، أطلقت شهقة ضاحكة.

لكنه لطيف... لطيف جداً... سيكون ثأري الجميل! قالت لنفسها.

«اسمع»، قالت روز، «لا أعرف إن كنت تحبّ الفنّ المكسيكي، لكن سُيفتتح معرض للفن المكسيكي ليلة غد. إذا لم تكن لديك خطط أخرى، فيمكننا زيارته، ثم نتناول شيئاً بعد ذلك».

«الفنّ المكسيكي...؟» توقّف مصطفى.

«الأشخاص الذين زاروه في مكان آخر قالوا إنه جيد جداً»، قالت روز. «ما رأيك... هل تريد أن تأتي معي؟».

«الفنّ المكسيكي...!» ردّد مصطفى بثقة. «بالتأكيد، لِمَ لا؟».

«رائع»، قالت روز مبتهجة. «لقد سررت بلقائك، يا مو صطفى»، قالت، محرّفة اسمه ثانية. لكن هذه المرة لم يشعر مصطفى بالحاجة لأن يصحّح لها اسمه.

٣
سكّر

«هل هذا صحيح؟ أرجو أن يقول لي أحد إن هذا غير صحيح»، صاح العمّ ديكران ستامبوليان عندما فتح الباب بقوة، واندفع إلى غرفة الجلوس، باحثاً عن ابن أخيه أو بنات أخته أو أي شخص يمكن أن يواسيه. كانت عيناه الداكنتان جاحظتين بعض الشيء من شدة الانفعال والتوتر. وكان شاربه الكث معقوفاً قليلاً عند طرفيه، مما جعله يبدو وكأنه يبتسم، حتى وهو يستشيط غضباً.

«أرجوك هدئ من روعك واجلس يا عمّ»، تمتمت العمّة سوربان، أصغر الأخوات في عائلة تشكمكجيان، دون أن تنظر في عينيه مباشرة. وبما أنها كانت الشخص الوحيد في العائلة التي أيّدت زواج بارسام من روز بقوة، فقد شعرت أن اللوم يقع عليها، علماً أنها لم تكن معتادة على أن تنحي باللائمة على نفسها. وكانت سوربان تشكمكجيان، أستاذة العلوم الإنسانية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، امرأة تتمتع بثقة كبيرة بنفسها، ومن أنصار تحرر المرأة ومساواتها مع الرجل، وتؤمن بأنه يمكن حلّ جميع المشاكل في هذا العالم عن طريق الحوار والعقل. ومرت أوقات جعلها هذا الاعتقاد تشعر بالوحدة في عائلة مزاجية مثل عائلتها.

نفذ ديكران ستامبوليان ما طُلب منه، وألقى بنفسه في كرسي فارغ، وراح يقضم أطراف شاربيه. كان أفراد العائلة جميعهم متحلقين حول

طاولة قديمة مصنوعة من خشب الماهوغوني وقد ملئت بأصناف الطعام، مع أن أحداً لم يكن يتناول شيئاً. وكانت طفلتا العمّة فارسينيغ التوأمين تغطان في النوم على الأريكة. وكان ابن العم البعيد كيفورك كاراوجلانيان هناك أيضاً، بعد أن قدم بالطائرة من مينيبوليس لحضور مناسبة اجتماعية تنظمها جالية الشباب الأرمنية في منطقة الخليج (Bay Area). وخلال الأشهر الثلاثة الماضية، حضر كيفورك جميع المناسبات التي نظّمتها الجالية بدافع من الإحساس بالواجب ـ حفلة موسيقية خيرية، رحلة سنوية، حفلة عيد الميلاد، حفلة ليلة الجمعة، الاحتفال الشتوي السنوي، فطور يوم الأحد، وسباق الطوافات لصالح السياحة البيئية في يريڤان. وكان العمّ ديكران يشكّ في أن مجيء ابن أخيه الوسيم إلى سان فرانسيسكو كثيراً، لم يكن بسبب التزامه بحضور هذه المناسبات فقط، بل لأنه كان يريد أن يبثّ أيضاً مكنونات صدره لفتاة التقى بها في الجالية.

أخذ ديكران ستامبوليان يحدّق بشغف في الطعام الذي تمتلئ به المائدة، ومدّ يده إلى جرّة صغيرة مليئة بالعيران، ووضع فيها، مثل الأمريكيين، قطع ثلج كثيرة. وفي الأطباق الفخارية المتعددة الألوان والأحجام، كان يقبع العديد من أطباقه المفضّلة: فاصوليا بيلاكي، كادين بودو كوفتا، كارمياريك، وتشوريك مُعَدّ حديثاً، ولبهجة العمّ ديكران، بسطرما. ورغم أنه كان يشتعل غضباً، فقد هفا قلبه عندما رأى البسطرما، وذاب تماماً عندما رأى طبقه المفضّل إلى جانبه: بورما.

ورغم أن طعامه كان تحت مراقبة زوجته الصارمة على الدوام، كان العمّ ديكران يضيف في كلّ سنة طبقة أخرى من الشحم إلى كرشه التي أصبحت بارزة بشكل فاضح، وأضحت تشبه جذع شجرة تضيف إليها حلقة من حلقات النمو في كلّ سنة. وبعد أن أصبح بديناً الآن ذا كرش كبيرة، لم يعد يكترث بأي من هذين الأمرين. وقبل سنتين، عُرض عليه أن يمثل دوراً في أحد الإعلانات التجارية للباستا. وأدى دور طاه مرح، لا

تستطيع حتّى خطيبته التي خذلته، أن تثبط من روحه المرحة، ما دام يحتفظ بمطبخه ويستطيع أن يطهو قدراً من السباغيتي. وبالفعل، وكما مثّل في الإعلانات التجارية، كان العم ديكران رجلاً خفيف الظل، مرحاً إلى درجة كبيرة إلى حد أنه عندما كان أصدقاؤه يريدون إثبات القول المعروف بأن البدينين أشخاص يتمتعون بخفة الظل وبروح مرحة أكثر من الآخرين، كانوا يستشهدون به. أما اليوم، فلم يكن العمّ ديكران على سجيته.

«أين بارسام؟» سأل العمّ ديكران مادّاً يده ليتناول كفتة من فوق التلة، «هل يعرف ماذا تنوي أن تفعل زوجته؟».

«زوجته السابقة»، قالت العمّة زاروهي مصححة. فبما أنها كانت معلّمة جديدة في مدرسة ابتدائية تتصارع طوال النهار مع أطفال مشاكسين، لم تكن تستطيع أن تمسك نفسها عن عدم تصحيح أيّ خطأ تسمعه.

«نعم، السابقة! باستثناء أنها لا تعترف بذلك! هذه المرأة معتوهة، أقول لكم. إنها تفعل ذلك عن قصد. إن لم تكن روز تفعل ذلك لتغيظنا، فليس اسمي ديكران. عندها أوجدوا لي اسماً آخر!».

«إنك لست بحاجة إلى اسم آخر»، قالت العمّة فارسينيغ، تواسي عمّها، «لا شكّ أنها تفعل ذلك عمداً. . .».

«يجب أن ننقذ آرمانوش»، قاطعتها الجدّة شوشان، كبيرة العائلة. نهضت وتركت المائدة، وجلست على كرسي ذي مسندين. ومع أنها كانت طاهية ممتازة، فلم تعد لديها شهية جيدة للأكل، وبدأ القلق يعتري بناتها مؤخراً لأنها وجدت طريقة ما لكي تعيش بأقل قدر من الطعام قد لا يتجاوز ملعقة شاي في اليوم. كانت امرأة قصيرة، ناتئة العظام، وتتمتع بقوّة استثنائية لمعالجة حالات أشد تعقيداً وهولاً من هذه الحالة، وكان وجهها الرهيف يشعّ بهالة من القوة والسلطة. كانت ترفض الاعتراف بالهزيمة مهما بلغت، وتعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الحياة كفاح لا يتوقف،

لكن إذا كان الأمر يتعلق بأرمني تصبح أشد صلابة ثلاث مرات، وقد حيّرت قدرتها على استمالة كلّ من تصادفه طوال تلك السنين الكثيرين في عائلتها.

«لا يوجد شيء يعادل أهمية أن تبقى الطفلة في صحة جيدة»، دمدمت الجدة شوشان وهي تداعب القلادة الفضية للقديس أنطون التي تعلقها دائماً على صدرها. فقد ساعدها هذا القديس، شفيع الأشياء المفقودة في مرات كثيرة في التغلب على الخسارات التي تعرضت لها في حياتها.

هنا أخذت الجدة شوشان أبر حياكتها وجلست. وتدلت شلة الصوف وهي تحيك بطانية زرقاء اللون للطفلة التي حاكت على حافتها الحروف الأولى من اسمها: أ. ك. ساد صمت لوهلة، ومثل جميع من كان في الغرفة، راحت تراقب يديها وهما تتحركان بخفة مع حركة الإبر. فقد أثرت حياكة الجدة شوشان على جميع أفراد العائلة وكانت بمثابة جلسات علاج جماعية. إذ كان إيقاع كلّ درزة يهدئ من أعصاب كلّ من ينظر إليها ويشعره بالاطمئنان، مما جعلهم يشعرون بأن الجدة شوشان ما دامت تواصل الحياكة، فلا خوف من وقوع مكروه، وكان الجميع على ثقة بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام.

«إنك على حق يا آرمانوش الصغيرة المسكينة»، قال العمّ ديكران الذي كان، كقاعدة عامة، يصطف إلى جانب شوشان في أي خلاف عائلي، لأنه يعرف جيداً أنه من الأفضل ألا يخذل كبيرة العائلة التي تتمتع بنفوذ مطلق. خفّض العم ديكران صوته عندما سأل: «وماذا سيحل بذلك الحمل الوديع؟».

قبل أن يجيبه أحد، سمع صوت خشخشة عند العتبة، ثم فُتح الباب بالمفتاح ودخل بارسام. كان وجهه شاحباً، وعيناه تحدّقان بقلق من وراء الكؤوس ذات الحواف الذهبية.

«هاه! انظروا من جاء!» قال العمّ ديكران، «سيد بارسام، سيربي تركي ابنتك وأنت لا تحرك ساكناً. . . آموت!».

«وماذا بوسعي أن أفعل؟» قال بارسام تشكمكجيان بنبرة حزينة، والتفت إلى عمّه. نقل عينيه إلى لوحات مستنسخة ضخمة لرسوم طبيعة صامتة ذات أقنعة بريشة مارتيروس ساريان معلقة على الجدار، وكأن الردّ الذي كان يبحث عنه مخفي في اللوحة. لكنه بدا أنه لم يجد أيّ عزاء في اللوحة، لأنه عندما بدأ يتكلّم، كان صوته قد خلا من أي عزاء كما من قبل، فقال: «لا يحقّ لنا أن نتدخّل. إن روز أمّها».

«أمان! يا لها من أمّ!» ضحك ديكران ستامبوليان. بالنسبة لرجل بحجمه، كانت لديه ضحكة حادة مجلجلة على نحو غريب ـ وهو شيء يعرفه جيداً ويستطيع التحكم بها، إلا عندما تعتريه الكآبة والإجهاد.

«وماذا ستقول تلك الحمل الوديع لأصدقائها عندما تكبر؟ أبي بارسام تشكمكجيان، وعم أبي ديكران ستامبوليان، وأبوه فارفانت إيستانبوليان، واسمي آرمانوش تشكمكجيان، وكلّ من في شجرة عائلتي يحمل اسم شيء شيئينيان، وأنا حفيدة الناجين من الإبادة الجماعية التي فقدت جميع أقاربها على يد الجزّارين الأتراك في عام ١٩١٥، لكني تعرضت إلى غسيل دماغ وأصبحت أنكر حدوث المجازر لأني تربيت في كنف رجل تركي يدعى مصطفى! يا لها من مهزلة؟. . .آه، marnim khalasim!».

توقّف ديكران ستامبوليان وراح ينظر بإمعان إلى ابن أخيه ليرى مدى تأثير كلماته عليه. لكن بارسام لبث واقفاً دون أن يأتي بحركة وكأنه صخرة.

«اذهب يا بارسام!» صاح العم ديكران بصوت أعلى هذه المرة، «استقل الطائرة إلى تكسون هذه الليلة وأوقف هذه المهزلة قبل أن يفوت الأوان. تكلّم مع زوجتك. هيده!».

«الزوجة السابقة!» صححت له العمّة زاروهي، وهي تتناول قطعة بورما. «آه، يجب ألا آكل هذه. ففيها كمية كبيرة من السكّر. مليئة بالسعرات الحرارية. لماذا لا تجربين المحلّيات الاصطناعية، يا أمّي؟».

«لأني لا أسمح بأن يدخل مطبخي شيء اصطناعي»، أجابت شوشان تشكمكجيان. «كلي كما يحلو لك حتى تصابي بالسكّري عندما تتقدمين في العمر. لكلّ شيء موسمه».

«حسناً، أظن أني لا أزال في موسمي لتناول السكّر» غمزت لها العمّة زاروهي، لكنها لم تجرؤ على تناول قطعة بورما كاملة، بل أكلت نصفها. وبينما كان فمها لا يزال يمضغ، التفتت إلى أخيها وقالت: «في جميع الأحوال، ماذا تفعل روز في أريزونا؟».

«لقد وجدت عملاً هناك»، قال بارسام بصوت يخلو من أي نبرة.

«نعم، يا له من عمل!» راحت العمّة فارسينيغ تنقر على رأس أنفها. «بحقّ السماء ماذا تظن نفسها فاعلة، تعمل في مطعم وكأنه لا يوجد في حسابها ولا قرش واحد؟ إنها تتعمد أن تفعل ذلك. إنها تريد العالم بأسره أن يوجّه لنا اللوم، ليظن الناس أننا لا نعيل الطفلة. أمّ شجاعة بدون زوج تواجه مصاعب الحياة وحدها! هذا هو الدور الذي تحاول أن تؤديه!».

«ستكون آرمانوش بخير»، دمدم بارسام، محاولاً ألا يبدو يائساً. «لقد بقيت روز في أريزونا لأنها تريد أن تعود للدراسة في الجامعة. وعملها في مطعم اتحاد الطلاب مؤقت. إن ما تريده حقاً هو أن تصبح معلّمة مدرسة ابتدائية. تريد أن تمضي وقتها مع الأطفال. ولا يوجد غلط في ذلك. ما دامت على ما يرام وتعتني بآرمانوش، ماذا يهم مع من تخرج؟».

«أنت على حقّ، لكنك مخطئ أيضاً»، قالت العمّة سوربان وهي تدس ساقيها تحتها في كرسيها، وقد تصلّبت عيناها فجأة بشيء من التهكم. «في عالم مثالي، يمكنك أن تقول، حسناً، إنها حياتها ولا علاقة لنا بها. وإذا

لم يكن لديك أي تقدير للتاريخ والأجداد، أو ذاكرة أو مسؤولية، وإذا كنت تعيش وحدك في الحاضر فقط، يمكنك بالطبع أن تدّعي ذلك. لكن الماضي يعيش في الحاضر، وأجدادنا يتنفسون من خلال أطفالنا وأنت تعرف ذلك... وما دامت ابنتك تعيش مع روز، فلديك كلّ الحقّ في أن تتدخل في حياتها، وخاصة عندما تصاحب شاباً تركياً!».

تدخلت العمّة فارسينيغ التي لم تكن تشعر بالراحة لسماع خطب فلسفية، والتي كانت تفضّل الكلام بصراحة ووضوح على الكلام الذي يتفوه به المثقفون، وقالت: «عزيزي بارسام، أرني تركياً يتكلّم الأرمنية، هل يمكنك أن تفعل ذلك؟».

بدلاً من أن يرد عليها، ألقى بارسام إلى أخته الكبرى نظرة جانبية.

تابعت العمّة فارسينيغ كلامها: «قل لي كم تركي تعلّم اللغة الأرمنية في حياته. لا أحد! لماذا تعلّمت أمهاتنا لغتهم ولم يحدث العكس؟ أليس واضحاً من هيمن على من؟ مجرد حفنة من الأتراك قدموا من آسيا الوسطى، صحيح؟ ثم كل ما تعرفه أنهم انتشروا في كل مكان! ماذا حدث لملايين الأرمن الذين كانوا يعيشون هناك؟ لقد تم استيعابهم! ذُبحوا! تيتموا! رُحّلوا! ثم نُسي أمرهم! كيف يمكنك أن تعطي ابنتك من لحمك ودمك إلى أناس جعلونا قلة ونعيش في معاناة وألم اليوم؟ سيتململ ميسروب ماشتوتس في قبره».

هزّ بارسام رأسه، لكنه ظل صامتاً. وليخفف من كرب ابن أخيه، بدأ العمّ ديكران يروي قصة.

«ذهب عربي إلى دكان حلاق ليحلق شعره. وعندما انتهى، همّ بدفع الأجرة لكن الحلاق قال له: «أبداً، لن أقبل منك نقوداً. فهذه خدمة اجتماعية مني». فوجئ العربي بسرور وغادر الدكان. وفي صباح اليوم التالي، عندما فتح الحلاق دكانه، وجد بطاقة عند الباب كتب عليها «شكراً» وسلة مليئة بالتمر».

تململت إحدى التوأم النائمتين على الأريكة لكنها لم تبك.

«وفي اليوم التالي، ذهب تركي إلى الحلاق نفسه ليحلق شعره. وعندما انتهى، حاول أن يدفع الأجر، لكن الحلاق قال مرة أخرى: «لن أقبل منك نقوداً. فهذه خدمة اجتماعية». دهش التركي، وغادر الدكان مسروراً. وفي صباح اليوم التالي، عندما فتح الحلاق دكانه، وجد بطاقة كتب عليها «شكراً» وصندوقاً من اللقم عند باب دكانه».

بدأت الطفلة الثانية التي أيقظتها حركة أحدهم تبكي. فهرعت العمّة فارسينيغ إليها وأسكتتها بلمسة من أصابعها.

«وفي اليوم التالي جاء أرمني ليحلق شعره. وعندما انتهى، حاول أن يدفع للحلاق أجرته لكن الحلاق اعترض وقال: «آسف، لا يمكنني أن أقبل منك نقوداً. فهذه خدمة اجتماعية». دهش الأرمني وغادر الدكان مسروراً. وفي صباح اليوم التالي، عندما فتح الحلاق دكانه... احزروا ماذا وجد؟».

«صرّة من البورما؟» اقترح كيفورك.

«لا! لقد وجد عشرة أرمن ينتظرون حلاقة شعرهم مجاناً!».

«هل تريد أن تقول إننا شعب بخيل؟» سأله كيفورك.

«لا، أيها الشابّ الجاهل»، قال العم ديكران، «كلّ ما أريد أن أقوله إن أحدنا يهتم بالآخر. فإذا رأينا شيئاً جيداً، نتبادله ونتقاسمه على الفور مع أصدقائنا وأقربائنا. وبهذه الروح الجماعية تمكّن الشعب الأرمني من البقاء على قيد الحياة».

«لكنهم يقولون أيضاً، (عندما يجتمع أرمنيان، فهما يقيمان ثلاث كنائس مختلفة)»، قال ابن العم كيفورك، متخذاً موقفاً حازماً.

فقال ديكران ستامبوليان ناخراً: «Das' mader's mom'ri, noren koh chi m'nats» فقد كان يعطي دائماً أمثلة عن الأرمن عندما يحاول أن يعلّم شاباً درساً، لكنه فشل هذه المرة.

استطاع أن يفهم معنى بيت ـ أرمني فقط، لكنه لم يفهم معنى صحيفة ـ أرمنية. ضحك كيفورك ضحكة خافتة، بشيء من العصبية أيضاً ربما، وهو يحاول إخفاء الحقيقة بأنه فهم النصف الأول من الجملة، لكنه لم يفهم الباقي.

رفعت الجدة شوشان أحد حاجبيها، وتحدثت بالتركية، كما دأبت عندما تريد أن تنقل رسالة مباشرة إلى شخص مسن في الغرفة ولا تريد أن يفهم ما تقوله الأشخاص الأصغر سناً. «Oglani kizdirmayasin».

بعد أن فهم الرسالة، تنهد العمّ ديكران، مثل صبي وبّخته أمّه، وعاد إلى تناول البورما كعزاء له. ثم ساد صمت. كلّ شخص وكلّ شيء ـ الرجال الثلاثة، أجيال النساء الثلاثة، البسط الكثيرة التي تزيّن الأرضية، والمجموعات الفضية الأثرية في الخزانة، والسماور على الشيفونيرة، وشريط الفيديو في جهاز تشغيل الفيديو (لون الرمان)، بالإضافة إلى اللوحات الكثيرة، وأيقونة صلاة القدّيسة آنا، وملصق جبل أرارات المجلل بطبقة من الثلج الأبيض النقي ـ ساد صمت لوهلة فيما اكتسبت الغرفة لمعاناً نادراً تحت الضوء الناعس المنبعث من ضوء الشارع الذي أضيء للتو في الخارج. كانت أشباح الماضي ترافقهم.

توقفت سيارة، وركنت أمام البيت، وأضاءت أنوارها الأمامية الغرفة من الداخل، فأضاءت الأحرف المكتوبة على الحائط في إطار مذهّب: آمين، الحقَّ أقولُ لكُم: ما تَرْبُطونَهُ في الأرضِ يكونُ مَربوطًا في السَّماءِ، وما تَحُلُّونَهُ في الأرضِ يكونُ مَحلولاً في السَّماءِ. القديس متّى، ١٨ ـ ١٨. مرت عربة أخرى تقرع أجراسها، تنقل الأطفال والسيّاح الصاخبين من الهضبة الروسية إلى الحديقة المائية، والمتحف البحري، ورصيف صيادي السمك ـ وتدفقت إلى الغرفة أصوات ساعة الازدحام في سان فرانسيسكو، فأخرجتهم من أحلامهم.

«في الواقع أن روز ليست امرأة سيئة»، جازف بارسام بالقول: «لم

يكن من السهل عليها أن تعتاد على أساليبنا. فقد كانت فتاة خجولة من كنتاكي عندما التقينا أول مرة».

«يقولون إن الطريق إلى جهنم معبّد بالنوايا الحسنة»، قال العمّ ديكران.

لكن بارسام تجاهله، وتابع كلامه: «هل يمكنكم أن تتخيّلوا هذا؟ حتى أنهم لا يبيعون الكحول هناك! إنه ممنوع! هل تعرفون أن أهم مناسبة في إليزابيث تاون بكنتاكي هي ذلك المهرجان السنوي الذي يرتدي فيه الناس ثياباً مثل الآباء المؤسسين؟» وقلب بارسام كفّيه إلى الأعلى، إما ليثبت وجهة نظره، أو ليلفت انتباه الله في دعاء يائس، «ثم يذهبون إلى وسط البلدة للقاء الجنرال جورج آرمسترونغ كستر!».

«لهذا السبب لم يكن عليك أن تتزوّجها في المقام الأول». قال العمّ ديكران بهدوء. فقد تلاشى منه الآن الغضب، وحلت محله معرفته بأنه لا يستطيع أن يظل غاضباً من ابن أخيه الذي يحبه كثيراً.

«إن ما أريد أن أقوله هو أنه لا توجد لدى روز خلفية متعددة الثقافات»، قال بارسام، «فقد كانت الطفلة الوحيدة لأبوين لطيفين جنوبيين يديران مخزناً للخرداوات، وكانت تعيش الحياة التي تحياها بلدة صغيرة، وفجأة وجدت نفسها وسط هذه العائلة الكاثوليكية الأرمنية الكبيرة الممتدة التي تعيش في الشتات. عائلة ضخمة ذات ماض مؤلم للغاية! فكيف يمكنكم أن تتوقعوا أن تتأقلم مع كلّ هذا بهذه السهولة؟».

«حسناً، لم يكن هذا سهلاً علينا أيضاً»، قالت العمّة فارسينيغ معترضة، مشيرة بأسنان شوكتها إلى أخيها قبل أن يسبقهم إلى قطعة كفتة أخرى. وبخلاف أمّها، كانت تتمتع بشهية جيدة، فقدمت لها كمية الطعام التي تتناولها يومياً تقريباً، فضلاً عن أنها كانت قد أنجبت توأماً في الآونة الأخيرة، وكانت معجزة حقاً أن تظل نحيفة هكذا. «عندما تفكر أن الطعام

الوحيد الذي تعرف طهيه هو شواء الخروف الفظيع في شكل أقراص! ففي كلّ مرة كنا نأتي إلى بيتك، كانت تضع ذلك المئزر القذر وتشوي لحم خروف».

ضحك الجميع ما عدا بارسام.

«أوه، لكني يجب أن أكون منصفة»، واصلت العمّة فارسينيغ كلامها، سعيدة باستجابة مستمعيها، «وكانت بين الحين والآخر تغيّر نوع الصلصة. ففي بعض الأحيان، كنا نأكل شواء الخروف بصلصة تيكس ميكس الكثيرة التوابل، وفي أوقات أخرى، كنا نتناول الشواء بصلصة الكريمة. . . كان مطبخ زوجتك أرضاً متنوعة من الأطعمة!».

«الزوجة السابقة!» صحّحت العمّة زاروهي مرة أخرى.

«لكنكم قسوتم عليها كثيراً»، قال بارسام، دون أن ينظر إلى أي منهم بشكل خاص، وأضاف: «انتبهوا، إن أول كلمة أرمنية تعلمتها كانت كلمة «أودار».

«لكنها هي نفسها أودار». انحنى العمّ ديكران إلى الأمام، وصفع ابن أخيه على ظهره. «إذا كانت أودار، فلماذا لا ندعوها أودار؟».

هزته الصفعة أكثر مما هزه السؤال، تجرأ بارسام وأضاف: «حتى إن بعض الأشخاص في هذه العائلة أطلقوا عليها اسم شوكة».

«وما الخطأ في ذلك؟» أخذت العمّة فارسينيغ الأمر شخصياً، بين لقمتيها الأخيرتين من التشوريك. «يجب على هذه المرأة أن تغيّر اسمها من روز إلى شوكة. فاسم روز لا يلائمها. هذا الاسم الجميل لتلك المرارة الشديدة. لو كان لدى أباها وأمّها المسكينين أدنى فكرة عما ستكون عليه، صدقني، يا أخي العزيز، لسمياها شوكة!».

«كفى مزاحاً!».

كانت شوشان تشكمكجيان هي التي قالت هذا. لم تكن الصرخة تبدو

وكأنها لوم أو تحذير، بل كان لها كلا التأثيرين بطريقة ما على جميع من في الغرفة. وتحوّل الغروب الآن إلى ليل، وبدأ الظلام يخيم. نهضت الجدة شوشان وأشعلت ضوء الثريا الكريستال.

«يجب أن ننقذ آرمانوش من الأذى، هذا هو أهم شيء»، قالت شوشان تشكمكجيان بهدوء، وبرزت تحت الضوء الأبيض الخطوط الكثيرة على وجهها والعروق الأرجوانية الرقيقة في يديها: «إن هذا الحمل الوديع بحاجة إلينا، كما أننا بحاجة إليها».

بهت وجهها من التصميم إلى الاستسلام عندما هزّت رأسها وأضافت: «لا يمكن إلا لأرمني أن يفهم ماذا يعني أن يقلّ عددنا كثيراً. لقد تقلّصنا مثل شجرة قُلِّمت... تستطيع روز أن تخرج مع من تشاء، بل وأن تتزوّج من تريد، لكن ابنتها أرمنية، ويجب أن تنشأ وتتربى كأرمنية».

ثم انحنت إلى الأمام وقالت لابنتها الكبرى وهي تبتسم: «ناوليني ذلك النصف من صحنك. بمرض سكّري أم لا، كيف يمكن للمرء أن يرفض البورما؟».

٤

بندق محمّص

لم تكن آسيا قازانجي تعرف ما الذي يجعل بعض الناس يغرمون بالاحتفال بأعياد الميلاد، التي تكرهها هي. بل كانت تمقتها بشدة.

ربما تعود كراهيتها لأعياد الميلاد إلى أيام طفولتها، عندما كان يُصنع لها في كلّ عيد ميلاد قالب الكاتو نفسه ـ كاتو بالتفاح بثلاث طبقات تعلوه طبقة من الكراميل (شديدة الحلاوة) وعليها قشطة الليمون المخفوقة (شديدة الحموضة). ولم تكن تعرف كيف يمكن أن تتوقع خالاتها أنهن يدخلن البهجة إلى نفسها عندما يقدمن لها قالب الكاتو هذا، رغم أن كلّ ما كنّ يسمعنه منها سيلاً من الاحتجاجات. وربما كن ينسين ذلك. وربما كانت ذكريات عيد الميلاد في السنة الماضية تمحى من ذاكرتهن. ربما كان الأمر كذلك. لكن عائلة قازانجي لم تكن تنسى قصص الآخرين على الإطلاق، أما عندما يتعلق الأمر بقصصها هي، فهي تنساها تماماً.

هكذا إذن، ففي كلّ عيد ميلاد، كانت آسيا قازانجي تأكل الكاتو نفسه، وتكتشف في كلّ مرة حقيقة جديدة عن نفسها. فعندما كانت في الثالثة من عمرها مثلاً، تبين لها أنها تستطيع أن تحصل على أيّ شيء تريده تقريباً، بشرط أن تفتعل نوبات غضب. لكنها أدركت بعد ثلاث سنوات، في عيد ميلادها السادس، أنه من الأفضل أن تتوقف عن افتعال نوبات الغضب، لأنها مع كلّ حادثة، رغم تلبية جميع مطالبها، فإن فترة طفولتها

تطول أكثر. وعندما بلغت الثامنة، بدأت تعرف شيئاً كانت تشعر به، لكنها لم تكن متأكدة منه، وهو أنها لقيطة. وعندما تفكّر بالأمر، تجد أنه لم يكن لها أي فضل في اكتشاف هذه المعلومة بالذات، لأنه لولا جدتها كلثوم، لاستغرق اكتشاف هذه الحقيقة وقتاً أطول بكثير.

ففي ذات يوم كانت هي وجدتها في غرفة الجلوس وحدهما. وكانت الجدة كلثوم منهمكة في سقاية نباتاتها، وكانت آسيا تراقبها وهي تلوّن صورة مهرّج في كتاب تلوين للأطفال.

«لماذا تتكلّمين مع نباتاتك؟» أرادت آسيا أن تعرف.

«النباتات تتفتح بسرعة إذا كلمتها».

«حقاً؟» قالت آسيا مبتسمة.

«حقاً. إذا قلت لها إن التراب أمّها والماء أبوها، فهي تتشجع وتتفتح».

لم تطرح آسيا سؤالاً آخر، بل عادت إلى تلوينها. فلوّنت بدلة المهرّج باللون البرتقالي ولوّنت أسنانه باللون الأخضر. وفيما بدأت بتلوين حذائه بلون قرمزي ساطع، توقّفت، وبدأت تقلّد جدتها. «يا حلوتي، يا حلوتي! التربة أمّك، والماء أبوك».

تظاهرت الجدّة كلثوم بأنها لم تلحظ ذلك. وعندما لاحظت آسيا عدم مبالاة جدتها، زادت من جرعة أنشودتها.

جاء دور البنفسج الأفريقي في السقاية، النبتة الأثيرة لدى الجدة كلثوم. فراحت تهدل للزهرة، «كيف حالك يا حلوتي؟» فرددت آسيا، «كيف حالك يا حلوتي؟».

زمّت الجدة كلثوم شفتيها وقالت: «كم أنت أرجوانية وجميلة!».

«كم أنت أرجوانية وجميلة!».

عند ذاك زُمّت الجدة كلثوم فمها وغمغمت، «لقيطة». قالت الكلمة بصوت خفيض، ولم تعرف آسيا على الفور أن جدتها كانت تخاطبها هي، لا الزهرة.

لم تعرف آسيا معنى الكلمة إلا بعد سنة، عندما اقترب موعد عيد ميلادها التاسع، عندما أطلق عليها أحد الصبية في المدرسة كلمة «لقيطة». وعندما بلغت العاشرة، اكتشفت أنه، بخلاف جميع الفتيات الأخريات في غرفة صفها، لم يكن يوجد في عائلتها رجل واحد تحتذي به. واستغرقت ثلاث سنوات أخرى لتفهم أن هذا قد يحدث تأثيراً دائماً على شخصيتها. ففي أعياد ميلادها الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، كشفت على التوالي ثلاث حقائق أخرى عن حياتها: أن عائلات أخرى لا تشبه عائلتها، وأن بعض العائلات قد تكون عادية؛ وأنه يوجد في عائلتها نساء كثيرات وأسرار كثيرة عن رجال اختفوا في سن مبكرة وعلى نحو غريب أيضاً؛ وأنها مهما فعلت، فلن تصبح امرأة جميلة على الإطلاق.

وعندما بلغت آسيا قازانجي السابعة عشرة من عمرها، فهمت كذلك أنها لم تعد تنتمي إلى إستانبول أكثر من اللوحات التي كتب عليها «طريق قيد الإنشاء» أو «بناية قيد الترميم» التي تضعها البلدية بشكل مؤقت، أو الضباب الذي يكتنف المدينة في الليالي الكئيبة، وينقشع مع بزوغ الفجر، الذي لم يكن يؤدي إلى أي مكان، بل كان يتجمع ليصبح لا شيء.

وفي السنة التالية مباشرة، وبالتحديد قبل يومين من عيد ميلادها الثامن عشر، سرقت آسيا علبة الدواء في البيت، وابتلعت جميع الحبوب فيها. وفتحت عينيها لتجد نفسها في سرير محاطة بجميع خالاتها وجدّتها كلثوم، بعد أن أرغمنها على شرب منقوع من الأعشاب الموحلة ذات رائحة كريهة، وكأنه لم يكن يكفي أنهن جعلنها تتقيأ كلّ ما كان في معدتها، فقد بدأت سنتها الثامنة عشرة وهي تعرف حقيقة أخرى لكي تضاف إلى اكتشافاتها السابقة: أن الانتحار في هذا العالم الغريب، ميّزة نادرة

كالياقوت، وأنها في عائلة كعائلتها، لن تكون بالتأكيد واحدة من المحظوظات.

من الصعب معرفة إن كانت هناك علاقة بين هذا الاستنتاج وما أعقب ذلك، إلا أن هوسها بالموسيقى بدأ يتشكل في تلك الأيام. لم يكن حبّاً مجرداً شاملاً للموسيقى، ولم يكن ولعاً ببعض أنواع الموسيقى المختارة، بل كان تعلقاً بمغن واحد أحد وهو جوني كاش.

كانت تعرف كلّ شيء عنه: تفاصيل دقيقة وكثيرة عن مسيرته من آركانساس إلى ممفيس، ورفاقه في الشراب، وزيجاته، وتقلباته، وصوره، وإيماءاته، وبالطبع أغانيه. واتخذت من أغنيته «ثلاثة عشر» شعارها الدائم وهي في الثامنة عشرة، وقررت آسيا أنها هي أيضاً ولدت بروح مشبعة بالتعاسة، وأنها ستجلب المتاعب أينما ذهبت.

اليوم، وفي عيد ميلادها التاسع عشر، شعرت أنها نضجت، بعد أن سجلت ملاحظة عقلية عن حقيقة أخرى من حياتها: أنها بلغت الآن العمر الذي ولدتها فيه أمّها. وبعد أن توصلت إلى هذا الاكتشاف، لم تكن تعرف تماماً ماذا ستفعل به. فكلّ ما عرفته أنها من الآن وصاعدا، لا يمكنهن أن يعاملنها كطفلة.

لذلك قالت متذمرة: «إني أحذّركن! فأنا لا أريد قالب الكاتو لعيد ميلاد هذه السنة!».

عندما كوّرت كتفيها، واسندت يديها على خصرها، نسيت للحظة أنها عندما تقف هكذا، فإن صدرها يندفع إلى الأمام. وعندما كانت تلاحظ ذلك، كانت تعود إلى وقفتها المحدودبة، لأنها كانت تكره صدرها الكبير، الذي اكتشفت أنه عبء وراثي آخر من أمّها.

وكانت تشبّه نفسها أحياناً بالغول الذي سيظهر يوم القيامة، والذي يتألف كلّ عضو من أعضائه من حيوان مختلف. ومثل ذلك المخلوق

الهجين تماماً، كانت تحمل جسداً مكوناً من أجزاء منفصلة ورثتها عن النسوة في عائلتها. فقد كانت طويلة، أطول بكثير من معظم النساء في إستانبول، مثل أمّها زليخة، التي كانت تدعوها «خالتي» أيضاً؛ وكانت لديها تلك الأصابع النحيفة ذات العروق الرفيعة الكثيرة مثل أصابع الخالة شكرية؛ والذقن المدبّبة على نحو مزعج التي ورثتها عن خالتها فريدة؛ والأذنان الفيليتان اللتان ورثتهما عن الخالة بانو. وكان أنفها أكثر الأنوف المعقوفة بوضوح شديد، الذي لم يكن له شبيه سوى أنفان آخران فقط في تاريخ العالم ـ أنف السلطان محمد الفاتح وأنف الخالة زليخة. فقد كان السلطان محمد قد فتح إستانبول، شئت أم أبيت، وهي حقيقة هامة لم تكن تجعله يكترث بشكل أنفه كثيراً. أما الخالة زليخة، فقد كانت شخصيتها قوية جداً، وجسدها فاتناً إلى درجة أن أحداً لن يعتبر أن أنفها أو أن أيّ جزء آخر ـ عيب فيها. لكن بما أنه لا توجد إنجازات إمبراطورية في سيرتها الذاتية، ونظراً لعجزها الطبيعي عن جذب الناس وسحرهم، كانت آسيا تتساءل، ماذا يمكنها أن تفعل بأنفها؟

وكانت قد ورثت بعض الصفات الجيدة أيضاً من قريباتها. وأول هذه الأشياء، شعرها! فقد كان شعرها أجعد، أسود داكناً، أهوشاً ـ نظرياً، فهو يشبه شعر جميع النساء في العائلة، وعملياً، فهو لا يشبه إلا شعر الخالة زليخة. فقد كانت معلّمة المدرسة الثانوية المنضبطة، الخالة شكرية مثلاً، ترفع شعرها دائماً إلى الأعلى في شكل شينيون، بينما تُستثنى الخالة بانو من أيّ مقارنة، لأنها لا تكاد ترفع المنديل عن رأسها. أما الخالة فريدة، فكانت تغيّر لون شعرها وتسريحته بطريقة مسعورة، وذلك حسب المزاج الذي يعتريها. أما الجدّة كلثوم، فكان شعرها يشبه القطن، لأنه أصبح أبيض كالثلج وكانت ترفض أن تصبغه، بدعوى أن ذلك لا يليق بامرأة عجوز في عمرها. أما الجدّة ما ـ الهيفاء فكان شعرها أحمر. وقد يكون الزهايمر الذي كان يشتد حدة يوماً بعد يوم جعلها تنسى أموراً كثيرة، بما

في ذلك أسماء أولادها، لكنها لم تنس حتى هذا اليوم أن تصبغ شعرها بالحنّاء.

وفي النهاية ضمت آسيا قازانجي إلى قائمة الصفات الوراثية الإيجابية التي ورثتها عن العائلة، عينيها اللوزيتين اللتين تشبهان عيون المها (من الخالة بانو)، وجبينها العالي (من الخالة شكرية)، وتقلّب المزاج الذي جعلها عرضة للانفجار بسرعة كبيرة، لكنه كان يجعلها أيضاً، وعلى نحو غريب، تشعر بأنها لا تزال على قيد الحياة (من الخالة فريدة). ومع ذلك، فقد كانت تكره أن ترى مع كلّ سنة تمر، بأنها تزداد شبهاً بخالاتها أكثر وأكثر أكثر. باستثناء شيء واحد: ميلهن نحو اللاعقلانية. إذ لم تكن نساء عائلة قازانجي يعرفن العقلانية على الإطلاق. وكانت آسيا قد قطعت عهداً على نفسها منذ فترة من الزمن، بأن لا تتصرّف مثلهن، وألا تنحرف عن مسار عقلها الذي يمتاز بالتحليل والعقلانية.

وفي عيد ميلادها التاسع عشر، أصبحت آسيا صبية يدفعها حافز قوي لإثبات شخصيتها بأنها أصبحت قادرة على التمرد على كلّ شيء. لذلك، فإن كانت قد كرّرت اعتراضها على الكاتو، وبحماس أشد هذه المرة، فإن ثمة سبباً أعمق يكمن وراء غضبها: «لا مزيد من الكاتو الغبي لي».

«تأخرتِ كثيراً يا آنسة، لقد صُنع وانتهى»، قالت الخالة بانو، بعد أن رفعت نظرها عن ورقة اللعب ثماني خمسات ونظرت إلى آسيا. وإذا لم تُظهر الورقات الثلاث التالية أنها واعدة، فإن ورق اللعب الملقى على الطاولة أمامها سيتجه نحو طالع سيء. «لكن تظاهري بأنك لا تعرفين شيئاً، وإلا لانزعجت أمّك المسكينة. من المفروض أن يكون هذا مفاجأة بالنسبة لك».

«كيف يمكن أن يكون شيئاً متوقّعاً جداً مفاجأة؟» قالت آسيا متذمرة. فقد أصبحت تدرك جيداً الآن بما أنها تنتمي إلى عائلة قازانجي، فإن هذا يعني، بين أشياء أخرى، أن تتبنى خيمياء السخافة، وتحوّل باستمرار

الأشياء السخيفة إلى نوع من المنطق يمكنك أن تقنع الجميع به، وبمجهود ضئيل، يمكنك أن تقنع حتى نفسك.

«أنا التي يفترض أن تتوقع وتتنبأ في هذا البيت، لا أنت». غمزت الخالة بانو.

هذا صحيح، على الأقل إلى حدّ معين. فبعد أن نمّت موهبتها في قراءة البخت لسنوات طويلة، بدأ يأتي إلى البيت بعض الزبائن لزيارة الخالة بانو لتكشف لهم طالعهم وتقرأ بختهم وبدأت تجمع نقوداً. ففي إستانبول، لا يأخذ قارئة البخت سوى رمشة عين حتى تصبح ذات سمعة أسطورية. وإن كان الحظ حليفك، يكفي أن تنجح في قراءة طالع أحدهم، حتى يصبح هذا الشخص أهم زبائنك. وبمساعدة الريح والنوارس، ينتشر النبأ بسرعة مذهلة في أرجاء المدينة، إلى درجة أنه لا يمضي أكثر من أسبوع حتى تجد رتلاً من الزبائن ينتظرون أمام باب بيتك. وبهذه الطريقة شقّت الخالة بانو طريقها، وصعدت سلّم فنّ قراءة البخت، وكانت مع كلّ درجة تصعدها، تزداد شهرة. وكانت زبوناتها يفدن من جميع أنحاء المدينة، عذراوات وأرامل، صبايا وجدّات لا أسنان لهن، فقيرات وثريات، جميعهن غارقات في هواجسهن ووساوسهن، وجميعهن مستعدات لبذل حياتهن كي يعلمن ما تخبئه لهن فورتانا[1]، تلك القوة الأنثوية المتقلّبة. وكن يأتين وأفواههن مليئة بالأسئلة، ويغادرن وهن محملات بأسئلة إضافية. وبعضهن يدفعن مبالغ كبيرة للإعراب عن امتنانهن، أو كان يخيّل لهن أنه باستطاعتهن رشوة فورتانا، إلا أنه كانت هناك أخريات، لم يكن يخرج من جيوبهن فلس واحد. وعلى اختلافهن، كان ثمة شيء أساسي واحد يجمع بين أولئك الزبائن: وهو أنهن جميعهن من النساء. ففي اليوم الذي أعلنت فيه الخالة بانو أنها عرّافة، أقسمت بألا تستقبل زبائن ذكور.

---

(١) إلهة الحظ عند الرومان (المترجم).

لقد تغيّرت أشياء عديدة في الخالة بانو تغيراً جذرياً أيضاً، بدءاً من مظهرها. ففي بداية عملها كقارئة بخت، كانت تسير في البيت وهي تستعرض شالات قرمزية مطرزة ومبهرجة تلقيها بإهمال حول كتفيها. لكنها سرعان ما استبدلت الشالات بدثارات مصنوعة من الكشمير، ثم بدثارات مصنوعة من شعر الماعز، وبعدها بدثارات ذات عمائم من الحرير معقودة بشكل طليق، ودائماً بتدريجات اللون الأحمر. ثم أعلنت الخالة بانو بغتة أنها كانت تتأمّل سرّاً منذ مدة لا يعرفها إلا الله، وقررت أن تنسحب من كلّ شيء مادي ودنيوي، وتكرّس نفسها كلية لخدمة الله. ولتحقيق هذه الغاية، أعلنت بوقار أنها أصبحت على استعداد للدخول في مرحلة التوبة والتكفير عن الذنوب، والتخلي عن زخارف الدنيا ومباهجها، كما كان يفعل الدراويش في الماضي.

«لكنك لست من الدراويش»، قالت أخواتها متهكمات بصوت واحد، عازمات على أن يثنينها عن انتهاك المحرمات بهذا الشكل، وهو أمر لم يسمع به أحد في حوليات عائلة قازانجي. ثم بدأت الأخوات الثلاث يثرن الاعتراضات، كلّ واحدة بصوت أعلى وأشد صلفاً من الأخرى.

«تذكري أن الدراويش كانوا يرتدون أكياساً خشنة أو أردية صوفية، لا أوشحة من الكشمير»، قالت الخالة شكرية، أكثر واحدة فيهن امتلاء بالعاطفة.

ابتلعت الخالة بانو ريقها باضطراب، منزعجة من ملابسها، منزعجة من جسمها.

«كان الدراويش ينامون على القشّ، لا على فرش واسعة محشوة بالريش»، انضمت الخالة فريدة إلى الجوقة، أكثرهن خبلاً واختلالاً من الناحية العقلية.

وقفت الخالة بانو صامتة، تحدّق في الغرفة لتتفادى نظرات أخواتها

اللاتي كن يحققن معها. ماذا يمكنها أن تفعل، فألم ظهرها سيقتلها إن لم تنم على سرير خاص.

«بالإضافة إلى ذلك، لا توجد للدراويش «نفس» انظري إلى نفسك!» قالت الخالة:

زليخة، أكثرهن شذوذاً وغرابة.

وشنت الخالة بانو هجوماً مضاداً للدفاع عن نفسها.

«ولا أنا. هذا يكفي. لقد ولّت تلك الأيام». ثم أضافت بصوتها الصوفي الجديد، «سأدخل معركة مع «نفسي» وسأنتصر.

في عائلة قازانجي، كلما تجرأت إحداهن على القيام بشيء غير عادي، كانت تردّ الأخريات جميعهن بالطريقة ذاتها، متبعات الأسلوب القديم، الذي يمكن تلخيصه على النحو التالي: «هيا امضي. انظري إن كنا نهتم بذلك». لذلك، لم يأخذ أحد الخالة بانو على محمل الجد. وعندما رأت نظرات الشك في عيونهن، توجّهت إلى غرفتها وصفقت الباب وراءها، ولم تفتحه مرة أخرى لمدة أربعين يوماً إلا للقيام بزيارات سريعة إلى المطبخ والمرحاض. وفي المرّة الوحيدة التي تركت فيها الباب موارباً، كانت عندما علقت لوحة من الورق المقوى على باب غرفتها تقول: **تخلّ عن النفس يا من تدخل إلى هنا!**

في البداية، حاولت بانو أن تأخذ معها الباشا الثالث، الذي كان آنذاك في أواخر أيامه على هذه الأرض. فقد خيّل لها أنها ظنت أنه يستطيع أن يرافقها طوال فترة التكفير عن ذنوبها، إلا أن الدراويش لم يكونوا يربون قططاً. إلا أن الباشا الثالث لم يتحمل حياة النسك هذه، لأنه كان يتمتع بمباهج كثيرة في الحياة، بدءاً من تناول جبن الفيتا وانتهاءً بقضم أسلاك الكهرباء. فلم تمض أكثر من ساعة داخل زنزانة الخالة بانو، حتى بدأ الباشا الثالث يطلق سلسلة عالية من المواء، وراح يخدش الباب بقوة،

ففتحت له الباب وأخرجته على الفور. وبعد أن فقدت شريكها الوحيد، غرقت الخالة بانو في وحدتها، وامتنعت عن الكلام، وأصبحت خرساء وصمّاء أمام الجميع. حتى أنها توقّفت عن الاستحمام أيضاً، وعن تمشيط شعرها، بل حتى عن مشاهدة مسلسلها التلفزيوني الأثير لديها، «لعنة لبلاب الفتنة» وهي تمثيلية برازيلية تعرضت فيه عارضة أزياء رقيقة القلب إلى جميع أنواع الخيانات من أكثر الأشخاص الذين كانت تحبهم.

لكن الصدمة الحقيقية جاءت، عندما لم تعد الخالة بانو، المرأة التي كانت تتمتع بشهية هائلة على الدوام، تأكل شيئاً سوى الخبز والماء. ومع أنها كانت معروفة بولعها بالكربوهيدرات، وخاصة الخبز، فإن أحداً في العائلة لم يكن يصدق أنها تستطيع أن تعيش على الخبز وحده. ولإغرائها لكي تعود شهيتها إلى الأكل كما كانت في السابق، بذلت أخواتها الثلاث كل ما بوسعهن، فرحن يطهين أطباقاً كثيرة، ويملأن البيت بروائح الحلوى، والسمك المقلي، واللحم المشوي، التي غالباً ما تكون مشبعة بالسمن والزبدة التي تزيد من حدة الرائحة.

لم تتنازل الخالة بانو قيد أنملة. وإن كان قد حدث شيء، فهو أنها تمسكت بما كانت تفعله بحزم أشد، وبخبزها الجاف. وطوال أربعين يوماً وليلة، ظلت بعيدة عن الأخريات اللاتي يعشن تحت سقف واحد - وأضحى غسل الصحون وغسيل الثياب ومشاهدة التلفزيون والثرثرة والقيل والقال مع الجيران - روتين الحياة اليومية، كفراً لم تعد تريد أن تقاربه. وفي الأيام التالية، عندما كانت ترغب الأخوات في رؤية ماذا تفعل، كن يجدنها تتلو القرآن الكريم. وأصبحت متجهمة حادة المزاج، بعد أن كانت مرحة، وأصبحت غريبة على اللاتي كن يعرفنها حق المعرفة طوال حياتها. وفي صباح اليوم الحادي والأربعين، وفيما كانت الأخريات يتناولن السجق المشوي والبيض المقلي على مائدة الفطور، خرجت بانو من غرفتها،

ووجهها يشعّ بابتسامة بهيجة، وبريق غريب يلتمع في عينيها، وعلى رأسها وشاح أحمر كرزي اللون.

«ما هذا الشيء التعس على رأسك؟» كانت أول ردّة فعل للجدة كلثوم، التي لم تكن تلين قيد أنملة، وظلت طوال هذه السنين تشبه إيفان الرهيب.

«بدءاً من هذه اللحظة سأغطّي رأسي كما يطلب مني ديني».

«ما هذا الهراء؟» قالت الجدة كلثوم عابسة: «فقد نزعت النساء التركيات الحجاب منذ تسعين سنة. وأنا لا أسمح لأي من بناتي أن تخون الحقوق التي منحها القائد العظيم أتاتورك للمرأة في هذا البلد».

«نعم، لقد مُنحت المرأة حقّ التصويت في عام ١٩٣٤»، ردّدت الخالة شكرية. «إن كنت لا تعرفين، فالتاريخ يتقدّم إلى الأمام، ولا يرجع إلى الوراء. اخلعي هذا الشيء فوراً!».

لكن الخالة بانو لم تفعل ذلك.

وظلت تغطي رأسها بالمنديل، وبعد أن اجتازت بنجاح اختبار التكفير عن الذنوب والسجود والتقوى ـ أعلنت عن أنها قد أصبحت مبصّرة.

ومثل مظهرها، تعرضت طريقتها في التبصير لتغيير كبير في مسيرتها الغيبية. ففي البداية، كانت تستخدم فناجين القهوة فقط لقراءة مستقبل زبوناتها، إلا أنها مع الزمن بدأت تستخدم شيئاً فشيئاً أساليب جديدة بالإضافة إلى الطرق غير التقليدية المعروفة، شملت ورق التارو، وحبات الفاصولياء المجفّفة، والقطع النقدية الفضّية، والسبحة، والأجراس، واللآلئ المقلدة، واللآلئ الحقيقية، وحصى المحيط ـ أيّ شيء يجلب أخباراً من عالم الغيب. وفي بعض الأحيان، كانت تتكلم بحماس إلى كتفيها حيث، كما كانت تدّعي، يجلس جنيان غير مرئيين، يدليان قدميهما. الجني الطيب على الكتف اليمنى، والجني السيء على الكتف

اليسرى. ومع أنها كانت تعرف اسميهما، ولكي لا تلفظهما بصوت مرتفع، كانت تناديهما ببساطة «السيدة حلوة» و«السيد مرّ»، على التوالي.

«إذا كان هناك جني سيء على كتفك اليسرى، فلماذا لا ترمينه عنك؟» سألت آسيا خالتها ذات مرة.

«لأنه توجد أوقات نحتاج فيها جميعنا إلى صحبة السيئين»، جاء جوابها.

حاولت آسيا أن تعبس وحركت عينيها، لكن التأثير الوحيد الذي أحدثته هو أنها أبدت وجهاً طفولياً. وراحت تصفّر لحناً من أغنية من أغاني جوني كاش، التي كانت تحبّ أن تتذكره خلال المواجهات العديدة مع خالتها: «لماذا أنا يا إلهي، ماذا فعلت في حياتي. . .»؟!

«ما اللحن الذي تدندنيه؟» سألتها الخالة بانو بارتياب. فبما أنها لم تكن تعرف شيئاً من اللغة الإنكليزية، كانت ترتاب بأيّ لغة لا تفهم منها شيئاً.

«كنت أدندن أغنية تقول بما أنكِ أكبر خالاتي سناً فمن المفروض أني تكوني قدوة لي وتعلّمينني الخطأ من الصواب. لكنك تقدمين لي دروساً عن ضرورة الشرّ».

«حسناً، دعيني أخبرك شيئاً»، قالت الخالة بانو بلهجة آمرة، وهي تحدق في ابنة أختها بإمعان، «هناك أشياء سيئة جداً في هذا العالم لا يعرف عنها شيئاً ذوو القلوب الطيبة، باركهم الله. وكما أقول لك، لا بأس إن كانوا لا يعرفون شيئاً عن هذه الأمور لأن هذا يثبت كم هم طيبون. وإلا لما كانوا طيبين، أليس كذلك؟».

كان كلّ ما فعلته آسيا هو أنها أومأت برأسها، وأحست أن لجوني كاش الرأي نفسه.

«لكن إذا صادف ووطئت منجماً من الحقد، فإنك لن تطلبي مساعدة من هؤلاء الناس».

«وهل تظنين أني سأطلب مساعدة من جنيّ خبيث!» قالت آسيا.

«ربما فعلتِ ذلك»، هزّت الخالة بانو رأسها: «إن شاء الله لن تحتاجي إلى هذا في حياتك».

وكان هذا كلّ شيء. فلم تتحدثا ثانية عن حدود الجيد والحاجة إلى عديمي الضمير.

في تلك الفترة، غيّرت الخالة بانو طريقتها في قراءة الطالع مرة أخرى، فانتقلت إلى البندق، الذي غالباً ما يكون بندقاً محمّصاً. وشكّت عائلتها بأن هذا الشيء الجديد، مثل التغيرات الأخرى، قد يكون من باب الصدفة المحضة. إذ يرجح أن الخالة بانو كانت قد رأت إحدى زبوناتها تلتهم البندق، مما جعلها تعتقد أنها تستطيع أن تقرأ في البندق أيضاً. هذا هو الاعتقاد الذي ساد لدى جميع أفراد العائلة. أما الآخرون فكان لديهم رأي مختلف. فقد أشيع في إستانبول أنه بما أنها سيدة مباركة، فلم تكن تطلب نقوداً من زبوناتها الفقيرات، بل كانت تطلب منهن أن يجلبن لها حفنة من البندق فقط. وأصبح البندق رمزاً لطيبة قلبها الكبير. في جميع الأحوال، لم تسهم غرابة أسلوبها إلا في ازدياد شهرتها المنتفخة أصلاً. وأطلق عليها الناس اسم «الأم البندقة»، بل حتى «الشيخة بندقة»، مع أنهن لم يكن يعرفن أن النساء، بقدراتهن المحدودة، لا يستطعن أن يحصلن على مثل هذا اللقب الجليل.

الجني السيء، البندق المحمّص... رغم أن آسيا قازانجي اعتادت على هذه الأمور وعلى أمور غريبة أخرى مع مرور الزمن، فقد بدا أنها تواجه صعوبة في تقبّل اسم أكبر خالاتها سناً. إذ كان من المستحيل عليها أن تقبل أن «الخالة بانو»، قد تصبح «الشيخة بندقة»، لذلك بدأت تتحاشاها لدى وجود زبونات في البيت أو عندما يكون ورق التارو مفتوحاً على الطاولة. لذلك كانت آسيا تتظاهر بأنها لا تسمع هذه الكلمات الأخيرة عندما تتفوه بها خالتها. وكانت ستبقى جاهلة بسعادة لو لم تدخل الخالة

فريدة غرفة الجلوس في تلك اللحظة، حاملة صحناً مسطحاً ضخماً انتصب فوقه قالب كاتو عيد الميلاد.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألت الخالة فريدة آسيا عابسة: «ليس من المفروض أن تكوني هنا؛ عندك درس في الباليه الآن».

لقد أصبح قيد آخر حول كاحل آسيا الآن. فشأن أمهات تركيات كثيرات من الطبقة المتوسطة اللاتي كن يتطلّعن لرؤية أطفالهن يبرعن في جميع الأشياء التي يفترض أن أطفال الطبقات الراقية يفعلونها، كانت عائلتها تنتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا، ترغمها على القيام بأشياء لم تكن تبدي بها أي اهتمام.

«هذا مستشفى مجانين»، دمدمت آسيا في نفسها، وأصبحت هذه الكلمات الثلاث شعارها هذه الأيام، وكانت تكرّرها بحرية. ثم رفعت صوتها قليلاً وقالت: «لا تقلقي. في الحقيقة، كنت على وشك أن أغادر».

«ما الفائدة من ذلك الآن؟» قالت الخالة فريدة، مشيرة إلى الصحن. «يفترض أن تكون هذه مفاجأة!».

«إنها لا تريد قالب الكاتو هذه السنة»، تدخلت الخالة بانو من الزاوية التي تجلس فيها وهي تقلب أول ورقة من أوراق التارو الثلاث التي كانت تنتظر. كانت كبيرة الكاهنات. رمز الإدراك اللاواعي ـ فاتحة الخيال والمواهب الخفية، ولكنا كانت أيضاً فاتحة للمجهول. زمّت شفتيها وقلبت الورقة التالية: البرج. رمز التغيرات الصاخبة، انفجارات عاطفية، وهبوط مفاجئ. نظرت الخالة بانو بإمعان لمدة دقيقة. ثمّ قلبت الورقة الثالثة. يبدو أنهم سيستقبلون زائراً قريباً، زائراً غير متوقّع من وراء المحيطات.

«ماذا تقصدين أنها لا تريد قالب الكاتو؟ إنه عيد ميلادها!» صاحت الخالة فريدة، وقد زمّت شفتيها وانطلقت ومضة غضب من عينيها. لكن

يبدو أن فكرة أخرى كانت قد خطرت ببالها لأنها التفتت إلى آسيا ونظرت شزراً، «هل تخشين أن يكون أحدهم قد دسّ السمّ في الكاتو؟».

نظرت إليها آسيا مندهشة. فبعد كل هذا الزمن وهذه التجربة، لم تتمكن من أن تضع إستراتيجية، الإستراتيجية الذهبية التي تقول بالتزام الهدوء إزاء نوبات غضب الخالة فريدة. فبعد أن مكثت بإخلاص في ربوع «شيزوفرانيا خبل البلوغ» لسنوات عديدة، انتقلت الخالة فريدة مؤخراً إلى جنون الارتياب. وكنّ كلما بذلن محاولة لإعادتها إلى أرض الواقع، ازدادت ارتياباً وشكاً بهن.

«هل تخشى أن تكون قد دست واحدة منا السم في الكاتو؟ بالطبع لا، يا غريبة الأطوار غير المؤذية».

التفتت جميع الرؤوس في الغرفة باتجاه الباب حيث تقف الخالة زليخة، التي كانت تضع على كتفيها سترة قطنية، وتنتعل حذاءً ذا كعب عال، وارتسمت على وجهها تعابير غريبة جعلت نظرتها جميلة إلى درجة مفجعة. إذ يبدو أنها انسلت إلى الغرفة ووقفت تستمع إلى الحديث صامتة، هذا إن لم تكن قد اكتسبت موهبة الظهور عندما تريد. وبخلاف معظم النساء التركيات اللاتي ربما كن يتمتعن بارتداء التنانير القصيرة والأحذية ذات الكعب العالي في شبابهن، لم تطوّل زليخة الأولى، وقصّرت الثانية مع تقدمها في العمر. فقد ظل أسلوبها في ارتداء الثياب مبهرجاً كما كان أبداً. وأضافت السنون إلى جمالها، فيما أحدثت أثرها على أخواتها جميعهن. وكما لو كانت تعرف تأثير وجودها، ظلت الخالة زليخة واقفة عند الباب، تمعن النظر في أظافرها المشذّبة والمطلية. فقد كانت شديدة الاهتمام بيديها لأنها تستعملهما في عملها. فلم تكن زليخة تميل للعمل في المؤسسات البيروقراطية، أو في أيّ مجال قيادي، وبما أن غضباً وسخطاً شديدين كانا يعتملان في داخلها، فقد أدركت في سن مبكّرة أن عليها أن تختار مهنة تجعلها مستقلة ومبتكرة ـ وإن أمكن، إحداث قليل من الألم.

فقبل عشر سنوات، افتتحت الخالة زليخة صالوناً للوشم، وجمعت مجموعة واسعة من التصاميم الأصلية. بالإضافة إلى تصاميم من الفنّ الكلاسيكي ـ ورود قرمزية، فراشات ذات ألوان قزحية، قلوب يضخها الحبّ ـ والمجموعة المعتادة لحشرات يكسوها الشعر، وذئاب شرسة، وعناكب عملاقة، وقدّمت تصاميمها الخاصة التي ألهمها لها مبدأ أساسي واحد هو: التناقض. فقد كانت هناك وجوه نصفها ذكر ونصفها أنثى، وأجساد نصفها حيوان ونصفها إنسان، وأشجار نصف متفتّحة ونصف جافة. إلا أن تصاميمها لم تكن شعبية. فقد كان زبائنها يرغبون في نقل رسالة عن طريق وشمهم، لا ليضيفوا غموضاً آخر إلى حياتهم المجهولة، بل كانوا يرغبون أن يعبّر وشمهم عن عاطفة بسيطة، لا عن فكرة مجرّدة. وبعد أن تعلمت درسها جيداً، أطلقت زليخة سلسلة جديدة، مجموعة مركّبة من الصور، أطلقت عليها «التغلب على وجع القلب».

فقد صُمم كلّ وشم في هذه المجموعة الخاصة لمخاطبة شخص واحد فقط: الحبيبة السابقة. فقد كان الحزانى واليائسون، الذين يعتريهم الغضب ولحق بهم الأذى، يجلبون صورة أحبائهم السابقين الذين كانوا يريدون أن يقصوهم عن حياتهم إلى الأبد، لكنهم لم يكونوا قادرين بطريقة ما على التوقف عن حبهم. فكانت الخالة زليخة تدرس الأمر جيداً، وتعصر دماغها إلى أن تجد الحيوان الذي يشبه ذلك الشخص. ويصبح الباقي سهلاً. فترسم ذلك الحيوان، وتطبع الوشم على جسم الزبون البائس. وكانت العملية تطبق وفق الممارسة الشامانية القديمة في جعل الطوطم مقبولاً من الداخل ومن الخارج. فلكي تصبح قوياً أمام خصمك، يجب أن تقبله، وترحب به، ثم تحوّله. فيكون الحبيب السابق قد حُقن داخل الجسم، ويبرز في الوقت نفسه إلى الخارج ـ أي يُترك خارج الجلد. فما إن يصبح الحبيب السابق عند هذه العتبة بين الداخل والخارج، ويتحول بمهارة إلى حيوان، وتتغير هيكلية القوّة بين المكتئب ومسبّب

الاكتئاب. وعندها يشعر الحبيب الذي وضع الوشم بالتفوّق، وكأن المفتاح إلى روح الحبيب السابق أصبح في يده أو في يدها. وعند الوصول إلى هذه المرحلة، وما أن يفقد الحبيب السابق جاذبيته أو جاذبيتها، قد يتخلى كسيرو القلوب أخيراً عن وساوسهم، لأن الحبّ يحبّ القوّة. لذلك قد نقع في حبّ الآخرين بطريقة انتحارية، لكننا نادراً ما نستطيع أن نتبادل الحبّ مع الذين وقعوا في حبنا بطريقة انتحارية.

وبما أن إستانبول مدينة القلوب الكسيرة، لم تستغرق الخالة زليخة وقتاً طويلاً لكي توسع عملها الذي أصبح أسطورياً، وخاصة بين الدوائر البوهيمية.

أشاحت آسيا بعينيها كي لا تحدّق طويلاً في عينيّ أمّها، أمّها التي لم تنادها في حياتها «ماما»، والتي لعلها كانت تريد أن تبقي مسافة بينها وبين أمّها فأخذت تناديها «خالة». غمرها شعور قوي برثاء الذات. فمن الظلم الفادح أن يخلق الله فتاة تقل جمالاً عن جمال أمّها بكثير.

«ألم تفهمي بعد لماذا لا تريد آسيا قالب الكاتو هذه السنة؟» قالت الخالة زليخة عندما انتهت من تدقيق طلاء أظافرها. «إنها تخشى أن يزداد وزنها!».

مع أنها كانت تعرف تماماً أنه ليس من المناسب أن تفقد مزاجها في وجه أمّها، صرخت آسيا غاضبة: «هذا ليس صحيح!».

استسلمت الخالة زليخة وانبثق وميض شيطاني من عينيها: «حسناً، يا حلوتي، إذا كان هذا رأيك».

عندها فقط لاحظت آسيا الصينية التي تحملها الخالة فريدة، التي رأت عليها قطعة كبيرة من اللحم وقطعة أكبر من العجين. إنهن سيتناولن مانتي على العشاء هذه الليلة.

«كم مرّة يجب أن أقول إني لا أحب المانتي؟» زأرت آسيا، «تعرفين أني توقّفت عن تناول اللحم». بدا صوتها غريباً لها، أجشاً ودخيلاً.

«قلت لك إنها تخشى أن يزداد وزنها». هزّت الخالة زليخة رأسها وأزاحت خصلة من شعرها الأسود التي سقطت على وجهها.

«ألم تسمعي في حياتك كلمة «نباتية»؟ «هزّت آسيا رأسها أيضاً، لكنها قاومت الرغبة في أن تزيح خصلة من الشعر، خشية أن تقلّد حركة أمّها.

«طبعاً سمعت»، قالت الخالة زليخة، وقوست كتفيها، «لكن لا تنسي يا عزيزتي»، واصلت كلامها بصوت أكثر نعومة لأنها كانت تعرف أنه سيكون مقنعاً أكثر: «إنك قازانجية، ولست نباتية!».

ابتعلت آسيا ريقها بصعوبة، فقد أحست أن فمها قد جفّ فجأة.

«ونحن القازانجية نحبّ اللحم الأحمر! وكلما كان أكثر حمرة، وأكثر دهناً، كان أفضل! إذا لم تصدقيني، اسألي السلطان الخامس، أليس كذلك يا سلطان؟» وأمالت الخالة زليخة رأسها نحو القط السمين المستلقي على وسادته المخملية بالقرب من باب الشرفة. التفت نحو الخالة زليخة بعينين ضبابيتين وكأنه فهم ووافق على ما قالته.

بعد أن خلطت أوراق التارو، قالت الخالة بانو منتهرة من زاويتها: «يوجد في هذا البلد أناس فقراء لا يعرفون ما طعم اللحم الأحمر، ولولا الزكاة التي يقدمها لهم المسلمون المحسنون في عيد الأضحى، الوقت الوحيد الذي يستطيعون أن يتناولوا فيه وجبة طعام دسمة، لما ذاقوه. اذهبي واسألي تلك الأرواح المعدمة ماذا يعني أن يكون المرء نباتياً. يجب أن تكوني ممتنة لكلّ قطعة لحم توضع في صحنك، لأنها رمز البحبوحة والثراء».

«هذا بيت مجانين! جميعنا معتوهون، كلّ واحدة منا». كرّرت آسيا شعارها، وهذه المرة كان صوتها غارقاً في الهزيمة. «سأخرج، أيتها السيدات. بوسعكن أن تأكلن ما ترغبن. لقد تأخرت على درس الباليه!».

لم يلحظ أحد أنها شخرت كلمة باليه وكأنها لعاب تريد أن تبصقه، لكنها شعرت بالاشمئزاز لعدم قدرتها على السيطرة على الرغبة في عمل ذلك.

٥

فانيلا

كان مقهى كونديرا مقهى صغيراً يقع في شارع فرعي ضيّق في الجانب الأوروبي من إستانبول. وهو الحانة الصغيرة الوحيدة في المدينة التي لا تهدر طاقتك فيها في الأحاديث، والتي تعطي فيها النادل بقشيشاً لكي يعاملك معاملة سيئة. كيف ولماذا سُمّي باسم المؤلف الشهير، لا أحد يعرف تماماً ـ وتزيد عدم المعرفة تلك الحقيقة بأنه لا يوجد شيء، فعلاً لا يوجد شيء، داخل هذا المقهى يذكّر بالكاتب الشهير ميلان كونديرا، أو بأي رواية من رواياته.

فعلى امتداد الجدران من الجوانب الأربعة توجد مئات من اللوحات المؤطرة من جميع الأحجام والأشكال، عشرات الصور واللوحات والرسوم، عدد كبير منها إلى حد أن المرء قد يساوره شك إن كانت توجد جدران خلف هذه اللوحات حقاً. إذ يعطي المكان انطباعاً بأنه بني فوق اللوحات المؤطرة، ولم يشيد من الطوب والحجر. وفي جميع هذه اللوحات، بلا استثناء، تشرق صور شوارع. طرق سريعة عريضة في أمريكا، طرق سريعة لا نهاية لها في أستراليا، طرق سريعة مكتظة في ألمانيا، جادات متلألئة في باريس، شوارع فرعية مزدحمة في روما، دروب ضيقة في ماكو بيكو، طرق قوافل منسية في شمال أفريقيا، وخرائط طرق التجارة القديمة على امتداد طريق تجارة الحرير، تقتفي آثار خطى

ماركو بولو ـ باختصار، كانت هناك صور طرق من جميع أنحاء العالم. وكان الزبائن سعداء تماماً بهذا الديكور. فقد كانوا يظنون أنه بديل مفيد عن الأحاديث العقيمة التي لا تؤدي إلى شيء. وعندما لم يكن رواد المقهى يشعرون بالرغبة في الكلام، كانوا يختارون إحدى اللوحات، وذلك حسب زاوية الطاولة التي يجلسون إليها، والمكان الذي يتمنون أن ينطلقوا إليه في ذلك اليوم بالذات. ويبدأون في إمعان النظر في الصورة التي اختاروها بنظرة غائمة هائمة، وشيئاً فشيئاً يقلعون إلى تلك الأرض البعيدة، شيئاً يشتهون أن يجدوه في مكان ما هناك، أي مكان إلا هذا المكان، ويستطيعون أن يحلقوا في اليوم التالي إلى مكان آخر.

مهما كانت المسافة التي يمكن أن تأخذك إليها هذه الصور، كان ثمة شيء واحد أكيد وهو أنه لم يكن لأي منها أي علاقة بميلان كونديرا. فعندما افتتح المقهى، أشيعت نظرية بأن المؤلف كان يزور إستانبول، وفيما كان متجهاً إلى مكان ما، توقّف بالصدفة ليتناول كوباً من الكابوتشينو. لم تكن الكابوتشينو جيدة، ولم يعجبه بسكويت الفانيلا الذي قدموه له مع كوب الكابوتشينو، لكنه سرعان ما طلب كوباً آخر، بل إنه أخذ يكتب قليلاً، لأن أحداً لم يزعجه أو حتى لم يعرفه. في ذلك اليوم، عُمِّد المكان باسمه. بل وزعمت نظرية أخرى أن صاحب المقهى كان قارئاً نهماً لأعمال كونديرا؛ فبعد أن التهم كلّ كتبه وجعله يوقّع له عليها جميعها، قرّر أن يسمي المقهى باسم المؤلف الشهير المفضل لديه. ربما كان هذا الزعم معقولاً أكثر من أي زعم ونظرية أخرى لو لم يكن صاحب المقهى الذي كان في متوسط العمر، أسمر البشرة ورياضياً، ويهوى الموسيقى والغناء، يكنّ كراهية شديدة للكلمة المطبوعة إلى درجة أنه لم يكن يهتمّ بقراءة كلمات الأغنية التي كان يغنيها في كل ليلة جمعة على أنغام فرقته الموسيقية.

أما السبب الحقيقي في تسمية المقهى باسم كونديرا، حسب الآراء

المتضاربة، أن هذه البقعة من الفضاء لم تكن إلا نسجاً من خياله المشوش. فلم يكن المقهى إلا مكاناً خيالياً يضم أناساً خياليين في هيئة زبائن منتظمين. وكان كونديرا قد بدأ منذ فترة يكتب عن هذا المكان، كجزء من مشروع كتاب جديد كي ينفخ فيه الحياة والفوضى، لكنه سرعان ما عزف عن ذلك، وانصرف إلى مشاريع أكثر أهمية ـ تلبية دعوات، إلقاء محاضرات، وتسلم جوائز أدبية ـ وفي غمرة أشغاله الكثيرة نسي هذا الثقب القذر في إستانبول، المكان الذي كان هو المسؤول الوحيد عن وجوده. ومنذ ذلك الحين، يعتري الزبائن في مقهى كونديرا شعور بالعدمية، فينبشون في سيناريوهات مستقبلية كئيبة، ويقطّبون وجوههم في القهوة التركية التي كانت تقدم لهم في أكواب قهوة الإسبريسو، ينتظرون دورهم في مسرحية تشي بثقافة رفيعة يؤدون فيها دور البطولة. ومن جميع النظريات المتعلقة بأصل اسم المقهى، لقي التفسير الأخير هذا قبولاً واسعاً. ورغم ذلك، فقد كان أحد الرواد الجدد، أو أي شخص يريد أن يلفت الانتباه، يخرج بنظرية أخرى بين الحين والآخر، وكان الآخرون يصدقونه لفترة سكون عابرة، فيعبثون بالنظرية الجديدة، إلى أن يسأموها ويعودوا ليغرقوا ثانية في مستنقعاتهم من العبوس وتقطيب الجبين. أما اليوم، عندما بدأ رسّام الكاريكاتير المدمن يعبث بنظرية جديدة عن اسم المقهى، شعر جميع أصدقائه ـ حتى زوجته ـ أنهم مرغمون على الإنصات له بانتباه شديد، دلالة على تأييدهم له، لأنه استجمع شجاعته أخيراً ليفعل ما كان كلّ واحد منهم يرجوه أن يفعله: وهو أن ينضم إلى شلة مدمني الخمر المجهولين.

إلا أن ثمة سبباً ثانياً جعل الجالسين إلى الطاولة يشعرون بالتعاطف تجاهه أكثر من المعتاد. فللمرّة الثانية، وجهت إليه اليوم تهمة إهانة شخص رئيس الوزراء في رسوماته الكاريكاتيرية، وإذا أقرّ القاضي بالتهمة يوم انعقاد الجلسة، فقد يُحكم عليه بالسجن لمدة تقارب ثلاث سنوات.

فقد اشتهر رسّام الكاريكاتير المدمن برسم سلسلة من الرسوم الكاريكاتيرية السياسية التي يصوّر فيها أعضاء الوزارة بأنهم قطيع من الغنم، وصوّر رئيس الوزراء في شكل ذئب في هيئة خروف. لكنه بعد أن مُنع من استخدام هذا الضرب من الاستعارة، كان يريد أن يرسم أعضاء الوزارة في شكل قطيع من الذئاب، ورئيس الوزراء ضبع في ثوب ذئب. وإذا منع هذا الكاريكاتير أيضاً، كان فكّر باستراتيجية الخروج أيضاً: البطاريق! فقد صمّم على أن يرسم جميع أعضاء البرلمان كبطاريق يرتدون بدلات رسمية.

«ها هي نظريتي الجديدة»، قال رسّام الكاريكاتير المدمن، غير مدرك أنه أثار كل هذا الحماس، وفوجئ قليلاً عندما رأى هذا الاهتمام الشديد من مستمعيه ـ بل وحتى من زوجته. فقد كان رجلاً بديناً، ذا أنف روماني أرستقراطي، وعظام خديه مرتفعة، وله عينان زرقاوان حادتان، وفم مزموم ومتجهم. كان يشي بالتعاسة والكآبة منذ زمن بعيد، لكنه بعد أن وقع سراً في حبّ امرأة يستحيل عليه أن يدركها، تضاعف حزنه وغمّه.

وإن أنت أمعنت النظر إليه، لا يمكنك أن تتخيّل أن هذا الرجل يكسب رزقه من الدعابة والسخرية، وأنه يجري وراء هذا الوجه المتجهم سيل من أجمل النكات والدعابات. ومع أنه كان دائماً سكيراً سيء السمعة، تصاعدت مشاكله مؤخراً مع الكحول صعوداً صاروخياً. فقد بدأ يجد نفسه مستيقظاً في أماكن مريبة لم تطأها قدماه من قبل. لكن القشّة التي قصمت ظهر البعير كانت عندما وجد نفسه في صباح أحد الأيام مستلقياً فوق قطعة الحجر التي يغسلون عليها الأموات في باحة أحد المساجد، إذ يبدو أنه أغمي عليه هناك وهو يحاول أن يرتب أمور جنازته. وعندما فتح عينيه عند الفجر، كان يقف إلى جانبه إمام شاب، كان في طريقه ليرفع آذان صلاة الصبح، فبهت عندما رأى شخصاً غريباً غارقاً في النوم ويشخر فوق قطعة الحجر التي يغسلون عليها الأموات. وبعد هذه

الحادثة، شعر أصدقاء رسّام الكاريكاتير المدمن ـ بل وحتى زوجته ـ بالقلق الشديد عليه، وبدأوا يحثونه على أن يرى طبيباً نفسانياً وأن يبدأ في عمل شيء أكثر أهمية في حياته. وحضر أخيراً اجتماعاً لمدمني الخمر المجهولين، وضرب عهداً على نفسه بأن يتوقف عن الشراب. لذلك، مال جميع الجالسين إلى الطاولة ـ حتى زوجته ـ بتعقّل ليستمعوا إلى نظريته مهما كانت.

«لقد سمي هذا المقهى بهذا الاسم لأن كلمة كونديرا رمز. فالاسم ليس مهماً بقدر ما يرمز إليه الاسم».

«وما هو هذا الرمز»؟ سأل كاتب السيناريو غير الوطني الذي يكتب أفلاماً مغرقة في الوطنية، وهو رجل نحيف قصير ذو لحية بدأ يصبغها باللون الرمادي منذ أن توصل إلى اكتشاف مفاده أن الصبايا يفضّلن الرجال الناضجين. فقد كتب مسلسلاً تلفزيونياً شعبياً، يدعى «تيمور قلب الأسد»، يصوّر فيه بطلاً وطنياً قوي البنية، قادراً على سحق جحافل جيوش الأعداء وجعلها كتلاً من اللحم والدم. وعندما كان يُسأل عن برنامجه التلفزيوني المبتذل وعن أفلامه، كان يدافع عن نفسه ويجادل بأنه رجل وطني من حيث المهنة، لكنه شخص عدميّ حقيقي من حيث الاختيار. وقد جاء هذا اليوم ترافقه صديقة أخرى، امرأة جميلة جذّابة لكنها تخلو من أي عمق في التفكير. وكانت أوساط الرجال يطلقون اسماً خاصاً على النساء ذوات العقول الضحلة مثلها: «فاتحات الشهية» ـ لا الوجبة الرئيسية بالطبع، بل وجبة خفيفة سريعة الهضم. وفيما كانت يده غاطسة في صحن اللوز على الطاولة، قهقه وهو يطوّق صديقته الجديدة بذراعه وقال: «هيا، قل لنا ما هو ذلك الرمز».

«الضجر»، قال رسام الكاريكاتير المدمن بعد أن نفث هبة من سيجارته، فأخذت دوائر الدخان تتصاعد من جميع الجوانب، وبما أن جميع روّاد المقهى كان ينفثون دخانهم كالمداخن، فقد انضم خيط الدخان

الرفيع الذي نفثه الرسام بتكاسل إلى السحابة الرمادية السميكة التي تشكلت فوق الطاولة.

أما الشخص الوحيد الجالس معهم الذي لم يكن يدخّن، فهو الصحفي الشاذ، الذي كان يمقت رائحة الدخان. وعندما كان يعود إلى البيت كلّ يوم، كان يخلع ثيابه على الفور ليتخلّص من روائح مقهى كونديرا النتنة. لكنه لم يكن يبدي أي اعتراض عندما كان الآخرون يدخنون. بل ولم يكفّ عن ارتياد المقهى أيضاً. فقد كان يأتي إلى هنا بانتظام، لأنه كان يجد متعة في أنه أحد أعضاء هذه المجموعة المتباينة المشارب، ولأنه كان ينجذب سرّاً إلى رسّام الكاريكاتير المدمن.

لم يكن سبب انجذاب الصحفي الشاذ إلى رسام الكاريكاتير لأنه كان يريد منه شيئاً جسدياً. فمجرد التفكير به عارياً كان يكفي لأن تبعث الرجفة في أوصاله. ولم يكن لذلك علاقة بالجنس، قال مطمئناً نفسه، بل له علاقة بالأرواح ذات وشائج القربى. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عقبتان كبيرتان تقفان في طريقه. الأولى، أن رسام الكاريكاتير المدمن لم يكن يعاشر إلا النساء، وفرصته في أن يجعله يغيّر موقفه ضئيلة للغاية. والثانية، أنه كان مغرماً بتلك الفتاة الكئيبة، ذات المزاج النكد، آسيا ـ وهي حقيقة لاحظها الجميع.

لذلك لم يعلّق الصحفي الشاذ أية آمال على إقامة علاقة مع رسام الكاريكاتير المدمن. بل كان يريد أن يتقرب منه فقط. وكانت أحياناً تسري قشعريرة مفاجئة في جسده عندما تلمس يده أو كتفه عرضاً يد رسام الكاريكاتير عندما يمدها لتناول كأس أو منفضة سجائر. ورغبة منه في أن يدخل الطمأنينة في نفوس الجميع بأنه لا يوجد لديه أي اهتمام به، أو بأيّ رجل لذلك الغرض، كانت تمر أوقات يعامل فيها الصحفي الشاذ رسام الكاريكاتير من بعيد، مشوهاً آرائه من حيث لا يحتسب. إنها حقاً قصة معقّدة.

«الضجر»، قال رسام الكاريكاتير المدمن عندما ارتطمت يده بفنجان القهوة بالحليب وانقلب، وتابع، «إن الضجر خلاصة حياتنا. إذ إننا نتمرّغ في الملل يوماً بعد يوم. لماذا؟ لأننا لا نستطيع أن نهجر جحر الأرنب هذا خوفاً من أن نصطدم بثقافتنا على نحو مؤلم. فالسياسيون الغربيون يفترضون أنه توجد فجوة ثقافية بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية. أرجو أن يكون الأمر بهذه البساطة! لكن الفجوة الحضارية الحقيقية تكمن بين الأتراك والأتراك أنفسهم. إذ إننا مجموعة من الحضريين المثقفين المحاطين بسكان الجبال والريفيين الساذجين من جميع الجهات، الذين احتلوا المدينة بأسرها».

وألقى نظرة جانبية إلى النوافذ، وكأنه كان يخشى أن تقفز حشود الناس عليهم بعصيهم ومنجنيقاتهم.

«لقد أصبحت الشوارع ملكهم، الساحات لهم، العبّارات لهم. لقد أصبحت جميع المناطق المفتوحة لهم. وبعد بضع سنوات، ربما لن يعود لنا مكان نلجأ إليه سوى هذا المقهى. منطقتنا المحرّرة الأخيرة. إننا نهرع إلى هنا كلّ يوم هرباً منهم. أوه نعم، هم! فليحفظني الله من شعبي».

«إنك تقول شعراً»، قال الشاعر غير الموهوب بامتياز. فبما أنه كان شاعراً يخلو من أي موهبة، فقد دأب على أن يشبّه كلّ شيء بالشعر.

«لقد علقنا. لقد علقنا بين الشرق والغرب. بين الماضي والمستقبل. فمن ناحية تجد أن العلمانيين العصريين يفتخرون بالنظام الذي أقاموه، ولا تستطيع أن تنتقدهم بكلمة واحدة، لأن الجيش ونصف الدولة يقف إلى جانبهم. ومن الناحية الأخرى، هناك التقليديون المتمسكون بالتقاليد، المفتونين بالماضي العثماني، ولا يمكنك أن تنتقدهم بكلمة واحدة، لأن عامة الناس والنصف الآخر من الدولة يقفون إلى جانبهم. فماذا تبقى لنا؟».

عاد ووضع السيجارة بين شفتيه الشاحبتين المشققتين، حيث مكثت طوال فترة شكواه وتذمره. «المعاصرون يطلبون منا أن نتقدم إلى الأمام، لكننا لا نؤمن بأفكارهم عن التقدم. والتقليديون يطلبون منا أن نعود إلى الوراء، لكننا لا نريد أن نعود إلى نظامهم المثالي أيضاً. إننا محصورون بين الاثنين، نتقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، تماماً كما كانت تفعل فرق الجيش العثماني! حتى أننا لا نعزف على أي وتر! أين المفر؟ حتى أننا لسنا أقلية. فلو كنا أقليّة عرقية، أو شعباً من الشعوب الأصلية لأصبحنا تحت حماية ميثاق الأمم المتحدة، وعندها يمكننا أن نحصل، على الأقل، على بعض الحقوق الأساسية. أما العدميون والمتشائمون والفوضويون فلا يُعتبرون أقلية، بل أصبحنا نوعاً منقرضاً، وأخذ عددنا يقلّ يوماً بعد يوم. إلى متى يمكننا أن نبقى على قيد الحياة؟».

علق السؤال بتثاقل شديد فوق رؤوسهم، في مكان ما تحت سحابة الدخان. وكزّت على أسنانها زوجة رسام الكاريكاتير، التي كانت امرأة عصبية وسريعة الهياج، وذات عينين داكنتين كئيبتين فيهما الكثير من الامتعاض والاستياء، لأنها كانت ترسم الكاريكاتير أفضل مما يرسمه زوجها، لكنها لم تكن تحظى بذات التقدير الذي يحظى به. وكانت تتمزق حيرة بين أن تتصيّد أخطاءه وتنتقده، كما كانت تريد أن تفعل بشريكها منذ اثنتي عشرة سنة، أو أن تؤيد نوبات حنقه وجنونه مهما كانت، كما يفترض أن تفعل الزوجة المثالية. فقد كان الواحد منهما يكره الآخر بإخلاص، ومع ذلك كان كلّ واحد منهما يتمسك بزواجهما طوال هذه السنوات، هي بأمل أن تنتقم منه، وهو بأمل أن تتحسن وتصبح أفضل حالاً. أما اليوم فقد أصبحا يتكلمان بكلمات وإيماءات يسرقانها من بعضهما البعض. حتى رسومهما الكاريكاتيرية أضحت متشابهة هذه الأيام. فقد كانا يرسمان أجساماً مشوّهة، ويخترعان حوارات غريبة تشمل أشخاصاً مكتئبين تصور حالات حزينة وساخرة.

«أتعرفوا من نحن؟ إننا حثالة هذا البلد. عجينة نيئة ندية نثير الشفقة، لا شيء أكثر من ذلك! فالجميع إلا نحن، مهووسون بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وتحقيق الأرباح، وشراء الأسهم، وتبديل سياراتهم بسيارات جديدة، وتبديل صديقاتهم. . .».

تململ كاتب السيناريو بعصبية.

«هنا حيث يدخل كونديرا الصورة»، تابع رسام الكاريكاتير المدمن كلامه دون أن يلاحظ زلة لسانه، «إن فكرة الخفّة بأكملها تتخلل حياتنا في شكل فراغ لا معنى له. إن وجودنا شيء مبتذل، أكذوبة جميلة، يساعدنا على تحدّي حقيقة الموت والفناء. إنه بدقة أكبر هذا».

لكن خشخشة الأجراس عندما فتح أحدهم باب مقهى كونديرا بقوة قطعت كلماته، ودخلت صبيّة تبدو عليها آثار التعب والاستياء بشكل يتجاوز عمرها.

«هيه، آسيا»، صاح كاتب السيناريو، وكأنها المنقذة التي طال انتظارها لوضع حد لهذا الحديث السخيف. «هنا! نحن هنا».

ابتسمت آسيا قازانجي نصف ابتسامة، وقطّبت حاجبيها بتعبير يقول، أوه حسناً، يمكنني أن أنضم إليكم أيها الرفاق قريباً، ما الفرق على أي حال، فالحياة سيئة في كلتا الحالتين. وببطء، وبتثاقل وكأنها محملة بأكياس غير مرئية، اقتربت من الطاولة، وحيّت كل واحد فيهم تحية تخلو من أي حيوية، وجلست، وراحت تلّف سيجارة.

«ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟ أليس من المفروض أن تكوني في درس الباليه الآن؟» سأل رسام الكاريكاتير المدمن، ناسياً أنه كان يناجي نفسه. وبرقت عيناه بالاحترام ـ إشارة لا حظها الجميع تقريباً إلا زوجته.

«لكن هذا هو المكان الذي يجب أن أكون فيه: في درس الباليه. والآن» ـ حشت آسيا ورقة السجائر بالتبغ ـ إني أمارس حالياً إحدى أكثر

القفزات صعوبة، حيث أضم ربلتيّ ساقيّ وأثب في الهواء بزاوية بين خمسة وأربعين وتسعين درجة».

«عظيم» قال رسام الكاريكاتير مبتسماً.

«ثم أثب وثبة مع استدارة»، تابعت آسيا، «القدم الأيمن إلى الأمام، نصف مثنية، ثم أقفز!» وأمسكت كيس التبغ الجلدي ورفعته في الهواء، «أستدير مائة وثمانين درجة» ـ قالت وهي تفتل الكيس بيدها، فتبعثر قليل من التبغ على الطاولة ـ «وأتقدم على القدم اليسرى». جثم الكيس إلى جانب صحن اللوز. «ثم أكرّر هذه الحركة مرة أخرى لأعود إلى الوضعية التي انطلقت منها. إمبوفت».

«كأنك تكتبين الشعر بجسمك وأنت تمارسين الباليه»، همس الشاعر غير الموهوب بامتياز.

ساد فتور كئيب. ومن مكان بعيد تناهت أصوات المدينة، مزيج من أصوات الصافرات، وأبواق السيارات، وصياح الباعة، وضحكات تصحبها صرخات النوارس. ودخل بضعة زبائن جدد، وغادر آخرون. ووقع نادل وهو يحمل صينية مليئة بالكؤوس. وأحضر نادل آخر مكنسة، وفيما راح يكنس الزجاج عن أرضية المقهى، كان ينظر إلى الزبائن بدون اكتراث. ففي هذا المقهى كان الندل يتغيرون بسرعة. إذ كانت ساعات العمل طويلة ولم يكن الأجر كبيراً. ومع ذلك، لم يقدم أي نادل استقالته حتى يومنا هذا، بل كانوا يُطردون طرداً. هذا هو حال مقهى كونديرا. فما إن تطأه قدماك، حتى ترتبط به إلى أن يبصقك خارجه.

وفي نصف الساعة التالي، طلب بعض الجالسين إلى طاولة آسيا قازانجي قهوة، وطلب آخرون بيرة. وفي الجولة الثانية، احتسى بيرة من كان قد طلب قهوة في الجولة الأولى، واحتسى قهوة من كان قد طلب بيرة. وهكذا سارت الأمور. وكان رسام الكاريكاتير الشخص الوحيد الذي

التزم بطلب القهوة بالحليب وتناول قطع البسكويت بالفانيلا التي كانت تأتي مع القهوة، رغم أن استياءه بدا واضحاً الآن. وفي جميع الأحوال، لم يكن ثمة شيء يتم بانسجام، ومع ذلك كان هذا التنافر يحدث إيقاعاً غير عادي هناك. وهذا ما كان يثير إعجاب آسيا في هذا المقهى: خموله السباتي وتنافره الهزلي. لقد كان هذا المكان خارج الزمان والمكان. فمع أن إستانبول تسير في حركة سريعة محمومة، كان السبات والخمول يسودان مقهى كونديرا. أما الناس خارج المقهى، فكانوا يتمسكون ببعضهم بعضاً كي يخفوا وحدتهم، ويتظاهرون بأنهم أكثر حميمية وإلفة مما كانوا فعلاً، أما هنا، فعلى العكس تماماً، فقد كان كلّ واحد منهم يتظاهر بأنه أكثر بعداً وانفصالاً عن الآخر مما كان في حقيقة الأمر. إن هذا المكان يمثل إنكاراً ورفضاً للمدينة برمتها. أخذت آسيا نَفَساً من سيجارتها، مقدّرة تماماً هذا الكسل والخمول حتى نظر رسام الكاريكاتير إلى ساعته والتفت إليها، وقال: «الساعة الثامنة إلا ثلثاً يا عزيزتي. لقد انتهى موعد درسك».

«أوه، هل يجب عليكِ أن تذهبي؟ إن أسرتك موضة قديمة»، قالت صديقة كاتب السيناريو، وأضافت: «لماذا يجعلونك تأخذين دروساً في الباليه مع أنه من الواضح أنك لا تريدين ذلك؟».

كانت هذه مشكلة جميع الصديقات اللاتي لم تكن تزيد أعمارهن على عمر الفراشة، واللاتي كان كاتب السيناريو يحضرهن معه. فلكي يتقربن من الآخرين، كنّ يطرحن أسئلة شخصية عديدة، ويبدين تعليقات شخصية كثيرة، وكنّ لا يعرفن على نحو يثير الشفقة، أن أحداً منهم لم يكن يبدي اهتماماً جدياً ومخلصاً في خصوصية الآخر، وهذا ما كان يجمعهم.

«كيف تتحملين كلّ تلك الخالات؟» تابعت صديقة كاتب السيناريو، ولم تستطع أن تقرأ التعابير التي ارتسمت على وجه آسيا، وتابعت: «يا

إلهي، كلّ تلك النسوة يقمن بدور الأمّ تحت سقف واحد. . . أنا شخصياً لا أستطيع أن أتحمل ذلك ولا دقيقة واحدة».

هنا بلغ السيل الزبى. فقد كانت هناك قواعد غير مدونة لدى مجموعة انتقائية كهذه، وكان كلّ واحد منهم يحرص على عدم انتهاكها. سحبت آسيا نَفَساً عميقاً من سيجارتها. وعندما كانت تلتقي بامرأة جديدة، كانت تفعل أحد أمرين: إما أن تنتظر لترى متى ستكرهها، أو أنها تكرهها في الحال.

«لا توجد لديّ عائلة بالمعنى المعروف للكلمة»، قالت آسيا ورمقتها بنظرة متعالية، راجية أن يوقف هذا ما كانت الأخرى تخطط لقوله بعد ذلك. وأثناء ذلك وقعت عيناها على إطار فضّي يلمع على الجدار فوق كتف الفتاة اليمنى. كانت صورة طريق يؤدي إلى البحيرة الحمراء في بوليفيا. يا له من شيء رائع أن يكون المرء على هذا الطريق الآن! أنهت قهوتها، أخرجت سيجارتها، وبدأت تلفّ سيجارة أخرى وهي تهمهم: «إننا مجموعة من الحيوانات الإناث المرغمات على العيش معاً. أنا لا أسمي هذه عائلة».

«لكن هكذا هي العائلة بالضبط، يا عزيزتي»، قال الشاعر غير الموهوب بامتياز. وفي أوقات كهذه، كان يتذكّر أنه أكبر أفراد المجموعة سناً، لا من حيث سنوات العمر فقط، بل من حيث سنوات ارتكاب الغلط أيضاً. فقد تزوج وطلق ثلاث مرات، وشاهد جميع زوجاته السابقات يغادرن إستانبول، الواحدة تلو الأخرى، ويتجهن إلى أبعد مكان يمكنهن أن يصلن إليه لكي يبتعدن عنه. وكان لديه أطفال من كلّ زوجة لم يكن يزورهم إلا لماماً، لكنه كان يدّعي دائماً بأنه قادر على «التذكّر»، فقال وهو يهزّ إصبعاً أبوياً نحو آسيا: «إن جميع العائلات السعيدة تشبه إحداها الأخرى، لكن كلّ عائلةٍ غير سعيدة هي غير سعيدة بأسلوبها الخاص».

«يسهل على تولستوي أن يقول هذا الهراء»، قالت زوجة رسّام

الكاريكاتير المدمن باستهجان: «فقد كان للرجل زوجة تعتني بأدق التفاصيل، وربت عشرات الأطفال الذين أنجباهما، وكانت تعمل كالكلب كي يتمكن صاحب الجلالة تولستوي العظيم من التركيز على كتابة رواياته».

«ماذا تريدين؟» سأل رسام الكاريكاتير المدمن.

«الاعتراف! هذا كلّ ما أريده. أريد أن يعترف العالم بأسره، بأنه لو أتيحت لها الفرصة، لكان من الممكن أن تكون زوجة تولستوي كاتبة أفضل منه».

«لماذا؟ ألأنها امرأة فقط؟».

«لأنها كانت امرأة موهوبة جداً وقد اضطهدها رجل موهوب جداً»، قالت زوجته.

«أوه»، قال رسام الكاريكاتير المدمن. وبانزعاج نادى النادل، ولحزن الجميع طلب زجاجة بيرة. لكن عندما وصلت البيرة، لا بد أنه أحسّ بالذنب، فغيّر الموضوع فجأة، وراح يلقي خطاباً عن فوائد الكحول.

«إن هذا البلد يدين بحريته لهذه القنينة الصغيرة التي يمكنني أن أمسكها بحرية كبيرة في يدي». ورفع رسام الكاريكاتير صوته ليغطي على صوت بوق سيارة إسعاف كانت تئنّ في الخارج. «لا إصلاحات اجتماعية، ولا تعليمات سياسية. ليس حتى حرب الاستقلال. بل إن هذه القنينة بالذات هي التي تميّز تركيا عن جميع البلدان الإسلامية الأخرى. هذه البيرة هنا» ـ رفع القنينة وكأنه يريد أن يشرب نخب أحد، «إنها رمز الحرية والمجتمع المدني».

«أوه، هيا. منذ متى كان سكّير متعفّن رمزاً للحرية؟» قال كاتب السيناريو بحدة. أما الآخرون فلم يشاركوا في الحديث، لسبب بسيط وهو أن المناقشة تبدد الطاقة. لذلك اختار كلّ واحد منهم لوحة على الجدار، وراح يركّز على صورة أحد الطرق.

«منذ اليوم الذي حُرِّمت فيه المشروبات الكحولية، وشوهت سمعتها في الشرق الأوسط الإسلامي. منذ الأزل»، شخر رسام الكاريكاتير المدمن: «فكّروا بالتاريخ العثماني. كلّ تلك الحانات، كلّ تلك المازوات التي ترافق كلّ كأس. . . يبدو أن هؤلاء الرجال كانوا يمضون أوقاتاً ممتعة. نحن كأمة يروق لنا الكحول، فلماذا لا نقبل ذلك؟ فهذا مجتمع يحبّ أن يشرب أحد عشر شهراً في السنة، ثم يصيبه الذعر، فيتوب ويصوم في شهر رمضان، ثم يعود إلى الشراب ما أن ينتهي الشهر الفضيل. إذا لم تكن هناك شريعة في هذا البلد، وإذا لم ينجح الأصوليون كما نجحوا في أماكن أخرى، فإني أقول لكم، إننا ندين بذلك إلى هذا التقليد المنحرف. فبفضل الكحول يوجد لدينا شيء شبيه بالديمقراطية في تركيا».

«حسناً، لماذا لا نشرب إذن؟» ابتسمت زوجة رسّام الكاريكاتير المدمن ابتسامة تنم عن إحساسها بالضجر: «وهل يوجد هناك سبب لنشرب أفضل من الشراب على نخب السيد «أطراف أصابع القدم»؟ ماذا كان اسمه سيشه؟».

«سيشيتي» قالت آسيا مصححة، وهي تلعن ذلك اليوم الذي كانت فيه ثملة وألقت على المجموعة خطاباً عن تاريخ الباليه، ذكرت لهم خلاله اسم سيشيتي. وقد أعجبهم هذا الاسم. ومنذ ذلك اليوم، كان يقترح أحدهم بين الحين والآخر تناول كأس على نخبه، الراقص الذي استنبط الرقص على رؤوس الأصابع.

«إذن لولاه لما استطاع راقصو الباليه السير على رؤوس أصابع أقدامهم، أليس كذلك؟» كان أحدهم يقول ضاحكاً في كلّ مرة.

وكان آخر يضيف: «وبأي شيء كان يفكر؟» فيضحك الجميع.

كانوا يجتمعون في مقهى كونديرا يومياً. الشاعر غير الموهوب

بامتياز، وكاتب السيناريو غير الوطني الذي يكتب أفلاماً مغرقة في الوطنية، مهما كانت الفتاة التي ترافقه في تلك اللحظة، ورسّام الكاريكاتير المدمن، وزوجة رسّام الكاريكاتير المدمن، والصحفي الشاذ، وآسيا قازانجي. وكانت هناك مشاعر مليئة بالتوتر مدفونة في مكان عميق، تنتظر حديثهم اليومي لكي تطفو على السطح وتنبعث إلى الخارج. وكانت الأشياء في الوقت نفسه، تتدفق بسهولة. فقد كانوا يجلبون معهم أحياناً أشخاصاً آخرين، أو أصدقاء، أو زملاء أو غرباء تماماً؛ وكانوا أحياناً يأتون وحدهم. وكانت المجموعة جسماً عضوياً ذاتي التنظيم، تظهر فيه الاختلافات الفردية لكنها لا تهيمن عليه، وكأن لدى الجسم العضوي حياة في خارج الشخصيات التي يتكون منها.

وكانت آسيا قازانجي قد وجدت سلاماً داخلياً، وأصبح مقهى كونديرا ملاذاً لها. فقد كان يتعين عليها أن تصحح أساليبها دائماً في بيت قازانجي، وتبذل ما بوسعها لكي تصل إلى كمال يتجاوز إدراكها، أما هنا في مقهى كونديرا، فلم يكن ثمة أحد يرغمك على أن تتغير، لأنهم يعتقدون أن البشر غير كاملين من حيث الجوهر ولا يمكن إصلاحهم.

صحيح أنهم لم يكونوا الأصدقاء المثاليين الذين كانت خالاتها ستختارهم لها، وخاصة أن بعض أفراد المجموعة كانوا في عمر أمّ آسيا، وبما أنها كانت أصغرهم سناً، كانت تستمتع بمراقبة طفولتهم. وكان من المريح أن ترى أنه لم يطرأ أي تحسّن فعلي على حياتهم خلال تلك السنوات؛ فإن كنت مراهقاً كئيباً متجهماً، فسينتهي الأمر بك بأن تكون بالغاً كئيباً متجهماً. إذ إن هذا النمط يلازمنا وسيبقى معنا. صحيح أن ذلك قد يبدو كئيباً بعض الشيء، إلا أن آسيا، على الأقل، قالت تواسي نفسها إن هذا يثبت أنه لا يتعين على المرء أن يصبح شيئاً آخر، شيئاً، مثل خالاتها اللاتي لا يتوقفن عن إزعاجها والتذمر ليلاً نهاراً. فبما أنه لن يتغير

شيء مع الزمن، وبما أن هذه الكآبة ستبقى هنا إلى الأبد، فيمكنها أن تظل هي الكئيبة المتجهّمة ذاتها.

«اليوم عيد ميلادي»، أعلنت آسيا، مفاجئة نفسها لأنها لم تكن تنوي أن تعلن هذا النبأ.

«أوه حقاً؟» سأل أحدهم.

«يا لها من مصادفة! فاليوم عيد ميلاد أصغر بناتي أيضاً»، صاح الشاعر غير الموهوب بامتياز.

«أوه، حقاً؟» الآن جاء دور آسيا.

«إذن فقد ولدت في نفس اليوم الذي ولدت فيها ابنتي! برج الجوزاء».

هزّ الشاعر رأسه المنفوش مغتبطاً، بطريقة مسرحية.

«برج الحوت»، قالت آسيا مصححة.

وهكذا كان. لم يحاول أحد أن يعانقها أو يمطرها بالقبل، تماماً كما لم يفكر أحد بأن يطلب لها قالب كاتو. لكن بدلاً من ذلك، راح الشاعر يقرأ لها قصيدة رديئة، واحتسى رسام الكاريكاتير ثلاث زجاجات بيرة على شرفها، ورسمت زوجة رسام الكاريكاتير كاريكاتيرها على منديل - صبيّة هوجاء ذات شعر يشبه أسلاك الكهرباء، وثديين ضخمين، وأنف حادّ تحت عينين فطنتين ثاقبتين. وطلب لها الآخرون فنجان قهوة آخر، وفي النهاية، لم يدعوها تدفع نصيبها في الفاتورة. كان الأمر بتلك البساطة. وهذا لا يعني أنهم لم يأخذوا عيد ميلاد آسيا بجدية، بل على العكس، أخذوه بجدية شديدة إلى درجة أنهم سرعان ما بدأوا يفكرون بصوت عال بمفهوم الزمن والفناء، ومن هناك انتقلوا إلى أسئلة متى سيموتون، وإن كانت هناك حقاً حياة بعد الموت. وأخيراً توصلوا إلى الرأي بأنه «توجد حياة بعد الموت، لكنها ستكون أسوأ مما هي هنا»، وخلصوا إلى النتيجة «يجب على المرء أن يتمتع بالوقت المتبقي لديه».

فكّر البعض في ذلك، وتوقف آخرون عند منتصف الكلمة وهربوا إلى صورة الطريق هذه أو تلك على الجدار. أخذوا وقتهم، وكأن أحداً لا ينتظرهم في الخارج، وكأنه لم يكن هناك خارج أصلاً، وشيئاً فشيئاً، تحوّل تجهمهم إلى ابتسامات سعيدة من اللامبالاة. وبما أنهم كانوا يفتقرون إلى الطاقة، أو العاطفة، أو الحاجة إلى أحاديث أخرى، فقد غاصوا في أعماق مياه اللامبالاة والخمول الموحلة، متسائلين لماذا، بحق السماء، سُميّ هذا المقهى مقهى كونديرا.

* * *

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، وبعد أن تناولن وجبة دسمة، وبعد أن أطفأن الأضواء، ووسط الغناء والتصفيق، أطفأت آسيا قازانجي الشموع الموضوعة في قالب كاتو التفاح المؤلف من ثلاث طبقات تعلوها كراميل (شديدة الحلاوة) وكريمة الليمون المخفوقة (شديدة الحموضة). ولم تتمكن إلا من إطفاء ثلث الشموع، أما باقي الشموع فقد أطفأتها خالاتها وجدتها وما -الهيفاء، اللاتي رحن ينفخن جميعهن من جميع الجوانب.

«كيف كان درس الباليه اليوم؟» سألت الخالة فريدة عندما أشعلت الضوء ثانية.

«كان جيداً» ابتسمت آسيا: «إن ظهري يؤلمني قليلاً بسبب التمدد الذي تجبرنا المعلمة على عمله، لكنني لا أستطيع أن أتذمر. فقد تعلّمت عدة حركات جديدة».

«أوه، نعم؟» جاء صوت يشي بالريبة. كان صوت الخالة زليخة.

«مثل ماذا؟».

«حسناً. . .» أجابت آسيا وهي تتناول اللقمة الأولى من الكاتو.

«لنر. لقد تعلمت petit jete أي القفزة الصغيرة، وpirouette (الدوران) وglissade الانزلاق».

«أتعرفين، هذا يشبه إصابة عصفورين بقطعة حجر واحدة»، قالت الخالة فريدة: «ندفع ثمن دروس الباليه، وينتهي الأمر بأنها تتعلّم الباليه واللغة الفرنسية معاً، وبذلك نوفّر مالاً كثيراً».

أومأن جميعهن ـ جميعهن إلا الخالة زليخة، التي برزت ومضة شك في هاوية عينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الأخضر، قرّبت وجهها من وجه ابنتها وقالت بصوت لا يكاد يسمع، «أرينا».

«هل جننت؟» أجفلت آسيا، «لا يمكنني أن أنفذ هذه الحركات وسط غرفة الجلوس هنا! يجب أن أكون في الاستديو وأن أفعل ذلك مع المعلمة. ففي البداية نقوم بحركات الإحماء، ونتمدد ونركّز. ودائماً توجد موسيقى. . . Glissade تعني الانزلاق، هل تعرفين ذلك؟ كيف يمكنني أن أنزلق هنا فوق السجادة؟ لا يمكن للمرء أن يرقص باليه هكذا».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي الخالة زليخة وهي تمرر أصابعها فوق شعرها الأسود. لم تقل شيئاً آخر، وتظاهرت بأنها مهتمة بتناول قطعة الكاتو أكثر من اهتمامها بافتعال مشاجرة مع ابنتها. لكن ابتسامتها كانت تكفي لإثارة حنق آسيا. دفعت صحنها جانباً، وسحبت كرسيها، ونهضت.

في الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة من ذلك المساء، وفي غرفة جلوس كانت تدل على البحبوحة والثراء ذات يوم، لكنها أصبحت اليوم تدل على ذوق عفا عليه الزمن، وقناق خرب آيل للسقوط في إستانبول، راحت آسيا قازانجي ترقص الباليه فوق سجادة تركية، وكان وجهها في وضع رومانسي، ذراعاها ممدوتان، ويداها محنيتان برقة بحيث كان اصبعاها الأوسطان يلامسان إبهاميها، فيما كان شعور بالغضب والاستياء يعصف بعقلها.

٦
فستق حلبي

أخذت آرمانوش تشكمكجيان تراقب أمينة الصندوق في مكتبة «المكان النظيف والجيد الإضاءة للكتب» وهي تكدس الروايات الاثنتي عشرة التي اشترتها للتو، الكتاب تلو الكتاب في حقيبتها، فيما أخذتا تنتظران الموافقة على بطاقتها الائتمانية. ثم أعطتها أمينة الصندوق الإيصال، فوقّعت عليه وهي تحاول ألا تنظر إلى مجموع المبلغ. فللمرة الثانية أنفقت جميع مدّخراتها الشهرية على الكتب! إنها دودة كتب حقيقية، ولم يكن هذا شيئاً جيداً، خاصة في عيون الشبان، مما كان يجعل أمّها تخشى أن تقلّ فرص زواجها من رجل غني. وكانت قد وعدت أمّها على الهاتف صباح اليوم بأنها لن تنبس بكلمة واحدة عن الروايات أثناء لقائها هذه الليلة. وما أن تذكرت آرمانوش موعدها هذا المساء، حتى أحست بدفق مفاجئ من القلق في معدتها مشوب بالإحساس بالذنب. فبعد مضي عام على عدم خروجها مع أي شاب ـ وهي دلالة خطيرة على سنواتها الإحدى والعشرين من العزوبية المزمنة التي تخللتها مواعيد كارثية مع بعض الشبان ـ ستمنح أخيراً آرمانوش تشكمكجيان الحبّ محاولة أخرى.

وإذا كان ولعها بالكتب أحد الأسباب الرئيسية الذي لم يمكّنها من إقامة علاقة عادية مع الجنس الآخر، فثمة عاملان آخران أججا نيران فشلها. فأولاً وقبل كل شيء، كانت آرمانوش جميلة، جميلة جداً، ذات

جسد متناسق، ووجه ناعم، وشعر أشقر متموّج، وعينين زرقاوين رماديتين واسعتين، وأنف دقيق ذي نتوء طفيف قد يبدو عيباً في وجوه الأخريات، أما هي، فقد أضاف لها شيئاً من الثقة بالنفس. وكانت جاذبيتها الجسدية وعقلها يثيران الخوف في نفوس الشباب. إلا أن هذا لا يعني أنهم يفضلون النساء القبيحات، أو أنهم لا يقدّرون الذكاء، بل لأنهم لا يعرفون في أي فئة يصنفونها: في فئة النساء اللاتي يتشوقون للنوم معهن (العشيقات)، أو في فئة النساء اللاتي يستشيروهن (الرفيقات)، أو في فئة الراغبات في الزواج (الخطيبات)، وبما أنها كانت تتمتع بجميع هذه الصفات في آن واحد، لم تعد تنتمي إلي أي فئة من هذه الفئات في نظر الشباب.

أما العامل الثاني فكان أكثر تعقيداً، ولم يكن بوسعها أن تتحكم فيه أيضاً وهو أقرباؤها. فقد كان لعائلة تشكمكجيان في سان فرانسيسكو ولأمّها في أريزونا، آراء ووجهات نظر متباينة تصل إلى درجة العداوة عندما يتعلق الأمر بمن هو الرجل المناسب الذي يجب أن تقترن به آرمانوش.

ومنذ طفولتها، كانت تمضي في كلّ سنة تقريبا خمسة أشهر هنا (العطلة الصيفية، وعطلة الربيع، وزيارات نهاية الأسبوع) في حين كانت تمضي الشهور السبعة المتبقية في أريزونا، مما جعل آرمانوش تعرف، من المصادر الأساسية مباشرة، ما يتوقعه منها كلّ جانب، ومدى تناقض هذه التوقّعات. فأي شيء يجعل أحد الجانبين سعيداً، كان يسبب الكدر والحزن للجانب الآخر. ولكي لا تزعج أحداً منهما، كانت آرمانوش تحاول أن تلتقي بشبان أرمن عندما تكون في سان فرانسيسكو، وأن تلتقي بأي شاب شريطة ألا يكون أرمنياً، عندما تكون في أريزونا. لكن لا بد أن القدر كان يسخر منها، لأنها عندما تكون في سان فرانسيسكو، كانت تنجذب لجميع الشباب سوى الشبان الأرمن، وتبين لها أن الشبان الثلاثة

الذين أغرمت بهم عندما كانت في أريزونا، كانوا جميعهم من الأمريكيين الأرمن، مما أثار استياء أمّها.

اجتازت ميدان أوبرا وهي تجرّ قلقها مع حقيبتها الثقيلة، فيما كانت الريح تصفر وتعصف ألحاناً غريبة في أذنيها. ورأت في مقهى ماكس أوبرا، شاباً وفتاة، ومن قسمات وجهيهما، عرفت آرمانوش أنهما كانا منزعجين من سندويتشات لحم البقر المكدسة أمامهما، أو أنهما كانا قد تشاجرا للتو. «الحمد لله أني عازبة»، دمدمت لنفسها بسخرية قبل أن تنعطف إلى «شارع تركي». ثم تذكرت آرمانوش تلك الفتاة الأمريكية الأرمنية التي جاءت لزيارتها من نيويورك منذ بضع سنوات، التي اصطحبتها لتريها معالم المدينة، كيف أن وجه الفتاة تغضن عندما وصلتا إلى هذا الشارع، وقالت: «شارع تركي! هل هم موجودون في كل مكان؟».

تذكّرت آرمانوش الدهشة التي اعترتها بسبب ردّة فعل الفتاة. وحاولت أن تشرح لها أن اسم تركي كان قد أطلق على الشارع تكريماً لفرانك تركي، المحامي الذي عمل قاضياً، الذي يتمتع بأهمية كبيرة في تاريخ هذه المدينة.

«مهما كان»، قاطعتها صديقتها المحاضرة، غير مكترثة بتاريخ المدينة، ورددت: «ومع ذلك، فهم موجودون في كل مكان، أليس كذلك؟».

بالفعل، إنهم في كل مكان، إلى حدّ أن أحدهم تزوج أمّها، لكن آرمانوش احتفظت بهذه المعلومة لنفسها.

فقد كانت تتحاشى الخوض في الحديث عن زوج أمّها مع أصدقائها الأرمن. كما أنها لم تكن تتحدث عنه مع أصدقائها من غير الأرمن أيضاً، حتى مع الذين لم يكونوا يبدون اهتماماً في الحياة خارج حياتهم، ولم

يكن لهم أي اهتمام بتاريخ الصراع بين الأرمن والأتراك. ولأن حكمة آرمانوش تقول لها إن هذه الأسرار قد تنتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، لذلك كانت تلوذ بالصمت. فعندما لا تفضي لأحد بشيء استثنائي، فإنه سيعتبر أن كلّ شيء يسير على ما يرام. وكانت آرمانوش قد اكتشفت هذه الحكمة وهي في سن مبكّرة. وبما أن أمّها كانت «أودار»، أي غريبة، فما الشيء الذي يمكن أن يكون طبيعياً بالنسبة لها أكثر من أن تتزوج غريباً آخر؟ ومع أن هذا الاعتقاد كان سائداً بين أصدقائها، كان زوج أمّها يعتقد أنه أمريكي، بل وأنه ينتمي إلى منطقة وسط الغرب.

في «شارع تركي» مرّت من أمام فندق صغير للمثليين جنسياً، واجتازت بقالية تبيع سلعاً شرق أوسطية، ثم اجتازت سوقاً تايلاندياً صغيراً، وشاهدت أناساً من جميع المشارب والألوان يتسكعون على الرصيف. ثم استقلت عربة الترام إلى التلّ الروسي. أسندت جبينها إلى النافذة المكسوة بالغبار، وراحت تفكّر «بالأنا الأخرى» في متاهة بورخيس وهي تراقب طبقة الضباب الرقيقة تنجرف بعيداً في الأفق. فقد كانت لآرمانوش ذات أخرى أيضاً، ذات تبقيها بعيدة عنها أينما ذهبت.

كانت تحبّ أن تعيش في هذه المدينة التي تجعل حيويتها تنبض في جسدها. فمنذ نعومة أظفارها، كانت تجد متعة في المجيء إلى هذه المدينة والإقامة مع أبيها وجدتها شوشان. وعلى عكس أمّها، لم يتزوج أبوها ثانية. مع أنها كانت تعرف أنه كانت لأبيها صديقات في الماضي، لكنه لم يعرّفها على أي واحدة منهن، إما لأن علاقته بهن لم تكن جدية، أو لأنه كان يخشى إزعاجها، ويرجح هذا السبب الثاني. فقد كان ذلك طبعاً من طباع برصام تشكمكجيان، الذي كان أبعد الرجال عن الأنانية، وأكثرهم لطفاً ودماثة على وجه الكرة الأرضية، في نظر آرمانوش طبعاً. وحتى الآن لم تكن تصدق كيف تزوج امرأة لا تهتم إلا بنفسها مثل روز. وهذا لا يعني أن آرمانوش لم تكن تحبّ أمّها، بل كانت تحبها، ولكن

بطريقتها الخاصة، لكنها كانت تجد حبّ أمّها المتبرم يكاد يخنقها في بعض الأحيان. لذلك، كانت تهرب إلى سان فرانسيسكو إلى أحضان عائلة تشكمكجيان، حيث تجد حباً رقيقاً ومتطلباً في الوقت ذاته.

ما أن ترجلت من عربة الترام حتى بدأت تغذّ الخطى، لأن مات هاسينغير سيصل في الساعة السابعة والنصف ليرافقها لتناول العشاء. ولم يتبق لديها إلا أقل من ساعة ونصف الساعة كي تتهيأ للقائه، وهذا يعني أن تأخذ دوشاً وترتدي فستانها، ربما الفستان الفيروزي اللون، الذي قالت لها عماتها جميعهن إنه يليق بها تماماً. وهذا كلّ شيء. لا مكياج، لا مجوهرات. فلن تجعل من نفسها دمية من أجل هذا اللقاء، ومن المؤكد أنها لم تكن تتوقع الكثير من هذا اللقاء. فإن لم تسر الأمور على ما يرام، فلا بأس. وإذا سارت على ما يرام، فإنها ستكون مهيأة لذلك أيضاً. وهكذا راحت آرمانوش تشق طريقها تحت الضباب الذي يغلف المدينة، وفي الساعة السادسة وعشر دقائق مساء، وصلت إلى شقّة جدتها ذات الحمّامين في حيّ التلّ الروسي، وهو حيّ مفعم بالحركة شيّد فوق أحد أكثر التلال انحداراً في سان فرانسيسكو.

«أهلاً، يا حبيبتي، الحمد لله على سلامتك».

للغرابة أن العمّة سوربان هي التي فتحت لها الباب، لا جدتها، «لقد اشتقت إليك»، زقزقت بمودّة، «ماذا فعلت طوال النهار؟ كيف كان يومك؟».

«كان جيداً»، قالت آرمانوش بهدوء، وتساءلت في نفسها ماذا تفعل أصغر عماتها هنا في مساء يوم الثلاثاء.

كانت العمّة سوربان تعيش في بيركلي، حيث تدرس منذ الأزل، على الأقل منذ أن كانت آرمانوش طفلة. وهي تأتي إلى سان فرانسيسكو بالسيارة في عطل نهاية الأسبوع، لكن لم يكن من عادتها أن تأتي أثناء

الأسبوع. لكن السؤال لم يعد يشغل بال آرمانوش ما إن بدأت تروي ما فعلته أثناء يومها، فقالت بشغف، ووجها يشعّ: «لقد اشتريت بعض الكتب الجديدة».

«كتب؟ هل قالت 'كتب' مرة أخرى؟» صاح صوت مألوف من الداخل.

كان ذاك صوت عمتها فارسينغ! علّقت آرمانوش معطفها الواقي من المطر، وسوّت شعرها الذي نثره الهواء، وتساءلت في الوقت نفسه ماذا تفعل العمّة فارسينغ هنا أيضاً. فقد كانت ابنتاها التوأمان قادمتين هذا المساء من لوس أنجلوس، حيث تشاركان في مباريات كرة السلة. فقد كانت العمّة فارسينغ في غاية الحماس لهذه المباراة إلى حد أنها لم تنم جيداً خلال الأيام الثلاثة الماضية، ولم تتوقف عن التحدث إلى ابنتيها أو إلى مدربهما على الهاتف. ومع ذلك، فبدلاً من أن تكون في المطار قبل ساعات من وصول طائرة ابنتيها مع الفريق، كدأبها، ها هي هنا في بيت الجدة تعدّ مائدة العشاء.

«نعم، قلت 'كتب'»، قالت آرمانوش، ودخلت إلى غرفة الجلوس الفسيحة، وحقيبتها تتدلى من على كتفها.

«لا تنصتي إليها. فقد كبرت في العمر وأصبحت نزقة»، قالت العمّة سوربان مَنْ وراءها وهي تتبعها إلى غرفة الجلوس، «إننا جميعنا فخورون بك، يا حبيبتي».

«إننا فخورون بها، لكنها يمكنها أن تتصرف حسب عمرها»، قالت العمّة فارسينغ، وهي تضع الصحن الخزفي الأخير على المائدة، ثم ضمت إليها ابنة أخيها وعانقتها، وأضافت، «إن الفتيات في عمرك منهمكات في تجميل أنفسهن.كما تعرفين. وبالطبع فإنك لست بحاجة لأن تفعلي مثلهن، لكنك إذا قرأت وقرأت، فأين سينتهي بك الأمر؟».

«على عكس ما يحدث في الأفلام، فإن إشارة «النهاية» لا تومض في نهاية الكتاب. فعندما أقرأ كتاباً، لا أشعر بأنني أنهيت أيّ شيء. لذلك فإني أبدأ كتاباً جديداً»، أغمضت آرمانوش عينيها دون أن تعرف كم كانت تبدو جميلة تحت نور الشمس الباهت في الغرفة. أسندت حقيبتها على كرسي جدتها وراحت تفرغها مثل طفل متلهّف لرؤية ألعابه الجديدة.

تهاطلت الكتب الواحد فوق الآخر: «ألف وقصص أخرى»، «تحالف البليدين»، «إدارة الحزن» «روايات بورخيس المختارة»، «النرجسي وغولدموند»، ملوك المامبو يعزفون أغنية الحبّ»، «مشهد طبيعي مطلي بالشاي»، «المرأة الصفراء وجمال الروح». وكتابان لميلان كونديرا، المؤلف الأثير لديها وهما «كتاب الضحك والنسيان» و«الحياة في مكان آخر». وكانت بعض من هذه الكتب جديدة، في حين كانت قد قرأت بعضها الآخر منذ سنوات لكنها شعرت بالرغبة في قرأتها ثانية.

كانت آرمانوش تعرف، ربما ليس عقلانياً بل غريزياً، أن السبب وراء مقاومة عائلة تشكمكجيان لولعها بالكتب شيء أكثر عمقاً من مجرد رغبتهم في تذكيرها بالأشياء التي تنشغل بها الفتيات في عمرها. لا لأنها امرأة فقط، بل لأنها أرمنية أيضاً ولا يتوقع منها أن تكون مولعة بقراءة الكتب. فقد كانت آرمانوش تشعر أن اعتراض العمّة فارسينغ المستمر على قراءتها والذي يشكل لها قلقاً أساسياً، إن لم يكن غريزياً: وهو الخوف من الفناء. وبكلّ بساطة، لم تكن تريدها أن تصبح بارزة ومتميّزة عن القطيع. فقد كان الكتّاب والشعراء والفنانون والمثقفون هم أول من أبيدوا من ملة الأرمن في أواخر الحكم العثماني. ففي البدء، تخلّصوا من «العقول» ثم بدأوا ينفون الآخرين ـ عامة الناس. وشأن عائلات أرمنية كثيرة في الشتات، تعيش هنا في خير وسلام، لكن القلق لا يزال يتملكها، لذلك كانت عائلة تشكمكجيان تشعر بالبهجة والغضب معاً عندما ترى أحد أطفالها يقرأ كثيراً، يفكّر كثيراً، ويبتعد كثيراً عن الأمور العادية والمألوفة.

ورغم أن الكتب قد تكون ضارّة، لكن الروايات أكثر خطورة. فقد تضللك مسالك القصة بسهولة وتقودك إلى عالم القصص الذي يكون فيه كلّ شيء سلساً، وخيالياً، ومفتوحاً على المفاجآت مثل الليالي الظلماء في الصحراء. وقبل أن تشعر، يمكنها أن تجرفك بعيداً وقد تجعلك تفقد الاتصال بالواقع ـ هذه هي الحقيقة الصارمة والبليدة التي يجب على أي أقلية ألا تحيد عنها كثيراً كي لا تفقد يقظتها وتأهبها عندما تهب الرياح وتحلّ أيام عصيبة. ويجب ألا تكون ساذجاً وتعتقد أن الأمور قد لا تصبح سيئة، لأنهم يفكرون بذلك على الدوام. فالخيال سحر آسر خطير للذين يرغمون على أن يكونوا واقعيين في الحياة، وقد تكون الكلمات سامّة للذين كتب عليهم أن يلوذوا بالصمت دائماً. فإن كنت من بين الأطفال الناجين ولا تزال تريد أن تقرأ وتجترّ، فعليك أن تفعل ذلك بهدوء شديد، وبخوف، وبسرية، ويجب ألا تجعل من نفسك قارئاً بارزاً. وإذا لم تكن لديك تطلّعات وطموحات عليا في الحياة، فيجب على الأقل أن تكون لديك رغبات بسيطة، وأن تكبت عواطفك وطموحك، وكأنك لا تمتلك طاقة وقوة تكفيان لأن تجعلاك إنساناً عادياً. وبهذا القدر، وبهذه العائلة، كان على آرمانوش أن تتعلم ألا تظهر مواهبها كثيراً، وأن تبذل ما بوسعها لأن لا تشعّ كثيراً.

هبّت من المطبخ رائحة قوية مفعمة بالتوابل ودغدغت منخريها، فانتزعتها من حلم يقظتها. «إذن»، صاحت آرمانوش، والتفتت نحو أكثر عمّاتها الثلاث ثرثرة، وسألتها: «هل ستمكثين حتى العشاء؟».

«لفترة قصيرة فقط يا عزيزتي»، همهمت العمّة فارسينغ، «يجب أن أذهب إلى المطار، فكما تعرفين ستعود الفتاتان اليوم. لقد جئت إلى هنا لأعدّ لكم «مانتي» من صنع يدي» ـ وشعّت العمّة فارسينغ بابتسامة مليئة بالزهو ـ «هل تعرفون أننا حصلنا على بسطرما من يريفان!».

«يا إلهي، لن آكل مانتي وبالتأكيد لن آكل بسطرما»، قالت آرمانوش متجهمة، وأضافت: «لا يمكن أن تفوح مني رائحة الثوم هذه الليلة».

«لا توجد مشكلة. فإذا نظفت أسنانك، ومضغت علكة بطعم النعناع فلن تنبعث منك رائحة على الإطلاق». قالت العمّة زاروهي ما أن دخلت الغرفة وهي تحمل طبقاً من «المسقعة»، مزينة بالبقدونس وشرائح الليمون. وضعت الصحن على المائدة وفتحت ذراعيها واسعاً لتعانق ابنة أخيها.

بادلتها آرمانوش القبلات وهي تتساءل ماذا تفعل هنا...؟ لكنها بدأت تحزر السبب. فيا لها من «مصادفة» مدبرة أن يلتقي جميع أفراد عائلة تشكمكجيان في بيت الجدّة شوشان في الوقت الذي ستلتقي فيه آرمانوش بذلك الشاب. فقد أتين، ولكل واحدة منهن ذريعة مختلفة، لكنهن أتين للغرض نفسه: فقد كنّ يرغبن في رؤية هذا الشاب الذي يدعى مات هاسينغير، الشاب المحظوظ الذي سيلتقي بقرّة أعينهن هذا المساء، ويختبرنه ويحكمن عليه بعيونهن.

نظرت آرمانوش إلى عماتها نظرة بدت يائسة. ماذا بوسعها أن تفعل؟ كيف يمكنها أن تكون مستقلة وهن يطبقن عليها بهذا الشكل المريع؟ كيف يمكنها أن تقنعهن بأن لا يقلقن عليها في حين توجد لديهن أمور كثيرة يجب أن ينشغلن بها في حياتهن؟ كيف تستطيع أن تتحرّر من تراثها الموروث، وخاصة وأن جزءاً منها يفتخر به كثيراً؟ كيف يمكنها أن تصدّ الذين يحبونها؟ هل يمكن محاربة طيبة القلب واللطف؟

«كلّ هذا لا يفيد!» قالت آرمانوش لاهثة، «لا معجون أسنان، لا علكة، ولا حتى غسول الفم بطعم النعناع السيء، لا شيء على وجه الأرض يمكنه أن يزيل رائحة البسطرما. فهي تحتاج إلى أسبوع لكي تزول نهائياً. فإذا تناولتِ بسطرما ستصبح رائحتك بسطرما، وستتعرقين بسطرما، وستتنفسين بسطرما لأيام عديدة. حتى أن بولك تصبح رائحته بسطرما!».

«وما علاقة البول بالموعد؟» سمعت آرمانوش عمتها المرتبكة فارسينغ تهمس للعمّة سوربان عندما أدارت ظهرها.

كانت لا تزال تعترض، لكنها لم تكن ترغب في أن تتشاجر معهن. توجّهت آرمانوش إلى الحمّام، لتجد العمّ ديكران هناك. كان رأسه داخل خزانة تحت المغسلة، وجسمه الضخم جاث على يديه وركبتيه.

«عمّو؟» قالت آرمانوش بصوت يشبه الصرخة.

«هلووو!» صاح ديكران ستامبوليان من تحت الخزانة، «هذا البيت مليء بشخصيات من روايات تشيخوف»، دمدمت آرمانوش لنفسها.

«إذا كان هذا رأيك»، تردّد صوت من تحت المغسلة.

«عمّو، ماذا تفعل؟».

«كما تعرفين فإن جدتك تتذمر دائماً من الحنفيات القديمة في البيت. لذلك قلت لنفسي هذا المساء، لماذا لا أغلق المحل مبكّراً، وآتي إلى بيت شوشان، وأصلح هذه الأنابيب اللعينة؟».

«نعم، يمكنني أن أرى ذلك»، قالت آرمانوش، وهي تكتم ابتسامة، «بالمناسبة أين هي؟».

«إنها تأخذ قيلولة»، قال ديكران، وقد انسل من تحت الخزانة ليحضر آلة ثني الأنابيب ثم عاد زاحفاً إلى الداخل. «الشيخوخة ـ ماذا ستفعلين؟ الجسم بحاجة إلى النوم! ستستيقظ قبل الساعة السابعة والنصف، مع ذلك لا تقلقي».

السابعة والنصف! يبدو أن لكلّ شخص في العائلة ساعة منبّه بيولوجية للحظة التي سيقرع فيها مات هاسينغير الجرس.

«ناوليني مفتاح الفكّ الناعم»، سمعت صوتاً مستاء، «يبدو أن هذا لا يعمل».

زمّت آرمانوش شفتيها وهي تنظر إلى الحقيبة على الأرض، التي شعّت منها أكثر من مائة أداة من جميع الأحجام. ناولته ملقطاً، ومفكاً، ومضخّة اختبار ضخ الماء قبل أن تجد مفتاح الفكّ الناعم، الذي تبين أنه لا يعمل أيضاً. وعندما رأت آرمانوش أنه يستحيل عليها أن تأخذ دوشاً والعمّ ديكران، السبّاك المستحيل، لا يزال يصلح الأنبوب، اتجهت إلى غرفة نوم جدتها، فتحت الباب قليلاً، ومدت رأسها إلى الداخل. ها هي نائمة بخفة ولكن بهدوء وسعادة لا توجد إلا لدى المسنات اللاتي يحيط بهن أولادهن وأحفادهن. امرأة جذابة ذات جسم نحيل لكنها تتحمل كثيراً، ومع تقدمها في العمر ازدادت قصراً ونحافة. فعندما بدأت تشيخ، أصبحت بحاجة إلى قليل من النوم أثناء النهار. وكانت تستيقظ في الليل. لكن الشيخوخة لم تقلل من أرق شوشان التي لم يدعها الماضي تستريح كثيراً، كما كانت تقول عائلتها؛ إذ إن فترات القيلولة القليلة العابرة هذه كانت تعوض لها ذلك. أغلقت آرمانوش الباب وتركتها تنام.

أصبحت المائدة جاهزة عندما عادت إلى غرفة الجلوس. كن قد وضعن لها صحناً أيضاً. تساءلت كيف يمكنها أن تأكل مع أنها ستخرج مع ذلك الشاب بعد أقل من ساعة، لكنها فضّلت ألا تسأل. فمن الخطأ الفاحش أن تكون عقلانياً في هذه العائلة. وبوسعها أن تتناول قليلاً من الطعام لتدخل البهجة إلى نفوسهن. فضلاً عن أنها تحبّ هذا الطعام. فقد كانت أمّها في أريزونا تحرص على أن تبقي المطبخ الأرمني بعيداً عن حدود مطبخها بقدر الإمكان، وكانت تجد متعة كبيرة في ذمّ جيرانها وأصدقائها والحطّ من قدرهم. وكانت مولعة في أن تلفت الاهتمام إلى طبقين اثنين كانت تستخف بهما علناً كلما أتيحت لها الفرصة إلى ذلك: أقدام العجل المطبوخة والأمعاء المحشوة. تذكّرت آرمانوش كيف اشتكت روز ذات مرة إلى جارتهما السيدة غرينيل.

«يا إلهي»، صاحت السيدة غرينيل ونبرة من الاشمئزاز تتخلل صوتها، «هل يأكلون الأمعاء حقاً؟».

«أوه نعم». أومأت روز بحماس، «صدقيني، إنهم يأكلونها. يتبّلونها بالثوم والبهارات، ويحشونها بالرزّ، ويلتهمونها بشغف».

وحمحمت المرأتان وربما سخرتا أكثر لو لم يلتفت إليهما زوج أمّ آرمانوش في تلك اللحظة، وقال ونظرة متعبة تكسو وجهه: «وماذا في ذلك؟ إنها تشبه «الممبار». يجب أن تجرباها في وقت ما، إنها لذيذة حقاً».

«هل هو أرمني أيضاً؟ «همست السيدة غرينيل عندما غادر مصطفى الغرفة.

«طبعاً لا»، قالت روز، وأخذ صوتها يخفت شيئاً فشيئاً. «لكن لديهم أشياء مشتركة».

* * *

لعلع صوت الجرس، فانتزع آرمانوش من غيبوبتها وجعل الأخريات يقفزن مذعورات. لم تكن الساعة السابعة بعد. يبدو أن دقة المواعيد ليست من مزايا مات هاسينغير. وكما لو أن أحداً قد ضغط على زرّ ما، اندفعت العمّات الثلاث جميعهن إلى الباب لكنهن لم يفتحنه. أصاب العمّ ديكران رأسه بالخزانة التي كان لا يزال يعمل تحتها، وفتحت الجدّة شوشان عينيها مذعورة. ظلت آرمانوش الوحيدة هادئة ومتماسكة. وبخطوات مدروسة سارت نحو الباب تحت نظرات عمّاتها وفتحته.

«بابا!!!» خرج صوت آرمانوش مثل مزمار مبتهجة، «ظننت أن لديك اجتماعاً هذا المساء. كيف حدث وأن أتيت إلى البيت في وقت مبكر جداً؟».

لكنها قبل أن تنهي سؤالها، عرفت آرمانوش الجواب.

ابتسم بارسام تشكمكجيان ابتسامته الناعمة المعروفة وبرزت على وجنتيه هاتان الغمازتان وعانق ابنته. كانت عيناه تتألقان بفخر يشوبهما شيء من القلق، وقال لآرمانوش: «نعم، لكن لم يُعقد الاجتماع، لقد أجلنا الاجتماع». وعندما ابتعد عن مدى سمعها، همس لأخواته: «هل وصل؟».

كانت الدقائق الثلاثون الأخيرة التي سبقت وصول مات هاسينغير مشحونة بمشاعر متصاعدة من الخوف والتوتر من قبل الجميع ما عدا آرمانوش. فقد جعلوها تجرّب عدة فساتين، وتسير أمام كلّ واحدة منهن لترى كيف تبدو، إلى أن توصلن إلى قرار من طرف واحد: الفستان ذو اللون الفيروزي، مع أقراط تتماشى معه، ومحفظة حمراء غامقة موشاة بالخرز، قالت العمّة فارسينغ إنها تضيف عليها لمسة أنثوية، وبلوزة زرقاء غامقة منفوشة، لكي لا تبرد. كانت آرمانوش تعرف أنها يجب ألا تسأل شيئاً. فبطريقة ما، كان العالم خارج بيت العائلة يمتاز بأجواء قطبية في عيون آل تشكمكجيان، «فالخارج» يعني «أرضاً باردة»، ولكي تزور هذا العالم، يجب أن ترتدي بلوزتك، التي يُفضل أن تكون محاكة باليد أيضاً. وكانت تعرف قليلاً من ذلك منذ طفولتها، بعد أن أمضت سنواتها الأولى تحت البطانيات المحشوة بالريش التي كانت جدتها تحيكها لها وتخيط على حوافها الحروف الأولى من اسمها. فمن المستحيل أن تنام دون أن تغطّي جسمك، وأن تخرج إلى الشارع دون أن ترتدي كنزة صوفية لأن ذلك سيكون خطأ فادحاً، فمثل بيت يحتاج إلى سقف، يحتاج البشر أيضاً إلى جلد إضافي يفصل بينهم وبين العالم كي يشعروا بالدفء والأمان.

ما أن وافقت آرمانوش على ارتداء بلوزتها وانتهى الجزء المتعلق بارتداء الثياب، حتى طلبن منها طلباً آخر، وهو طلب متناقض في الأساس، لكن ليس بالنسبة لعائلة تشكمكجيان.

فقد كانوا يريدونها أن تشاركهم الطعام، كي تكون مستعدة وقوية لعشاء الليلة.

«لكن يا حبيبتي، إنك تأكلين كالعصفور. لا تقولي لي إنك لن تتذوقي المانتي الذي أعددته؟» ناحت العمّة فارسينغ وجرفت بيدها بذلك الهلع الشديد البارز في عينيها البنيتين الداكنتين مما جعل آرمانوش تتساءل إن كان طبق «المانتي» يعني شيئاً أكثر من الحياة والموت.

«عمّتي، لا أستطيع»، أطلقت آرمانوش زفرة، «لقد ملأت صحني بالقطايف. دعيني أنهيها أولاً، إن هذه الكمية كثيرة عليّ».

«حسناً إنك لا تريدين أن تفوح منك رائحة اللحم والثوم»، قالت العمّة سوربان وفي صوتها نبرة خبيثة، «لذلك قدمنا لك قطايف بالقيمق. وبهذه الطريقة ستفوح من نَفَسك رائحة الفستق الحلبي».

«لماذا يريد أحد أن تفوح منه رائحة الفستق الحلبي؟» سألت الجدة شوشان مندهشة، لأنها لم تحضر الجزء الأول من الحديث، الذي لم يكن سيعني لها شيئاً على أية حال.

«لا أريد أن تفوح مني رائحة الفستق الحلبي»، قالت آرمانوش وقد اتسعت عيناها بالإحباط واليأس والتفتت إلى أبيها، مرسلة إشارة استغاثة، منتظرة أن ينقذها.

قبل أن يتمكن بارسام تشكمكجيان من أن يتفوه بأي كلمة، بدأ هاتف آرمانوش الخلوي يرن مصدراً لحناً كلاسيكياً لتشيكوفسكي: «رقصة جنيّة أجاص السكّر». أمسكت الهاتف ونظرت بتجهم إلى شاشته الصغيرة. إنه رقم خاص. قد يكون أي شخص، بل ربما كان مات هاسينغير، يتصل بها ليعتذر ويلغي العشاء هذه الليلة. وقفت آرمانوش هناك، باضطراب ممسكة الهاتف. وفي الرّنة الرابعة، أجابت، راجية ألا تكون أمّها.

وقد كانت.

«حبيبتي، هل يعاملونك جيداً؟» كان أول شيء سألتها.

«نعم ماما»، همست آرمانوش بصوت خال من أي نبرة. فقد اعتادت

على ذلك الآن. فمنذ أن كانت صغيرة، كانت أمّها تتصرف وكأن حياتها في خطر عندما تأتي لزيارة بيت تشكمكجيان.

«آمي، لا تقولي لي إنك لا تزالين في البيت؟».

لقد تعوّدت آرمانوش على ذلك أيضاً. فمنذ انفصال أبويها، حصل فراق من نوع مختلف بين أمّها وبين اسمها. فلم تعد تناديها «آرمانوش»، وكأنها كانت تريد أن تغيّر اسم ابنتها كي تتمكن من مواصلة حبها لها. لكن آرمانوش لم تخبر أحداً في عائلة تشكمكجيان عن تغيير اسمها حتى يومنا هذا. إذ يتعين على المرء أحياناً أن يحتفظ ببعض الأسرار، والتي يوجد لديها الكثير منها.

«لماذا لا تردّين على الهاتف؟» قالت أمّها بإصرار: «ألن تخرجي الليلة؟».

توقّفت آرمانوش، مدركة تماماً أن جميع من في الغرفة يتنصتون إلى ما تقوله. «نعم، يا أمّي»، كان كلّ ما قالته بعد صمت أخرق.

«لا أظن أنك غيّرت رأيك؟».

«لا، يا أمّي. لكن لماذا لديك رقم خاص؟».

«حسناً، لديّ أسبابي الخاصة، مثل أيّ أمّ. إذ إنك لا تردّين دائماً على الهاتف عندما تعرفين أني أنا المتصلة»، وخفت صوت روز على نحو كئيب ليرتفع ثانية، «هل سيلتقي مات بالعائلة؟».

«نعم، يا أمّي».

«لا! سيكون هذا خطأ كبيراً. إنهم سيخيفونه. أوه عمّاتك، أنت لا تعرفينهن، إنك فتاة طيبة جداً ولا تستطيعين أن تري الأمور السيئة فيهن، إنهن سيثرن فزع الصبي المسكين بأسئلتهن واستفساراتهن».

لم تنبس آرمانوش بكلمة. كانت هناك هسهسة غريبة على الخطّ وتوقّعت أن أمّها تنظّف شعرها فيما تطلق فيه العنان للسانها.

«حبيبتي، لماذا لا تقولين شيئاً؟ هل هم جميعهم هناك؟» سألت روز. وجاء صوت هسيس مكتوم آخر، لكنه لم يبد لآرمانوش أنه صوت تمشيط شعر. بل بدا مثل شيء يسقط في سائل طري دون أن يحدث طرطشة، بل صوت فطيرة تُصبّ في مقلاة حارّة جداً.

«أوه، لماذا أسأل عن الأشياء الواضحة؟ بالطبع إنهم هناك. جميعهم، أراهن على ذلك. إنهم لا يزالون يكرهونني، أليس كذلك؟».

لم يكن لدى آرمانوش أي ردّ. وكان بإمكانها أن تتصور روز، وهي تقف في المطبخ ذي الخزانات بلون السلمون التي بدأت تتقشر، والتي كانت تخطط لتجديدها لكنها لم تكن تملك النقود أو الوقت للقيام بذلك، وشعرها مرفوع في شكل كعكة، وجهاز الهاتف اللاسلكي ملتصق بأذنها، ومقلاة بيدها الأخرى، تصنع كومة من الفطائر وكأن هناك جيشاً من الأطفال في البيت، فقط لتأكلها جميعها وحدها في آخر النهار. وكان بإمكانها أن تتصوّر زوج أمّها أيضاً، مصطفى قازانجي، وهو جالس إلى مائدة المطبخ، يحرّك الحليب القليل الدسم في قهوته ويتصفح جريدة أريزونا ديلي ستار على عجل.

فبعد أن تخرّج مصطفى من جامعة أريزونا وتزوّج روز، عمل في شركة للمشروبات المعدنية في المنطقة، وحسب ما تتذكره آرمانوش، فقد كان يجد متعة بعالم الروك أند رول أكثر من أيّ شيء آخر. لم يكن رجلاً سيئاً، وإذا كان ثمة عيب فيه، فإنه كان بليداً بعض الشيء. ولم يكن يبدو أن لديه أي ولع أو رغبة بأي شيء في الحياة. ولم يسافر إلى إستانبول منذ مدة لا يعرفها إلا الله، مع أنه توجد لديه عائلة هناك. وكانت آرمانوش تشعر بأنه كان يريد أن ينفصل عن ماضيه، لكنها لم تكن تعرف لماذا. وعندما حاولت بضع مرات أن تتحدث معه عن أحداث عام ١٩١٥ وماذا فعل الأتراك بالأرمن، أجابها مصطفى: «لا أعرف الكثير عن هذه

الأشياء»، وأسكتها بلطف، ولكن بحزم، «لقد أصبح كلّ هذا يتعلق بالتاريخ. يجب أن تتحدثي عن ذلك مع المؤرخين».

«آمي، هل ستكلميني؟» بدا صوت روز غاضباً الآن.

«ماما، يجب أن أغلق الخطّ. سأتصل بك فيما بعد»، قالت آرمانوش. وسمعت على الهاتف صوت نقرة غير متوقعة مصحوبة بصوت هسيس آخر، فخيّل إليها أن أمّها قد وضعت قطعة أخرى من عجينة الفطيرة في المقلاة، أو أنها بدأت تنشج. وفضلت آرمانوش أن يكون ظنها الأول.

عادت إلى المائدة منزعجة، وجلست على كرسيها، وأمسكت ملعقتها، متحاشية النظر في عيونهم، وبدأت تلتهم ما كان أمامها، سوى أنه لم يكن الشيء الذي كانت تريد أن تتناوله. ولم تدرك خطأها إلا بعد بضع ملاعق أخرى.

«لماذا عليّ أن أتناول مانتي؟» صاحت آرمانوش.

«لا أعرف، يا حبيبتي»، ردت عليها العمّة فارسينغ، محدّقة فيها بخوف وكأنها كانت مخلوقاً جديداً. «لقد وضعته هناك لعلك كنت تريدين أن تجربّيه. ويبدو أنك جربّتيه».

اعترت آرمانوش رغبة في البكاء. فاستأذنت وذهبت إلى الحمّام لتنظّف أسنانها، وهي تشعر بالأسف لهذا الموعد السخيف. وقفت أمام المرآة ممسكة أنبوب معجون الأسنان نصف المعصور، وفي عينيها نظرة شخص على وشك أن ينبذ المجتمع إلى الأبد ويصبح ناسكاً ويعيش وحيداً فوق قمة جبل مهجور. كيف يمكن لمعجون أسنان كولجيت توتال المبيّض أن يزيل رائحة المانتي الفاضح؟ ربما كان عليها أن تتصل بمات هاسينغير وتلغي الموعد؟ فقد كان كلّ ما تريد أن تفعله هو أن تستلقي في السرير وتقرأ الروايات التي اشترتها. تقرأ وتقرأ حتى يسيل الدم من أنفها وتتهدل عيناها. هذا كلّ ما كانت تريده.

«كان يجب أن تمكثي في السرير وتقرئي رواياتك»، وبّخت الوجه المألوف لديها في المرآة.

«هراء!» جاء صوت العمّة زاروهي، التي رأتها واقفة إلى جانبها في المرآة: «إنك صبيّة جميلة وتستحقّين أفضل رجل في العالم. الآن دعينا نرى قليلاً من الجمال والبهاء الأنثوي. ضعي قليلاً من أحمر الشفاه يا آنستي!».

وقد فعلت ذلك. لم يكن مكتوباً على الجزء السفلي من أنبوب أحمر الشفاه «جمال وبهاء أنثوي» بل شيئاً قريباً من ذلك: فقد كتب عليه رونق الكرز. وضعت آرمانوش أحمر الشفاه بسخاء، ثم أخذت تربت بمنديل على شفتيها ومسحت معظمه. كان ذلك عندما رن الجرس. الساعة السابعة واثنتان وثلاثون دقيقة! يبدو أن الدقة في المواعيد إحدى ميزات مات هاسينغير.

وبعد دقيقة كانت آرمانوش تبتسم لمات هاسينغير الذي يرتدي ثياباً أنيقة. كان مستثاراً ومضطرباً قليلاً وهو واقف عند الباب. وكان يصغرها بثلاث سنوات ـ وهو أمر تافه لم تشعر بالحاجة لأن تذكره لأحد، إلا أن ذلك كان واضحاً في وجهه، إما لأنه فعل شيئاً بشعره الذي حلقه قصيراً، أو لأنه ارتدى ثياباً لم يكن يرتديها عادة. فقد كان مات هاسينغير يرتدي سترة بنية داكنة من جلد الخروف وبنطلون من ماركة رالف لورين. كان يبدو مثل مراهق يرتدي ثياب بالغين. دخل وهو يحمل باقة ضخمة من الزنبق القرمزي بيده اليسرى، ابتسم لآرمانوش، ثم لاحظ حشداً يقف وراءها فتجمّدت أوصاله. كانت عائلة تشكمكجيان جميعها تصطف وراء آرمانوش.

«تفضل أيها الشابّ»، قالت العمّة فارسينغ مشجعة إياه، بصوت بدا أيضاً مثيراً للفزع.

صافح مات هاسينغير جميع أفراد العائلة، وهو يشعر بنظراتهم المتسائلة تنتهك وجهه. فقد ثقته بنفسه في الحال، فاضطرب وأخذ العرق يتفصد منه. تناولت منه إحداهن باقة الزهر، وأخذت أخرى سترته. وبعد أن خلع سترته، بدا مثل طاووس منتوف الريش، واتجه نحو غرفة الجلوس وألقى بنفسه على أول كرسي وقعت عيناه عليه. وتحلّق الجميع حوله بشكل هلال. تبادلوا بضع كلمات عن الطقس، وعن دراسته (فقد كان طالباً في كلية الحقوق، وهو شيء قد يكون جيداً وقد يكون سيئاً)، وعن عائلته (كان الطفل الوحيد، وهو أمر قد يكون جيداً وقد يكون سيئاً)، وعن والديه (كانا محاميين أيضاً، وهو أمر قد يكون جيداً وقد يكون سيئاً)، وعن مدى معرفة مات بالأرمن (ليس كثيراً، وهو شيء سيء، لكنه كان متحمساً لتعلم المزيد، وهو شيء جيد أيضاً)، ثم عادوا للحديث عن الطقس قبل أن يسود صمت ثقيل. وطوال خمس دقائق، لم ينبس أحد بكلمة، إلا أنهم جميعهم كانوا يبتسمون وكأن ثمة شيء قبع في حناجرهم وقد وجدوا طرافة في ذلك. من هذا الوضع المحرج، كانوا على وشك أن ينتقلوا إلى طريق كئيب مسدود، إلا أن تلفون آرمانوش الذي رنّ مرة أخرى أيقظهم من سباتهم. نظرت آرمانوش إلى شاشة الهاتف بإمعان وقرأت «رقم خاص». أغلقت الهاتف، وتركته يتذبذب. عقدت حاجبيها، وزمّت شفتيها، وكأنها تريد أن تقول لمات «لا تكترث بالأمر»، لكنه لم يفهم قصدها لا هو ولا الآخرون جميعهم.

في الساعة السابعة وخمسة وأربعين دقيقة، خرجت آرمانوش تشكمكجيان ومات هاسينغير من البيت أخيراً، وراحا يسيران بخطى ثابتة على طول شارع هايد ستريت متجهين إلى مطعم، سمع مات أنه مطعم لطيف ورومانسي: «النافذة المائلة».

«أرجو أن تحبي الطعام الآسيوي وفيه لمسة من التأثير الكاريبي»، قال لها مات ضاحكاً، مستمتعاً بكلماته: «لقد أوصى لي به كثيرون».

بالنسبة لآرمانوش لم تكن عبارة «أوصى لي به كثيرون» معياراً جيداً، وخاصة لأنها كانت تحذر دائماً من عبارة أكثر الكتب مبيعاً التي «يوصي بقراءتها كثيرون»، ومع ذلك لم تعارضه، راجية ألا تكون سخريتها صحيحة في نهاية الليلة.

لكنه تبين أنه بعيد تماماً عما أوصوا به لمات. فقد كان عبارة عن ملتقى شعبي للمثقفين والفنانين في المدينة، وقد يكون مطعم «النافذة المائلة» أيّ شيء لكنه لا يمكن أن يكون مطعماً رومانسياً لطيفاً. بل كان عبارة عن مخزن غير تقليدي ذي سقوف عالية، وأضواء مزخرفة تتدلى من السقف، وجدرانه تتلألأ بلوحات من الفن التجريدي المعاصر. وكانت تكسوه كله، من رأسه وحتى أخمص قدميه حلة سوداء، وكان الندل يتحركون بسرعة حول الطاولات مثل مستعمرة نمل اكتشفت كومة من حبيبات السكر. وقدمت مستعمرة الندل أطباقاً معدة بطريقة فنية، مع أن زبوناً جديداً سيحل محلك، ربما نفح النادل إكرامية أكبر. ولم تكن قائمة الطعام مفهومة جيداً. وكأن المحتويات لم تكن في الأصل تثير الحيرة والبلبلة في النفس، إذ شُكِّل وزُيِّن كلّ طبق وكأنه لوحة تعبيرية تجريدية.

وكان لدى كبير الطهاة الهولندي ثلاثة طموحات في حياته: أن يصبح فيلسوفاً، أو أن يصبح رسّاماً، أو أن يصبح كبير الطهاة في أحد المطاعم. وبما أنه فشل بمهارة في كلّ من الفلسفة والفنّ في سني شبابه، وظّف جميع مواهبه التي لم يقدرها أحد في مطبخه. لذلك، كان يفتخر بأنه استطاع أن يجسد المجرّد من جديد، وأن يدخل إلى الجسد البشري قطعة فنية انبثقت من رغبة فنان في أن يجسّد حالته العاطفية الداخلية ويخرجها إلى العلن. هنا في مطعم النافذة المائلة، لم يكن تناول الطعام شيئاً يتعلق بالطهي أكثر مما كان شيئاً فلسفياً، ويجب ألا تعتبر أن عملية الأكل يوجهها دافع أساسي لملء معدتك أو لتكبت جوعك، بل كانت توجهها رقصة سامية من الرغبة في إفراغ أمعائك.

وبعد محاولات محبطة عديدة لاختيار ما سيأكلانه، قررت آرمانوش أن تختار طبقاً من سمك التونا أهي النيء، تكسوه طبقة من السمسم وقطعة كبد أوزة ياكينيكو، وقرر مات أن يجرّب قطعة من الضلع مع صلصة كريمة الخردل الحارة تكسوها طبقة من الزيت والخلّ مع الخردل والثوم وسلطة جيكاما. ولم يكن يعرف ما نوع النبيذ الملائم لهذه الأطباق، لكنه لكي يعطيها انطباعاً جيداً، بدأ مات يفتش في قائمة النبيذ، وبعد خمس دقائق من الحيرة، فعل ما يفعله دائماً عندما لم يكن يعرف ماذا يطلب: وهو أن يتخذ قراره بالنظر إلى ثمن النبيذ. فقد كان نبيذ كابيرنيت سوفينيون ١٩٩٧غالياً، لكنه كان لا يزال ضمن إمكانياته. وبعد أن طلبا وجبتيهما، حاولا أن يعرفا إن كان خيارهما موفقاً من قسمات وجه النادل الذي كان يقدم لهما الأطباق، إلا أنهما لم يجدا سوى صفحة فارغة من التهذيب المحترف.

تحدثا قليلاً. فقد تحدث هو عن المهنة التي كان يريد أن يبنيها، وتحدثت هي عن الطفولة التي كانت تريد أن تهدمها؛ تحدث هو عن خططه المستقبلية، وتحدثت هي عن آثار الماضي؛ تحدث هو عن توقّعاته في الحياة، وتحدثت هي عن ذكريات العائلة. وبدأت «جنية أجاص السكر» تتراقص عندما كانا على وشك أن يخوض في موضوع آخر. نظرت آرمانوش إلى الرقم بغضب. لم يكن رقماً مألوفاً، لكنه لم يكن رقماً خاصاً أيضاً. فأجابت.

«آمي، أين أنت؟».

تأتأت آرمانوش بذهول: «ما- ما! كيف. . . لماذا رقمك مختلف الآن؟».

«أوه، لأنني أتصل بك الآن من هاتف السيدة غرينيل الخلوي»، اعترفت روز، «لم يكن عليّ أن أفعل ذلك، لكنني اضطررت لأن أفعل ذلك لأنك لا تردين على اتصالاتي، طبعاً».

رمشت عينا آرمانوش وهي تنظر إلى النادل وهو يضع طبقاً غريب الشكل أمامها، يتكون من ألوان حمراء، ولون بني فاتح، وأبيض. ووسط صلصة تشبه ضربات فرشاة ملطّخة قبعت ثلاث قطع كروية من سمك التونا النيء الأحمر، ومحّ بيض أصفر ناصع، شكلت جميعها وجهاً يبدو عليه الأسف بعينين غائرتين. كانت لا تزال تمسك بالهاتف الخلوي بالقرب من أذنها لكنها لم تعد تنصت إلى أمّها، زمّت آرمانوش شفتيها، وهي تحاول أن تفكّر كيف ستأكل وجهاً.

«آمي، لماذا لا تردين عليّ؟ ألست أمّك؟ ألا تمنحيني على الأقل نصف الحقوق التي تمنحينها لعائلة تشكمكجيان؟».

«ماما، أرجوك»، قالت آرمانوش، لأن هذا السؤال بدا وكأن الإجابة عنه تكمن في أن ترجوها بأن ألا تسأله. قوّست كتفيها وكأن وزن جسمها تضاعف. لماذا تجد صعوبة كبيرة في التواصل مع أمّها؟

وبعد أن أعطتها عذراً سريعاً ووعدتها بأن تتصل معها لدى عودتها إلى البيت، أغلقت آرمانوش الهاتف وأطفأته. واختلست نظرة إلى وجه مات لترى إن كانت هذه المخابرة قد أزعجته، لكنها عندما رأت أنه لا يزال يمعن النظر في صحنه، زال قلقها. لم يكن صحن مات مستديراً، بل مستطيلاً، وقد قُسّم فيه الطعام إلى قسمين يفصلهما خطّ مستقيم تماماً من صلصة كريمة الخردل. ولم يدهشه التصميم أو الألوان أكثر مما أدهشته دقة الترتيب. ابتلع ريقه بصعوبة وكأنه كان يخشى أن يفسد استطالة الصحن.

كان صحناهما نسختين طبق الأصل من لوحتين تعبيريتين. فقد كان صحن آرمانوش من لوحة للرسام فرانسيسكو بوريتي بعنوان «العاهرة العمياء»، بينما كان صحن مات مستوحى من إحدى لوحات مارك روثكو التي كان عنوانها عن جدارة «بدون عنوان». استغرق الاثنان في صحنيهما إلى حد أنهما لم يسمعا النادل وهو يسألهما إن كان كلّ شيء على ما يرام.

كانت بقيّة الأمسية لطيفة، لكن بقدر ما يمكن أن تعنيه كلمة «لطيفة» فقط. وتبين لهما أن الطعام لذيذ وسرعان ما راحا يلتهمان القطع الفنية بسرعة، إلى درجة أنه عندما وصلت الحلوى، لم يجد مات مشكلة في أن يمزج حبات العنب المصفوفة بدقة كبيرة بلوحة «كآبة نيسان تجعل أيار أصفر» للرسام بيتر كيتشيل، بل لم تتردد آرمانوش في أن تطعن بملعقتها الكاسترد المخملي الرجراج الذي كان يمثّل «المادة البراقة» بريشة جاكسون بولوك. لكن عندما جاء دور الحديث، لم يحرزا نصف ما أحرزاه في تناول الطعام. إلا أن هذا لا يعني أن آرمانوش لم تستمتع برفقة مات، أو أنها لم تجده جذّاباً. بل كان ثمة شيء مفقوداً إلى درجة رهيبة، لا بمعنى أن ثمة تفصيلاً كان ينقص الشيء كله، بل بمعنى الذوبان التام إلى قطع بدون ذلك الجزء المفقود. لعله كان طعاماً فلسفياً إلى أقصى حد. لكن آرمانوش كانت تعرف حدودها، وربما لم تستطع أن تقع في حبّ مات هاسينغير. وعندما توصلت إلى هذا الاكتشاف، كفّت عن التساؤل، وحل العطف التام عليه مكان اهتمامها به.

في طريق عودتهما إلى البيت أوقفا السيارة ومشيا قليلاً على طول جادة كولومبوس، وكانا كلاهما جدّياً وصامتاً. إلا أن هبة النسيم تغيرت بعد ذلك، إذ هبّت على آرمانوش نفحة مالحة لاذعة من هواء البحر، فشعرت بالاشتياق لأن تكون ممدة الآن على شاطئ البحر، وتملكتها رغبة جامحة للهروب من هذه اللحظة بالذات. لكنهما عندما وصلا أمام مكتبة «أضواء المدينة»، لم تستطع إلا أن تتوقف وتنظر باهتمام عندما رأت أحد كتبها المفضّلة من وراء واجهة العرض: «قبر لبوريس دافيدوفيتش».

قالت له: «هل قرأت هذا الكتاب؟ إنه كتاب رائع!»، وعندما سمعت كلمة «لا»، أخذت تحكي له أول قصة من الكتاب، ثم تلتها القصص السبع كلها. وبما أنها كانت تعتقد حقاً أنه لا يمكنك أن تفهم الكتاب جيداً دون أن ترسم أولاً خارطة عن التضاريس الوعرة لأدب أوروبا الشرقية،

وبذلك نقضت آرمانوش تشكمكجيان الوعد الذي كانت قد قطعته على أمّها صباح هذا اليوم بأن لا تقل كلمة واحدة عن الكتب، على الأقل في موعدها الأول.

عندما عادا إلى حي التلّ الروسي، وأصبحا أمام بناية الجدّة شوشان، وقفا وجهاً لوجه، وقد أدرك كلّ منهما أن الليلة قد انتهت، وأنهما يرغبان في أن يجعلا النهاية أفضل من نهاية الأمسية السابقة كما يعتقدان أنها ستنتهي. فقد كانا يهدفان أن تكون قبلة حقيقية، طال انتظارها وتخيّلها. لكن بدلاً من ذلك، تبين أنها كانت قبلة ناعمة مختومة بالشفقة والحنان من جانب آرمانوش، وبالإعجاب من جانب مات، بعد أن كانت تفصلهما أميال عن الإحساس بأي عاطفة اتجاه أحدهما الآخر.

«أتعرفين كنت أنوي أن أقول لك ذلك طوال الأمسية»، قال مات متلعثماً، وكأنه مسرج بالحقيقة المزعجة التي كان على وشك أن يعترف بها: «لديك هذه الرائحة الرائعة. إنها رائحة غير عادية وغريبة... مثل».

«مثل ماذا؟» وشحب لون وجه آرمانوش عندما برقت في رأسها صورة صحن «مانتي» يتصاعد منه البخار.

طوقها مات هاسينغير وهمس: «فستق حلبي... نعم، تفوح منك رائحة الفستق الحلبي».

في الساعة الحادية عشرة والربع، أخذت آرمانوش تبحث عن حزمة المفاتيح لتفتح الأقفال العديدة التي أقفل بها باب بيت الجدّة شوشان، لكنها كانت تخشى أن تجد أفراد العائلة جميعهم بانتظارها في غرفة الجلوس، يتحدثون في السياسة، ويحتسون الشاي، ويتناولون الفاكهة.

إلا أن العتمة كانت تخيم على المكان ولم يكن هناك أحد. فقد أوى أبوها وجدتها إلى الفراش، وهكذا فعلت الأخريات. وجثم على الطاولة صحن فيه تفاحتان وبرتقالتان، جميعها مقشّرة بعناية عرفت أنها تُركت من

أجلها. أمسكت آرمانوش إحدى التفاحتين، التي أصبح لونها داكناً من الخارج. وفي صفاء الليل الغريب راحت تقضم التفاحة، وقد اعتراها شعور بالحزن والتعب. إذ إنها ستعود إلى أريزونا قريباً، لكنها لم تكن متأكدة إن كانت ستتحمّل عالم أمّها الذي يهيمن عليها بالكامل. فقد كانت تحبّ أن تعيش هنا في سان فرانسيسكو، وربما كان باستطاعتها أن تتوقف عن دراسة فصل دراسي لتمكث مع أبيها وجدتها شوشان، كما كانت تشعر بأن ثمة شيئاً غائباً هنا، بأن جزءاً من هويتها كان مفقوداً وبدونه لن تستطيع أن تعيش حياتها الخاصة بها. ولم يسهم اللقاء الباهت مع مات هاسينغير إلا في تعزيز هذا الشعور. فقد شعرت أنها اكتسبت مزيداً من الحكمة الآن، وأصبحت تدرك حالتها أكثر، لكنها شعرت بالحزن لما كلفته هذه المعرفة.

ألقت حذاءها من قدميها، وهرعت إلى غرفتها، وأخذت الفاكهة معها. ضمت شعرها في شكل ذنب حصان، وخلعت فستانها الفيروزي، وارتدت بيجامتها الحريرية التي اشترتها من الحيّ الصيني. وعندما أصبحت مستعدّة، أغلقت باب غرفتها، وفتحت الكمبيوتر في الحال. واستغرقت دقائق قليلة كي تصل إلى الملاذ الوحيد الآمن الذي كان بإمكانها أن تلجأ إليه في أحيان كهذه: مقهى كونستانتينوبوليس.

كان مقهى كونستانتينوبوليس، غرفة من غرف الدردشة على الانترنت، أو كما يسميه الرواد النظاميون، مقهى الإنترنت، صمّمه في الأصل عدد من الشبان اليونانيين الأمريكيين، واليهود الشرقيين الأمريكيين، والأرمن الأمريكيين الذين كان يجمعهم، فضلاً عن كونهم من أهالي نيويورك، شيء أساسي مشترك واحد وهو أنهم أحفاد عائلات كانت تعيش ذات يوم في إستانبول. وعندما فتح الموقع انطلق اللحن المعروف: «كانت إستانبول القسطنطينية/ أما الآن فهي إستانبول، وليست القسطنطينية».

بهذا اللحن ظهرت صورة مظللة للمدينة تحت ظلال تتلألأ عن

الغروب، كان يغطيها من الأعلى لون بنفسجي وأسود وأصفر. وفي منتصف الشاشة سهم يومض مشيراً إلى المكان الذي يجب أن تنقر عليه كي تدخل إلى غرفة الدردشة. ولكي تدخل، عليك أن تكتب كلمة السر. ومثل الكثير من المقاهي الحقيقية، فإن هذا المقهى مفتوح للجميع من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية، فقد كان مخصصاً للرواد المنتظمين. ورغم أن عدداً كبيراً من الأشخاص كانوا يظهرون يوماً بعد آخر، إلا أن المجموعة الرئيسية بقيت نفسها تقريباً. وما أن تتمكن من الدخول، حتى تخفت الصورة الظليّة في الأسفل وتنسحب، كما تُفتح ستارة مسرح مخملية قبل بدء الفصل الأول. وعندما تدخل إلى مقهى الإنترنت، تسمع قرع أجراس ترنّ، ثم تسمع اللحن ذاته، لكنه يكون بعيداً في الخلفية هذه المرة.

عندما دخلت آرمانوش إلى غرفة الدردشة، تجاهلت غرف «العزاب الأرمن»، و«العزاب اليونانيين»، ومنتديات «جميعنا عزاب» ونقرت على شجرة أنوش ـ وهو منتدى يلتقي فيه الأعضاء النظاميون ممن لديهم اهتمامات ثقافية. كانت آرمانوش قد اكتشفت هذه المجموعة منذ عشرة شهور، وأصبحت أحد أعضائه، وكانت تشارك في المناقشات كلّ يوم تقريباً. ورغم أن بعض الأعضاء كانوا يظهرون بين الحين والآخر أثناء النهار، لم تكن المناقشات الحقيقية تدور إلا في الليل بعد انتهاء مشاغل العمل والهموم اليومية. وكان يحلو لآرمانوش أن تتخيّل هذا المنتدى مثل حانة معتمة، يعلوها الدخان، ترتادها وهي عائدة إلى البيت. وهكذا كان مقهى كونستانتينوبوليس ملاذاً يمكنك أن تتخلّى عند مدخله عن ذاتك الحقيقية الرتيبة، وكأنك تخلع معطفك الواقي من المطر المبلل عند مدخل المقهى.

كان قسم شجرة أنوش في مقهى كونستانتينوبوليس يضم سبعة رواد دائمين، خمسة منهم من الأرمن واثنان من اليونانيين. ولم يلتق أحدهم

بالآخر شخصياً، ولم يشعر أحدهم بالحاجة إلى ذلك. وكانوا جميعهم من مدن مختلفة، ولديهم مهن وحياة متباينة. وكان لكلّ واحد منهم اسم مستعار. وكان اسم آرمانوش هو «مدام روحي المنفية»، الذي اختارته تيمناً بزابيل يسيان، الروائية الوحيدة التي أدرج أعضاء حزب تركيا الفتاة اسمها في قائمة الإعدام في عام ١٩١٥. كانت زابيل التي ولدت في القسطنطينية شخصية رائعة، وعاشت معظم حياتها في المنفى. وكانت تتمتع بحياة صاخبة كروائية وكاتبة صحفية. وكانت آرمانوش تضع على طاولتها صورتها التي تنظر فيها زابيل من تحت حافة قبعتها، نظرة كئيبة إلى بقعة مجهولة خارج إطار الصورة.

وكان لجميع رواد الغرفة أسماء مستعارة لأسباب لم يكن أحد يسأل عنها. وفي كلّ أسبوع، كانوا يختارون موضوعاً لمناقشته. ورغم أن المواضيع كانت تتفاوت كثيراً، فإنهم ينحون جميعهم للحديث عن تاريخهم وثقافتهم المشتركة ـ وتعني «المشتركة» غالباً «العدو المشترك»: الأتراك. ولم يكن ثمة شيء يجمع هؤلاء الناس معاً بسرعة وقوة أكثر ـ إلا هذا العدو.

كان موضوع هذا الأسبوع «الإنكشاريون». وفيما راحت آرمانوش تستطلع بعينيها آخر الموجودين في المقهى، شعرت بالسعادة عندما رأت البارون باغداساريان هناك، الذي لم تكن تعرف الكثير عنه، سوى أنه حفيد أحد الناجين، مثلها تماماً، ومليء بالغضب، على عكسها. وقد يكون أحياناً قاسياً ومليئاً بالشك. وخلال الأشهر القليلة الماضية، ورغم مراوغة فضاء الإنترنت، أو ربما بفضله، بدأت آرمانوش تشعر بالميل نحوه دون أن تعلم. فلم يكتمل يومها إذا لم تقرأ رسائله. ومهما كان ذلك الشيء الذي تشعر به نحوه ـ صداقة، أم ولع، أم مجرد فضول ـ كانت آرمانوش تعرف أنه كان شعوراً متبادلاً.

إن الذين يعتقدون بأن الحكم العثماني كان حكماً صالحاً لا يعرفون

شيئاً عن ظاهرة الإنكشارية. فقد كان الإنكشاريون أطفالاً مسيحيين يتم أسرهم وتجعلهم الدولة العثمانية يعتنقون الإسلام لتتاح لهم فرصة تسلّق السلم الاجتماعي على حساب احتقارهم لشعبهم ونسيانهم لماضيهم. إنّ لظاهرة الإنكشارية علاقة بجميع الأقليات اليوم كما كانت في الأمس. أنتم أطفال المنفيين! يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال القديم المتكرر: ماهو موقفكم إزاء هذه الظاهرة المتناقضة؛ هل ستقبلون دوركم الإنكشاري؟ هل ستتخلون عن مجتمعكم لإقامة سلام مع الأتراك وتدعونهم يبيّضون صفحة الماضي لكي، كما يقولون، نستطيع أن نمضي قدماً؟

كان وجه آرمانوش ملتصقاً بالشاشة، وهي تقضم ما تبقى من التفاحة بعصبية. لم تشعر من قبل بمثل هذا الإعجاب تجاه أي رجل ـ غير أبيها، طبعاً، إلا أن ذلك كان شيئاً مختلفاً. كان ثمة شيء في البارون باغداساريان يسحرها ويخيفها في وقت واحد. ولم تكن تخشى منه أو من الأشياء التي كان يدّعيها بجرأة ـ بل كانت تخشى من نفسها. فقد كان لكلماته تأثير قوي، تستطيع أن تخرج آرمانوش الأخرى القابعة في داخلها والتي لم تخرج بعد، ذلك الكائن الغامض الذي يغط في سبات عميق. إلا أن البارون باغداساريان أثار بطريقة ما ذاك المخلوق برمح كلماته، وظل يحثّها وينخزها إلى أن أفاقت بهدير، وبرزت إلى الضوء.

كان عقل آرمانوش لا يزال يفكر بهذه النتيجة المخيفة، عندما لمحت رسالة طويلة أرسلتها السيدة طاووس/ سيرامارك ـ وهي أمريكية من أصل أرمني، تعمل في مصنع للنبيذ في كاليفورنيا كخبيرة في النبيذ. وهي تسافر كثيراً إلى يريفان، وكانت تُعرف بمقارناتها المسلية الذكية بين أمريكا وأرمينيا. فقد أرسلت اليوم اختباراً ذاتياً لقياس درجة «كم أنت أرمني».

١ ـ إن كنت نشأت وأنت تنام تحت بطانيات محاكة باليد، أو أنك كنت ترتدي بلوزات محاكة باليد وتذهب بها إلى المدرسة.

٢ ـ إن كان يقدم لك كتاب أبجدية أرمني كهدية في كلّ عيد ميلاد حتى بلغت السادسة أو السابعة من عمرك.

٣ ـ إن كانت توجد صورة جبل أرارات معلقة في بيتك، أو في مرآبك، أو في مكتبك.

٤ ـ إن كنت معتاداً على أن تُحبَّ وتُدلل بالأرمنية، وأن تُوبخ وتُعاقب بالإنكليزية، وتُنبذ بالتركية.

٥ ـ إن كنت تقدم لضيوفك حمّص مع رقائق ناتشو وغموس الباذنجان مع كعك الرزّ.

٦ ـ إن كنت تعرف جيداً طعم المانتي ورائحة السودزوك ولعنة البسطرما.

٧ ـ إن كنت تهتاج وتتضايق بسهولة بسبب أمور تافهة للغاية، لكنك تستطيع أن تحافظ على رزانتك عندما يكون هناك شيء يدعو للقلق أو الاضطراب حقاً.

٨ ـ إن كنت قد أجريت عملية تجميل لأنفك (أو تزمع القيام بذلك).

٩ ـ إن كان عندك مرطبان من ماركة نوتيلا في ثلاجتك ولوحة تافيا في مكان ما في مستودعك.

١٠ ـ إن كان لديك بساط عزيز عليك ممدود في غرفة جلوسك.

١١ ـ إن كنت تحزن عندما ترقص على أنغام «لوركي لوركي»، حتى لو كان اللحن راقصاً ولا تفهم معنى كلمات الأغنية.

١٢ ـ إن كان اللقاء لتناول الفاكهة بعد كلّ وجبة عشاء عادة متأصلة تماماً في بيتك، وإن كان أبوك لا يزال يقشّر لك البرتقال، مهما بلغت من العمر.

١٣ ـ إن كان أقاربك لا يزالون يحشرون الطعام في فمك، ولا يقبلون عبارة «لقد شبعت» كردّ.

١٤ ـ إن كان صوت الناي «دودوك» يبعث القشعريرة في أسفل ظهرك ولا يمكنك إلا أن تتساءل كيف يمكن لناي مصنوع من غصن شجرة مشمش أن يُبكي المرء بحزن شديد.

١٥ ـ إن كنت تشعر في أعماقك أنه يوجد دائماً شيء عن ماضيك أكثر مما يُسمح لك بأن تتعلم.

بعد أن وضعت «نعم» على كلّ سؤال من هذه الأسئلة، انتقلت آرمانوش إلى أسفل الصفحة لترى النتيجة:

صفر ـ ٣ نقاط: آسف يا صديقي، لا بد أنك دخيل.

٤ ـ ٨ نقاط: يبدو أنك تشبه الدخيل في داخلك. وثمة احتمال بأنك متزوّج من أرمنية.

٩ ـ ١٢ نقطة: تكاد تكون أرمنياً.

١٣ ـ ١٥ نقطة: لا يوجد شكّ، إنك أرمني فخور.

ابتسمت آرمانوش أمام الشاشة. وأدركت في تلك اللحظة ما كانت تعرفه، وكأن باباً سرياً قد فتح في أعماق دماغها، وقبل أن يتمكن عقلها من استيعاب الأفكار المتدفقة إليه، أحست بموجة من تأمل الذات. لا بد أن تذهب إلى هناك. هذا ما تحتاج إليه بقوة: القيام برحلة.

وبسبب طفولتها المتشتتة، لم تكن قادرة على أن تجد إحساساً بالاستمرارية والهوية. كان عليها أن تسافر إلى ماضيها كي تتمكن من البدء في أن تعيش حياتها. وفيما برز لها هذا الإيحاء، جعلها ذلك تكتب رسالة أيضاً، إلى الجميع، على ما يبدو، باستثناء البارون باغداساريان:

إن ظاهرة الإنكشارية ممزقة بين حالتين متناقضتين من الوجود. فمن ناحية، تتراكم بقايا الماضي ـ رحم من الرقة والأسى، شعور بالظلم

والتمييز. ومن الناحية الأخرى، يضيء المستقبل الموعود ـ ملاذ مزدان بزركشات وبهارج النجاح، شعور بالأمان كأنك لم تشعر به من قبل، الشعور بالراحة والانضمام إلى الأغلبية، لكي يعتبرك الآخرون طبيعياً في نهاية الأمر.

مرحباً يا سيدة روحي المنفية! يسعدني أنك عدت. من الجميل أن نستمع إلى الشاعرة فيك.

كان هذا البارون باغداساريان. لم تتمالك آرمانوش نفسها فعادت وقرأت الجزء الأخير بصوت عال: من الجميل أن نستمع إلى الشاعرة فيك. فقدت سلسلة أفكارها لوهلة.

أظن أنني أستطيع أن أكون على علاقة بظاهرة الإنكشارية. لأنني الابنة الوحيدة لأبوين مطلقين من خلفيتين ثقافيتين مختلفتين.

توقّفت وأحست بالانزعاج لأنها كشفت قصتها الشخصية، إلا أن حافز الاستمرار كان قوياً جداً.

بما أنني الابنة الوحيدة لأب أرمني، الذي هو نفسه ابن أحد الناجين، ولأمّ من إليزابيثتاون في كنتاكي، فإنني أعرف كيف يمكن للمرء أن يشعر بأنه ممزق بين جانبين متناقضين، لا أستطيع أن أنتمي تماماً إلى أي مكان، إنني أتذبذب باستمرار بين حالتين من الوجود.

حتى هذا اليوم، لم تكن قد كتبت شيئاً شخصياً ومباشراً جداً لأي شخص في المجموعة. بدأ قلبها يخفق بقوة، وأخذت قليلاً من الراحة. ماذا سيقول البارون باغداساريان عنها الآن، وهل سيكتب أفكاره الحقيقية؟

لا بد أن هذا أمر صعب. فبالنسبة لمعظم الأرمن في الشتات، تعتبر هاي دات المرساة النفسية الوحيدة الموجودة لدينا لكي نحتفظ بهوية. إن حالتك مختلفة، لكننا في النهاية جميعنا أمريكيون وأرمن، هذه التعددية جيدة ما دمنا لم نفقد مرساتنا.

كتبت «التعايش ـ البائس»، وهي ربّة بيت غير سعيدة، زوجة رئيس تحرير مجلّة أدبية معروفة في منطقة الخليج.

إن التعدد يعني أن يكون المرء أكثر من واحد. لكن لم يكن هذا هو الحال بالنسبة لي. فلم يكن بإمكاني أن أصبح أرمنية في المقام الأول، كتبت آرمانوش، مدركة أنها على وشك أن تعترف. يجب أن أجد هويتي. أتعرفون بماذا كنت أفكّر في سري؟ أن أقوم بزيارة بيت عائلتي في تركيا. إن جدّتي لا تكفّ عن التحدث عن هذا البيت الرائع في إستانبول. سأذهب وأراه بأم عينيّ. هذه هي رحلة إلى ماضي عائلتي، وكذلك إلى مستقبلي. إن ظاهرة الإنكشارية ستستحوذ عليّ إن لم أفعل شيئاً لأكتشف ماضيّ.

انتظري، انتظري، انتظري، كتبت السيدة طاووس/ سيرامارك مذعورة. بحقّ السماء، هل فكرت بما ستفعلينه؟ هل تزمعين الذهاب إلى تركيا وحدك، هل استشرت أحاسيسك؟

يمكنني أن أجد لك بعض الصلات. إنه ليس بالأمر الصعب. وكيف يكون ذلك يا سيدة روحي المنفية؟ أصرّت السيدة طاووس/ سيرامارك. إلى أي مدى يمكنك أن تذهبي وذلك الاسم مكتوب على جواز سفرك؟

لماذا لا تذهبين بدلاً من ذلك إلى مديرية الشرطة مباشرة في إستانبول وتسلمي نفسك بلطف! دخل على الخط «مناهض الخافورما»، وهو طالب في السنة الأخيرة في قسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة كولومبيا.

أحست آرمانوش أنه قد يكون هذا هو الوقت المناسب لأن تعترف بحقيقة أساسية أخرى في حياتها. إن إيجاد الصلة الصحيحة قد لا يكون على هذه الدرجة من الصعوبة بما أن أمّي متزوّجة الآن من رجل تركي.

ساد صمت قلق. ولدقيقة كاملة لم يكتب أحد شيئاً، لذلك تابعت آرمانوش.

اسمه مصطفى، وهو جيولوجي يعمل في شركة في أريزونا. إنه رجل لطيف، لكنه لا يبدي اهتماماً بالتاريخ منذ وصوله إلى أمريكا، أي منذ حوالى عشرين سنة، ولم يزر وطنه أبداً منذ ذلك الحين. حتى أنه لم يدعو عائلته إلى حفل زفافه. ثمة شيء مريب، لكني لا أعرف ما هو. إنه لا يتحدّث عنه أبداً. لكني أعرف أن لديه عائلة كبيرة في إستانبول. سألته ذات مرة كيف يبدو هؤلاء الناس فقال: أوه، إنهم مجرد أناس عاديين، مثلك ومثلي.

إنه لا يبدو وكأنه أكثر الرجال حسّاسية على وجه الأرض ـ هذا، طبعاً، إذا كان من الممكن أن يكون لدى الرجال أية مشاعر، قاطعتها «ابنة سافو»، وهي سحاقية تعمل ساقية في حانة رثّة تعزف موسيقى الريغي في بروكلن.

من المؤكد لا توجد لديه مشاعر، أضافت «التعايش ـ البائس»، هل لديه قلب؟

عنده قلب. وهو يحبّ أمّي، وأمّي تحبّه، أجابت آرمانوش، وأدركت لأول مرة أنها اعترفت بالحبّ بين أمّها وزوج أمّها، وكأنها تراهما من خلال عيني شخص غريب. على أي حال، يمكنني أن أمكث مع عائلته؛ ففي جميع الأحوال أنا ابنة زوجته، وأظن أنهم سيقبلونني كضيفة. إنه لغز لي كيف سيستقبلني أناس أتراك عاديون. عائلة تركية حقيقية، ليست واحدة من أولئك الأكاديميين المتأمركين.

عما ستتحدّثين مع أتراك عاديين؟ سألت السيدة طاووس / سيرامارك. انظري، حتى المتعلمين جيداً فهم إما وطنيون أو جاهلون. هل تظنين أن أناساً عاديين سيهتمّون بقبول الحقائق التاريخية؟ هل تظنين أنهم سيقولون: أوه نعم، نحن آسفون، فقد ذبحناكم وهجّرناكم ثم ننكر ذلك عن قناعة. لماذا تريدين أن تضعي نفسك في ورطة؟

أفهم ذلك. لكن يجب أن تحاولي أن تفهمي أيضاً. أحست آرمانوش بدفق مفاجئ من الشعور بالقنوط. إذ إن الإفضاء بسرّ تلو الآخر، جعلها تشعر بأنها وحيدة في هذا العالم الهائل - شيء كانت تعرفه دائماً لكنها كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتواجهه. لقد ولدتم جميعكم في مجتمع أرمني ولا يتعين على أحد منكم أن يثبت انتماءه له. أما أنا فقد علقت في هذه العتبة منذ اليوم الذي ولدت فيه، وأنا أتقلب باستمرار بين عائلة أرمنية فخورة لكنها مجروحة نفسياً، وبين أمّ تعادي الأرمن بطريقة هستيرية. ولكي أستطيع أن أصبح أمريكية أرمنية مثلكم، يجب أن أجد أرمنيتي أولاً. وإذا كان ذلك يحتاج إلى القيام برحلة إلى الماضي، فليكن، فإني سأقوم بها، مهما قال أو فعل الأتراك.

لكن هل سيدعك أبوك وعائلته تذهبين إلى تركيا؟ كان هذا «أليكس الرواقي»، وهو شخص أمريكي يوناني من بوسطن، يشعر بالرضا تجاه الحياة ما دام يحيط به طقس مشمس، وطعام لذيذ، ونساء جميلات. وبما أنه أحد أتباع زينو الأوفياء، كان يؤمن بأن الناس يجب أن يبذلوا ما بوسعهم لكي لا يتجاوزوا حدودهم وأن يكونوا راضين بما لديهم. ألا تظنين أن عائلتك في سان فرانسيسكو ستكون قلقة عليك؟

قلقة؟ كشّرت آرمانوش عندما تصوّرت وجوه عمّاتها وجدتها. فقد كانت تعرف أنهم سيقلقون عليها حتى الموت.

يجب ألا يعرفوا شيئاً عن هذا، من أجلهم. لقد اقتربت عطلة الربيع ويمكنني أن أمضي الأيام العشرة كلها في إستانبول. سيظن أبي أنني في أريزونا مع أمّي، وستظن أمّي أنني لا أزال هنا في سان فرانسيسكو. إذ إن أحدهما لا يكلّم الآخر. وزوج أمّي لا يكلّم أفراد عائلته في إستانبول. لذلك لا يمكن كشف هذا الأمر بأي شكل. سيظل الأمر سرّاً. راحت

آرمانوش تحدّق في الشاشة، وكأنها شعرت بالاضطراب من الكلام الذي طبعته. فإذا واصلت الاتصال بأمّي كلّ يوم، وبأبي كلّ يومين أو ثلاثة أيام، يمكنني أن أتحكم بالأمر.

خطة جيدة! عندما تصلين إلى إستانبول، اقترحت السيدة طاووس / سيرامارك، يمكنك أن ترسلي تقارير إلى المقهى كلّ يوم.

رائع، ستكونين مراسلتنا الحربية، قال المناهض للخافورما بحماس، وتبعت ذلك فترة صمت طويلة لم يشاركها فيها أحد هذه الدعابة.

مالت آرمانوش إلى الوراء في كرسيها. ففي هدأة الليل، استطاعت أن تسمع صوت تنفّس أبيها الهادئ، وصوت تقلب جدتها في سريرها. شعرت أن جسدها ينزلق إلى جانب، وكأن جزءاً من جلوسها على هذا الكرسي طوال الليل جعلها تتذوق طعم الأرق، فيما كان جزء منها يريد أن تأوي إلى الفراش وتغط في النوم. مضغت القطعة الأخيرة من تفاحتها، وأحست بدفقة من الأدرينالين تسري في جسدها بسبب قرارها الخطير.

أطفأت آرمانوش مصباح المنضدة، وتركت ضوءاً خفيفاً يشعّ من شاشة الكمبيوتر. وعندما أوشكت على مغادرة مقهى كونستانتينوبوليس، ظهر سطر على الشاشة.

حيثما قادتك رحلتك الداخلية، نرجو أن تعتني بنفسك يا سيدة روحي المنفية العزيزة، ولا تدعي الأتراك يعاملونك بشكل سيء.

كان هذا البارون باغداساريان.

٧

قمح

رغم مضي أكثر من ساعتين على استيقاظها، ظلت آسيا قازانجي مستلقية في سريرها تحت لحاف ريش الإوز، تستمع إلى الأصوات التي لا تعد ولا تحصى والتي لا يمكن أن تصدرها أي مدينة أخرى إلا إستانبول، فيما أخذت تصيغ في مخيلتها بياناً شخصياً عن العدمية.

المادة الأولى: إذا لم تتمكني من إيجاد سبب كي تحبّي الحياة التي تعيشينها، فلا تتظاهري بأنك تحبّين الحياة التي تعيشينها.

أمعنت التفكير في هذه العبارة وأعجبتها إلى حد أنها قررت أن تجعلها ديباجة بيانها. وما أن بدأت تدوّن المادة الثانية، حتى ضغط سائق في الشارع مكابح سيارته بقوة شديدة. وسرعان ما سُمع صوته وهو يشتم ويزعق بأعلى صوته على أحد المارة الذي كان يجتاز تقاطع طريق مع أن ضوء إشارة المرور كان أحمر. أخذ السائق يصيح ويصرخ حتى بُحَّ صوته في وسط ضوضاء المدينة وجلبتها.

المادة الثانية: إن الأغلبية الساحقة من الناس لا يفكّرون مطلقاً، والذين يفكّرون لا يصبحون الأغلبية الساحقة أبداً. فاختاري في أي فئة تريدين أن تكوني.

المادة الثالثة: إذا لم يكن بوسعك أن تختاري، فكوني موجودة فقط؛ كوني فطراً أو نباتاً.

«لا يمكنني أن أصدق عينيّ أنك لا تزالين في مكانك كما وجدتك منذ نصف ساعة! هيا، ماذا تفعلين في السرير، أيتها البنت الكسولة؟».

كانت تلك الخالة بانو، بعد أن مدّت رأسها من باب الغرفة دون أن تقرع الباب أولاً. وكانت هذا الصباح تضع على رأسها منديلاً ملفتاً للنظر ذا لون أحمر فاقع إلى حد أنه جعل رأسها يبدو من بعيد مثل حبة بندورة ناضجة كبيرة. «لقد شربنا سماور كامل من الشاي ولا نزال ننتظر سموك، يا صاحبة الجلالة. هيا، انهضي ولتشرق شمسك! ألا تشمين رائحة السجق المشوي؟ ألست جائعة؟» وأغلقت الباب قبل أن تسمع ردها.

تمتمت آسيا شيئاً وسحبت اللحاف حتى أنفها، واستدارت إلى الجانب الآخر.

المادة الرابعة: إذا لم تكوني مهتمة بالرّد عليهن، فلا تطرحي أسئلة.

وفي غرفة الجلوس، وفي غمرة حركة لا تفتر أثناء تناول طعام الفطور في عطلة نهاية الأسبوع، كان بإمكانها أن تسمع صوت قطرات الماء تقطر من حنفية السماور الصغيرة، وصوت بقبقة البيضات السبع التي تغلي في القدر، وطشيش وأزيز شرائح السجق في المقلاة، ولم تكن إحداهن تكفّ عن تقليب قنوات التلفزيون، وهي تتنقل من أفلام الكرتون إلى أفلام الفيديو إلى موسيقى البوب، ومن هناك تنتقل إلى الأخبار المحليّة والدولية. ودون أن تختلس نظرة خاطفة، كانت آسيا تعرف أن الجدّة كلثوم هي المسؤولة عن السماور؛ وتعرف كذلك أن الخالة بانو هي التي تقلي السجق، التي عادت إليها شهيتها الفذة للطعام بعد أن أنهت أيامها الأربعين من التوبة الصوفية، وبعد أن أعلنت أنها أصبحت قارئة طالع

ناجحة. وكانت آسيا تعرف كذلك أن الخالة فريدة هي التي كانت تقلّب القنوات، ولا تستطيع أن تتوقف عند قناة واحدة، إذ توجد لديها مساحة كافية من الأرض الشاسعة لكي يستوعب جنون العظمة الفصامي كلّ هذا، أفلام الكرتون وموسيقى البوب والأخبار جميعها في وقت واحد، تماماً كما كانت تتوق إلى أن تنجح في أشياء كثيرة في الحياة، لكنها لم تنجز شيئاً في نهاية المطاف.

المادة الخامسة: إذا لم يكن لديك سبب أو قدرة على إنجاز شيء، فمارسي فنّ أن تكوني لائقة.

المادة السادسة: إذا لم يكن لديك سبب أو قدرة على ممارسة فنّ أن تكوني لائقة، فكوني كذلك.

«آسيا!!!».

فُتح الباب بقوة واندفعت الخالة زليخة إلى داخل الغرفة، عيناها الخضراوان تلمعان مثل قطعتين مدورتين من حجر الفيروز: «هل يتعين علينا أن نرسل مبعوثين إلى سريرك لتشاركينا الفطور؟».

المادة السابعة: إذا لم يكن لديك سبب أو قدرة على أن تكوني، فعندها تحمّلي فقط.

«آسيا!!!».

«ماذا؟!!!» برز رأس آسيا من تحت الملاءات مثل كرة مجعّدة شديدة السواد من الغضب. قفزت واقفة على قدميها، وركلت نعلها الأرجواني القابع إلى جانب السرير، إلا أن فردة لم تصب هدفها، فيما حلقت فردة النعل الأخرى فوق الخزانة وأصابت المرآة ثم ارتدت وهوت على

الأرض. ثم رفعت بيجامتها المرتخية والمتهدلة عند خصرها على نحو مضحك، التي، والحق يقال، لم تسهم في زيادة التأثير الدراماتيكي الذي كانت تريد أن تحدثه.

«بحق السماء، ألا يمكنني أن أحصل على لحظة من الهدوء والسلام في صباح يوم الأحد هذا؟».

«للأسف لا توجد لحظة على وجه الأرض تدوم ساعتين»، قالت الخالة زليخة، بعد أن شاهدت مسار النعل المحزن: «لماذا تثيرين أعصابي؟ إذا كان ما تفعلينه تمرّد المراهقة، فقد تأخرت كثيراً يا آنسة، كان يجب أن تكوني هناك قبل خمس سنوات على الأقل. تذكّري، فقد بلغت التاسعة عشرة من عمرك».

«نعم، العمر الذي ولدتني فيه خارج الرباط الزوجي»، نعقت آسيا، وهي تعلم أنها يجب ألا تكون فظة وقاسية جداً، لكنها كانت تفعل ذلك في جميع الأحوال.

راحت الخالة زليخة الواقفة عند الباب، تحدّق في آسيا بإحباط فنان، الذي بعد أن ثمل وأنهى قطعة فنية، نام طوال الليل هانئاً، لكنه عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وجد أمامه المجنون الذي خلقه عندما كان ثملاً. ورغم قسوة هذا الاكتشاف، لم تنبس زليخة كلمة واحدة طوال دقيقة كاملة. ثم لوت شفتيها بابتسامة كئيبة وكأنها أدركت للتو أن الوجه الذي تنظر إليه هو في الحقيقة صورتها في المرآة. وجهان متشابهان تماماً، ومع ذلك فهما منفصلان بالكامل. فقد أصبحت ابنتها تشبهها في شخصيتها تماماً، رغم الاختلاف الشديد في مظهريهما.

فبالنسبة لشخصيتها، كان يملؤها ذات القدر من الشك والريبة، والتمرد ذاته، وذات المرارة التي كانت تظهرها عندما كانت في عمر آسيا. ودون أن تعلم، نقلت دور الشخص الذي كان يغرد خارج السرب في

عائلة قازانجي إلى شخصية ابنتها. ولحسن الحظ، لم تكن آسيا متململة من العالم، أو تشعر بقلق يشوبه إحساس بالذنب بعد، لأنها ما زالت صغيرة جداً على كلّ هذا. إلا أن الرغبة في هدم صرح وجودها كانت قابعة في داخلها، يتلألأ برقة في عينيها، سحر تدمير الذات الجميل الذي لا يصيب سوى المحنكين أو المصابين بالكآبة.

أما الشكل الخارجي، فكانت الخالة زليخة ترى بوضوح أن آسيا كانت لا تكاد تشبهها. فهي لن تكون، وربما لن تصبح امرأة جميلة مطلقاً. لا لوجود عيب في جسمها، أو في وجهها، أو في أيّ شيء آخر. فإذا ما نظرت إلى كل جزء من جسمها على حدة، فإنك سترى أنها تتمتع بقوام جيد: الطول والوزن الملائمين، الشعر الحالك السواد المجعّد، الذقن المناسبة... لكنك إذا ما جمعت كلّ هذه القطع معاً، فإنك ستكتشف أنه يوجد خطأ ما في التوليفة كلها. وهذا لا يعني أنها قبيحة، بل هي في موقع متوسط من الجمال، يمكنك أن تنظر إليها، لكنها لا يمكن أن تعلق في مخيلتك. فقد كان وجهها عادياً جداً إلى درجة أنه يتكوّن لدى الذين يلتقون بها لأول مرة انطباع بأنهم كانوا قد رأوها من قبل. إنها فتاة عادية إلى درجة كبيرة. وبدلاً من كلمة «جميلة» فإن كلمة «ظريفة» ستكون أفضل إطراء يمكن أن يطلق عليها في هذه المرحلة، وهو شيء ملائم تماماً، باستثناء أنها كانت تمرّ في مرحلة صعبة من حياتها، وكانت تريد أن تكون «الظرافة» آخر شيء توصف به. فبعد عشرين سنة ستنظر إلى جسدها بطريقة مختلفة. فقد لا تكون آسيا واحدة من النساء الجميلات في فترة مراهقتهن، أو لا تكون من النساء الجذّابات في فترة شبابهن، لكنها قد تصبح امرأة جميلة في منتصف عمرها، شريطة أن تتمكن من الثبات حتى تلك الفترة.

وللأسف لم يكن قد أنعم الله على آسيا أي قدر من الإيمان. فقد كانت حادة جداً وسليطة ولاذعة جداً كي تتأكد من أن الزمن يتدفق.

وكانت تتأجج في داخلها نار لا يوجد فيها أدنى قدر من الإيمان بنزاهة النظام الإلهي. وفي هذا الأمر أيضاً، لم تكن تشبه أحداً إلا أمّها. فبهذا النسيج الأخلاقي وبهذا المزاج، لا يمكنها بأي شكل من الأشكال أن تتمتع بالصبر والإيمان، وأن تنتظر الحياة اليومية حتى تحوّل جسدها لصالحها. وكانت الخالة زليخة ترى بوضوح أن بلادتها الطبيعية، من بين الأشياء الأخرى، كانت تنخر قلب ابنتها الصغيرة. وكانت تريد أن تقول لها إن الجميلات لا يجذبن إلا أسوأ الرجال. وكانت تأمل أن تُفهمها بأنها محظوظة لأنها لم تولد جميلة جداً؛ وأن الرجال والنساء سيكونون أكثر إحسانا وعطفاً عليها، وأن حياتها ستكون أفضل حالاً، نعم، أفضل بكثير بدون الجاذبية التي تتوق إليها الآن.

لم تفه الخالة زليخة بكلمة واحدة، بل اتجهت نحو الخزانة، وأحضرت فردة النعل، ووضعت الفردتين أمام قدميّ آسيا الحافيين. ووقفت أمام ابنتها المتمرّدة، التي كانت ترفع ذقنها دائماً وتجعل ظهرها مستقيماً في وضعية أسير حرب أبيّ، اضطر إلى تسليم سلاحه لكنه بالتأكيد لم يسلّم كرامته.

«لنذهب!» قالت لها الخالة زليخة. وبصمت، واكبت الأمّ ابنتها باتجاه غرفة الجلوس.

كان طعام الفطور ممدوداً على طاولة قابلة للطيّ منذ فترة طويلة. ورغم شعور آسيا بالكآبة، كانت تلاحظ أنه عندما تكون المائدة مزدانة بهذا الشكل، كان البساط الأحمر المائل إلى البني المتوهج بأشكاله الزهرية المعقّدة داخل حدود مرجانية رائعة، يزيد المائدة بهاءً. ومثل البساط، كانت المائدة مزدانة. فهناك زيتون أسود، وزيتون أخضر محشو بالفلفل الأحمر، وجبنة بيضاء، وجبنة صفراء، وجبن ماعز، وبيض مسلوق، وأقراص عسل بشهده، وقشطة جاموس، ومربى المشمش البيتي الصنع، ومربّى التوت، وبندورة مغمسة بزيت الزيتون في طاسات خزفية رُشّت

بالنعناع. والبرك التي تفوح رائحة خبيزها من المطبخ: الجبن الأبيض، والسبانخ، والزبدة، والبقدونس يذوب أحدها في الآخر وسط طبقات رقيقة من معجنات الفيلو.

وكانت ما ـ الهيفاء التي بلغت السادسة والتسعين من عمرها تجلس عند رأس المائدة، تحمل كوب شاي أنحف منها. وبنظرة شاردة ومشوّشة قليلاً على وجهها، كانت عصافير الكناري في القفص بالقرب من باب الشرفة تزقزق، وكأنها لم تلحظ وجود العصافير إلا الآن. وربما كان الأمر كذلك. فبعد أن دخلت مرحلتها الخامسة من مرض الزهايمر، بدأت الوجوه والحقائق الأكثر إلفة ومعرفة تختلط في حياتها.

ففي الأسبوع الماضي مثلاً، عندما أوشكت على الانتهاء من صلاة العصر، وعندما سجدت، وأسندت جبهتها على بساطها الصغير، نسيت ما يجب أن تفعله بعد ذلك. واختلطت فجأة العبارات التي كان عليها أن تقولها في سلسلة طويلة من الأحرف، ثم تلاشت شيئاً فشيئاً، مثل يرقة سوداء مكسوة بالشعر وذات أقدام كثيرة يصعب عدّها. وسرعان ما توقّفت اليرقة، استدارت، ولوّحت إلى ما ـ الهيفاء من بعيد، وكأنها محاطة بجدران زجاجية، مرئية بوضوح شديد، لكنها كانت بعيدة المنال. وكانت ما ـ الهيفاء جاثية هناك باتجاه القبلة، جبهتها ملتصقة على سجادة الصلاة، وغطاء الصلاة على رأسها، وخيط المسبحة العنبرية في يدها، لا تأتي بحركة، ولا يصدر عنها صوت، إلى أن لاحظت إحداهن حالتها وأنهضتها.

«وماذا بعد ذلك؟» سألت ما ـ الهيفاء مذعورة عندما جعلنها تستلقي على الأريكة ووضعن وِسادات طرية تحت رأسها. «أثناء السجود يجب أن تقولي سبحان ربي الأعلى. يجب أن ترديدها ثلاث مرات. لقد فعلت. قلتها ثلاث مرات. «سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان

ربي الأعلى» راحت تكرر العبارة، كما لو كانت في نوبة من الجنون. «ثم ماذا؟ ماذا بعد ذلك؟».

وشاءت الصدف أن الخالة زليخة كانت واقفة بجانبها عندما سألت الجدّة هذا السؤال. وبما أنها لم تكن تمارس الشعائر الدينية، أو تؤدي أيّ واجب ديني، فمن المؤكد أنه لم يكن لديها أدنى فكرة عما كانت تتحدّث جدتها. لكنها أرادت أن تقدم لها المساعدة لتهدئ من روع المرأة العجوز بأي طريقة تستطيعها. فأحضرت القرآن الكريم، وراحت تقلّب صفحاته حتى وجدت شيئاً مشابهاً في بعض الآيات: «انظري ماذا تقول. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله... فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾» (٦٢: ٩ ـ ١٠).

«ماذا تقصدين؟» رمشت الجدّة عينيها، إذ زادتها ضياعاً أكثر مما كانت ضائعة.

«أقصد، بما أنك أنهيت الصلاة الآن بطريقة أو بأخرى، فلا تفكري بالأمر. كما هو مكتوب هنا، صحيح؟ هيا يا جدّتي، انتشري في الأرض... وتعشّي معنا».

وقد نجحت في تحقيق ذلك. فقد توقفت الجدّة عن الشعور بالقلق للبحث عن العبارة التي نسيت أن ترددها وتناولت معهن العشاء بسلام. إلا أن حوادث كهذه بدأت تتكرر مؤخراً كثيراً. إذ أصبحت تبدو غالباً سارحة ومستسلمة، وكانت تنسى أحياناً أبسط الأشياء، مثل أين هي، وما هو اليوم، أو من هنّ تلك الغريبات اللاتي يجلسن معها إلى المائدة. وفي أحيان أخرى، كنت لا تصدق أنها مريضة، ويبدو عقلها واضحاً ويلمع كما يلمع الزجاج الفينيسي المصقول حديثاً. وفي هذا الصباح كان يصعب معرفة إن كانت ستتذكر أم لا. وكان الوقت لا يزال مبكّراً جداً لمعرفة ذلك.

«صباح الخير، يا جدتي!» صاحت آسيا وهي تجرّ قدميها بخُفها الأرجواني نحو المائدة، بعد أن غسلت وجهها ونظّفت أسنانها. انحنت على العجوز وقبلتها بصوت مسموع على خديها.

فمنذ صغرها كان للجدّة ما ـ الهيفاء، من بين جميع نساء عائلتها، مكانة خاصة جداً في قلب آسيا. وكانت تحبها كثيراً. وعلى عكس بعض نساء العائلة الأخريات، كانت ما ـ الهيفاء تحبّ دائماً، ولكن دون أن تخنق من تحبه. ولم تكن تتذمر، أو تنتقد أدق التفاصيل، أو تلكز بكلماتها. ولم يكن حبها تملكي وأناني. وفي بعض الأحيان، كانت تضع في جيوب آسيا سراً حبوباً من القمح قرأت عليها آيات قرآنية لحمايتها من العين الشرّيرة. وباستثناء محاربتها للعين الشرّيرة، كان الضحك أفضل وأكثر شيء تفعله، حتى اليوم الذي اشتد فيه مرضها. ففي السابق، كانت تضحك هي وآسيا كثيراً. إذ كان ينبعث من ما ـ الهيفاء، جدول طويل من الضحكات الخافتة السلسة، في حين كانت تنطلق من آسيا سلسلة متدفقة مفاجئة من النغمات الرنّانة الكثيفة. وبعد أن اشتد قلقها الآن على حالة جدّتها الصحية، أصبحت آسيا تحترم أيضاً عالم النسيان المستقل ذاتياً الذي انجرفت إليه، لأنه لم يكن يسمح لها أن تكون مستقلة ذاتياً دائماً. وكلما ابتعدت العجوز عنهن، ازدادت قرباً منها.

«صباح الخير يا حفيدة حفيدتي الجميلة»، أجابت الجدّة، مثيرة إعجاب الجميع بجلاء ذاكرتها ووضوحها.

قالت لها الخالة فريدة، الجالسة هناك وجهاز التحكّم في يدها، دون أن تنظر إليها: «أخيراً استيقظت الأميرة المشاكسة». بدت بشوشة رغم النبرة الوعظية في صوتها. فقد صبغت شعرها هذا الصباح، وجعلته أشقر خفيفاً، يكاد يكون رمادياً. وأدركت آسيا الآن أن التغيير الجذري في تصفيفة شعرها دليل على تغيير جذري في مزاجها، فراحت تنبش عن وجود آثار من الجنون متبقية في الخالة فريدة التي كانت مستغرقة بجميع

حواسها في التلفزيون، تشاهد بمتعة مطربة بوب تخلو من أي موهبة، ترقص بحركات مفتعلة، لكن آسيا لم تعثر على أيّ أثر للجنون.

«يجب أن تستعدّي، فكما تعرفين ستصل ضيفتنا اليوم»، قالت الخالة بانو عندما دخلت غرفة الجلوس وهي تحمل صينية البرك الطازجة التي خرجت للتو من الفرن، وبدت البهجة على وجهها لأنها ستتناول الكمية اليومية المخصصة لها من الكربوهيدرات. «يجب أن نرتّب البيت قبل أن تصل».

صبّت آسيا لنفسها كأساً من الشاي من السماور الذي يتصاعد منه البخار محاولة أن تبعد السلطان الخامس بقدمها عن الحنفية الصغيرة التي تنقط ماء، وسألت بصوت خافت: «لا أعرف لماذا أنتن متحمسات لهذه الفتاة الأمريكية؟». أخذت رشفة من الشاي، ولوت وجهها وهي تبحث عن السكّر. واحدة، اثنتان. . . وملأت الكأس الصغيرة بأربعة مكعّبات من السكّر.

«ماذا تقصدين 'لماذا أنتن متحمسات'؟ إنها ضيفة! قطعت كلّ هذه المسافة من الجانب الآخر من الكرة الأرضية»، ومدّت الخالة فريدة ذراعها إلى الأمام في شكل تحية نازية لتشير إلى مكان ذلك الجانب الآخر من الكرة الأرضية وبعده عنهن. إذ إن فكرة الكرة الأرضية جعلت نبرة صوتها حماسية، عندما ومضت في مخيلتها خريطة أنماط التيارات الجوية والمحيطية العالمية، التي رأتها الخالة فريدة آخر مرة عندما كانت طالبة في الثانوية. لكن لا يعرف أحد أنها حفظت الخريطة عن ظهر قلب، بأكثر التفاصيل دقة، وظلت حتى اليوم محفورة في ذاكرتها بذات الوضوح عندما نظرت إليها بإمعان في أول مرة.

«والأهم من ذلك أنها ضيفة من طرف خالك»، قاطعتها الجدّة كلثوم، التي حافظت على سمعتها بأنها كانت إيفان الرهيب في حياة أخرى.

«خالي؟ أيّ خال؟ الخال الذي لم أره في حياتي؟» رشفت آسيا الشاي. كان لا يزال مرّاً. ألقت في الكأس مكعّباً آخر من السكّر. «هيا، أفقن جميعكن! إنّ الرجل الذي تتحدثن عنه لم يزرنا ولا مرة واحدة منذ أن وطئت قدمه التراب الأمريكي. والشيء الوحيد الذي تلقيناه منه ليثبت لنا أنه حي يرزق بطاقات بريدية عن مشاهد طبيعية في أريزونا»، قالت آسيا بنظرة مليئة بالسم: «نبات صبّار تحت الشمس، نبات صبّار عند الغروب، نبات صبّار بأزهار أرجوانية، نبات صبّار عليه طيور حمراء. . . حتى أن الرجل لم يكترث بتغيير البطاقات التي كان يرسلها».

«أرسل أيضاً صور زوجته»، أضافت الخالة فريدة لتكون عادلة.

«لا أعير هذه الصور أي اهتمام. زوجة شقراء مكتنزة الجسم تبتسم أمام بيتهم المبني من الآجر، الذي لم نُدع إليه أبداً؛ زوجة بدينة شقراء تبتسم في الوادي الكبير؛ زوجة شقراء لحيمة تبتسم وهي تعتمر قبعة مكسيكية ضخمة؛ زوجة شقراء ممتلئة تبتسم وذئب براري ميت على الشرفة؛ زوجة شقراء سمينة تبتسم وهي تطهو فطائر في المطبخ. . . ألم تسأمن منه وهو يرسل لنا كلّ شهر صور هذه الغريبة وهي تقف في أوضاع مختلفة؟ ولماذا تبتسم لنا على أي حال؟ حتى أننا لم نلتق بهذه المرأة، بحق الله!» رشفت آسيا الشاي، متجاهلة أنه كان لا يزال حاراً، حارقاً.

«السفر ليس آمناً. فالطرق مليئة بالأخطار. هناك طائرات تُخطف، وسيارات تتحطّم في حوادث. . . حتى القطارات تنقلب وتسقط. فقد مات البارحة ثمانية أشخاص في حادث سير على ساحل بحر إيجة»، قالت الخالة فريدة، دون أن تتطلع مباشرة في عين أي واحدة منهن، وراحت مقلتاها تتحركان في دوائر عصبية حول المائدة إلى أن استقرتا فوق حبة زيتون سوداء قابعة في صحنها.

كلما ذكرت الخالة فريدة نبأ مريعاً مستمداً من الصفحة الثالثة من الصحف الشعبية التركية كان يعقب ذلك صمت ممض. ولم تكن هذه

المرة مختلفة. وبعد فترة الصمت هذه، كشّرت كلثوم منزعجة من السخرية من ابنها والتقليل من شأنه بهذه الطريقة. وشدّت الخالة بانو طرفيّ منديل رأسها، وحاولت الخالة شكرية أن تتذكر إلى أي فصيلة من الحيوانات ينتمي «ذئب البراري»، لكن بما أن أربعاً وعشرين عاماً في مهنة التعليم جعلتها تجيد الرّد على الأسئلة التي تُطرح عليها، لم تكن تجيد طرح الأسئلة، لذلك لم تجرؤ على أن تسأل أحداً. وتوقّفت ما ـ الهيفاء عن قضم شريحة السجق في صحنها، وحاولت الخالة فريدة أن تفكّر بالحوادث الأخرى التي قرأت عنها، لكنها بدلاً من أن تخبرهن عن أحداث أكثر شناعة، تذكّرت القبعة الزرقاء اللامعة العريضة التي كانت تعتمرها زوجة مصطفى الأمريكية في إحدى الصور ـ لو وجدت شيئاً قريباً منها في إستانبول، لارتديتها ليل نهار. وفي غضون ذلك، لم يلحظ أحد أن وجه الخالة زليخة أصبح كئيباً فجأة.

«يجب أن نواجه الحقيقة!» قالت آسيا بيقين: «فطوال هذه السنوات، كنتن مغرمات بالخال مصطفى باعتباره الابن الوحيد والغالي في هذه العائلة، لكنه ما أن طار من العشّ، حتى نسيكن جميعكن. أليس من الواضح أن هذا الرجل لا يعبأ ولا بذرّة واحدة بعائلته؟ لماذا يجب أن يعني لنا شيئاً؟».

«الصبي مشغول»، تدخلت الجدة كلثوم. في الواقع، كانت تحبّ ابنها وتحابيه، الابن الذي لم يكن لديها منه إلا واحد فقط، بين بنات توجد منهن الكثيرات، وتابعت: «ليس من السهل أن يعيش المرء في الخارج. فأمريكا بعيدة جداً».

«نعم، طبعاً إنها بعيدة جداً، وخاصة عندما تعلمين أنه يتعين عليك أن تعبري المحيط الأطلسي سباحة، وأن تسيري على قدميك القارة الأوروبية كلها»، قالت آسيا وهي تقطع شريحة من الجبن الأبيض لتبرّد لسانها الذي لسعه الشاي. ولمفاجأتها كان الجبن جيداً، وطرياً ومالحاً، على النحو

الذي تحبّ. وعندما وجدت صعوبة في أن تتحدث وتستمتع بالطعام في آن واحد، سكتت لوهلة وراحت تمضغ بعصبية.

استغلت الخالة بانو فترة الصمت المؤقتة هذه، فراحت تروي قصة أخلاقية، كعادتها في الأوقات الصعبة. فقد حكت لهن قصة رجل قرّر أن يجوب العالم ليهرب من الموت. فذهب شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، وجال في كلّ مكان، ولم يترك ركناً على سطح الكرة الأرضية إلا وزاره. وذات مرة، وفي إحدى رحلاته الكثيرة، وعلى نحو غير متوقع، صادف في القاهرة عزرائيل، ملاك الموت. ومن نظرة عزرائيل الثاقبة ارتسمت تعابير غامضة على وجه الرجل. لم يقل له شيئاً ولم يتبعه. وفي الحال غادر الرجل القاهرة، وراح يسافر بدون توقف إلى أن وصل إلى بلدة ناعسة صغيرة في الصين. كان عطشاً ومتعباً، فأسرع إلى أول حانة صادفها في طريقه. وهناك، وإلى جانب الطاولة التي طلب منه أن يجلس إليها، كان عزرائيل يجلس بانتظاره نافد الصبر، وبدت على وجهه قسمات مسترخية، وقال للرجل: «لقد فوجئت برؤيتك في القاهرة، لكن قدرك كان يقول إننا سنلتقي هنا في الصين».

كانت آسيا تحفظ هذه القصة عن ظهر قلب، كما كانت تعرف قصصاً كثيرة أخرى تروى مراراً وتكراراً تحت هذا السقف. والشيء الذي لم تكن تفهمه، ولم تكن تظن أنها ستفهمه على الإطلاق، المتعة التي تستمدها خالاتها من سماع قصة ثقبت آذانهن من كثرة تكرارها. أصبح الهواء في غرفة الجلوس مريحاً ودافئاً، وشعرن جميعهن بالرضا والقناعة، يغلفهن الروتين اليومي المتكرر، وكأن الحياة بروفة طويلة لا تنقطع، بعد أن حفظت كل منهن دورها عن ظهر قلب. وفي الدقائق التالية، فيما أخذت النساء حولها يتنقلن من موضوع إلى آخر، ومن حديث إلى آخر، كانت كلّ قصّة تحفزّ القصة التي تليها، انتاب آسيا شعور بالانتعاش، وأحست أنها أصبحت غير الفتاة التي كانت عليه هذا الصباح. فقد كانت هي نفسها

أحياناً تشعر بالحيرة نتيجة تقلبات مزاجها. فكيف يمكنها أن تكره الأشخاص الذين تحبّهم كثيراً؟ كان مزاجها يشبه حركة اليويو، يصعد ثم يهبط، غاضبة الآن، وراضية بعد حين. كانت تشبه أمّها أيضاً في هذا الشيء.

تسلل صوت بائع كعك «الصميت» الرتيب من النافذة المفتوحة، وأحدث ثقباً في الثرثرة الجارية. هرعت الخالة بانو إلى النافذة ومدّت رأسها الأحمر منها ونادت: «بائع الصميت! بائع الصميت! تعال من هنا! بكم الواحدة؟».

لم تسأله لأنها لم تكن تعرف سعر الصميت، فمن حكم المؤكد أنها كانت تعرف. ولم يكن السؤال استفساراً بقدر ما كان عادة، يؤدي بإحساس بالواجب. لذلك ما أن خرج السؤال من فمها، حتى انتقلت إلى الجملة التالية، دون أن تنتظر ردّ الرجل: «حسناً، أعطنا ثماني كعكات».

كن يشترين كلّ يوم أحد على الفطور ثماني كعكات صميت، واحدة لكلّ واحدة منهن، وأخرى للشقيق المفقود الذي يمكث في مكان بعيد الآن.

«إنها رائحة لذيذة»، قالت الخالة بانو وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها عندما عادت وهي تضع كعكات الصميت في كلّ ذراع مثل بهلوان في سيرك سيؤدي لعبة رمي الحلقات. وضعت كعكة أمام كلّ واحدة منهن، فتناثرت حبات السمسم. وبدا من الواضح أن الخالة بانو أحست بالراحة الآن بعد أن توفّر لها مخزون احتياطي من الكربوهيدرات، وراحت تلتهمها، تجمع بين الصميت والبُرك، وبين البرك والخبز. إلا أنه سرعان ما انقبضت قسمات وجهها، إما لأنها شعرت بحموضة في معدتها، أو لأن فكرة متجهّمة داهمتها، كما كانت تفعل عندما تخبر زبونة بطالع مشؤوم يومض في ورق التارو، وقالت: «إن كلّ شيء يتوقف على الطريقة التي تنظرين إليها»، ثم رفعت حاجبيها، فاضحة خطورة الكلمات التي ستقولها.

«كان يا مكان، في قديم الزمان. . . كان يعيش في أيام العثمانيين القديمة حَائِكَا سلال. وكانا عاملين مجدّين، لكن كان أحدهما مؤمناً، والآخر حاد الطبع ونزقاً على الدوام. وذات يوم زار السلطان القرية، وقال لهما: سأملأ سلالكما بالقمح، وإذا اعتنيتما به جيداً، ستتحوّل حبوب القمح إلى قطع نقدية ذهبية. قبل الحائك الأول العرض ببهجة وملأ سلاله. أما الحائك الثاني، الذي كان لا يقل نكداً ومشاكسة عنك يا عزيزتي، فقد رفض هدية السلطان العظيمة. هل تعرفين ماذا حدث في النهاية؟».

«طبعاً أعرف»، قالت آسيا: «فكيف ألا أعرف نهاية قصّة لا بد أني سمعتها ما لا يقل عن مائة مرة؟ لكن ما لا تعرفينه يا خالتي الضرر الذي تسببه هذه القصص على إبداع الطفل. فبسبب هذه القصّة السخيفة كنت أضع قشّة من القمح تحت وسادتي عندما أنام لمّا كنت طفلة، راجية أن تتحول إلى قطعة ذهبية في اليوم التالي. ثم ماذا حدث عندما بدأت أذهب إلى المدرسة؟ ففي أحد الأيام، قلت للأطفال الآخرين إنني سأصبح قريباً غنية لأن حبوب القمح ستتحول إلى قطع من الذهب لأني أضعها تحت وسادتي، وكلّ ما أعرفه أنني أصبحت موضع سخرية في الصف. فقد جعلتِ مني بلهاء وغبية وأضحوكة في عيون الأطفال الآخرين».

ومن بين جميع الصدمات والجروح التي عانتها آسيا في طفولتها، لم يبق شيء في ذاكرتها سوى حادثة حبوب القمح، وعندما سمعت الكلمة التي رافقتها طوال السنوات التالية، ودائماً في اللحظات التي لم تكن تتوقعها، وهي كلمة لقيطة. فحتى حادثة حبوب القمح تلك، عندما كانت في الصف الأول الابتدائي، كانت آسيا قد سمعت كلمة لقيطة مرة واحدة فقط، لكنها لم تعبأ بها كثيراً، لأنها لم تكن تعرف معناها. إلا أن التلاميذ الآخرين سارعوا وفسروا لها معناها. لكنها حرصت على الاحتفاظ لنفسها بذلك الجزء من القصّة، فصبّت كأساً آخر من الشاي، الحار جداً.

«اسمعي يا آسيا، يمكنك أن تتذمري أمامنا كما يحلو لك، لكن عندما تصل ضيفتنا، يجب أن تكفّي عن الكلام وتعامليها بلطف. فإنكليزيتك أفضل من إنكليزيتي وأفضل من إنكليزية أي واحدة منا هنا».

لم يكن ذلك تقريراً متواضعاً من ناحية الخالة بانو لأن ذلك جعلها تبدو وكأنها تتحدث قليلاً من الإنكليزية بينما لا تعرف شيئاً منها. فمع أنها درستها في الثانوية، إلا أنها نسيت ضعف ما تعلمته. وبما أن قراءة الطالع لا يحتاج إلى لغة أجنبية، لم تكن تشعر بالحاجة إلى تعلم الإنكليزية. أما الخالة فريدة، فلم تبد اهتماماً بتعلّم الإنكليزية في المقام الأول، لأنها اختارت أن تتعلم اللغة الألمانية في المدرسة. لكن بما أن ذلك تزامن مع الفترة التي فقدت فيها أي اهتمام بدراسة أي شيء إلا الجغرافية الطبيعية، فلم تحقق في تعلمها الألمانية تقدماً كبيراً أيضاً. وبما أن الجدّة ما ـ الهيفاء وكلثوم لم تكونا مؤهلتين لذلك، بقيت الخالة زليخة والخالة شكرية الوحيدتين اللتين تعرفان شيئاً من الإنكليزية تكفيهما للانتقال من مرحلة المبتدئين إلى مرحلة المتوسطين. وكان هناك فرق شديد بين إجادة الخالتين للغة الإنكليزية. فقد كانت الخالة زليخة تتكلم الإنكليزية المستخدمة في الحياة اليومية، تتخللها تعابير عامية، وبلكنة عامية، كانت تمارسها كلّ يوم تقريباً مع الأجانب الذين يأتون إلى محل الوشم الذي تديره؛ أما الخالة شكرية، فكانت تتكلّم الإنكليزية التي تعلمتها من كتب مدرسية مضبوطة بالقواعد، وقد تجمّدت مع الزمن، إنكليزية لا تتعلمها إلا في المدارس الثانوية، وفي المدارس الثانوية فقط. وكان بوسع الخالة شكرية أن تميّز بين الجمل البسيطة والجمل المركّبة والجمل المترابطة، وتستطيع أن تميّز بين الظرف والصفة والجملة الاسمية، حتى أنها كانت تستطيع أن تميّز المعدّلات الموضوعة في غير مكانها في التركيب النحوي، لكنّها لم تكن تستطيع أن تتكلم بها.

«لذلك يا عزيزتي، ستكونين مترجمتها. ستنقلين كلماتها إلينا،

وكلماتنا إليها»، ضيّقت الخالة بانو عينيها، وعقدت حاجبيها محاولة أن تلمح إلى عظمة ما كانت على وشك أن تقوله: «ومثل جسر يمتدّ فوق الثقافات، ستوصلين الشرق بالغرب».

جعّدت آسيا أنفها، وكأنها اكتشفت رائحة نتنة في البيت لم يشمها أحد غيرها، وزمّت شفتيها وكأنها تريد أن تقول: «اطلبي وتمني!».

في غضون ذلك لم تلحظ أي منهن أن ما ـ الهيفاء نهضت من على كرسيها، واقتربت من البيانو الذي لم يعزف عليه أحد منذ سنوات طويلة. فقد كن يستعملن سطح البيانو المغلق كلوح جانبي يضعن فوقه الصحون والأطباق الإضافية التي لا تتسع لها مائدة العشاء.

«من الجيد أنكما فتاتان في نفس العمر» اختتمت الخالة بانو مناجاة نفسها: «و ستصبحان صديقتين».

حدّقت آسيا في الخالة بانو باهتمام متجدد، متسائلة إن كانت ستكفّ عن اعتبارها طفلة. فعندما كانت صغيرة، وعندما كان يأتي طفل آخر إلى البيت، كانت خالاتها يضعنهما معاً وتأمرهما: «هيا العبا الآن! كونا صديقتين!» فبما أنكما في سن واحدة، فهذا يعني تلقائياً أنكما ستنسجمان. فبطريقة ما، يُعتبر الأقران القطع المكسورة في اللغز نفسه، ويتوقع منهما إكماله فجأة عندما يصبحان جنباً إلى جنب.

«سيكون هذا شيئاً مثيراً. وعندما تعودا إلى بلديكما، يمكنكما أن تصبحا صديقتين بالمراسلة»، رددت الخالة شكرية، التي تؤمن بالصداقات بالمراسلة. فبما أنها أستاذة رفيقة في النظام الجمهوري التركي، فقد كانت تعتقد أن كلّ مواطنة تركية، مهما كانت مواطنة عادية في المجتمع، لديها واجب في أن تمثّل وطنها بفخر أمام العالم بأسره. وماذا هناك أفضل من فرصة إقامة صداقة دولية بالمراسلة لتمثّل بلدها؟

«وستتبادلان الرسائل بين سان فرانسيسكو وإستانبول»، همهمت الخالة

شكرية لنفسها. إذ إن تبادل الرسائل مع غريب بدون غرض تعليمي أمر مستحيل بالنسبة لها، ثم أخذت تلقي محاضرة عن أهمية المسألة التعليمية: «إن مشكلتنا نحن الأتراك أنه يساء تفسير ما نقوله دائماً ويساء فهمنا. لذلك يجب على الغربيين أن يروا أننا لسنا مثل العرب على الإطلاق. فهذه دولة علمانية حديثة».

عندما رفعت الخالة فريدة صوت التلفزيون فجأة، حوّلن انتباههن إلى فيديو مغنية بوب تركية جديدة. عندما انزلقت عينا آسيا إلى المغنية الحمقاء، لاحظت أن تصفيفة شعر المرأة تبدو مألوفة، مألوفة جداً. وراحت عيناها تتنقلان بين الشاشة وبين الخالة فريدة، وفهمت الآن مصدر إلهام تصفيفة شعرها الجديدة.

«فقد غسل اليونانيون والأرمن الذين للأسف وصلوا إلى الولايات المتحدة قبل الأتراك، أدمغة الأمريكيين تقريباً»، وتابعت الخالة شكرية قولها: «لذلك ضللوهم وأصبحوا يظنون أن تركيا هي بلد قطار منتصف الليل السريع. يجب أن تري الفتاة الأمريكية كم أن بلدنا جميلة، وتعززين الصداقة الدولية والتفاهم الثقافي».

شهقت آسيا وقد ارتسمت على وجهها تعابير محبطة، وكان من الممكن أن تظل هكذا، لولا أن أكبر خالاتها سناً لم تظهر أنها متصلبة في رأيها.

«علاوة على ذلك، فإن ذلك سيحسن لغتك الإنكليزية وربما علمتها اللغة التركية. ألن تكون تلك صداقة رائعة؟».

الصداقة... التحدث عنها، استوت آسيا واقفة وأمسكت كعكة الصميت نصف المأكولة، وأخذت تتهيأ لمغادرة المنزل لترى بعض الأصدقاء الحقيقيين.

«إلى أين ستذهبين يا آنسة؟ فالفطور لم ينته بعد»، قالت الخالة

زليخة، وهي أول مرّة تفتح فمها منذ أن جلسن إلى المائدة. فالعمل في وسط الضجيج والجلبة في محل الوشم، ستة أيام في الأسبوع من الساعة الثانية عشرة ظهراً وحتى الساعة التاسعة مساء، جعلها أكثر شخص في العائلة تستمتع وتتذوق بتناول فطور صباح يوم الأحد ببطء.

«هناك مهرجان للأفلام الصينية»، أجابت آسيا، وبدا صوتها مرهقاً قليلاً بسبب الجهد الذي بذلته كي تبدو جدّية ومخلصة: «وقد طلب منا أحد أساتذتي أن نذهب ونشاهد فيلماً في عطلة نهاية الأسبوع لنكتب عنه بحثاً نقدياً تحليلياً».

«ما نوع هذه الواجبات المدرسية؟» رفعت الخالة شكرية أحد حاجبيها، متحفظة دائماً من الأساليب التربوية غير التقليدية.

لكن الخالة زليخة لم تثر الموضوع أكثر من ذلك فقالت لها وهي تهز رأسها: «حسناً، اذهبي وشاهدي فيلمك الصيني، لكن لا تتأخري، يا آنسة. أريدك أن تعودي إلى البيت قبل الساعة الخامسة. سنذهب لاستقبال ضيفتنا في المطار هذا المساء».

أخذت آسيا حقيبتها الهيبية وهرعت باتجاه الباب. وما أن كانت على وشك أن تضع قدمها خارج البيت، حتى سمعت صوتاً غير متوقّع. فقد راح أحدهم يعزف على البيانو. نغمات مفككة خجولة تبحث عن نغم مفقود منذ زمن بعيد.

بدت على وجه آسيا نظرة تقدير وهمست لنفسها: «جدّتي».

* * *

كانت ما ـ الهيفاء قد ولدت في سالونكي. وكانت فتاة صغيرة عندما هاجرت مع أمها الأرملة إلى إستانبول في عام ١٩٢٣. إذ لا يمكن نسيان السنة التي وصلت فيها إلى هذه المدينة، لأنها تزامنت مع إعلان الجمهورية التركية الحديثة.

«لقد وصلت أنتِ والجمهورية إلى هذه المدينة معاً. كنت أنتظركما بفارغ الصبر»، قال لها زوجها رضا سليم قازانجي بطريقة غرامية بعد ذلك بسنوات: «كلاكما وضعتما حداً للنظامين القديمين إلى الأبد، أحدهما في البلد، والآخر في بيتي. لقد أشرقت الحياة عندما أتيت إليّ».

فردّت الجدّة: «عندما أتيت إليك، كنت حزيناً لكن قوياً. لقد جلبت لك البهجة، ومنحتني أنت القوة».

وبما أن ما ـ الهيفاء كانت جميلة واجتماعية، فقد تقدم لخطبتها في ذلك الحين ستّة عشر رجلاً، كان من الممكن أن يشكلوا صفاً يمتد من طرف جسر غالاتا القديم إلى طرفه الآخر. ومن بين جميع المرشّحين الذين قرعوا بابها، لم يخفق قلبها إلا لرجل واحد ما أن وقعت عيناها عليه من وراء حاجز الشبك. وكان هذا الرجل طويلاً مهيباً يدعى رضا.

كانت له لحية كثة وشارب رفيع، وعينان داكنتان مليئتان، وكان يكبرها بما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين سنة. كان متزوجاً ويشاع أن زوجته كانت امرأة قاسية وقد هجرته هو وابنهما. وبعد خيانة زوجته تلك، مع أنه ظل وحيداً مع طفل، رفض أن يتزوج ثانية لفترة طويلة، وفضل أن يعيش في بيته العائلي الكبير وحيداً. فقد مكث هناك، وراح يضاعف ثروته التي شارك أصدقاءه فيها، وكرّس غضبه لأعدائه. كان رجل أعمال عصامياً. فقد كان صانع قدور ذات يوم، صانعاً حرفياً، ثم أصبح مقاولاً دفعته حكمته لأن يبدأ صناعة الأعلام في الزمن المناسب والمكان الملائم. فخلال العشرينيات من القرن العشرين، كانت الجمهورية التركية الجديدة لا تزال تتأجج بالمشاعر الحماسية، ولم يكن العمل اليدوي، الذي كان موضع تقدير في الدعاية الحكومية، يجلب له إلا قدراً قليلاً من المال. فقد كان النظام الجديد يحتاج إلى معلمين لإعداد أتراك وطنيين من بين طلابه، وإلى موالين لإنشاء برجوازية وطنية، وإلى صانعي العلم التركي

لرفعه في سائر البلاد، لكنه لم يكن بحاجة إلى صانعي قدور. وهكذا ولج رضا سليم صناعة الأعلام والرايات.

ورغم الأرباح الكبيرة التي جناها من الأموال والأصدقاء ذوي النفوذ من عمله الجديد، فإنه عندما اختار لقب العائلة في ١٩٢٥، بعد أن فرض قانون الألقاب على كلّ مواطن تركي أن تكون له كنية، اختار رضا سليم أن تكون حرفته الأولى هي كنيته، وهي قازانجي.

ورغم حسن مظهره، وبالتأكيد ثرائه، وبسبب عمره وصدمة زواجه الأول (فقد كانت النساء يثرثرن عن السبب الذي جعل زوجته تهجره، فربما كان رجلاً منحرفاً) كان رضا سليم قازانجي آخر رجل على وجه الأرض كانت والدة ما ـ الهيفاء تريد أن ترى ابنتها العزيزة زوجة له. فمما لا شك فيه أنه تقدم لها مرشّحون أفضل منه. لكن ما ـ الهيفاء رفضت أن تستمع إلا إلى صوت قلبها، رغم اعتراضات أمّها المستمرة. ربما كانت عينا رضا سليم قازانجي الداكنتين هما اللتان جذبتاها، ولأنها كانت تعرف، لا فكرياً بل حدسياً، بأنه كان موهوباً بشيء لم يكن يتوفر لمعظم الرجال في هذا العالم، وهو القدرة على حبّ شخص أكثر مما تحبّ نفسك. ومع أنها كانت صغيرة جداً وعديمة الخبرة في السادسة عشرة من عمرها، كانت ما ـ الهيفاء عاقلة مما جعلها تعرف النعمة الخاصة التي حباها الله بها وهي أن يحبها رجل يتمتع بهذه الموهبة ويعشقها. كانت عينا رضا سليم قازانجي رقيقتين وبراقتين مثل صوته؛ كان ثمة شيء فيه يجعل المرء يشعر بالأمان برفقته، وبالدلال والحماية حتى في غمرة الفوضى والصخب. ولم يكن هذا الرجل من النوع الذي يتهرب من واجباته.

إلا أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جذب الجدّة إلى رضا سليم قازانجي. بل انجذبت إلى قصّته قبل أن تنجذب إليه بفترة طويلة. فقد أحسّت كيف أن روحه تألمت بسبب هروب زوجته الأولى. وكانت واثقة

من أنها تستطيع أن تبرئ هذه الكدمات. إذ تجد النساء متعة في ترميم حطام إحداهما الأخرى. ولم تستغرق ما ـ الهيفاء فترة طويلة لتحزم أمرها، بل قررت أن تتزوجه ولم يكن بوسع أحد، حتى قدرها، أن يغيّر ذلك.

إذا كانت ما ـ الهيفاء قد آمنت بحدسها برضا سليم قازانجي، فقد كان أيضاً يستحقّ هذه الثقة حتى نَفَسِه الأخير. فالزوجة الشقراء هذه ذات العينين الزرقاوين، التي جاءت إليه ومعها قطّة بيضاء ثلجية يكسوها الفرو، بدلاً من مهر لائق، كانت بهجة حياته. ولم يرفض لها يوماً طلباً، مهما كان غريباً. لكن لم يكن هذا حال الصبي الذي كان في السادسة من عمره آنذاك: فقد رفضها ليفينت قازانجي أمّاً له. وكان يقاومها ويسخر منها في كلّ مناسبة، وأنهى طفولته بمرارة مكبوتة، إن كان للطفولة أن تنتهي إذا ظلت المرارة تعتمل في داخل المرء.

ففي زمن كان فيه الزواج دون إنجاب أطفال، إن لم يكن دليلاً على مرض لا براء منه، فمن المؤكد أنه كان يعتبر انتهاكاً للمحرمات، إذ لم تنجب ما ـ الهيفاء ورضا سليم قازانجي طفلاً. لا لأنه كان عجوزاً، بل لأنها كانت صغيرة جداً في البداية، ولم تكن تبدي اهتماماً كبيراً في تربية الأطفال، وعندما غيّرت رأيها، كان قد أصبح عجوزاً حقاً. وظل ليفينت قازانجي الطفل الوحيد الذي حافظ على استمرار اسم العائلة، وهو لقب لم يكن متحمساً لحمله.

ومع أنها كانت حزينة وتشعر بالمهانة من حدّة مزاج ابن زوجها ومرارته، كانت ما ـ الهيفاء فتاة جذلة، منفتحة، ذات خيال واسع، بل وكانت لها قائمة واسعة من المتطلبات. ففي هذا العالم، كانت هناك أشياء أهمّ من إرضاع طفل، مثل تعلّم العزف على البيانو. ولم تمض فترة طويلة، حتى أصبح بيانو بنتلي من صنع شركة ستراود للبيانو المحدودة في إنكلترا يقبع ويلمع في أفضل بقعة من غرفة الجلوس. وبدأت ما ـ الهيفاء

تأخذ دروسها الأولى من أول معلّم للبيانو ـ موسيقار من روسيا البيضاء كان قد هرب من الثورة البلشفية واستقر بشكل دائم في إستانبول. وكانت ما ـ الهيفاء أفضل تلاميذه. فلم تكن موهوبة فقط، بل كانت مثابرة أيضاً كي تجعل البيانو رفيقاً لها طوال حياتها، لا أن يكون مجرد تسلية عابرة.

وكان راخمانينوف وبورودين وتشايكوفسكي الموسيقيين الأثيرين لديها. فعندما تكون في البيت وحدها، كانت تعزف لنفسها والباشا الأول جاثم في حضنها، وكان هذان الموسيقيان الوحيدان اللذان كانت تعزف ألحانهما. أما عندما كانت تعزف أمام آخرين، فكانت تختار معزوفات مختلفة تماماً: باخ، بيتهوفن، موزارت، شوبان، والأهم من كل ذلك، فاغنر، في المناسبات الخاصة التي كان يزورهم فيها مسؤولون حكوميون وزوجاتهم الأنيقات. إذ كان الرجال يتجمّعون بعد العشاء إلى جانب الموقد وكؤوسهم في أيديهم يتناقشون في أمور السياسة العالمية. فقد كانت سنوات أواخر العشرينيات تبجّل السياسة الوطنية أو تعيد تأكيدها، وكلما ازداد الصوت ارتفاعاً، كان أفضل لأن للجدران آذان. لذلك، ما أن كانت تبرز الحاجة إلى مناقشة حقيقية، كانت النخبة السياسية والثقافية الجديدة في الجمهورية التركية تنتقل على الفور إلى مناقشة السياسة العالمية، التي كانت تشكل فوضى في حد ذاتها، لذلك كانت تثير الاهتمام دائماً للحديث عنها.

أما السيدات فكن يتجمعن في الجانب الآخر من البيت، وتمسك كلّ منهن كأساً من الكريستال فيها مشروب كحولي من النعناع، وتتمعن وتعاين كلّ واحدة منهن فستان الأخرى. وكان في قسم السيدات نوعان من النساء، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً وهما: المهنيات والزوجات.

فقد كانت المهنيات من الرفيقات، مثال المرأة التركية الجديدة: اللاتي كن يعتبرن مثالاً أعلى ومحترمات، تدافع عنهن النخبة الإصلاحية. وكانت

المهنيات الجدد محاميات، ومعلمات، وقاضيات، ومديرات، وكاتبات، وأكاديميات. . . وبعكس أمهاتهن، لم يبقين حبيسات في بيوتهن، وأتيحت لهن فرص تسلّق السلّم الثقافي والاقتصادي والاجتماعي. ولكي يتمكن من الوصول إلى أعلى السلم، كان يتعين عليهن أن يلقين أنوثتهن على قارعة الطريق. وكن يرتدين غالباً بدلات تتألف من قطعتين بلون بني وأسود ورمادي ـ ألوان العفة والتواضع والحزبية. وكن يقصصن شعرهن قصيراً، ولا يضعن مكياجاً، أو أدوات زينة. وكنّ يتحركن في أجساد تخلو من الأنوثة، وتخلو من الجنوسة. وعندما كانت الزوجات يضحكن بطريقتهن الأنثوية المزعجة، كانت المهنيات يضغطن بأصابعهن حول محافظهن الجلدية الصغيرة تحت أذرعهن، وكأنها تضم معلومات سريّة للغاية، وقد أعطين كلمة شرف لحمايتها مهما بلغ الأمر. أما الزوجات، فكن على عكسهن تماماً، إذ كن يأتين إلى هذه الحفلات وهن يرتدين فساتين سهرة حريرية بيضاء وورديه وزرقاء فاتحة ـ الألوان التي تليق بالسيدات، والتي توحي بالبراءة والضعف. ولم يكن يحببن النساء المهنيات، اللاتي يعتبرن أنفسهن «رفيقات» أكثر من كونهن نساء، ولم تكن المهنيات يحببنهن، لأنهن يعتبرنهن «محظيات» أكثر من كونهن نساء. وفي نهاية الأمر، لم يكن بوسع أحد أن يعثر على «المرأة» الملائمة.

وكلما اشتد التوتّر بين الرفيقات والمحظيات، كانت الجدّة، التي لم تكن تنتمي إلى أي من الفئتين، تومئ سرّاً للجارية لتقدم مشروب النعناع الكحولي في أقداح الكريستال، وحلوى عجينة اللوز في أطباق فضّية. وتبين لها أن هذا الثنائي، هو الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه أن يهدئ من توتر أعصاب كلّ امرأة تركية عازبة في الغرفة، مهما كان المعسكر الذي تنتمي إليه.

وفي وقت متأخر من الحفلة، كان رضا سليم قازانجي ينادي زوجته ويطلب منها أن تعزف شيئاً على البيانو للضيوف الكرام. ولم تكن ما ـ

الهيفاء ترفض. وبالإضافة إلى الموسيقيين الغربيين، كانت تعزف أناشيد وطنية تتأجج بالمشاعر الوطنية. وكان الضيوف يهتفون ويصفقون لها. وخاصة في عام ١٩٣٣، عندما وضع نشيد الذكرى العاشرة، «مسيرة الجمهورية»، الذي كانت تعزفه مرات عديدة. وكان صدى النشيد يتردد في كل مكان في آذانهم، حتى عندما كانوا يخلدون إلى النوم. ذلك الزمن الذي كان فيه حتى الأطفال الرضّع ينامون في مهدهم على أنغام هذا اللحن العذب.

لذلك، في الوقت الذي كانت فيه النساء التركيات يجتزن مرحلة تحوّل جذرية في الحياة العامة بفضل سلسلة الإصلاحات الاجتماعية، كانت ما ـ الهيفاء تنعم باستقلالها الذاتي داخل عالمها الخاص في بيتها. ومع أن اهتمامها بالبيانو لم يخفت، فلم تمض فترة طويلة حتى استحضرت قائمة جديدة من الأمور المسلية. وهكذا بدأت تتعلّم الفرنسية، وتكتب قصصاً قصيرة لم تنشر أبداً، وبرعت في الرسم الزيتي، ووجدت متعة في شراء الأحذية اللمّاعة وفساتين السهرة الحريرية، وكانت تجعل زوجها يراقصها، وتقيم حفلات صاخبة، ولم تمارس العمل المنزلي على الإطلاق. وكان رضا سليم قازانجي يلبي جميع طلبات زوجته المرحة الجميلة دون تردد. وكان رضا رجلاً هادئاً رزيناً يكنّ له الآخرون احتراماً كبيراً. لكنه، شأن الكثيرين من أمثاله، كان من الصعب إصلاحه بعد أن كُسر. لذلك، كان هناك موضوع واحد فقط يخرج الجانب السيء فيه: زوجته الأولى.

فعندما كانت ما ـ الهيفاء تسأله عن زوجته الأولى، كان رضا سليم قازانجي يلوذ بالصمت، وتظلل عيناه غمامة كئيبة غير معهودة، ويقول: «ما نوع المرأة التي يمكنها أن تهجر ابنها؟» ويتغضن وجهه بالكراهية.

«لكن ألا تريد أن تعرف ما حلّ بها؟ «اقتربت منه ما ـ الهيفاء وجلست في حضن زوجها، وراحت تداعب ذقنه برقة، تتملقه ليجيبها على سؤالها.

«لست مهتمة بمعرفة أي شيء عن مصير هذه الفاسقة»، تصلّب وجه

رضا سليم قازانجي، ولم يخفض صوته كي لا يسمعه ابنه ليفينت بأنه يشوّه سمعة أمّه.

«هل هربت مع شخص آخر؟» ألحفت ما ـ الهيفاء في سؤالها، وهي تعرف أنها تجاوزت حدودها، لكنها كانت واثقة من أنها لا تستطيع أن تعرف حدودها إلا عندما تتجاوزها.

«لماذا تحشرين أنفك في أشياء لا تعنيك؟» ردّ عليها رضا سليم قازانجي، «هل تريدين أن تفعلي مثلها، أم ماذا؟».

وبذلك عرفت ما ـ الهيفاء حدودها.

وباستثناء اللحظات التي كان يثار فيها موضوع الزوجة الأولى، سارت حياتهما بهدوء في السنوات التالية. هانئة ومريحة. وكان ذلك شيئاً غير عادي إذا ما علمنا أن الأسر حولهما لم تكن كذلك. إذ كانت قناعتهما وسعادتهما مصدر حسد للأقرباء والأصدقاء والجيران، الذين كانوا يتدخّلون في شؤونهما عندما كانوا يستطيعون ذلك. وكان أكثر موضوع يتحدثون عنه هو عدم إنجابهما أطفالاً. وقد حاول الكثيرون إقناع رضا سليم قازانجي بالزواج من امرأة أخرى قبل فوات الأوان، لأنه بعد صدور القانون المدني الجديد، لم يعد بوسع الرجل أن يتزوج أكثر من زوجة واحدة، وعليه أن يطلّق زوجته هذه التي أصبح الجميع يشكون الآن بأنها إما عاقر أو أنها بلشفية. ولم يعر رضا سليم قازانجي أذناً لهذه الأقاويل والنصائح.

وعندما مات رضا سليم قازانجي، ميتة مفاجئة تعرف بها أجيال رجال عائلة قازانجي، أصبحت ما ـ الهيفاء تؤمن لأول مرة في حياتها بالعين الشرّيرة. واقتنعت أن عيون الأشخاص الغيورين حولهما هي التي اخترقت جدران هذا القناق السعيد وأودت بحياة زوجها.

أما اليوم، فقلما تذكّرت أيّ شيء من كلّ هذا. وفيما أخذت أصابعها

المتجعّدة، النحيلة، الناتئة بالعظام، تداعب البيانو القديم، ومضت أيام ما ـ الهيفاء مع رضا سليم قازانجي من مسافة بعيدة مثل منارة قديمة خافتة، أما الآن فقد ضللت طريقها مياه الزهايمر الهائجة.

* * *

على أريكة في شقّة مجددة أمام برج غالاتا، الحيّ الذي لا يهدأ ولا تعرف شوارعه النوم، والذي تمتلئ أحجاره بالأسرار، وتحت أشعة شمس الغروب المنعكسة من نوافذ البنايات الآيلة للسقوط، ووسط صياح النوارس، جلست آسيا قازانجي عارية جامدة مثل تمثال صغير يتشرب موهبة الفنان الذي نحته من كتلة من الرخام. وفيما كانت سارحة في عوالم الخيال، رفع الدخان الكثيف الذي تنشقته إلى داخل جسمها، حارقاً رئتيها، معنوياتها حتى زفرته أخيراً ببطء، على مضض.

«بماذا تفكرين يا حبيبتي؟».

«إني اعمل الآن على المادة الثامنة من بياني الشخصي للعدمية»، أجابت آسيا بعد أن فتحت عينيها اللتين يغشاهما الضباب.

المادة الثامنة: إن كان يوجد بين المجتمع والنفس واد عميق لا يربطهما إلا جسر متحرّك، تستطيعين أن تحرقي ذلك الجسر وأن تقفي إلى جانب الذات، سالمة مسلمة، إلا إذ كان الوادي هدفك.

أخذت آسيا نفساً آخر، وأبقت الدخان في جوفها.

«هنا، دعيني أطعمك»، قال رسّام الكاريكاتير المدمن، بعد أن أخذ من يدها سيجارة المخدّر. مال نحوها، وضغط صدره المكسو بالشعر على صدرها؛ فتحت فمها مثل طير صغير أعمى ينتظر أن تزقه أمه في فمه. ونفخ جدول الدخان مباشرة في فمها. استنشقته بلهفة كما لو كانت عطشانة وأخذت تعب الماء.

المادة التاسعة: إذا كان الوادي في داخلك يسعدك أكثر من العالم في الخارج، يمكنك أن تسقطي فيه، تسقطين إلى داخل نفسك.

كرّرا العملية، ووجّه الدخان نحو فمها، فابتعلته وابتلعته حتى اختفت آخر هبة من الدخان في حنجرتها ثم أطلقتها.

«أراهن أنك أصبحت أفضل حالاً الآن»، هدل رسّام الكاريكاتير المدمن، ووجهه يظهر رغبة في ممارسة مزيد من الجنس: «فلا يوجد علاج أفضل من مضاجعة جيدة، وسيجارة مخدّر جيدة».

قضمت آسيا اللحم داخل فمها لتقاوم الرغبة في الاعتراض. أمالت رأسها نحو النافذة المفتوحة ومدّت ذراعيها وكأنها ستعانق المدينة، بكلّ فوضاها وعظمتها.

أما هو فكان مشغولاً في هذه الأثناء بإكمال بيانه: «لنرى. لا يوجد شيء مبالغ فيه أكثر من مضاجعة سيئة ولا يوجد شيء أبخس من مضاجعة جيدة».

«خراء»، ساعدته آسيا.

أومأ بمودة، نهض رسّام الكاريكاتير المدمن الذي لم يكن يرتدي إلا شورتاً حريرياً وكانت بطنه الناتئة مكشوفة. سار نحو جهاز تشغيل أقراص السي دي ليضع أغنية، صادف أن كانت إحدى أغانيها الأثيرة لجوني كاش: «جُرحت» وعاد وهو يتمايل مع أنغام موسيقى مطلع الأغنية، وعيناه تشعان: «لقد جرحت نفسي اليوم/ لأتأكد إن كنت لا أزال أحسّ...».

جعّدت آسيا وجهها وكأن أحداً وخزها بإبرة غير مرئية، وقالت: «يا له من شيء يثير الشفقة...».

«ماذا يثير الشفقة يا حبيبتي؟».

حدّقت فيه بعينين مضطربتين مفتوحتين على وسعيهما بدتا وكأنهما

تخصان شخصاً يكبرها بثلاثة أضعاف عمرها. «اللعنة»، همهمت ساخرة، «هؤلاء المديرون والمنظمون، مهما كان الاسم الذي يطلق عليهم، ينظّمون رحلات إلى أوروبا أو رحلات إلى آسيا أو حتى إلى الاتحاد السوفيتي - البريسترويكا... لكنك إن كنت من محبّي الموسيقى في إستانبول، فإنك لا تستطيع أن تضعها في أيّ تعريف جغرافي. إننا نتساقط عبر الشقوق. إن سبب عدم وجود حفلات موسيقية كثيرة كما نرغب يعود إلى الموقع الجيوستراتيجي لاستانبول».

«نعم، يجب أن نصطف جميعنا على امتداد طول جسر البوسفور وننفخ بكامل قدرتنا لندفع هذه المدينة باتجاه الغرب: وإذا لم نفلح في ذلك، يجب أن نجرّب الطريق الآخر، لنرى إن كان بإمكاننا الاتجاه إلى الشرق»، ضحك وأضاف: «فليس من الجيد أن نكون في الوسط. فالسياسة الدولية لا تقدّر الغموض».

لكن آسيا، التي كانت تحلق فوق السحب، لم تسمعه. وأشعلت سيجارة مخدّر أخرى ووضعتها بين شفتيها المتشققتين. أخذت نفساً عميقاً بلامبالاة، وتجاهلت إحساس شعور أصابعه فوق بشرتها، ولسانه على لسانها.

«يجب أن تكون هناك طريقة للوصول إلى جوني كاش قبل أن يموت. أعني أنه كان على الرجل أن يأتي إلى إستانبول، فقد مات وهو لا يعرف أن له أنصاراً ومشجعين هنا...».

ابتسم رسّام الكاريكاتير المدمن ابتسامة رقيقة. قبّل الشامة الصغيرة على خدّها الأيسر، وداعب عنقها برقة، حتى بدأت يداه تتحركان باتجاه نهديها الممتلئين، مالئاً راحة يده بكلّ منهما. كانت القبلة متأنّية، نزقة، حارة، فيها شيء من القوة، إن لم يكن شيء من الشراسة. وبعينين متلألئتين سألها: «متى سنلتقي ثانية؟».

«عندما نلتقي في مقهى كونديرا، كما أظن». هزت آسيا كتفيها، وسحبت نفسها بعيداً عنه. عندما انسحبت، اقترب أكثر.

«لكن متى سنلتقي هنا في بيتي؟».

«تقصد متى سنلتقي في بيت الدعارة هذا؟» قالت آسيا، لم تعد تقاوم الرغبة في الاغتياب: «لأن هذا، كما نعرف جيداً، ليس بيتك! إن البيت هو المكان الذي تقيم فيه زوجتك منذ سنوات، أما هذا المكان فهو بيت الدعارة السري الذي يمكنك أن تشرب وتضاجع فيه دون أن تعلم زوجتك بشيء. هنا حيث تضاجع فتياتك اللاتي كلما كن أصغر، أكثر ضحالة، أكثر انتشاءً، كان أفضل!».

ندت عن رسّام الكاريكاتير المدمن تنهيدة وأخذ كأس العرق. ارتشف نصف جرعة، والتوى وجهه إلى حد أن آسيا خشيت لوهلة أنه إما سيصرخ في وجهها، أو أنه سيبدأ في البكاء، إذ لم تتخيّل أن هذا الألم سيظل حبيساً. بل تمتم بصوت أجش: «يمكنك أن تكوني فظة في بعض الأحيان».

ساد صمت مخيف في الغرفة، أخمدته صيحات الأطفال الذين كانوا يلعبون كرة القدم في الشارع. ومن الصراخ بدا وكأنه قد أصدرت لأحد الصبية بطاقة حمراء، وانهمك جميع اللاعبين في فريقه في مجادلة الحكم.

«لديك هذا الجانب المظلم يا آسيا» جاء صوت رسّام الكاريكاتير المدمن من بعيد: «ولأنه لا يظهر على وجهك الجميل، فإنه يصعب تبينه من الوهلة الأولى. لكنه موجود. لديك إمكانية عميقة في الهدم».

«حسناً، أنا لا أهدّم أحداً، أليس كذلك؟» شعرت آسيا بالحاجة للدفاع عن نفسها، «كلّ ما أريده، أن أكون حرّة وكلّ هذا الخراء... كم أتمنى أن أُترك في حالي...».

«تتمنين أن تتركي في حالك كي تتحكمي في نفسك بشكل أسرع وفي

وقت أبكر. . . هل هذا ما تريدينه؟ إنك تنجذبين إلى تدمير الذات كما يجذب الضوء العثّ».

كبتت آسيا ضحكة متوترة.

«عندما تشربين، فإنك تشربين حتى تثملي، وعندما تنتقدين، فإنك تكتسحين كلّ شيء، وعندما تغوصين، فإنك تصلين إلى القاع. صدقاً لا أعرف كيف أعاملك. إنك مليئة بالغضب، يا حبيبتي. . .».

«ربما لأنني ولدت لقيطة»، أشارت آسيا، وهي تأخذ نفحة أخرى، «حتى إني لا أعرف من هو أبي. لم أسأل أبداً، ولم يخبرني أحد. في بعض الأحيان، عندما تنظر إليّ أمّي يخيّل إليّ أنها تراه في وجهي، لكنها لا تنبس بكلمة على الإطلاق. ونتظاهر جميعنا بأنه لا يوجد شيء اسمه أب. بل لا يوجد سوى أب واحد، فعندما يكون هناك الله في الأعلى ويرعاك، فمن يحتاج إلى أب؟ ألسنا جميعنا أطفاله؟ لكن أمّي لا تؤمن بكل هذه الترهات. وأقول لك إنها ساخرة أكثر من أيّ امرأة عرفتها في حياتي. وهنا تكمن المشكلة تماماً. أنا وأمّي، نشبه إحدانا الأخرى، ولكننا في الوقت ذاته متباعدتان كثيراً».

نفثت نفحة أخرى من الدخان باتجاه طاولة المكتب الماهوغوني حيث يحتفظ رسّام الكاريكاتير المدمن ببعض أفضل أعماله، خشية أن تتلفها زوجته بعد أحد شجاراتهما المتكررة. وكان يحتفظ هنا أيضاً بالرسومات المبدئية للسياسي البرمائي والكركدن بوليتيكوس، وهي سلسلة جديدة يصوّر فيها أعضاء البرلمان التركي بأنهم نوع مختلف من الحيوانات. وكان يزمع أن يصدر هذه السلسلة قريباً، وخاصة بعد أن وافقت المحكمة على تأجيل الحكم عليه بالسّجن لمدة ثلاث سنوات إلى أجل غير مسمى لأنه رسم رئيس الوزراء ذئباً في هيئة خروف. واشترط القاضي كي يؤجل الحكم بأن لا يكرّر الخطأ الذي ارتكبه، وهو أمر كان عازماً على القيام

به. فقد كان يقول لنفسه ما الفائدة من الكفاح من أجل حرية التعبير، إذا لم يكافح المرء من أجل حرية الفكاهة أولاً؟

في زاوية طاولة المكتب، وتحت ضوء مصباح في شكل عنق إوزة، ربض تمثال خشبي ضخم محفور يدوياً لدون كيشوت محني فوق كتاب، غارق في تأملاته. كانت آسيا تحبّ هذا التمثال كثيراً.

«إن أسرتي مجموعة من النساء الغريبات الأطوار النظيفات. فهن يزلن دائماً الأوساخ والغبار عن الذكريات! ولا يتوقفن عن التحدث عن الماضي، لكنه نسخة معقّمة من الماضي. هكذا يحلّ أفراد عائلة قازانجي مشاكلهم؛ فإذا كان ثمة شيء يزعجك، حسناً، أغمض عينيك، وعدّ إلى رقم عشرة، وتمنى أن هذا الشيء لم يحدث، وسرعان ما ستعتقد أنه لم يحدث على الإطلاق، وافرحتاه! ومع ذلك فإننا نبتلع كلّ يوم كبسولة أخرى من الكذب...».

ما الذي يقرأه دون كيشوت، تساءلت آسيا في عقلها المخدّر. ما المكتوب في تلك الصفحة المفتوحة هناك؟ هل حرص النحّات على خربشة بضع كلمات؟ وبشيء من الفضول نهضت من على الأريكة واقتربت من التمثال المنحوت. واحسرتاه، لا توجد كلمات على الصفحة الخشبية. أخذت مجة طويلة من سيجارتها قبل أن تعود إلى مقعدها وبدأت تتذمر ثانية.

«تزعجني رؤية كلّ تلك البيوت الجميلة. نسخ حزينة من عائلات سعيدة. إني أحياناً أحسد جدّتي، التي بلغت المائة سنة من عمرها الآن، كم أتمنّى أن أكون مصابة بمرضها. النسيان الحلو. الذاكرة تذوي وتذبل».

«ليس هذا بالأمر الجيد، يا حلوتي».

«قد لا يكون جيداً للناس من حولك، لكنه مفيد لك»، قالت آسيا بإصرار.

«جيّد، فالأمران مرتبطان ببعضهما عادة».

لكن آسيا تجاهلت ذلك، وقالت: «لقد فتحت ما ـ الهيفاء البيانو اليوم بعد سنوات طويلة؛ سمعتها تعزف هذه الأصوات النشاز. إنه أمر يثير الكآبة. كانت هذه المرأة تعزف راخمانينوف، والآن لا تستطيع حتى أن تعزف أغنية أطفال سخيفة». صمتت برهة، تفكّر بما قالته للتو. ففي بعض الأحيان، كانت تتكلم أولاً، ثم تفكر لاحقاً.

«لكن ما أريد أن أقوله أنها لا تعرف ذلك، بينما نحن نعرف»، صاحت آسيا بحماس زائف: «إن الزهايمر ليس فظيعاً إلى هذه الدرجة. فالماضي ليس سوى قيد يجب أن نتخلص منه. إنه عبء ثقيل مبرّح. كم أتمنى ألا يكون لديّ ماض ـ كم أتمنى ألا أكون أحداً، وأن أبدأ من نقطة الصفر وأبقى هناك حتى الأبد. خفيفة كالريشة. لا أسرة، لا ذكريات وكلّ ذلك الخراء. . .».

«كلّ إنسان يحتاج إلى ماض»، رشف رسّام الكاريكاتير المدمن جرعة من كأسه، وتعابير وجهه تحوم في مكان ما بين التحسر والغضب.

«لا تحسبني منهن لأنني بالتأكيد لست واحدة منهن»، وأمسكت آسيا قداحة «زيبو» الملقاة على المنضدة الصغيرة وأخذت تعبث بها. فتحت الغطاء أولاً، ثم أغلقته فوراً مصدرة صوت نقرة حادّة. أعجبها الصوت الصادر عنها وكرّرت هذه الحركة عدّة مرات، دون أن تعرف أنها أوصلت رسّام الكاريكاتير المدمن إلى حافة الجنون قليلاً. كليك! كليك! كليك!

«يجب عليّ أن أذهب»، أعطته القداحة وأخذت تبحث عن ثيابها، «كلفتني عائلتي العزيزة بمهمة هامة. يجب أن أذهب إلى المطار مع أمي لاستقبال صديقتي الأمريكية بالمراسلة».

«هل عندك صديقة أمريكية بالمراسلة؟».

«نوعاً ما. هذه الفتاة التي ظهرت لي فجأة. فقد استيقظت ذات يوم

ووجدت هذه الرسالة في صندوق البريد، خمّن من أين؟ سان فرانسيسكو! فتاة اسمها آمي. تقول إنها ابنة زوجة خالي مصطفى. حتى أننا لم نكن نعرف أن للرجل ابنة زوجة! لذلك نظن الآن أن هذا الزواج هو الزواج الثاني لزوجته. لم يخبرنا بذلك! كادت جدتي تصاب بسكتة قلبية عندما اكتشفت أن زوجة ابنها الغالي التي كانت في العشرين من عمرها، لم تكن عذراء عندما تزوجها، لا يا سيدي، لم تكن عذراء، بل امرأة مطلّقة!».

سكتت آسيا إعراباً عن احترامها للأغنية التي انطلقت للتو: «إنها ليست أنا يا حبيبي»، أخذت تصفر اللحن ثم بدأت تغني الكلمات قبل أن تستأنف كلامها.

«ومن حيث لا تحتسب، تكتب آمي تلك رسالة تقول فيها إنها طالبة في جامعة أريزونا، وهي مهتمة جداً في التعرف على ثقافات أخرى، وإنها تتطلّع للقائنا ذات يوم، وما إلى هنالك. وفي النهاية أفضت بالسرّ: بالمناسبة، إني قادمة إلى إستانبول بعد أسبوع. هل يمكنني أن أقيم معكم في البيت؟».

«واو!» صاح رسّام الكاريكاتير المدمن وهي يلقي ثلاث قطع من الثلج في كأس العرق الذي ملأه من جديد. «لكن هل قالت لماذا اختارت هذا المكان من بين جميع الأماكن الأخرى؟ هل هي مجرد سائحة؟».

«لا أعرف»، غمغمت آسيا وهي جاثية على ركبتيها على الأرض، تبحث عن إحدى فردتي جوربها تحت الأريكة، «لكن بما أنها طالبة جامعية، فإني أراهن بأنها تجري بحثاً عن الإسلام أو عن اضطهاد المرأة أو عن سوابق أبوية في الشرق الأوسط. وإلا لماذا تريد أن تمكث في بيتنا الذي يحفل بالمجانين ـ كما تعرف، فهو ممتلئ بالنساء ـ في الوقت الذي توجد فيه فنادق كثيرة في هذه المدينة، رخيصة وحديثة؟ إني واثقة من أنها تريد أن تجري مع كلّ واحدة منا لقاء عن وضع النساء في البلدان الإسلامية وكلّ ذلك».

«الخراء!» أكمل رسّام الكاريكاتير المدمن الجملة التي كانت ستقولها.

«صحيح!» قالت آسيا بانتصار، بعد أن عثرت على فردة الجورب الضائعة. وبلمح البصر، ارتدت تنورتها وقميصها ومررت الفرشاة على شعرها.

«حسناً، أحضريها إلى مقهى كونديرا في وقت ما».

«سأسألها ذلك، لكنني واثقة من أنها تريد أن تزور متحفاً بدلاً من ذلك» نخرت آسيا وهي ترتدي حذاءً جلدياً طويلاً. تطلعت حولها لتتأكد من أنها لم تنس شيئاً، وأضافت: «حسناً، من المؤكد أنني سأمضي بعض الوقت معها، بما أن خالاتي لا يتوقفن عن مطالبتي بمرافقتها لأريها المدينة كي تبدي إعجابها بإستانبول. إنهن يردنها أن تتغنى بجمال هذه المدينة عندما تعود إلى أمريكا».

مع أن النوافذ كانت مفتوحة، كانت الغرفة لا تزال تعبق برائحة الماريوانا والعرق والجنس. وكان صوت جوني كاش يهدر في الخلفية.

حملت آسيا حقيبتها واتجهت نحو الباب. لكن رسّام الكاريكاتير المدمن سدّ طريقها. وأخذ ينظر إلى عينيها مباشرة، ثم أمسك كتفيها وشدها نحوه بلطف. كانت تحت عينيه البنيتين الغامقتين حلقات بشكل الأجاص وأكياس منتفخة تظهر عادة لدى مدمني الخمر أو الحزينين أو كليهما.

«عزيزتي آسيا»، همس، وجهه مشرق بحنان لم تره من قبل: «بالرغم من كلّ ذلك السمّ الذي تختزنيه في داخلك، وربما بسببه تماماً، فإنك غريبة الأطوار لكن روحك لطيفة. وأنا أحبّك. فقد وقعت في غرامك في أول يوم وضعت فيه قدميك في مقهى كونديرا، وتلك النظرة الحزينة على وجهك. لا أعرف إن كان هذا يعني لك شيئاً، لكنني سأعترف بذلك. فقبل أن تغادري هذه الشقة يجب أن تفهمي أن هذا ليس بيت دعارة، وأنا

لا أجلب فتيات إلى هنا. فأنا آتي إلى هنا لأشرب وأرسم وأكتئب، أكتئب وأرسم وأشرب، وفي بعض الأحيان، أرسم وأكتئب وأشرب... هذا كل ما في الأمر...».

باندهاش شديد، أمسكت آسيا مقبض الباب ووقفت جامدة لوهلة عند عتبة الباب. وضعت يديها في جيبي تنورتها وراحت تعبث بشيء فيهما يشبه الفتات. أخرجت يديها، لترى أطراف أصابعها مغطاة بالبذور المائلة إلى البني التي وضعتها لها جدتها لحمايتها من العين الشرّيرة.

«انظر إلى هذا! إنها حبات قمح... قمح...». ومطّت آسيا الكلمة في كلّ اتجاه، وأضافت: «إن جدتي تحاول أن تحميني من العين الشريرة». فتحت يدها وناولته حبات القمح. لكنها ما أن فعلت ذلك، حتى احمرّ وجهها خجلاً وكأنها أفضت بسرّ غرامي.

كان خداها ما زالا متوردين، ولم يعد شعورها بالمرارة في داخلها مطعماً بالتهور. فتحت آسيا الباب، وعندما خرجت بأسرع ما يمكنها، تردّدت لوهلة قبل أن تلتفت. بدا وكأنها تريد أن تقول شيئاً، لكنها ضمته إليها وعانقته. ثم هرعت تهبط الدرج خمس درجات دفعة واحدة، وراحت تجري بأسرع ما يمكنها وكأنها تهرب من عذاب يطارد روحها.

٨

حبّات الصنوبر

«كيف يمكنها أن تظل نائمة حتى الآن؟» سألت آسيا، مشيرة بذقنها نحو غرفة نومها. فخلال عودتهن من المطار، اكتشفت آسيا أن خالاتها كن قد وضعن سريراً ثانياً إلى جانب سريرها، وحوّلن مجالها الخاص تحت سقف هذا البيت إلى «غرفة البنات». وقد فعلن ذلك إما لأنهنّ كنّ يبحثن عن أساليب جديدة لتعذيبها، أو لأن لهذه الغرفة إطلالة أفضل وأردن أن يعطين ضيفتهن انطباعاً جيداً، أو أنهن رأين أن هذا سيتيح فرصة أخرى لدفع الفتاتين إلى مزيد من التقارب ضمن برنامجهن «لتعزيز الصداقة الدولية ومشروع التفاهم الثقافي». ومع أن آسيا لم تكن ترغب في أن تشاركها في فضائها فتاة غريبة، فإنها لم تكن تستطيع أن تبدي احتجاجها أمام الضيفة، لذلك، وافقت على مضض. أما الآن فقد بدأت قدرتها على التسامح تنفد. وكأنه لم يكن يكفي أنهن وضعن الفتاة الأمريكية في غرفة نومها، كان يبدو أن نساء عائلة قازانجي عازمات على ألا يتناولن طعام العشاء قبل أن تنضم إليهن ضيفة الشرف. لذلك، لم تتناول ولا واحدة منهن الطعام، حتى السلطان الخامس نفسه، مع أن مائدة العشاء كانت قد أعدت منذ أكثر من ساعة، وكانت كلّ واحدة منهن قد اتخذت مكانها حول المائدة منذ فترة، بمن فيهن السلطان الخامس. وكانت إحداهن، بين كلّ ربع ساعة، تنهض لتسخّن حساء العدس، وتعيد تسخين طبق اللحم،

وكن يحملن القدور ذهاباً وإياباً بين المطبخ وغرفة الجلوس، بينما كان السلطان الخامس يتتبع الرائحة في كلّ مرة مع مواء بتوسل. كنّ يلتصقن بكراسيهن، يشاهدن التلفزيون بصوت منخفض جداً، ويتحدثن همساً. ومع أنهن لم يتوقفن عن النقورة من هذا الصحن أو ذاك، كانت كلّ واحدة منهن، ما عدا سلطان الخامس، قد تناولت أكثر مما تتناوله عادة في جلسة واحدة.

«ربما كانت مستيقظة ومستلقية في السرير لأنها خجولة أو شيء من هذا القبيل. لماذا لا أدخل وألقي نظرة؟» سألت آسيا.

«امكثي في مكانك يا آنسة واتركي الفتاة تنام»، قالت الخالة زليخة مقطّبة أحد حاجبيها.

عين على الشاشة، والعين الأخرى على جهاز التحكّم عن بعد، وافقت الخالة فريدة وقالت: «إنها بحاجة إلى النوم. إنه إرهاق السفر. فهي لم تعبر تيارات المحيط فقط، بل اجتازت مناطق توقيت مختلفة أيضاً».

«حسناً، على الأقل، يُمنح شخص في هذا البيت الفرصة ليبقى في السرير طالما رغب في ذلك»، قالت آسيا متذمرة.

في هذه اللحظة بالذات، انطلقت موسيقى تصويرية رقراقة في الخلفية، وظهر على الشاشة البرنامج الذي كن جميعهن ينتظرنه بفارغ الصبر: النسخة التركية من مسلسل «المبتدئ». وفي صمت تملؤه النشوة، رحن يشاهدن دونالد ترمب التركي يخرج من وراء الستائر الحريرية البراقة في مكتب واسع ومن ورائه مشهد بانورامي رائع عن جسر البوسفور. وبعد أن ألقى نظرة سريعة متواضعة إلى الفريقين اللذين ينتظران تعليماته، أبلغهما رجل الأعمال عن مهمّتهما. وطلب من كلّ فريق أن يصمم قنينة ماء فوّار، وأن يجد طريقة لتصنيع تسع وتسعين قنينة، وبيعها جميعها بأسرع ما يمكن وبأغلى ثمن ممكن في أحد أكثر أحياء المدينة الفاخرة.

«أنا لا أدعو ذلك تحدياً»، قالت آسيا بصوت مرتفع: «إذا كانوا يريدون تحدياً حقيقياً فيجب أن يرسلوا هؤلاء المتسابقين إلى أكثر الأحياء تديناً ومحافظة في إستانبول وأن يجعلوهم يبيعون نبيذاً أحمر معباً في قناني هناك».

«أوه، أسكتي»، قالت الخالة بانو، وأطلقت تنهيدة. فلم تكن تعجبها الطريقة التي تسخر فيها ابنة أختها من الدين والتدين، وكانت تعرف جيداً من كانت تشبه في أسلوبها هذا: أمّها. فإذا كان التجديف يشبه سرطان الثدي أو مرض السكّر، فإنه ينتقل بشكل وراثي من الأمّ إلى ابنتها، فما الفائدة من محاولة إصلاح ذلك؟ لذلك، تنهّدت للمرة الثانية.

متجاهلة الألم الذي غرسته في نفس خالتها، هزّت آسيا كتفيها بدون مبالاة. «لكن لِمَ لا؟ فسيكون ذلك أكثر إبداعاً من أن تقوم تركيا بتقليد كل شيء أمريكي بدون عقلانية. فعليك أن تدمجي المادة التقنية التي تستعيرينها من الغرب بالخصائص المحددة للثقافة التي تتوجهين إليها. هذا ما أدعوه دونالد ترمب على الطريقة التركية. لذلك يجب أن يطلب من المتسابقين مثلاً أن يبيعوا معلبات لحم خنزير في حيّ إسلامي. هذا هو التحدي الحقيقي. لكي تزدهر إستراتيجيات التسويق».

قبل أن تتمكن إحداهن من التعليق على كلامها، فُتح باب غرفة النوم مصدراً صريراً، وخرجت أرمانوش تشكمكجيان، خجولة بعض الشيء، دائخة قليلاً. ترتدي بنطلون جينز باهت اللون، وبلوزة زرقاء غامقة طويلة وفضفاضة. فعندما كانت تحزم أمتعتها للسفر إلى تركيا، فكرت طويلاً بنوع الثياب التي ستأخذها فاختارت أكثر ثيابها بساطة كي لا يبدو شكلها غريباً في بلد محافظ. لذلك صُدمت عندما وجدت في استقبالها في مطار إستانبول الخالة زليخة مرتدية تنورة قصيرة إلى درجة فظيعة، وحذاءً بكعب عالٍ أكثر فظاعة. لكن دهشتها كانت أكبر، عندما التقت الخالة بانو التي تغطي رأسها بمنديل وترتدي ثوباً طويلاً، ثم عرفت كم كانت تقية، عندما

رأتها تصلّي خمس مرات في اليوم. وما أدهشها أكثر أن المرأتين، رغم التباين الشديد في مظهريهما، ومن الواضح في شخصيتيهما، لقد كانتا أختين تعيشان تحت سقف واحد. كان هذا لغزاً محيّراً تعين على أرمانوش أن تفسّره وتفك رموزه.

«أهلاً بك، أهلا بك!» صاحت الخالة بانو فرحة، لكنها استنفدت على الفور مفرداتها الإنكليزية.

فيما أخذن يراقبنها وهي تسير نحوهن، تململت الخالات الأربع على المائدة بضيق غير مألوف، ومع ذلك كانت ابتسامتهن ترتسم على وجوههن من الأذن إلى الأذن. فقد كان الفضول يدفعهن لمعرفة نوع الرائحة التي تنبعث من هذه الغريبة، وعلى الفور قفز السلطان الخامس على أطرافه وراح يمشي حول آرمانوش في دائرة ضيقة، يشمشم نعليها، إلى أن قرّر أنه لا يوجد ثمة شيء يثير الاهتمام.

«أنا آسفة جداً، لا أعرف كيف نمت طويلاً»، تلعثمت أرمانوش بلغة إنكليزية وكأنها في فيلم يعرض بحركة بطيئة.

قالت الخالة زليخة: «طبعاً، فجسمك يحتاج إلى هذا النوم. كانت رحلة طويلة». ومع أن نبرتها كانت ناضجة، إلا أنها أصبحت صارخة الآن، وتنحو للتشديد على المقاطع الخاطئة، وبدا أنها تعبّر أيضاً عن نفسها بارتياح باللغة الإنكليزية. «ألستِ جائعة؟ أرجو أن تتمتعي بالطعام التركي».

وثبت الخالة بانو، التي كانت تستطيع أن تميّز كلمة طعام بجميع اللغات الممكنة، وانطلقت إلى المطبخ لتجلب حساء العدس. وعلى نحو يكاد يكون آلياً، قفز السلطان الخامس من فوق وسادته ولحق بها، وهو يموء ويتوسل طوال الطريق.

عندما جلست على الكرسي المخصص لها، بدأت أرمانوش تدقق في

غرفة الجلوس. وبسرعة، وبحذر، راحت تتطلع حولها، وكانت تتوقف عند بعض الأماكن: خشب الورد المحفور، خزانة ذات باب زجاجي تضم فناجين قهوة مذهّبة، أطقم شاي زجاجية، وبداخلها تحف مختلفة؛ البيانو القديم بجانب الجدار؛ البساط الرائع على الأرضية؛ وقطع عديدة من الدانتيلا فوق المناضد الصغيرة؛ وكراسي مخملية ذات مسندين؛ بل وحتى جهاز التلفزيون؛ والكناري في القفص المزيّن الذي يتأرجح عند باب الشرفة؛ والصور المعلقة على الجدران ـ لوحات زيتيه عن أرياف بألوان مختلفة إلى درجة تبدو أنها ليست حقيقية؛ وتقويم فيه صور مختلفة عن مواقع ثقافية وطبيعية في تركيا في صفحة كلّ شهر؛ تعويذة لدرء العين الشرّيرة؛ وصورة أتاتورك في بدلة رسمية، معتمراً قبعته، ويلوّح باتجاه حشد غير مرئي في الصورة. كانت الغرفة كلها تنبض بالتذكارات والألوان الحيوية ـ أزرق، أحمر داكن، أخضر بحري، فيروزي ـ وتتلألأ إلى درجة أنه بدا لها أنه يوجد ضوء آخر في مكان ما بالإضافة إلى النور المنبعث من المصابيح.

ثم حوّلت أرمانوش نظرها إلى الأطباق التي تملأ المائدة باهتمام متزايد، وقالت وقد زينّت وجهها ابتسامة: «يا لها من مائدة رائعة. إني أحبّ جميع هذه الأطباق. فهذا حمّص، وبابا غنوج، ويالانجي، وصرما... وانظري إلى هذه، لقد خبزتهن تشوريك!».

«آه، هل تتكلمين التركية؟» صاحت الخالة بانو، مندهشة، عندما عادت وهي تحمل بين يديها قدراً يتصاعد منه البخار، والسلطان الخامس يمشي وراءها.

هزّت أرمانوش رأسها، نصف ضاحكة، نصف وقورة، وكأنها شعرت بالأسف لأنها خذلت توقعاً كبيراً فيها، «لا، لا. أنا لا أتكلّم اللغة التركية، لسوء الحظ، لكني أظن أني أتكلّم لغة المطبخ التركي».

التفتت الخالة بانو التي لم تفهم المقطع الأخير من كلامها، ونظرت

بيأس إلى آسيا التي بدا أنها لم تكن ترغب في أداء دورها كمترجمة، بل كانت مستغرقة تماماً في المهمّة التي حددها دونالد ترمب التركي، الذي طلب الآن إلى المتسابقين أن يغوصوا في أعماق صناعة المنسوجات لإعادة تصميم بدلة رياضية باللونين الأصفر والأزرق السماوي لإحدى أكبر فرق كرة القدم المتنافسة في بطولة الفرق الوطنية. والتصميم الذي سيعتبره لاعبو كرة القدم الأفضل سيفوز في المسابقة. في هذه الأثناء، كانت آسيا تتأمّل خطة بديلة لهذه المهمّة المحددة أيضاً، لكنها قرّرت أن تبقيها لنفسها (لم تعد تشعر بالرغبة في أن تتكلم. وفي الواقع وجدت أن الفتاة الأمريكية أجمل بكثير مما كانت تتوقع. لا لأن آسيا كانت تتوقّع شيئاً، لكنها كانت تتوقع، بل ربما كانت تتمنى في أعماقها، أن تستقبل في المطار فتاة شقراء غبية.

ولسبب لا تعلمه، أرادت آسيا أن تواجه الضيفة، لكنها كانت تفتقر إلى السبب، كما كانت تفتقر إلى الطاقة. لذلك فضّلت أن تبقى الآن منعزلة ومتحفظة لتوضح أنها تتجنب هذا النوع من الضيافة والكرم التركيين.

«إذن، أخبرينا»، سألت الخالة فريدة بعد أن أنهت تفحص تصفيفة شعر الفتاة الأمريكية ووجدته في غاية البساطة، «كيف هي أمريكا؟».

كانت تفاهة السؤال كافية لأن تجعل آسيا تفقد هدوءها واتزانها، رغم عزمها على التمسك بالقرار الذي اتخذته بأن تظل منعزلة. فرمت خالتها بنظرة ممضّة. وإن كانت أرمانوش قد وجدت السؤال سخيفاً أيضاً، فلم تبد ذلك. فقد كانت لطيفة مع الخالات. لأن العمّات كنّ من اختصاصها. وفيما كانت كتلة الحمّص تملأ خدّها الأيمن التي كانت تلوكها في فمها، أجابت: «جيدة جيداً. إنها بلد كبير كما تعرفين. وذلك حسب المكان الذي تعيشين فيه، ففي الحقيقة توجد أمريكات عديدة».

«إسأليها كيف حال مصطفى»، سألت الجدّة كلثوم، متجاهلة المعلومات الأخيرة تماماً، التي لم تفهمها.

«إنه في حالة جيدة، وهو يعمل كثيراً»، قالت أرمانوش وهي تنصت في الوقت نفسه إلى صوت زليخة الرخيم وهي تترجم كلماتها: «لديهم بيت جميل وكلبان. إن المكان رائع هناك في الصحراء. والطقس في أريزونا لطيف دائماً، كما تعرفين، لطيف ومشمس...».

عندما أنهين الحساء وبدأن تناول لقيمات من المقبلات، اتجهت الجدّة كلثوم والخالة فريدة إلى المطبخ وعادتا تحمل كل منهما صينية كبيرة. كانتا تسيران مشية عسكرية بتزامن تام، ووضعتا الطبقين على المائدة.

«عندكم بيلاف أيضاً»، ابتسمت أرمانوش، ومالت إلى الأمام تتفحص الأطباق، «وطورشو و...».

«واو! «صاحت الخالات بصوت واحد، مبديات إعجابهن بمعرفة ضيفتهن بالأطعمة التركية.

وقعت عينا أرمانوش فجأة على آخر قدر وضع على المائدة، وقالت: «كم أتمنّى أن ترى جدتي هذا، إنه رائع، كابورغا...».

«واو!» ردّدت الجوقة. حتى آسيا رفعت رأسها بشيء من الاهتمام.

«مطعم تركي كثير في أمريكا؟» سألت الخالة شكرية.

«في الحقيقة، أنا أعرف هذه الأطعمة لأنها أيضاً جزء من المطبخ الأرمني»، أجابت أرمانوش ببطء. فبما أنها قدمت نفسها إلى العائلة بأنها آمي، ابنة زوج مصطفى، الفتاة الأمريكية من سان فرانسيسكو، فقد كانت قد خطّطت في البداية أن تكشف شيئاً فشيئاً السرّ المتعلق بالجزء المتبقي من هويتها، بعد أن تكون قد بنت درجة من الثقة المتبادلة بينهن، إلا أنها وجدت نفسها تندفع بسرعة نحو جوهر الموضوع مباشرة.

بعد أن اعتراها الآن مزاج متوتر قليلاً، ولكن بثقة بالنفس أيضاً،

اعتدلت أرمانوش في جلستها، وأخذت تنظر من طرف المائدة إلى الطرف الآخر لترى ردّة فعل كلّ منهن. وقد شجعتها التعابير العادية على وجوههن على توضيح ما يعتمل في نفسها بشكل أفضل.

«أنا أرمنية. . . حسناً، أرمنية أمريكية».

لم تترجم الكلمات هذه المرة. فلم تكن هناك ثمة حاجة إلى ذلك.

ابتسمت الخالات الأربع في وقت واحد، كلّ بطريقتها: إحداهن بتهذيب، والثانية بقلق، والثالثة بفضول، والأخيرة بلطف. لكن أكثر ردات الفعل وضوحاً جاءت من آسيا. فبعد أن توقّفت عن مشاهدة مسلسل «المبتدئ»، أخذت ترمق ضيفتهن باهتمام شديد للمرة الأولى، بعد أن أدركت أن سبب زيارتها قد لا يكون لإجراء أبحاث عن «الإسلام والنساء».

«صحيح؟»، فتحت آسيا فمها أخيراً، ومالت إلى الأمام وأسندت مرفقيها على المائدة. «أخبريني، هل صحيح أن فرقة System of a Down[1] تكرهنا؟».

رمشت أرمانوش بعينيها، ولم تكن تعرف عما تتحدّث. وبنظرة سريعة عرفت أنها لم تكن الوحيدة في حيرتها، فقد بدا أن الخالات قد ارتبكن أيضاً.

«إنها فرقة الروك التي أحبها كثيراً. وأعضاؤها أرمن وجميع تلك القصص الأسطورية بأنهم يكرهون الأتراك وأنهم لا يريدون أن يتمتّع أيّ تركي بموسيقاهم، لذلك كنت أريد أن أعرف فقط»، قالت آسيا وهي تهز كتفيها. كان من الواضح أنها لم تكن سعيدة لأنها قدمت هذا التفسير إلى هذه المجموعة من الناس غير المطلعين.

(١) فرقة روك موسيقية تكونت في لوس أنجلوس، كاليفورنيا، تتألف من أربعة أعضاء من الأمريكيين الأرمن، وقد عرفت بآرائها الصريحة (المترجم).

«لا أعرف شيئاً عنهم»، زمّت أرمانوش شفتيها. وفجأة شعرت بأنها ضئيلة جداً هنا، هزيلة وضعيفة ووحيدة وغريبة في أرض غريبة، وأضافت: «كانت عائلتي من إستانبول ـ أعني جدّتي»، وأشارت بإصبعها إلى ما ـ الهيفاء، وكأنها كانت بحاجة إلى امرأة عجوز لكي تشرح القصّة بطريقة أفضل.

«اسأليها ما اسم عائلتهم»، لكزت الجدة كلثوم آسيا بمرفقها، وكأنها تملك مفتاح أرشيف سري في قبو توجد فيه جميع سجلات العائلات الإستانبولية، قديمها وحديثها.

«تشكمكجيان»، أجابت أرمانوش عندما ترجم لها السؤال: «يمكنكن أن تنادينني آمي إذا أردتن، لكن اسمي الكامل أرمانوش تشكمكجيان».

شعّ وجه الخالة زليخة عندما قالت تقديراً لذلك: «كنت أجد ذلك دائماً مثيراً للاهتمام. فالأتراك يضيفون هذه اللاحقة «جي» لكلّ كلمة ممكنة للدلالة على المهنة. انظري إلى اسم عائلتنا، إنه «قازان ـ جي». فقد كنا نصنع القدور. وأرى الآن أن الأرمن يفعلون الشيء ذاته. تشكماك. . . تشكمكجي، تشكمكجي ـ يان».

«إذن هذا شيء مشترك آخر»، قالت أرمانوش مبتسمة. فقد كان ثمة شيء في الخالة زليخة أحبته على الفور. هل كان أسلوبها المرح، وحلقة الأنف الملفتة للنظر تلك، والتنانير القصيرة جداً، أو المكياج المفرط الذي تضعه؟ أم نظرتها؟ فقد كانت تجعل المرء يثق بها دون أن يطلق عليها أحكاماً.

«انظري، لديّ عنوان البيت»، قالت أرمانوش وأخرجت قصاصة من الورق من جيبها: «لقد ولدت جدتي شوشان في هذا البيت. إذا كان بإمكانكن أن تساعدنني في الذهاب إليه، أريد أن أذهب وأزوره في وقت ما».

فيما راحت الخالة زليخة تقرأ قصاصة الورق، لاحظت آسيا أن ثمة شيئاً يضايق الخالة فريدة. فقد أخذت تلقي نظرات مذعورة إلى باب الشرفة الموارب قليلاً. بدت مضطربة، وكأنها وجدت نفسها أمام موقف خطر، ولا تعرف كيف تتخلص منه.

مالت آسيا إلى جانب، وأحنت ظهرها فوق رزّ البيلاف، وتمتمت لخالتها المجنونة، «أنتِ، ما خطبك؟».

انحنت الخالة فريدة أيضاً إلى جانب، واحدودبت فوق البيلاف الذي يتصاعد منه البخار، وهمست والشرر يتصاعد من عينيها الخضراوين الرماديتين: «لقد سمعت قصصاً عن أرمن يعودون إلى بيوتهم القديمة ليستخرجوا الصناديق التي كان أجدادهم قد خبأوها هناك قبل أن يهربوا»، وألقت نظرة جانبية بعينيها ورفعت صوتها قليلاً وقالت لاهثة: «ذهب ومجوهرات»، ثم توقّفت لتفكر قليلاً بما قالته إلى أن توصّلت إلى اتفاق مع نفسها: «ذهب ومجوهرات!».

استغرقت آسيا بضع ثوان أخرى لتفهم عما تتحدث خالتها.

«تفهمين ما أقوله، لقد جاءت هذه الفتاة إلى هنا لتتعقّب صندوقاً من الكنز»، أضافت الخالة فريدة مستثارة، وراحت تمعن الآن في محتويات صندوق خيالي، وجهها يتوهج بروح المغامرة ووهج الياقوت.

«صحيح»، قالت لها آسيا، «ألم أخبرك هذا؟ أنها عندما نزلت من الطائرة، كانت تحمل مجرفة وتدفع عربة يدّ بدلاً من أمتعة...».

«أوه، اصمتي!»، ردت الخالة فريدة بسرعة، وقد شعرت بالإهانة. ثنت ذراعيها ومالت إلى الوراء.

في هذه الأثناء، وبعد أن اكتشفت سبباً أعمق بكثير من وراء زيارة آرمانوش، سألتها الخالة زليخة: «إذن سبب زيارتك رؤية بيت جدتك. لكن لماذا غادرت؟».

كانت أرمانوش تنتظر بتوق أن يُطرح عليها هذا السؤال، لكنها لم تكن ترغب في الإجابة عنه. فأليس من المبكّر جداً أن أخبرهن؟ إلى أي حد ينبغي لها أن تكشف عن قصتها؟ إن لم يكن الآن، فمتى؟ لماذا يتعين عليها أن تنتظر؟ أخذت رشفة من كأس الشاي. وبصوت فاتر، يكاد يكون واهناً قالت: «لقد أُرغموا على المغادرة». عندما قالت ذلك، تلاشى تعبها على الفور. رفعت ذقنها وأضافت: «كان والد جدتي، هوفانيس ستامبوليان، شاعراً وكاتباً. كان رجلاً بارزاً، محترماً في المجتمع».

«ماذا تقول؟» لكزت الخالة فريدة، التي فهمت النصف الأول من الجملة فقط، آسيا بمرفقها.

«تقول إن عائلتها كانت عائلة بارزة في إستانبول»، همست لها آسيا.

«ديديم سانا ألتون ليرالار إيشين غيلميش أولمالي. . . قلت لك إنها جاءت إلى هنا لتكتشف صندوقاً من العملة الذهبية».

أجالت آسيا بنظرها، وقالت بدرجة أقل من السخرية كانت تتعمدها، قبل أن تركز على قصة آرمانوش.

«قالوا لي إنه كان أديباً يحب القراءة والتأمّل أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم. وتقول جدتي إنني أذكّرها به. فأنا أيضاً أحبّ الكتب كثيراً»، أضافت أرمانوش بابتسامة خجولة.

بادلتها بعض المستمعات الابتسامة، وعندما انتهت الترجمة، بادلتها المستمعات جميعهن الابتسامة.

«لكن لسوء الحظ كان اسمه في القائمة»، قالت أرمانوش وهي تجس نبضهن.

«أي قائمة؟» أرادت الخالة شكرية أن تعرف.

«قائمة المثقّفين الأرمن الذين تقرر التخلص منهم. القادة السياسيون، الشعراء، الكتّاب، رجال الدين. . . كانوا مائتين وأربعة وثلاثين شخصاً».

«لكن لماذا ذلك؟» سألتها الخالة بانو، وهو سؤال تجاهلته أرمانوش.

«في يوم السبت، ٢٤ نيسان، وفي منتصف الليل، ألقي القبض على العشرات من رجالات الأرمن البارزين الذين كانوا يعيشون في إستانبول، واقتيدوا بالقوّة إلى مقر الشرطة. كانوا جميعهم يرتدون ثياباً أنيقة، وكأنهم ذاهبون إلى حفلة رسمية. كانوا يرتدون بدلات أنيقة. وكانوا جميعهم أدباء. وظلّوا في مقر الشرطة دون سبب إلى أن رُحّلوا أخيراً إما إلى أياش أو إلى تشانكيري. وكانت أحوال الذين كانوا في المجموعة الأولى أسوأ من الذين كانوا في المجموعة الثانية. ولم يبق أحد في أياش على قيد الحياة. أما الأشخاص الذين أخذوا إلى تشانكيري فقد قُتلوا بالتدريج. كان جدّي من بين هذه المجموعة. إذ استقلوا القطار من إستانبول إلى تشانكيري تحت حراسة الجنود الأتراك. وساروا على أقدامهم مسافة ثلاثة أميال من المحطة إلى البلدة. كانوا يعاملون حتى ذلك الحين بطريقة لائقة. وخلال سيرهم من المحطة، كانوا ينهالون عليهم بالضرب بالعصي ومقابض الفؤوس. وفقد الموسيقار الأسطوري كوميتاس عقله بسبب ما رآه. وعندما وصلوا إلى تشانكيري أُطلق سراحهم بشرط واحد: ألا يغادروا البلدة. لذلك استأجروا غرفاً هناك، وعاشوا مع أهالي البلدة. وكان الجنود يأخذون اثنين أو ثلاثة منهم إلى خارج البلدة كلّ يوم، ثم يعود الجنود وحدهم. وفي أحد الأيام أخذ الجنود جدّي في نزهة أيضاً».

راحت الخالة بانو، التي كانت لا تزال تبتسم، تتلفت يميناً ويساراً. في البداية إلى أختها ثم إلى ابنة أختها، لترى من سيترجم لها كلّ هذا، لكن لمفاجأتها بدت علامات الحيرة على وجهيّ المترجمتين.

«على أي حال، إنها قصة طويلة. ولن أضيّع وقتكن بجميع التفاصيل. عندما مات أبوها، كان عمر جدّتي شوشان ثلاث سنوات. وكان لها أربعة أشقاء، كانت هي أصغرهم والفتاة الوحيدة. وأصبحت العائلة بدون أب. وترمّلت أمّ جدتي. وبعد أن وجدت صعوبة في البقاء

في إستانبول مع الأطفال، لجأت إلى بيت أبيها في سيواس. لكن ما أن وصلوا، حتى بدأت عملية الترحيل. وقد صدرت الأوامر لأفراد العائلة بأن يغادروا البيت وأن يتركوا ممتلكاتهم، وساروا مع آلاف آخرين إلى مكان مجهول».

أمعنت أرمانوش النظر في المستمعات إليها، وقرّرت أن تنهي القصّة.

«ساروا وساروا. وماتت أمّ جدتي على الطريق، وبعد فترة وجيزة مات المسنون أيضاً. وعندما لم يتبق لهم آباء يعتنون بهم، فقد الأطفال الصغار أحدهم الآخر في وسط هذه البلبلة والفوضى. لكن بعد شهور عديدة، التأم شمل الأخوة بأعجوبة في لبنان بمساعدة مبشّر كاثوليكي. وكانت جدتي شوشان الأخت المفقودة الوحيدة التي نجت. ولم يسمع أحد عن مصير الطفلة، ولم يعرف أحد أنها قد أعيدت إلى إستانبول، وأودعت في ملجأ للأيتام».

ومن زاوية عينها، عرفت آسيا أن أمّها كانت تنظر إليها الآن باهتمام شديد. ففي البدء، توقّعت أن تقول لها الخالة زليخة إنها تستهجن هذه القصّة وهي تترجمها، لكنها أدركت آنذاك أن ما كان يومض في عينيّ أمّها المندهشتين لم يكن سوى اهتمام بقصّة آرمانوش. وربما كانت تتساءل أيضاً إلى أي قدر ستقوم ابنتها المشاكسة بترجمته لنساء القازانجي.

وأضافت أرمانوش بهدوء: «وأمضى أخ جدتي شوشان الأكبر عشر سنوات كاملة حتى تمكن من العثور عليها. وعثر عليها أخيراً عم والد يرفانت، وأخذها إلى أمريكا لتنضم إلى أقاربها».

أمالت الخالة بانو رأسها إلى أحد الجانبين وراحت تلفّ خرزات مسبحتها العنبرية حول أصابعها ذات العظام الناتئة التي لم تشهد طلاء أظافر على الإطلاق، وهي تبرطم طوال الوقت: ﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلالِ والإكرام﴾.

«لكني لا أفهم»، كانت الخالة فريدة أول من أثارت الشكوك، «ماذا حدث لهم؟ هل ماتوا لأنهم ساروا على أقدامهم؟».

قبل أن تترجم ذلك، نظرت آسيا إلى أمّها لترى إن كان عليها أن تواصل الترجمة. فرفعت الخالة زليخة حاجبيها وهزت رأسها.

عندما طُرح عليها هذا السؤال، توقّفت أرمانوش لوهلة، وقبل أن تجيب راحت تداعب قلادة القديس فرانسيس الأسيسي المدلاة على عنقها التي كانت قد منحتها لها جدتها. رأت ما ـ الهيفاء تجلس في الطرف الآخر من المائدة، ببشرتها الشاحبة التي تحمل تجاعيد سنين كثيرة، تحدّق فيها بتعبير ينم عن حنان شديد إلى درجة أن أرمانوش شكّت بوجود احتمالين اثنين فقط: إما أنها لم تكن تولي اهتماماً بالقصّة على الإطلاق، وأنها لم تكن معهن، أو أنها كانت تصغي باهتمام شديد إلى حد أنها عاشت أحداث القصّة، وسرحت بعيداً ولم تعد معهن في هذا المكان.

«حُرموا من الماء والطعام والراحة. وأُرغموا على السير مسافة طويلة على الأقدام. النساء اللاتي كان بعضهن حوامل، والأطفال، والمسنون، والمرضى، والضعفاء. . .» ثم انخفض صوت أرمانوش وقالت: «ومات الكثيرون جوعاً. وأُعدم بعضهم الآخر».

في هذه المرة، ترجمت آسيا كلّ شيء دون أن تترك كلمة واحدة. «ومن قام بهذا العمل المتوحش؟» صاحت الخالة شكرية وكأنها تخاطب تلاميذ صفها المشاغبين.

شاركت الخالة بانو أختها في ردّة فعلها، مع أن ردة فعلها كانت تنحو نحو عدم التصديق أكثر منها للغضب. كانت عيناها مفتوحتين على وسعهما، وأخذت تعقد طرفيّ منديل رأسها كما تفعل دائماً عندما تكون متوترة، ثم تنهدت وهمهمت بدعاء كدأبها عندما لا يوصلها عقد طرفي منديلها إلى مكان.

«خالتي تسأل من فعل ذلك؟» قالت آسيا.

«الأتراك فعلوا ذلك»، أجابت أرمانوش، دون أن تولي أي اهتمام لعواقب ذلك.

«يا للعار، يا لها من خطيئة، ألم يكونوا إنسانيين؟»، قالت الخالة فريدة.

«بالطبع لا، فبعض الناس وحوش»، أعلنت الخالة شكرية دون أن تفهم أنه قد تكون النتائج أكثر تعقيداً بكثير مما قد تقر به. فخلال عشرين سنة من عملها كمعلّمة تاريخ القومية التركية، اعتادت أن ترسم حداً فاصلاً بين الماضي والحاضر، مميّزة بين الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية الحديثة، وقد سمعت الآن هذه القصّة وكأنها أخبار كئيبة قادمة من بلاد بعيدة. فقد أُسّست الدولة الجديدة في تركيا في عام ١٩٢٣، وهذا أكثر حدّ يمكن أن يصل إليه هذا النظام. ومهما حدث أو لم يحدث قبل هذا التاريخ، كان بالنسبة لها مسألة تتعلق بحقبة أخرى ـ وبشعب آخر.

راحت أرمانوش تنقل عينيها من واحدة إلى أخرى، مرتبكة. وشعرت بالارتياح عندما تبين لها أن العائلة لم تتلق القصّة بشكل سيء كما كانت تخشى، لكنها لم تكن متأكّدة إن كنّ قد استوعبن القصة حقاً. فهن لم يرفضن تصديقها، ولم يهاجمنها بجدال معاكس، بل أصغين إليها باهتمام، وبدا عليهن جميعهن الأسف. لكن هل هذا هو الحدّ الذي يصل إليه رثاءهن؟ وماذا كانت تتوقّع منهن؟ ارتبكت أرمانوش وتساءلت إن كان الأمر سيختلف لو كانت تحدّث مجموعة من المثقفات.

ظنت أرمانوش أنها قد تسمع منهن اعترافاً بالذنب، إن لم يكن اعتذاراً. لكن ذلك الاعتذار لم يأت، لا لأنهن لم يتعاطفن معها، فقد أحسسن بالتعاطف معها، بل لأنهن رأين أنه لا توجد أي صلة تربط بينهن وبين مرتكبي هذه الجرائم. أما هي، بصفتها أرمنية، كانت تجسّد أرواح

أجيال شعبها والأجيال السابقة، فيما لم تكن لدى التركي العادي فكرة التواصل مع أسلافه وأجداده. فالأرمن والأتراك يعيشون في إطار زمني مختلف. فالزمن بالنسبة للأرمن دورة تجسّد فيها الماضي في الحاضر، والحاضر يولّد المستقبل. أما الأتراك، فالزمن بالنسبة لهم خطّ متقطع، فيه فواصل عديدة، انتهى فيه الماضي عند نقطة محددة وبدأ الحاضر مجدداً من نقطة الصفر، ولم يكن يوجد سوى خط فاصل في الوسط.

«لكنكِ لم تأكلي شيئاً. هيا يا طفلتي، فقد قطعت مسافة طويلة، كلي الآن»، قالت الخالة بانو، لتحوّل الموضوع إلى الطعام، أحد العلاجين اللذين كانت تعرفهما لعلاج الحزن.

«إنه طيب كثيراً، شكراً لكن»، وأمسكت أرمانوش شوكتها. ولاحظت أنهن يطهين الرزّ كما تفعل جدتها، بالزبدة وتضع فوقه حبّات الصنوبر المقلية.

«طيب، طيب! كلي، كلي»، راحت الخالة بانو تومئ بأقوى ما يمكنها.

بقلب حزين، رأت آسيا أرمانوش تقبل العرض بتهذيب وتمسك شوكتها لتعود إلى الغابورغا التي راحت تتناولها. أما هي، فقد أطرقت برأسها، وفقدت شهيتها. لا لأنها استمعت إلى قصّة ترحيل الأرمن لأول مرة، بل كانت قد سمعت أشياء عن ذلك من قبل، والبعض يقبلون، والكثير يرفضون. لكنها كانت تجربة مختلفة تماماً عندما سمعت القصّة من شخص من لحم ودم. إذ لم يسبق لآسيا أن التقت بشاب يحمل ذاكرة قديمة جداً.

لكن العدميّ في داخلها لم يستغرق وقتاً طويلاً كي تطرد الإحساس بالضيق من نفسها. هزت كتفيها باستهجان. مهما يكن! فالعالم سيء في

جميع الأحوال. الماضي والمستقبل، هنا وهناك... كلّ شيء هو ذاته. التعاسة ذاتها في كل مكان. فإما أن الله غير موجود، أو أنه بكل بساطة مترفع عن رؤية الشقاء الذي ألقى بنا إليه. إن الحياة حقيرة وقاسية، وأشياء أخرى كثيرة سئمت من معرفتها منذ زمن بعيد. انزلقت نظرتها الضبابية نحو الشاشة حيث كان دونالد ترمب التركي يستجوب الأعضاء الثلاثة الذين يستحقون اللوم من المجموعة الخاسرة. فقد تبين أن اللباس الذي صمموه لفريق كرة القدم سيء للغاية إلى حد أن معظم الرياضيين المتساهلين رفضوا ارتداءه. وقد حان الآن طرد واحد منهم. وكأنه ضغط على زرّ، فقد أخذ المتنافسون الثلاثة يكيلون الشتائم لأحدهم الآخر كي لا يكون هو الشخص الذي سيطرد.

ابتسمت آسيا بترفع. هذا هو العالم الذي نعيش فيه. التاريخ، السياسة، الدين، المجتمع، المنافسة، التسويق، السوق الحرّة، الصراع على السلطة، في حنجرة أحدهم الآخر للحصول على لقمة أخرى من الانتصار... وبالتأكيد أنها لم تكن بحاجة لأيّ من هذا وكلّ ذلك... الخراء.

استعادت آسيا الآن شهيتها وهي لا تزال تنظر إلى الشاشة، فدفعت كرسيها إلى الأمام وبدأت تملأ صحنها. أخذت قطعة كبيرة من الكابورغا وراحت تلتهمها. وعندما رفعت رأسها، التقت عيناها بنظرة أمّها الثاقبة.

* * *

بعد العشاء، عادت أرمانوش إلى غرفة البنات لتجري مكالمتين هاتفيتين. ففي البداية، اتصلت بسان فرانسيسكو، ووقفت وجها لوجه أمام ملصق جوني كاش على الجدار فوق طاولة المكتب مباشرة.

«جدتي، هذه أنا»، صاحت مستثارة، لكنها توقّفت على الفور: «ما هذه الضوضاء في الخلفية؟».

«أوه، لا شيء يا حبيبتي»، جاء الرّد، «إنهم يصلحون الأنابيب في الحمّام. تبين أن عمّك ديكران عبث بها في ذلك اليوم. اضطررنا لاستدعاء سبّاك. أخبريني كيف حالك؟».

أخذت أرمانوش التي كانت تتوقع هذا السؤال، تتحدث عن روتينها اليومي في أريزونا. أحست بالضيق بسبب هذه الخدعة، فكيف يمكنها أن تقول لها: «أنا لست في أريزونا. بل في المدينة التي ولدت فيها؟».

بعد أن أغلقت الخط، انتظرت بضع دقائق. أخذت نفساً عميقاً، وتمالكت شجاعتها، وأجرت اتصالها الثاني. وقد قرّرت هذه المرة أن تلتزم الهدوء وألا تبدو محبطة ـ وهو وعد وجدت من الصعب أن تلتزم به وهي تسمع صوت أمّها المتوتر.

«آمي، حبيبتي، لماذا لم تتصلي من قبل؟ كيف حالك؟ كيف الطقس في سان فرانسيسكو؟ هل يعاملونك جيداً؟».

«نعم، يا أمّي. أنا بخير. إنّ الطقس ـ» أسفت أرمانوش لأنها لم تطلع على أحوال الطقس في سان فرانسيسكو على الإنترنت، «جيد»، توجد رياح قليلة، كالعادة ـ».

«نعم»، قاطعتها روز: «لقد اتصلت بك عدة مرات لكن كان هاتفك الخلوي مغلقاً. أوه، كنت قلقة عليك كثيراً!».

«ماما، أرجوك اسمعيني»، قالت أرمانوش، مندهشة لنبرة التصميم في صوتها: «لا أشعر بالراحة عندما تواصلين الاتصال بي في بيت جدتي. لنتفق على شيء، حسناً؟ دعيني اتصل بك أنا ولا تتصلي بي. أرجوك».

«هل طلبوا منك أن تقولي هذا؟» سألت روز على نحو مريب، «لا، ماما، طبعاً لا. بحق الله، أنا من يطلب منك ذلك».

بتردد، قبلت روز هذا الشرط. وراحت تتذمر من عدم وجود وقت

كاف لديها، فقد كانت أيامها منقسمة بين البيت والعمل. إلا أن معنوياتها ارتفعت عندما قالت إنه توجد حسومات في مخزن «هوم ديبو» وإنها هي ومصطفى وافقتا على شراء خزائن جديدة للمطبخ.

«قولي لي رأيك»، قالت روز بحماس: «ما رأيك بخشب الكرز؟ هل تظنين أنه سيبدو جيداً في مطبخنا؟».

«نعم، أظن ذلك...».

«أظن ذلك أيضاً. لكن ماذا عن خشب البلّوط الغامق؟ إنه أغلى بقليل لكن فيه فخامة. أي منهما تظنين أفضل؟».

«لا أعرف، ماما، البلّوط الغامق يبدو جيداً أيضاً».

«نعم، لكنّك لا تساعدينني كثيراً»، أطلقت روز تنهيدة.

عندما أغلقت الهاتف، تطلعت أرمانوش حولها وأحست بنفور عميق. بسط تركية، مصابيح قديمة بجانب السرير، أثاث غير مألوف، وكتب وصحف تتكلم لغة أخرى... وفجأة أحسّت برعب لم تشعر به منذ أن كانت طفلة صغيرة.

فعندما كانت أرمانوش في السادسة من عمرها، نفد البنزين من سيارة أمها عندما كانت هي وأمّها في مكان مجهول من أريزونا، وكان عليهما أن تنتظرا زهاء ساعة قبل أن تمر سيارة في الطريق. رفعت روز إبهامها وتوقفت شاحنة لتقلهما. وفي الشاحنة كان يجلس رجلان فظان، مفتولا العضلات، متجهمين. لم ينبسا بكلمة وأوصلاهما إلى محطة البنزين التالية. وعندما نزلتا واختفت الشاحنة، ضمت روز أرمانوش إليها وعانقتها وهي ترتعش، وتبكي مذعورة: «يا إلهي، ماذا لو كانوا أناساً سيئين؟ كان من الممكن أن يختطفوننا، يغتصبوننا، ويقتلوننا، ولن يجد أحد جسدينا. كيف كان بإمكاني أن أتحمل هذه المخاطرة؟».

مع أن الأمر لم يكن مأساوياً إلى تلك الدرجة، اعترى أرمانوش شعور مماثل الآن. فها هي الآن في إستانبول تقيم في بيت يضم غرباء دون أن يعرف أحد في عائلتها ذلك. كيف يمكنها أن تتصرّف بهذا الاندفاع والطيش؟

ماذا لو كانوا أناساً سيئين؟

٩

قشور البرتقال

في صباح اليوم التالي، غادرت آسيا قازانجي وآرمانوش تشكمكجيان القناق وذهبتا للبحث عن البيت الذي ولدت فيها الجدّة شوشان. وجدتا الحيّ بسهولة ـ حيّ غني، ساحر، في الجانب الأوروبي من المدينة. لكن لم يعد ثمة وجود للبيت الذي انتصبت مكانه عمارة سكنية بخمسة طوابق. وقد احتل الطابق الأول كله مطعم سمك فاخر. وقبل أن تدخلا المطعم، نظرت آسيا إلى انعكاس صورتها في الزجاج، وسوّت شعرها وهي تنظر إلى نهديها باستياء.

وبما أن الوقت كان لا يزال مبكّراً جداً لتناول طعام العشاء، لم يكن في المطعم سوى حفنة من الندل الذين كانوا يكنسون آثار الليلة السابقة. وفي المطبخ، كان هناك طباخ بدين ذو خدين ورديين ممتلئين، يعدّ المازاوات والوجبات الرئيسية تحت سحابة من الروائح المسيلة للعاب. راحت آسيا تتكلّم مع كلّ واحد منهم، وتسألهم عن ماضي البناية. لكن الندل قالوا إنهم هاجروا من قرية كردية في جنوب شرق البلد، وجاؤوا إلى المدينة مؤخّراً، أما الطباخ، الذي عاش فترة أطول في إستانبول، فلم يتذكر شيئاً عن تاريخ الشارع.

«من بين العائلات الإستانبولية العريقة، لم يبق منها إلا عدداً قليلاً في

مسقط رأسها»، أوضح الطباخ بنبرة العارف، وهو يفرغ أحشاء سمكة مكريل ضخمة كان ينظفها.

«كانت هذه المدينة عالمية ذات يوم»، تابع الطباخ، وهو يكسر العمود الفقري لسمكة مكريل فوق ذيلها، ثم تحت رأسها، «كان عندنا جيران يهود، عدد كبير منهم. وكان عندنا جيران يونانيون أيضاً، وجيران أرمن... عندما كنت صغيراً كنت أشتري السمك من صيّادي السمك اليونانيين، وكانت خيّاطة أمّي أرمنية، وكان رئيس أبي في العمل يهودياً. كنّا جميعا مختلطين».

«إسأليه لماذا تغيّرت الأمور»، التفتت آرمانوش إلى آسيا.

«لأن إستانبول ليست مدينة»، قال الطباخ، وجهه مضيء بأهمية الكلام الذي كان على وشك أن يقوله: «إنها تشبه المدينة، لكنها ليست كذلك. إنها مدينة مراكب. إننا نعيش في سفينة!».

أمسك السمكة من رأسها وراح يحرّك العمود الفقري ذات اليمين واليسار. ولوهلة، تخيلت آرمانوش أن سمكة الماكريل مصنوعة من الخزف، وخافت أن تتهشم إلى قطع في يديّ الطباخ. وبعد بضع ثوان، استطاع الرجل أن يخرج الحسك كله من داخل السمكة. سعيداً بنفسه، تابع يقول: «إننا جميعنا مسافرون هنا، نأتي ونذهب في مجموعات، اليهود يذهبون، والروس يأتون، فالحيّ الذي يسكن فيه أخي مكتظ بالمولدوفيين... وغداً سيذهبون، وسيأتي آخرون. هكذا هي...».

شكرنا الطباخ وألقينا نظرة أخيرة إلى سمكة الماكريل التي سُتحشى، والتي كان فمها لا يزال فاغراً.

خرجتا من المطعم، آسيا خائبة، وآرمانوش حزينة، وشاهدتا مشهد البوسفور الرائع تحت الشمس الشتائية المتأخّرة. ظللتا أعينهما بيديهما

لاتقاء الشمس. أخذتا كلاهما نَفَساً عميقاً، وعرفتا في الحال أن الهواء يحمل نسائم الربيع.

لم تكن لديهما خطط أفضل، وراحتا تتمشيان في الحيّ، واشترتا شيئاً من كلّ بائع تقريباً في الشارع وقعت عينيهما عليه: ذرة مسلوقة حلوة، بلح بحر محشي، حلاوة بالسميد، واشتريتا أخيراً قرطاساً كبيراً من بذر عبّاد الشمس. ومع كل شيء جديد كانتا تشتريانه، كانتا تدخلان في حديث جديد، وتحدثتا عن أشياء عديدة، ما عدا المواضيع الثلاثة التي لا يمكن لفتاتين شابتين لا تزال إحداهما غريبة عن الأخرى أن تخوض فيها وهي: الجنس، والرجال، والآباء.

«لقد أحببت عائلتك»، قالت آرمانوش، ثم أضافت: «إنهن مفعمات بالحياة».

«نعم، بالتأكيد، حدثيني عن ذلك»، قالت آسيا معترضة، وخشخشت أساورها العديدة. فقد كانت ترتدي تنورة طويلة خضراء هيبية مطبوع عليها زهرة كستنائية، وحقيبة مرقّعة، وتضع عدداً كبيراً من القلائد ذات الخرز الزجاجي، وترتدي أساور وخواتم فضّية في كلّ إصبع تقريباً. وأحست آرمانوش التي ترتدي بنطال جينز وجاكيت من التويد، بأنها أدنى منها قليلاً.

«هناك جانب سلبي»، قالت آسيا: «من الصعب أن تولدي في منزل تملؤه نساء يغمرنك بحبهن إلى درجة أنهن يخنقنك بحبّهن؛ المنزل الذي تكونين فيه الطفلة الوحيدة، والذي يجب أن تكوني فيه بالغة أكثر من جميع البالغين من حولك. إني أشعر بالامتنان لأنهن أرسلنني إلى أفضل المدارس، وحصلت على أفضل تعليم، بل وربما حصلت على أفضل تعليم في هذا البلد. لكن المشكلة أنهن يردنني أن أصبح كلّ شيء لم يستطعن هن أنفسهن أن ينجزنه في الحياة. أتفهمين ما أعنيه؟».

كانت تخشى ألا تفهم آرمانوش ما تقوله.

«لذلك، كان عليّ أن أحرّك مؤخرتي كي أحقق جميع أحلامهن في وقت واحد. فقد بدأت أتعلّم اللغة الإنكليزية عندما كنت في السادسة، وكان الأمر سيكون جيداً لو أنهن توقفن عند هذا الحد. وفي السنة التالية، أحضرن لي معلّماً خصوصياً لأتعلم الفرنسية. وفي التاسعة، أرغمنني على دراسة الكمان سنة بكاملها، مع أنه لم يكن لديّ لا الاهتمام ولا الموهبة. ثم افتتحت ساحة جديدة للتزحلق على الجليد بالقرب من بيتنا، فقررت خالاتي أنني يجب أن أتدرب على الجليد. فقد كن يحلمن بأني أرتدي فساتين برّاقة وأرقص برشاقة على أنغام نشيدنا الوطني. وأن أكون كاتارينا وايت التركية! وسرعان ما كنت هناك ألّف وأدور على الجليد، ووقعت كثيراً على مؤخرتي أثناء محاولتي الرقص! إن صوت خربشة الزلاجات على الجليد لا يزال يبعث الرعشات في أسفل عمودي الفقري».

بدافع من المجاملة، حرصت آرمانوش على ألا تضحك، مع أنها وجدت أنه من الصعب مقاومة صورة آسيا وهي ترقص على الجليد في مسابقة دولية.

«ثم جاء وقت توقّعن فيه أن أصبح عداءة مسافات طويلة. فإذا تدربت جيداً، يمكنني أن أصبح عداءة مدهشة، وأمثّل تركيا في مباريات الألعاب الأولمبية! هل تستطيعين أن تتخيّليني وأنا أشارك في ماراتون للنساء بهذين الثديين الكبيرين، بحق الله!».

لم تتمالك آرمانوش نفسها عن الضحك هذه المرة.

«لا أعرف كيف تفعل ذلك جميع تلك العداءات، فكما تعرفين فإن صدورهن جميعهن مسطّحة كالرخام. لا بد أنهن يتناولن هرمونات ذكورية كي يفرغن أثدائهن. أما النساء من أمثالي فلم يخلقن ليصبحن عداءات؛ إن هذا يخالف أساسيات قوانين الفيزياء. فالجسم يتقدّم إلى الأمام، وتزداد

سرعته حسب قانون التسارع. ويتناسب مقدار التغيير في سرعتك مع مقدار القوة المضغوطة على الجسم، وفي ذلك الاتجاه. ثم ماذا يحدث؟ يتسارع الثديان أيضاً، رغم أنهما يتحركان بإيقاع متنافر، إلى الأعلى وإلى الأسفل، وفي النهاية فهما يخففان من سرعتك. قانون العطالة بالإضافة إلى قانون الجاذبية! لا توجد أي إمكانية للفوز. أوه، كان أمراً محرجاً للغاية!» صاحت آسيا بحماس: «الحمد لله، فقد انتهت تلك المرحلة بسرعة. وبعد ذلك، بدأت دروساً في الرسم، وللأسف جعلنني آخذ دروساً في الباليه إلى أن اكتشفت أمي مؤخراً أنني أتغيّب عن الدروس، وتوقفت عن ذلك».

أومأت آرمانوش بألفة شخص يماهي أجزاء من قصّتها الشخصية في قصّة أخرى. يمكنها أن تتعلّق بمثل هذا الحبّ الغامر من جانب عمّاتها، لكنها لا تشعر بالارتياح عندما تتحدث عن ذلك. وعوضاً عن ذلك، سألت: «ثمة شيء لم أتمكن من فهمه. إن السيدة التي جئت معها إلى المطار، السيدة ذات الحلقة في أنفها»، أطلقت آرمانوش ضحكة لكنها تمالكت نفسها على الفور: «زليخة... إنها أمّك، أليس كذلك؟ لكنك لا تنادينها ماما... هل هذا صحيح»؟

«صحيح. إنه أمر مربك بعض الشيء. وكان ذلك يربكني أنا نفسي أحياناً»، قالت آسيا وهي تشعل أول سيجارة في هذا اليوم. وشعرت الآن بكراهية آرمانوش للسجائر، ومع أنها كانت لا تزال تدرس شخصية صديقتها الجديدة، صنّفت آسيا آرمانوش بأنها «فتاة جيدة السلوك». فإذا تبين أن تدخين سيجارة يعتبر كفراً في أسلوب الحياة العقيم هذا، قالت آسيا في نفسها، فلن تتمكن آرمانوش من تقبّل عادات سيئة أخرى فيها. نفثت هبة من الدخان في الاتجاه المعاكس، بعيداً عن آرمانوش بقدر ما تستطيع، إلا أن الريح سرعان ما أعادتها إليها.

«حتى أنني لا أتذكّر جيداً متى بدأت أنادي أمّي «خالتي». ربما منذ البداية، منذ البدء تماماً»، أجابت آسيا.

كان صوت آسيا أشبه بصوت همس لكن عينيها كانتا متقدتين، فقد قالت: «كما ترين، فقد نشأت مع كلّ تلك الخالات وهن يؤدين دور الأمّ. إن مأساتي هي أنني كنت بطريقة ما الطفلة الوحيدة بين تلك النساء في أسرتنا. فالخالة فريدة، كما يمكن أن تكوني قد لاحظت، تشبه الطاووس قليلاً، وهي لم تتزوج مطلقاً. وقد تنقلت بين وظائف عديدة. وكانت بائعة ممتازة عندما كانت تمر في مرحلتها الهوسية. وكانت الخالة شكرية سعيدة في زواجها، لكنها فقدت زوجها ومتعتها في الحياة، فكرّست نفسها لتعليم التاريخ القومي التركي. بيني وبينك، أظن أنها لا تحبّ الجنس، وأنها تجد أن حاجات الجسم الإنساني مقززة! وهناك بانو، أكبر الخالات. إنها ملح الأرض، وهي ما زالت متزوّجة على الورق، لكنها نادراً ما ترى زوجها. كان زواجها مأساوياً للغاية. وكان عندها ابنان رائعان، لكنهما توفيا. وكما تعرفين، فقد حلت اللعنة على رجال هذه العائلة. إنهم لا يعيشون طويلاً».

أطلقت آرمانوش تنهيدة متعبة، لا تعرف كيف تفسر هذه الملاحظة.

«كما ترين، يمكنني أن أفهم حاجة الخالة بانو للجوء إلى الله»، أضافت آسيا، وهي تمسد خرزات قلادتها: «المهم أنني عندما ولدت، وجدت نفسي محاطة بأربع خالات - أمّي، أو أمّي - خالتي. فإما كان عليّ أن أناديهن جميعهن «ماما» أو أن أنادي أمّي «الخالة زليخة» وتبين لي أن هذا أسهل بكثير على نحو ما.

«لكن ألم تشعر بالإهانة؟».

جعّدت آسيا وجهها عندما لاحظت سفينة شحن صدئة تبحر في البحر. كانت تحبّ مشاهدة السفن وهي تنزلق على امتداد البوسفور،

تحلم بأنها بحّارة على متن سفينة، وكأنها تحاول أن ترى المدينة من خلال عينيّ بحّار لا يتوقف عن الحركة، بحّار لا يوجد لديه ميناء يتوقف عنده، ولا توجد لديه حاجة لأن يفعل ذلك.

«شعرت بالإهانة؟ لا! كما ترين، فقد كانت في التاسعة عشرة عندما حملت بي. ومع أن الأمر يبدو غريباً، لا بد أن عدم مناداتي لها «ماما» كان مريحاً لها. لقد كنّ جميعهن «خالاتي»، وبطريقة ما جعل هذا اللقب خطيئة أمّي أقل بروزاً في نظر المجتمع. فلم تكن هناك أمّ خاطئة يشار إليها بإصبع الاتهام. في واقع الأمر، أظن أنّني شُجعت على مناداتها «خالتي» على الأقل لفترة من الزمن، ثم أصبح من العسير عليّ أن أكسر هذه العادة».

«لقد أحببتها»، قالت آرمانوش، لكنها توقّفت، مضطربة، «عن أي إثم تتكلمين؟».

«أوه، ولادة طفلة غير شرعية. إن أمّي.» وجعّدت آسيا أنفها وهي تفتش عن الكلمة الصحيحة «إنها... معرّة الأسرة. المحاربة المتمردة التي ولدت طفلة خارج إطار الزواج».

مرت ناقلة روسية، مرسلة مويجات إلى الشاطئ.

كانت سفينة كبيرة، تحمل نفطاً.

«لاحظت عدم وجود أب في البيت، لكنني قلت إنه قد يكون قد مات أو شيئاً من هذا القبيل»، تلعثمت آرمانوش: «أنا آسفة».

«إنكِ آسفة لأن أبي ليس ميتاً»، ضحكت آسيا، وألقت نظرة سريعة إلى آرمانوش التي احمرّ وجهها.

«لكنك محقّة، كما تعرفين»، قالت آسيا، ووميض الغضب في عينيها: «يعتريني الشعور ذاته. أعني لو كان أبي قد مات، فإن هذا الغموض سيتلاشى نهائياً. وهذا ما يزيدني غضباً. فأنا أظن أنه قد يكون

أي شخص. عندما لا تكون لديك فكرة من هو أبوك، فإن خيالك يملأ الفراغ. ربما كنت أراه على التلفزيون، أو أسمع صوته في الراديو كلّ يوم، دون أن أعرف أنه أبي. أو ربما قابلته وجهاً لوجه ذات مرة، في مكان ما. أتخيّل أنني ربما استقليت الحافلة نفسها معه؛ ربما كان الأستاذ الذي أتكلّم معه بعد انتهاء الدرس، أو المصور الذي أذهب لمشاهدة معرضه، أو البائع المتجول هنا... ما أدراك». كانت تشير إلى ذلك الرجل الذي يتراوح عمره بين الخامسة والأربعين والخمسين، ذي الشارب الرفيع، تقبع أمامه في الواجهة الزجاجية عشرات المرطبانات الضخمة التي تحوي مخللات من جميع الأنواع، والذي تحوّل بمساعدة عصّارة آلية، إلى عصير مخلل طازج. عندما لاحظ الرجل الفتاتين تراقبانه، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. فأشاحت آرمانوش بوجهها على الفور، فيما قطبت آسيا في وجهه.

«أتقصدين أن أمّك لم تخبرك من هو أبوك؟» سألت آرمانوش، برقة.

«إن أمّي نوع فريد من النساء! فهي لا تخبرني بشيء إلا إذا أرادت هي ذلك. إنها أكثر النساء عناداً، وأكثر النساء اللاتي يملكن إرادة حديدية يمكنك أن تصادفينها في حياتك. ولا أظن أن الأخريات يعرفن شيئاً عن شخصية أبي أيضاً. لا أظن أن أمّي قد أخبرت أحداً. على كلّ حال، حتى لو كنّ يعرفن شيئاً، فلن يخبرنني. لا أحد يخبرني شيئاً. فأنا منبوذة في هذا البيت، منفية إلى الأبد من أسرار أسرة مخيفة. فباسم حمايتي، فصلنني عنهن»، وفصفصت آسيا بذرة عبّاد شمس ورمت القشرة، «ثم أصبحت تلك لعبة متبادلة ـ يفصلن أنفسهن عني، وأنا أفصل نفسي عنهن».

في تلك اللحظة بالذات، أخذت الفتاتان تسيران ببطء. وعلى مسافة نصف ميل، كان هناك رجل يقف في قارب صغير ذي محرك في البحر وفيه عدد من المسافرين. كان يمسك سيجارة بيد، ويحمل باليد الأخرى

شجرة جميلة من المناطيد بألوان براقة من الأصفر والبرتقالي والأرجواني. لعله كان بائع مناطيد مرهقاً، أباً لأطفال كثيرين، يسلك طريقاً مختصرة من شاطئ إلى آخر عائداً إلى بيته، دون أن يعرف كم كانت وقفته رائعة، وهو يجر سحابة من الألوان، وعموداً من الدخان فوق الأمواج الزرقاء.

مأخوذتين بروعة المشهد، وقفت آرمانوش وآسيا وراحتا تراقبان القارب بصمت إلى أن اختفت جميع المناطيد في الأفق.

«هل ترغبين في أن نجلس في مكان ما؟» سألتها آسيا، وكأنها تعبت مما رأته.

كان هناك مقهى رثّ في الهواء الطلق في مكان قريب.

«إذن أخبريني، ما الموسيقى التي تحبينها؟» سألتها آسيا، عندما وجدتا مقعدا فارغاً وطلبتا بعض المشروبات. فطلبت آسيا شاي بالليمون، وطلبت آرمانوش كوك دايت بالثلج. كان السؤال محاولة واضحة لتتعرف عليها على نحو أفضل، لأن الموسيقى صلة آسيا الرئيسية بالعالم كله.

«موسيقى كلاسيكية، موسيقى شعوب مختلفة، موسيقى أرمنية والجاز»، أجابت آرمانوش، «وماذا عنك؟».

«أنا مختلفة قليلاً عنك»، واحمرّ وجه آسيا خجلاً مع أنها لم تعرف سبب ذلك، «لفترة من الزمن كنت أستمع إلى موسيقى قاسية - تعرفين، الموسيقى البديلة، البانك، بوست بانك، الميتال الصناعية، ميتال الموت، الموجة السوداء المخدّرة، وكذلك شيء من موسيقى سكا، الموجة الثالثة، وقليل من الموسيقى القوطية، هذا النوع من الموسيقى».

«حقا؟»، سألتها آرمانوش التي ترى أن هذه الموسيقى تعبّر عن الضياع التي يستمع إليها المراهقون المنحلون أو البالغون الذين لا يوجد لديهم اتجاه محدد والذين يملؤهم الغضب.

«نعم، لكنني تعلقت بعد فترة بجوني كاش. وهكذا كان. ومنذ ذلك

الحين، توقّفت عن الاستماع إلى أي شيء آخر. إني أحبّ كاش. لقد أصابني بكآبة شديدة، لكني لم أعد مكتئبة الآن».

«لكن ألا تستمعين إلى أيّ شيء محليّ؟ كالموسيقى التركية... الموسيقى التركية الفولكلورية...».

«الموسيقى الفولكلورية التركية!!! لا يمكنني ذلك أبداً!» «صفقت آسيا بيديها بذعر وكأنها تحاول أن تلوّح لبائع متجول ملحاح أن يبتعد عنها.

لم تلح آرمانوش التي كانت تعرف حدودها، بالسؤال أكثر. وخلصت إلى أنه ربما كان الأتراك يعانون من كراهية الذات.

وضعت آسيا كأس الشاي جانباً، وأضافت، «إن الخالة فريدة تحبّ هذه الموسيقى. مع أني، لكي أكون صادقة معك، لا أستطيع أن أعرف في بعض الأحيان، إن كانت الموسيقى أم تصفيفة شعر المغنيات هي التي تجذب اهتمامها».

وفي منتصف علبة الكوك الدايت التي كانت تشربها، سألت آرمانوش آسيا عن الكتب التي تقرأها، بما أن الرواية كانت صلتها الرئيسية بالعالم بأسره.

«كتب. أوه نعم، لقد أنقذت حياتي. فأنا أحب القراءة، لكني لا أحب الرواية...».

دخلت مجموعة صاخبة من الصبيان والبنات إلى المقهى، وجلسوا إلى الطاولة المواجهة لطاولة آسيا وآرمانوش. وما أن جلسوا، حتى بدأوا يسخرون من كلّ شخص ومن كلّ شيء. فأخذوا يسخرون من الكراسي البلاستيكية الحمراء الغامقة، ومن الواجهات الزجاجية التي تعرض مجموعة من المرطبات، ومن الأخطاء في الترجمة الإنكليزية للمواد المدرجة في القائمة، ومن القمصان التي يرتديها الندل المكتوب عليها «أنا أحبّ إستانبول». سحبت آسيا وآرمانوش كرسييهما إلى الأمام.

«إني أقرأ الفلسفة، وخاصة الفلسفة السياسية مثل بينجامين، أدورنو، غرامیشي، وقليل من زيزيك. . . وخاصة ديليوز. هذا النوع من القراءات. إني أحبّها. أحبّ الأشياء التجريدية. أحبّ الفلسفة، وخاصة الفلسفة الوجودية». وأشعلت آسيا سيجارة أخرى وسألت من وراء سحابة الدخان، «وماذا عنك؟».

عددت آرمانوش قائمة طويلة من كتّاب الرواية، معظمهم من الروس ومن أوروبا الشرقية.

«أترين؟»، رفعت آسيا راحتي يديها، وكأنها تشير إلى الوضع الذي صنعتاه، «عندما يتعلق الأمر بما تفضلينه في الحياة، فإنك أيضاً أقل إقليمية في اختياراتك. . . فقائمة قراءتك لا تبدو لي أنها أرمنية كثيراً».

ارتفع حاجب آرمانوش قليلاً، وقالت وهي تهزّ رأسها: «إن الأدب يحتاج إلى الحرية لينمو ويزدهر»، ثم أضافت: «لا يوجد لدينا الكثير من هذا كي نوسّع من أفق الأدب الأرمني، أليس كذلك؟».

لم تضغط آسيا، التي كانت تعرف حدودها، بطرح سؤال آخر. وخلصت إلى أن الأرمن ربما يمرون في مرحلة رثاء الذات.

بدأ المراهقون وراءهما يلعبون لعبة التمثيلية التحزيرية. إذ يحدد الفريق المنافس لكلّ لاعب يتم اختياره اسم فيلم سينمائي، وعليه أن ينقله إلى أعضاء فريقه بالإشارات. وبدأت فتاة ذات وجه يكسوه النمش، وشعر بلون الزنجبيل، ترسم إشارات اسم الفيلم المخصّص لها، وكانت كلما أتت بإيماءة، كان الآخرون يضجون بالضحك. كان من الغريب أن ترى كيف يمكن أن تحدث لعبة تقوم على مبدأ الصمت كل هذا الصخب.

ربما بسبب الضوضاء في الخلفية، فإن الروح التي وجهت آرمانوش لعدم تجاوز حدودها غادرتها الآن. قالت لآسيا: «إن الموسيقى التي تستمعن إليها غربية جداً. لماذا لا تستمعين إلى جذورك الشرق الأوسطية؟».

«ماذا تقصدين؟» بدت الحيرة في صوت آسيا: «إننا ننتمي إلى الغرب».

«لا، إنكم لا تنتمون إلى الغرب. فالأتراك شرق أوسطيون لكنهم ينكرون ذلك على الدوام. ولو كنتم قد تركتونا في ديارنا، لظللنا نحن أيضاً شرق أوسطيين، ولما أصبحنا شعباً يعيش في الشتات»، ردّت آرمانوش، وأحسّت على الفور بعدم الارتياح لأنها لم تكن تقصد أن تبدو قاسية جداً.

قضمت آسيا اللحم داخل فمها، وعندما انتهت، كان كلّ ما قالته، «ماذا تقصدين؟».

«ماذا أقصد؟ أقصد، نير القومية التركية التي نادى بها السلطان عبدالحميد، ونير القومية الإسلامية. أقصد، مذابح أضنة في عام ١٩٠٩، أو عمليات الترحيل في عام ١٩١٥... هل يعني لك كلّ هذا شيئاً؟ ألم تسمعي شيئاً عن مجازر الأرمن؟».

«أنا في التاسعة عشرة من عمري فقط»، هزت آسيا كتفيها.

بدأ المراهقون في الخلف يصيحون ويهتفون عندما لم تتمكن الفتاة التي يكسو وجهها النمش من تحقيق مهمتها، وأُستبدلت بلاعب جديد، فتى وسيم نحيف نتأت تفاحة آدم من عنقه. رفع الفتى ثلاثة أصابع، مشيراً إلى أن اسم الفيلم يتألف من ثلاث كلمات. وانتقل إلى الكلمة الثالثة والأخيرة مباشرة. ورفع كلتا يديه في الهواء، وأمسك بشيء مستدير خيالي بين راحتيه، شمّه وعصره. وعندما لم يفهم أعضاء فريقه معنى ذلك، بدأ الفريق المنافس بالضحك.

«هل هذا عذر؟» وحدجت آرمانوش في عينيّ آسيا: «كيف تستطيعين أن تكوني منيعة إلى هذه الدرجة؟».

عندما لم تعرف معنى كلمة منيعة، لم تر آسيا مانعاً من أن تجسّد

الكلمة إلى أن تجد قاموساً بالإنكليزية والتركية لتبحث عنها. ظلت هادئة لفترة بدت طويلة، وهي تستمتع بظهور الشمس فترة قصيرة من وراء الغيوم الكثيفة، ثم برطمت قائلة: «إنك مفتونة بالتاريخ».

«أما أنت فلا؟» تشدّقت آرمانوش، صوتها يشي بعدم التصديق والازدراء.

«وما الفائدة منه؟» جاء جواب آسيا باختصار: «لماذا يجب عليّ أن أعرف شيئاً عن الماضي؟ فالذكريات عبء كبير».

أدارت آرمانوش رأسها، واستقرت نظرتها تلقائياً على المراهقين. ضيّقت عينيها، وركّزت على حركات وإيماءات الفتى. ثم التفتت آسيا أيضاً، وراحت تراقب اللعبة، ثم قالت الجواب: «برتقالة».

انطلق المراهقون بالضحك، وكانوا جميعهم ينظرون إلى الفتاتين الجالستين إلى الطاولة بالقرب منهم. احمرّ وجه آسيا بشدة، وابتسمت آرمانوش. دفعتا مبلغ الفاتورة بسرعة، وخرجتا إلى الشارع.

«أيّ فيلم اسمه «برتقالة»؟ «سألت آرمانوش عندما وصلتا إلى الدرب الممتد على طول شاطئ البحر.

«البرتقالة المنتظمة... على ما أظن». «أوه نعم!» اعترفت آرمانوش بإيماءة. «اسمعي، فيما يتعلق بأنني مفتونة بالتاريخ»، قالت وهي تجمع أفكارها: «يجب أن تفهمي، رغم كلّ الحزن الذي يجسّده، فإن التاريخ هو الذي يبقينا أحياء ومتحدين».

«حسناً، أقول إن هذا امتياز».

«ماذا تقصدين؟».

«إن هذا الشعور بالاستمرارية يعد امتيازاً. إنه يجعلك جزءاً من فئة يوجد فيها شعور عميق بالتضامن»، أجابت آسيا: «لا تسيئي فهمي، يمكنني أن أرى كم كان الماضي مأساوياً بالنسبة لعائلتك، وأنا أحترم

رغبتك في الاحتفاظ بالذكريات حيّة مهما حدث لكي لا تنسى الحزن الذي أصاب أسلافك. لكن طريقينا يفترقان هنا. إذ إن طريقك حملة للتذكر، أما أنا، فإني أفضّل أن أكون مثل جدّتي، غير قادرة على تذكّر الماضي على الإطلاق».

«لماذا يخيفك الماضي كثيراً؟».

اعترضت آسيا وقالت: «إنه لا يخيفني!» عندما جعلت الريح المتقلبة والنزواتية في إستانبول تنورتها الطويلة تتطاير، وتناثر دخان السيجارة في جميع الاتجاهات، توقّفت قليلاً، ثم أضافت: «لأني لا أريد أن تكون لي علاقة به. هذا كلّ ما في الأمر».

«لا يوجد مبرر في كلامك»، أصرّت آرمانوش.

«ربما. لكن بكلّ صدق، لا يمكن أن يهتم شخص مثلي بالماضي... أتعرفين لماذا؟» سألت آسيا بعد توقف: «لا لأني أجد ماضيّ ممضاً أو لأنني لا أهتمّ بذلك. بل لأنني لا أعرف شيئاً عنه. أظن أنه من الأفضل أن تعرفي أحداث الماضي على ألا تعرفي شيئاً على الإطلاق».

ارتسم على وجه آرمانوش تعبير يشي بالحيرة، وقالت: «لكنك قلت أيضاً إنك لا تريدين أن تعرفي ماضيك. الآن تقولين شيئاً مختلفاً».

«هل قلت ذلك؟» سألت آسيا، ثم أضافت: «حسناً، لنصغها بهذه الطريقة، توجد في داخلي أصوات متناقضة حول هذه المسألة»، ونظرت إلى رفيقتها نظرة تشي بالخبث، إلا أن صوتها أصبح أكثر جديّة: «كلّ ما أعرفه عن ماضيي هو أن شيئاً لم يكن على ما يرام، ولا أستطيع أن أحصل على هذه المعلومات. بالنسبة لي، فإن التاريخ يبدأ اليوم. لا توجد استمرارية في الزمن. إذ لا يمكنك أن تشعري بالارتباط مع أجدادك إذا لم يكن بوسعك أن تتعقبي آثار أبيك. ربما لن أتمكن من معرفة اسم أبي. وإذا ظللت أفكر بهذا الأمر سأفقد عقلي. لذلك أقول لنفسي، لماذا تريدين

أن تنبشي الأسرار؟ ألا ترين أن الماضي حلقة مفرغة؟ إنه أنشوطة. إنه يمتصّنا ويجعلنا نجري مثل جرذ فوق عجلة. ثم نبدأ نكرر أنفسنا، مرات ومرات».

فيما أخذتا تصعدان وتهبطان في الشوارع المتماوجة، بدا لآرمانوش أن كلّ حيّ يختلف عن الحيّ الآخر إلى درجة أنها بدأت تظن أن إستانبول متاهة حضرية، مدن عديدة في مدينة واحدة. وتساءلت إن كان جيمس بالدوين قد انتابه الشعور نفسه عندما كان هنا.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، منهكتين وجائعتين، دخلتا أحد المطاعم، الذي قالت آسيا إنه يجب أن تتناولا الطعام فيه، لأنه يقدّم أفضل دجاج دونر في المدينة. وطلبت كل منهما دجاج دونر وكأساً كبيراً من شراب اللبن ذي الرغوة.

«يجب أن أعترف»، دمدمت آرمانوش بعد فترة من الهدوء، «إن إستانبول تختلف قليلاً عما كنت أتوقعه. فهي حديثة أكثر، ومحافظة أقل مما كنت أخشى».

«حسناً، يجب أن تقولي هذا إلى خالتي شكرية في وقت ما. فهي ستشعر بالسرور. وستمنحني ميدالية لأني مثّلت بلدي بصورة جيدة».

ضحكتا معاً للمرة الأولى منذ أن التقيتما. «هناك مكان أريد أن آخذك إليه ذات يوم»، قالت آسيا: «إنه هذا المقهى الصغير التي نلتقي فيه بانتظام. إنه مقهى كونديرا».

«حقاً؟ إنه أحد الكتّاب الذين أحبهم كثيراً» قالت آرمانوش مبتهجة، «لماذا يسمى بهذا الاسم؟»».

«حسناً، إنه نقاش لا ينتهي. في الحقيقة، إننا نخرج كلّ يوم بنظرية جديدة».

في طريق عودتهما إلى القناق، أمسكت آرمانوش بيد آسيا وضغطت عليها وقالت: «إنك تذكّرينني بصديق لي».

ونظرت إلى آسيا لحظة، وكأنها عرفت شيئاً لكنها لا تستطيع أن تتحدث عنه. لكنها قالت: «لم أر في حياتي شخصاً حاد الفهم و. . . وشديد التعاطف وشديد الصرامة و. . . شديد المجابهة في الوقت نفسه. باستثناء شخص واحد! إنك تذكرينني بأكثر الأصدقاء المميزين: إنه البارون باغداساريان. إذ إن أحدكما يشبه الآخر بأشكال عديدة، يمكنكما أن تكونا خلّين».

«صحيح؟» سألت آسيا، وقد لفت الاسم انتباهها: «ما هو؟ قولي لي لماذا تضحكين».

«أنا آسفة، لم أتمالك نفسي من الضحك على تغيّر القدر»، قالت آرمانوش: «إن البارون باغداساريان، صادف أنه أكثر أصدقائي معاداة للأتراك!».

* * *

في تلك الليلة، عندما أوت جميع نساء عائلة قازانجيان إلى فراشهن، انسلت آرمانوش من سريرها مرتدية بيجامتها، وأضاءت مصباح طاولة المكتب الباهت، باذلة ما بوسعها كي لا تحدث أيّ ضوضاء، وفتحت كمبيوترها النقال. لم تكن تدرك أن الدخول إلى خط الإنترنت كان يثير الجلبة إلى هذه الدرجة. وضعت رقم الهاتف، ووجدت عقدة الشبكة، وطبعت كلمة سرها للاتصال بمقهى كونستانتينوبوليس.

أين كنت؟ كنّا قلقين كثيراً! كيف حالك؟

بدأت الأسئلة تأتي من الجميع.

أنا بخير، كتبت «السيدة روحي المنفية». لكنني لم أعثر على بيت جدتي. توجد مكانه حالياً بناية حديثة قبيحة. لقد ولّى. لم يعد يوجد أثر له. . . لم يتبق له أي أثر، لا سجلات، لا ذكريات عن العائلة الأرمنية التي عاشت في تلك البناية في بداية القرن.

نحن آسفون جداً يا عزيزتي، كتبت «السيدة طاووس / سيرامارك». متى ستعودين؟

سأبقى حتى نهاية الأسبوع، أجابت «السيدة روحي المنفية». إنها مغامرة حقيقية هنا. المدينة جميلة. إنها تشبه سان فرانسيسكو بطريقة ما، الشوارع المرتفعة، الضباب الدائم، ونسيم البحر، والوجوه البوهيمية في أقل الأماكن توقعاً. إنها متاهة حضرية. إنها أكثر من مدينة واحدة، إنها أشبه بمدن عديدة داخل مدينة. بالمناسبة، الطعام رائع. كلّ أرمني سيشعر أنه في الجنة هنا.

توقفت آرمانوش، مدركة بذعر ما كتبته.

أقصد، من ناحية الطعام، أضافت بسرعة.

هيه يا سيدة روحي المنفية، لقد كنت مراسلتنا الحربية والآن تبدين وكأنك تركية! نرجو ألا تكوني قد تترّكت. قال المعادي لخافورما.

أخذت آرمانوش نفساً عميقاً.

بالعكس. لم أشعر أني أرمنية في حياتي أكثر من الآن. كما ترى، لأني أختبر أرمنيتي كلها، كان عليّ أن آتي إلى تركيا وألتقي بالأتراك.

العائلة التي أعيش معها مثيرة للاهتمام، فيها شيء من الجنون لكن ربما كان لدى جميع العائلات ذلك. لكن ثمة شيئاً سريالياً هنا. اللاعقلانية جزء من العقلانية اليومية. أشعر وكأني في إحدى روايات غابرييل غارسيا ماركيز. إحدى الأخوات فنانة رسم وشم؛ والأخت الأخرى تقرأ الطالع؛ وأخرى معلّمة التاريخ القومي التركي؛ والرابعة زهرة منثور غريبة الأطوار، أو طاووس متفرغ، كما تقول آسيا.

ومن هي آسيا؟ سألت السيدة طاووس/سيرامارك على الفور.

إنها ابنة العائلة. شابة لديها أربع أمهات ولها شخصية مفعمة

بالغضب، والهجاء، والذكاء. يمكن أن تكون شخصية جيدة من شخصيات دوستويفسكي.

تساءلت آرمانوش أين هو البارون باغداساريان؟

مدام روحي المنفية، هل تحدّثت عن الإبادة الجماعية مع أي أحد؟ أرادت أن تعرف «التعايش البائس».

نعم، عدّة مرات، لكنه أمر في غاية الصعوبة. استمعت النساء في البيت إلى تاريخ عائلتي باهتمام وحزن صادقين، لكن كان ذلك كل شيء. إنّ الماضي بلد آخر بالنسبة للأتراك.

حتى لو توقفت النساء هناك، فأنا لا يمكنني أن أكون متفائلة برجالهن. . . تدخلت ابنة سافو.

في الواقع، لم تتح لي حتى الآن فرصة التحدث مع أيّ رجل تركي، ردت «السيدة الروح المنفية»، فقد أدركت ذلك للتو. لكن آسيا ستأخذني في أحد الأيام إلى هذا المقهى حيث يلتقون بانتظام. فهناك سأتعرّف على الأقل على بعض الرجال، كما أظن.

كوني حذرة عندما تشربين معهم. فالكحول يظهر أسوأ ما في الناس، كما تعرفين. كان ذلك أليكس القوطي.

لا أظن أن آسيا تشرب. فهم مسلمون! لكنها من المؤكد تدخّن مثل مدخنة.

فكتبت «السيدة طاووس/ سيرامارك، في أرمينيا يدخن الناس كثيراً أيضاً. فقد زرت يريڤان للمرة الثانية مؤخراً. إن السجائر تقتل الأمة.

تململت آرمانوش في كرسيها. أين كان؟ لماذا لم يكتب؟ هل هو غاضب منها؟ هل كان يفكّر بها؟ استمرت تعذب نفسها بالأسئلة، لو لم يكن للسطر التالي الذي ومض على الشاشة.

أخبرينا، يا «سيدة روحي المنفية»، بما أنك في تركيا، هل فكّرت بظاهرة الإنكشارية؟

كان هو! هو! هو! قرأت آرمانوش السطرين مرة أخرى، ثم كتبت: نعم. لكنها لم تعرف ماذا ستكتب بعد ذلك. وكما لو أنه أحسّ بترددها، تابع البارون باغداساريان.

إنه لطف منك أن تنسجمي مع تلك العائلة. وأنا أصدقك عندما تقولين إنهم أناس طيبون. لكن ألا تري؟ أنك صديقتهم فقط ما دمت تتنكرين لهويتك. هكذا كان الأمر مع الأتراك طوال التاريخ.

زمّت آرمانوش شفتيها، حزينة. في الجانب الآخر من الغرفة، أخذت آسيا تتقلّب في سريرها، في وسط ما بدا كابوساً، وتبرطم بشيء غير مفهوم. ومهما كانت تقول، فقد كرّرته مرات عديدة.

إن كلّ ما نطلبه نحن الأرمن هو الاعتراف بخسارتنا وألمنا، الذي يعتبر المطلب الأساسي كي تزدهر العلاقات الإنسانية الأصيلة. هذا ما نقوله للأتراك: انظري، إننا حزينون إننا حزينون منذ قرابة قرن، لأننا فقدنا أحباءنا، فقد طُردنا من بيوتنا، وأُبعدنا عن أرضنا؛ كنا نُعامل مثل الحيوانات وذُبحنا كالخراف. حتى أننا حُرمنا من موت لائق. حتى الألم الذي أُنزل بأجدادنا ليس مؤلماً مثل النكران المنهجي الذي أعقبه.

إذا كنت تقول هذا، فماذا سيكون ردّ الأتراك؟ لا شيء! لا توجد سوى طريقة واحدة لكي نصبح أصدقاء مع الأتراك: ألا نطّلع على ماضينا وأن ننساه.

بما أنهم لن يعترفوا بالماضي، فهم يتوقعون أن نشاركهم جهلهم بالماضي.

فجأة، كانت هناك نقرة خفيفة على الباب، ثم تلاها عدة نقرات.

تهاوت آرمانوش في كرسيها، وقفز قلبها إلى حنجرتها. وعلى الفور أطفأت شاشة الكمبيوتر. «نعم»، همست.

فُتح الباب بلطف وامتد رأس الخالة بانو. كانت تضع على رأسها منديلاً وردي اللون، لم يكن معقوداً بإحكام، وترتدي ثوب نوم أصفر. لقد استيقظت في تلك الساعة لتصلي، وقد لاحظت الضوء منبعثاً من غرفة البنات.

وبضيق جميع الكلمات الإنكليزية التي كانت تفتقر إليها والتي كانت محفورة في وجهها، أومأت الخالة بانو عدة مرات، وكأنها كانت تلعب أيضاً تمثيلية الحزورات. هزّت رأسها، قطّبت حاجبيها، ثم هزّت إصبعها وهي تبتسم ـ الذي فسرته آرمانوش بأنك: «تدرسين كثيراً. لا تتعبي نفسك كثيراً».

بعد ذلك، دفعت الخالة بانو الصحن الذي تحمله بيدها وأومأت بحركة تناول الطعام. من الواضح أن ذلك لم يكن بحاجة إلى أيّ تفسير. ابتسمت، ربتت على كتف آرمانوش، ووضعت الصحن بجانب الكمبيوتر النقال، وغادرت. أغلقت الباب وراءها بهدوء. كان في الصحن برتقالتان، مقشرتان ومقطّعتان.

فتحت الشاشة ثانية، قطعت آرمانوش شريحة من البرتقال، وراحت تفكّر بردّها على البارون باغداساريان.

١٠

لوز

بعد مضي خمسة أيام على إقامتها، اكتشفت آرمانوش الروتين الصباحي في قناق عائلة قازانجي. ففي كلّ يوم، يُعدّ طعام الفطور في الساعة السادسة صباحاً ويبقين جالسات إلى المائدة حتى الساعة التاسعة والنصف. وخلال هذه الفترة، لا يتوقف السماور عن الغليان، وكان يُعد إبريق جديد من الشاي في كلّ ساعة. ولم يكنّ يجلسن جميعهن إلى المائدة في وقت واحد، بل كن يأتين في فترات مختلفة، وذلك حسب أوقات عملهن أو مزاجهن أو برنامجهن. لذلك، وبخلاف العشاء الذي كان حدثاً متزامناً تماماً، كان طعام الفطور خلال أيام الأسبوع يشبه قطار الصباح الذي يتوقّف في محطات مختلفة، ويصعد إليه عند كلّ محطة مسافرون جدد، ويترجل منه مسافرون آخرون.

وكانت الخالة بانو هي التي ترتّب المائدة باستمرار، لأنها تكون أول من يستيقظ عادة، كي تهيء نفسها لصلاة الصبح. فقد كانت تنسل من سريرها، وهي تدمدم: «حقاً إنه هو»، فيما المؤذّن ينادي من المسجد القريب للمرّة الثانية: «الصلاة خير من النوم». ثم تتوجه إلى الحمّام لتهيء نفسها للصلاة، فتغسل وجهها، وتغسل ذراعيها حتى المرفقين والقدمين حتى الكاحلين. وفي بعض الأحيان، يكون الماء بارداً، لكنها لم تكن تأبه لذلك. إذ كانت تقول لنفسها إن الروح بحاجة لأن ترتعش كي تستيقظ.

ولم تكن تكترث كذلك إن كانت أسرتها لا تزال تغط في النوم. وكانت تصلي مرّتين كي يغفر الله لهن أيضاً.

لذلك، عندما بدأ المؤذّن يردّد هذا الصباح: «الله أكبر، الله أكبر»، فتحت الخالة بانو عينيها، وهي لا تزال في السرير، ومدّت يدها إلى رداء نومها وغطاء رأسها. لكنها أحست اليوم أن جسدها ثقيل، ثقيل جداً. ومع أن المؤذّن صاح: «أشهد أن لا إله إلا الله»، لم تتمكن من النهوض. وحتى عندما سمعت: «حي على الصلاة»، ثم: «حي على الفلاح»، لم تتمكن من جرّ نصف جسمها خارج السرير. شعرت وكأن الدم قد نضب من ذلك الجزء من جسدها، وأصبح كيساً بطيئاً ثقيلاً.

الصلاة خير من النوم. الصلاة خير من النوم.

«ما خطبكما، لماذا لا تتركاني أتحرّك؟».

سألت الخالة بانو بنبرة تشي بالاستياء.

نظر الجنيان، اللذان كان كل واحد منهما يجلس على إحدى كتفيها، في وجه الآخر. ثم قالت السيدة حلو الرابضة على كتفها اليمنى: «لا تسأليني، إسأليه هو. فهو الذي يحدث الأذى».

وكما يوحي اسمها، كانت السيدة حلو الجنية الطيبة ـ والتقية. كان وجهها مضيئاً رحيماً، وتتحلق حول رأسها هالة ذات ألوان أرجوانية، ووردية، وبنفسجية. وذات عنق نحيفة، أنيقة، وفي النقطة التي ينتهي فيها عنقها ويبدأ جذعها، توجد سحابة رقيقة من الدخان. وبما أنها لم تكن تملك جسداً، كانت تبدو مثل رأس فوق قاعدة تمثال. وبعكس النساء البشر، لم يكن يفترض أن تكون لدى الجنيات سمات متناسبة.

وكانت الخالة بانو تثق بالسيدة حلو ثقة كبيرة، لأنها لم تكن جنية مرتدة، بل كانت ملاكاً طيبة القلب، تقية، اعتنقت الإسلام بعد أن كانت ملحدة ـ وهو داء منتشر بين الكثير من الجان. وكانت السيدة حلو تؤم

المساجد والأضرحة كثيراً، وعلى اطلاع جيد بالقرآن الكريم. وعلى مدى السنين، توطدت العلاقة بينها وبين الخالة بانو. لكن لم يكن هذا هو الحال مع السيد مرّ، الذي خُلق من قالب مختلف تماماً وجاء من مناطق تهبّ فيها الرياح التي لا تتوقف عن العويل. وكان السيد مرّ عجوزاً، حتى وفق معايير سنوات الجن. لذلك، كان أقوى بكثير مما كان يعلنه غالباً، لأنه كما هو معروف، كلما تقدم الجان في السن، ازدادت قوتهم وقدرتهم.

والسبب الوحيد الذي جعل السيد مرّ يمكث في بيت قازانجي هو أن الخالة بانو ربطته منذ عدة سنوات، وذلك في صباح آخر يوم من أيام توبتها الأربعين. ومنذ ذلك الحين، وضعته تحت سيطرتها، ولم تنزع الطلسم الذي تحتجزه به. إن ربط جني ليس بالأمر السهل. إذ يتطلب ذلك أولاً وقبل كل شيء معرفة اسمه، ويجب دراسته جيداً ـ فهي لعبة قاتلة حقاً، لأن الجني إذا عرف اسمك قبل أن تكتشف اسمه، سيصبح السيد وسيستعبدك. وحتى إذا عرفت اسمه وأصبح تحت سيطرتك، فإنك لا تستطيع أن تضمن هيمنتك عليك، لأن ذلك سيكون وهماً وحماقة مطلقين. فعبر التاريخ الإنساني، لم يتمكن أحد من إلحاق هزيمة بجيوش الجان إلا النبي سليمان، ومع ذلك فقد كان يحتاج إلى مساعدة إضافية باستخدام حلقة حديدية سحرية. وبما أنه لا يمكن لأحد أن يجاري سليمان العظيم، فلا يمكن إلا لنرجسي أحمق أن يتباهى بأنه يحتجز جنياً، وقد تكون الخالة بانو أيّ شيء إلا هذا. ومع ذلك مضت أكثر من ستّ سنوات على خدمة السيد مرّ لها، وكانت تعتبر وئامهما بمثابة عقد مؤقت يجب أن يجدد بين الحين والآخر. ولم تكن تعامله بقسوة أو بشكل مهين، لأنها كانت تعرف أن الجان، بخلاف البشر، يتذكرون الأساليب السيئة التي عوملوا بها. فهم لا ينسون أيّ ظلم. ومثل كاتب مخلص يدوّن جميع الحوادث بأدق التفاصيل، يسجل الجان كلّ شيء، كي يستدعونها

ويستشهدون بها عند الحاجة، لذلك، كانت الخالة بانو تحترم حقوق أسيرها، ولم تستغل سيطرتها عليه مطلقاً.

ومع ذلك، كان بوسعها أن تستخدم سلطتها بطريقة مغايرة تماماً، فتطلب منه مكاسب مادية كالمال والجواهر أو الشهرة. لكنها لم تفعل ذلك. وكانت تعرف أن جميع هذه الأشياء لم تكن سوى أوهام، وكانت تعرف أن الجان يجيدون خلق الأوهام. كما أن كلّ ثروة مفاجئة يحصل عليها المرء، لا بد أن تكون ثروة سُلبت من شخص آخر، لأنه لا يوجد في الطبيعة خواء خالص، وإن البشر يرتبط مصير أحدهم بالآخر. لذلك لم تطلب الخالة بانو لنفسها أية مكاسب مادية طوال هذه السنوات. بل كانت المعرفة هي كلّ ما تطلبه من السيد مرّ.

معرفة الأحداث المنسية، أفراد مجهولين، منازعات على الملكية، نزاعات عائلية، أسرار غير مدفونة، ألغاز لم تحلّ ـ الأمور الأساسية التي كانت تحتاج إليها لمساعدة زبوناتها الكثيرات. فإذا فقدت إحدى العائلات وثيقة ثمينة منذ زمن بعيد، كانت تأتي إلى الخالة بانو لمعرفة مكانها. أو تأتيها امرأة تشك بأنها واقعة تحت تأثير سحر خبيث، لتستفسر عن مرتكب هذا العمل الشنيع. وجاءتها ذات مرة امرأة حامل مرضت فجأة، وأخذت حالتها تسوء يوماً بعد يوم على نحو مخيف. وبعد استشارة الجني، طلبت الخالة بانو من المرأة الحامل أن تتوجه إلى شجرة الليمون غير المثمرة في حديقتها، حيث ستجد لوح صابون من زيت الزيتون وقلامة أظافرها محشورة في محفظة مخملية سوداء ـ رقية ألقتها في ذلك المكان إحدى جاراتها الغيورات. ولم تخبرها الخالة بانو اسم الجارة كي لا تثار ضغينة أخرى. وبعد بضعة أيام، تناهى إليها أن المرأة الحامل شفيت بسرعة، وأصبحت تتمتع بصحة جيدة. كانت الخالة بانو تستخدم خدمات السيد مرّ بهذه الشكل حتى يومنا هذا. وفي مرة واحدة فقط طلبت منه أن يسدي لها معروفاً شخصياً، لها وحدها فقط، وسألته سؤالاً سرّياً للغاية: من هو والد آسيا؟

أعطاها السيد مرّ جواباً، جواباً رفضت أن تصدقه بغضب شديد، مع أنها كانت تعرف حق المعرفة أنه لا يمكن للجني العبد أن يكذب على سيدته. ومع ذلك رفضت أن تصدقه، حتى أن قلبها توقّف ذات يوم عن تحدّي ما أقره عقلها منذ زمن بعيد. ومنذ ذلك الحين، لم تعد الخالة بانو نفسها على الإطلاق. وتساءلت عدة مرات إن كان من الأفضل لها ألا تعرف، لأن المعرفة في هذه الحالة لن تجلب لها إلا المعاناة والحزن، إنها لعنة الحكيم. وبعد سنوات من تلك الحادثة، فكّرت الخالة بانو اليوم بأن تطلب معروفاً شخصياً آخر من السيد مرّ. ولهذا السبب أحست بالضعف والوهن هذا الصباح؛ إذ إن الأفكار المتضاربة التي كانت تتصارع في رأسها أضعفتها تجاه عبدها الذي كان يزداد ثقلاً على كتفها اليسرى مع كلّ معضلة تسأله إياها.

هل عليها أن تسأل السيد مرّ سؤالاً شخصياً آخر الآن، مع أنها كانت قد ندمت كثيراً عندما فعلت ذلك آخر مرّة؟ أو ربما حان الوقت لإنهاء هذه اللعبة ونزع السحر وإطلاق الجني إلى الأبد؟ إذ يمكنها أن تتابع عملها في قراءة الطالع بمساعدة السيدة حلو، لكن قوتها ستضعف بعض الشيء، وليكن ذلك. ألا يكفي كلّ هذا؟ فقد حذرها جانب منها من لعنة الحكيم، ومن أنها ستتألم كثيراً بسبب المعاناة الفظيعة التي تنجم عن معرفة أشياء كثيرة. أما ذاتها الأخرى، التي كانت فضولية وواعية، فقد كانت تتوق إلى معرفة المزيد. وكان السيد مرّ يدرك معضلتها، وكان يبدو أنه يجد متعة كبيرة في ذلك، فيزيد ضغطه على كتفها اليسرى مع كلّ حالة شكّ تنتابها، مضاعفاً من وزن تأملاتها.

«انزل من على كتفي»، أمرته الخالة بانو ورددت دعاء ينصح القرآن المؤمنين بترديده عندما يواجهون جنياً مراوغاً. أطاعها السيد مرّ على الفور، وقفز وتركها تستوي واقفة.

«هل ستطلقين سراحي؟» سألها السيد مرّ، بعد أن قرأ أفكارها، «أم ستستخدمين قواي لمعرفة معلومات معينة؟».

انسلت الكلمة همساً من شفتيّ الخالة بانو المنفرجتين قليلاً، لكنها بدلاً من أن تقول «نعم» أو «لا»، ندت عنها تنهيدة. فقد بدت ضئيلة جداً في وسط رحابة الأرض والسماء والنجوم والمشكلة التي طحنت روحها.

«يمكنك أن تسأليني السؤال الذي تكادين تموتين لمعرفته منذ أن روت لكنّ الفتاة الأمريكية هذه الأشياء الحزينة عن أسرتها. ألا تريدين أن تعرفي إن كان هذا صحيحاً أم لا؟ ألا تريدين أن تساعدينها في البحث عن الحقيقة؟ أم أنك ستحتفظين بقواك لزبوناتك فقط؟» قال لها السيد مرّ متحدياً، وبدا في عينيه الفاحمتين الجاحظتين، انتصار محموم. وبعد أن هدأ، أضاف فجأة: «يمكنني أن أحكي لك، فأنا في سن يجعلني أعرف. فقد كنت هناك».

«كفى!» قالت الخالة بانو، تكاد تصرخ. أحسّت بحركة في معدتها وحموضة صفراء تشتعل في حنجرتها عندما قالت: «لا أريد أن أعرف. إني لست فضولية. إني نادمة على اليوم الذي سألتك فيه عن والد آسيا. يا إلهي، كم كنت أتمنّى ألا أسألك. فما فائدة المعرفة إذا لم يكن بإمكانك أن تغيّر شيئاً؟ إنها سمّ تجعلك عاجزاً طوال حياتك. فلا تستطيع أن تلفظها خارجاً، ولا تستطيع أن تموت. إني لا أريد أن يحدث ذلك مرة أخرى. . . بالإضافة إلى ذلك، ماذا تعرف؟».

لم تفهم السبب الذي جعلها تنطق هذا السؤال الأخير. لأنها تعرف جيداً أنها إذا أرادت أن تعرف شيئاً عن ماضي آرمانوش، فإن السيد مرّ هو الوحيد الذي يمكن سؤاله، بما أنه «غولياباني»، أكثر أنواع الجان غدراً ولؤماً، ولكنه أكثرهم معرفة أيضاً عندما يتعلق الأمر بالنهايات الحزينة.

جنود تعساء وقعوا في كمين وذبحوا على بعد أميال من بيوتهم؛ أشخاص هائمون على وجوههم، ماتوا من شدة البرد في الجبال؛ ضحايا

الطاعون الذين تم نفيهم إلى أعماق الصحراء؛ مسافرون نُهبوا وذُبحوا على يد قطاع طرق؛ رحّالة ضاعوا في أماكن مجهولة؛ مجرمون مدانون نُقلوا ليلقوا حتفهم في جزيرة نائية. . . كان الغلياباني قد رأوهم جميعهم. لقد كانوا هناك عندما أبيدت جحافل جيوش عن بكرة أبيها في ساحات الوغى الدامية؛ قرى كتب عليها أن تتضور جوعاً؛ أو قوافل تحوّلت إلى رماد تحت وابل نيران العدو. وكانوا هناك عندما هزم المسلمون جيش الإمبراطور البيزنطي هرقل العظيم في معركة اليرموك؛ أو عندما قال طارق ابن زياد البربري بصوت كالرعد لجنوده: «البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، فأين المفر؟» وبهذا فتح إسبانيا؛ أو عندما ذبح تشارلز، الذي سمي مارتيل بعد ذلك، ٣٠٠,٠٠٠ مسلم في معركة تورز؛ أو عندما قتل الحشاشون، بعد شعورهم بالنشوة، الوزير المشهور نظام الملك وأشاعوا الرعب في نفوس الناس حتى جاء هولاكو المغولي وحطّم حصنهم وجميع الحصون الأخرى. لقد شاهد الغلياباني بأمّ أعينهم جميع هذه الكوارث. وكانوا يشتهرون بملاحقة الأشخاص التائهين في الصحراء الذين لم يكن لديهم طعام وماء. وعندما كانوا يلقون حتفهم دون أن يخلّفوا وراءهم شاهدة قبر، كأنوا يظهرون إلى جانب الجثّة. وإذا استدعى الأمر، كانوا يتخفون في شكل نباتات، أو صخور، أو حيوانات، وخاصة العقبان. كانوا يتجسّسون على الكوارث، يرون المشهد من الجانب، أو من الأعلى، مع أنهم كانوا أيضاً يطاردون القوافل أحياناً، يسرقون الطعام الذي كان المعدمون في أمس الحاجة إليه للبقاء على قيد الحياة، يبثون الرعب في نفوس الحجيج في طريقهم إلى الأرض المقدّسة، ويهاجمون القوافل، أو يهمسون لحن الموت في آذان الذين حُكم عليهم بالإعدام بالمقصلة، أوالذين أرغموا على السير حتى الموت. كانوا شهود تلك اللحظات في الوقت الذي لم يكن يوجد لدى البشر شهود، ولم تكن هناك سجلات مكتوبة.

كان الغلياباني شهوداً على البشاعة التي كان البشر يمارسونها على بعضهم البعض. لذلك قالت الخالة بانو في نفسها، لو كانت عائلة آرمانوش قد أُخرجت بالقوة حقاً في مسيرة الموت في عام ١٩١٥، كما ادعت، فلا بد أن السيد مرّ يعرف ذلك.

«ألن تسأليني شيئاً؟» قال السيد مرّ عندما جلس على حافة السرير، مستمتعاً بمشكلة الخالة بانو، «لقد كنت نسراً»، تابع كلامه بمرارة، وهي النبرة الوحيدة التي يعرف التحدث بها، «لقد رأيتها كلّها. رأيتهم وهم يسيرون ويسيرون ويسيرون، نساءً وأطفالاً. كنت أحلّق فوق رؤوسهم، أرسم دوائر في السماء الزرقاء، أنتظرهم حتى يجثوا على ركبهم».

«اخرس!» صاحت الخالة بانو، «اخرس! لا أريد أن أعرف. لا تنس من هو السيد هنا».

«نعم، يا سيدتي»، وانكمش السيد مرّ على نفسه، وقال: «إن رغباتك أوامر لي، وسيبقى الأمر كذلك ما دمت تحتفظين بالطلسم. لكن إذا أردت أن تعرفي ما حدث لعائلة تلك الفتاة في سنة ١٩١٥، أخبريني. فذاكرتي قد تصبح ملكاً لك يا سيدتي».

انتصبت الخالة بانو في جلستها على سريرها، وهي تعضّ شفتيها بشدّة كي تبدو متماسكة وصلبة، ولم تكن ترغب في أن تكشف عن ضعفها للسيد مرّ. وعندما حاولت أن تتحلى بالمرونة، بدأت تفوح في الهواء رائحة غبار وعفن، وكأن الغرفة أصبحت في حالة تعفّن شديد. فإما أن اللحظة الراهنة بدأت تتحلل بسرعة إلى رواسب الزمن، أو أن تفسخ الماضي بدأ يتسرّب إلى الحاضر. انتظرت بوابات الزمن الداخلية كي تُفتح. ولإبقائها موصدة، ولإبقاء كلّ شيء في مكانه، تناولت الخالة بانو القرآن الكريم، الذي كانت تحتفظ به داخل علبة من اللؤلؤ في درج في منضدة بجانب سريرها. فتحت صفحة لا على التعيين وقرأت: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦ : ٥٠).

«الله». تنهّدت، «إنك أقرب إليّ من حبل وريدي. ساعدني على الخروج من هذه المحنة. أن تمنحني نعمة الجهل، أو أن تمنحني القوّة لأتحمل المعرفة. أيّ شيء تختاره سيرضيني، لكن أرجوك لا تجعلني ضعيفة وعارفة في الوقت نفسه».

بهذا الدعاء انسلت الخالة بانو من السرير، وارتدت عباءة فضفاضة، وبخطوات خفيفة وسريعة توجهت إلى الحمّام على أطراف أصابعها استعداداً لصلاة الصبح. تطلعت في الساعة داخل البوفية، السابعة إلا ربعاً. هل أمضت وقتاً طويلاً في السرير وهي تتجادل مع السيد مرّ، أم كانت تتجادل مع ضميرها؟ وبسرعة غسلت وجهها ويديها وقدميها، وعادت إلى غرفتها وغطت رأسها بوشاح الصلاة الشاش، ومدت سجادتها الصغيرة، ووقفت تصلي.

إذا كانت الخالة بانو قد تأخرت في إعداد مائدة الفطور هذا الصباح، فإن آرمانوش كانت آخر من أدرك ذلك. فبعد أن ظلت على الإنترنت حتى وقت متأخر من الليل، فقد نامت مدة أطول، وكانت تودّ أن تنام فترة أطول. راحت تتقلب، تستدير يمنة ويسرة، تسحب البطانية إلى أعلى وأسفل صدرها، تفعل كلّ شيء كي تغط في النوم ثانية. فتحت عيناً ذابلة ورأت آسيا جالسة إلى منضدتها تقرأ كتاباً، وتستمع إلى الموسيقى والسماعات في أذنيها.

«إلى ماذا تستمعين؟» سألتها آرمانوش بصوت مرتفع. «ماذا؟» صاحت آسيا، «جوني كاش!».

«أوه، بالتأكيد! ماذا تقرئين؟».

«الإنسان اللا عقلاني: دراسة في الفلسفة الوجودية»، أجابت بنفس الصوت الثابت العالي.

«أليس هذا شيئاً لا عقلانياً نوعاً ما أيضاً؟ كيف تستمعين إلى الموسيقى وتركّزين على الفلسفة الوجودية في الوقت نفسه؟».

«إنهما يتلاءمان معاً تماماً»، قالت آسيا «جوني كاش والفلسفة الوجودية، كلاهما يسبران الروح البشرية لرؤية ما بداخلها، وهما غير سعيدين بما تجدانه، كلاهما يتركانها مفتوحة!».

قبل أن تفكّر آرمانوش بذلك، قرعت إحداهن الباب وطلبت الفتاتين بأن تسرعا كي لا يفوتهما القطار الأخير إلى الفطور.

* * *

كانت المائدة معدّة لهما فقط، لأن الأخريات كنّ قد أنهين فطورهن. وكانت الجدّة والجدّة ما- الهيفاء قد ذهبتا لزيارة إحدى القريبات، وذهبت الخالة شكرية إلى المدرسة، وذهبت الخالة زليخة إلى صالون الوشم، وكانت الخالة فريدة في الحمّام تصبغ شعرها بلون الزنجبيل. وبدت الخالة الوحيدة المتبقية في غرفة الجلوس متجهمة الآن على نحو غريب.

«ما المشكلة، هل أزعجك جنيّاك؟» سألتها آسيا.

بدلاً من أن تجيب، توجّهت الخالة بانو إلى المطبخ. وفي الساعتين التاليتين، أعادت تنظيم مرطبانات الحبوب المصفوفة على الرفوف، ومسحت الأرض، وخبزت كعكاً من الجوز والزبيب، وغسلت الفاكهة البلاستيكية على الطاولة، ومسحت بقعة الخردل التي يبست في زاوية الفرن. وعندما عادت أخيراً إلى غرفة الجلوس، وجدت الفتاتين ما زالتا جالستين إلى مائدة الفطور، تسخران من كلّ مشهد من مشاهد مسلسل «لعنة لبلاب الهيام»، أطول مسلسل تلفزيوني في تاريخ التلفزيون التركي. لكنها بدلاً من أن تستاء من رؤيتهما وهما تسخران من شيء تحبّه كثيراً، فوجئت الخالة بانو فقط - فوجئت بأنها أدركت أنها نسيت موعد المسلسل الأثير لديها، وفاتتها مشاهدته لأول مرة منذ سنوات عديدة. فقد كانت المرة الوحيدة التي لم تشاهد فيه المسلسل، خلال فترة التوبة والتكفير عن ذنوبها منذ سنوات. حتى آنذاك، فليغفر لها الله ذنبها، فكّرت بمسلسل

«لعنة لبلاب الهيام»، وتساءلت عما حدث في المسلسل خلال فترة توبتها. أما الآن فلم يكن ثمة سبب يجعلها تنساه، كيف أمكنها ذلك؟ هل كان عقلها مشغولاً؟ ألم تكن تعرف إنها كانت مضطربة ومشوشة جداً؟

لاحظت الخالة بانو الفتاتين ترمقانها من كرسييهما، فشعرت بالارتباك، ربما لأنها أدركت أيضاً أن المسلسل انتهى الآن، وربما كانتا تبحثان عن أشياء جديدة ليسخرن منها.

لكن يبدو أن ثمة شيئاً آخر كان يدور في عقل آسيا، فقالت: «تتساءل آرمانوش إن كان بإمكانك أن تقرئي لها ورق التارو؟».

«لماذا تريد أن تفعل ذلك؟ «سألت الخالة بانو بهدوء: «قولي لها إنها شابة جميلة وذكية ولها مستقبل رائع. إن الذين ليس لديهم مستقبل هم الذين يحتاجون لمعرفة مستقبلهم».

«إذن إقرئي لها بعضاً من البندق المحمّص»، قالت آسيا بإلحاح، وقد نسيت أن تترجم.

«لم أعد أفعل ذلك»، قالت الخالة بانو بطريقة تشي بالندم، «وتبين أنها ليست طريقة جيدة على الإطلاق».

«كما ترين فإن خالتي قارئة طالع تؤمن بالعلم. إنها تقيس هامش الخطأ بطريقة علمية في كلّ قراءة طالع»، قالت آسيا لآرمانوش بالإنكليزية لكنها تحوّلت إلى نبرة جدّية باللغة التركية: «إذن، إقرئي لنا فناجين القهوة».

«الآن هذا شيء آخر» قالت الخالة بانو موافقة، ولم تكن تستطيع أن ترفض قراءة فناجين القهوة، «فهذا يمكنني قراءته في أي وقت».

أعدت القهوة، قهوة آرمانوش بدون سكّر، وقهوة آسيا فيها كثير من السكّر، ولم تكن آسيا ترغب في قراءة فنجانها. فقد كانت تريد الكافايين، لا أن تعرف قدرها. عندما أنهت آرمانوش احتساء قهوتها، وضع الطبق

فوق الفنجان، وأُمسك بإحكام، وحُرّك بشكل دائري ثلاث دورات أفقية، ثم قُلب الفنجان رأساً على عقب فوق الطبق، كي تهبط رواسب القهوة ببطء لتتشكل منها أشكالاً. وعندما برد قعر الفنجان، قُلب الفنجان وبدأت الخالة بانو تقرأ الأشكال والأنماط المتشكلة في الفنجان، وحركت نظرتها باتجاه عقارب الساعة.

«يمكنني أن أرى امرأة قلقة جداً هنا».

«لا بد أنها أمّي»، تنهدت آرمانوش.

«إنها قلقة جداً. تفكّر بك طوال الوقت، إنها تحبك كثيراً، لكن روحها مرهقة. ثم هناك مدينة فيها جسور حمراء. هناك مياه، وبحر، وريح، و. . . سحب. وأرى هناك عائلة، رؤوس كثيرة ـ انظري إلى هذا، أناس كثيرون، الكثير من الحبّ والرعاية، والكثير من الطعام أيضاً. . .».

أومأت آرمانوش، محرجة بعض الشيء لكشفها بهذه الطريقة.

«ثم. . .» قالت الخالة بانو، متجاوزة الأخبار السيئة التي استقرت في قعر الفنجان ـ ستلقى أزهار قريباً فوق قبر، بعيداً بعيداً جداً. أدارت فنجان القهوة بين أصابعها المكتنزة. وخرجت كلماتها التالية بصوت أعلى مما كانت تنوي، فأجفلتهما، «أوه، هناك شابّ يهتمّ بك كثيراً. لكنه لماذا يقف وراء ستار؟. . . شيء يشبه حجاب».

أفلت قلب آرمانوش ضربة.

«هل يمكن أن تكون هذه شاشة كمبيوتر؟» سألت آسيا بخبث، فيما قفز السلطان الخامس إلى حضنها.

«إني لا أرى كمبيوترات في قعر الفنجان»، قالت الخالة بانو معترضة. فلم تشأ أن تدخل التكنولوجيا في عالمها الروحي.

توقّفت الخالة بانو بجدية، أدارت الفنجان قليلاً، ثم توقّفت ثانية. بدا وجهها قلقاً الآن: «أرى فتاة في عمرك. شعرها مجعّد، أسود، أسود تماماً. . . وذات صدر ممتلئ. . .».

«شكراً، يا خالتي، لقد وصلت الرسالة»، ضحكت آسيا، «لكن ليس من الضروري أن تضعي أقرباءك في كلّ فنجان تقرئينه، هذا يدعى محاباة الأقارب».

رمشت الخالة بانو بعينيها، دون أن تظهر على وجهها أية تعابير.

«يوجد حبل هنا، حبل قوي غليظ في طرفه أنشوطة، مثل أنشوطة صيد الحيوانات. أيتها الفتاتان سترتبط إحداكما بالأخرى برباط قوي... أرى رابطة روحية...».

وعندما لم تقل الخالة بانو المزيد، شعرتا بالإحباط. توقّفت عن القراءة، ووضعت الفنجان على الطبق، وملأته بالماء البارد كي تختلط الأشكال وتختفي قبل أن تتاح لأي شخص آخر، طيباً كان أم شريراً، الفرصة كي ينظر إلى الفنجان. كان هذا الشيء الجيد الوحيد المتعلق بقراءة فنجان القهوة: وبعكس القدر الذي كتبه الله لنا، يمكن دائماً إزالة ومحو الأشياء التي كتبتها خطوط القهوة.

* * *

في الطريق إلى مقهى كونديرا، استقلتا العبّارة كي تتمكن آرمانوش من مشاهدة المدينة برحابتها وعظمتها. ومثل العبّارة نفسها، كان يبدو على وجوه المسافرين سيماء التعب والكسل أيضاً، التي أخذت الريح المفاجئة تجرفها فيما أخذت السفينة الضخمة تمخر عباب البحر اللازوردي. وتضخمت دندنة وهمهمة الحشد في داخل العبارة طوال دقيقة كاملة، ثم تضاءلت لتصبح طنيناً رتيباً يرافق الأصوات الأخرى: قعقعة وصخب المحرك، طرطشة الأمواج، صراخ النوارس. ولاحظت آرمانوش مبتهجة أن النوارس الكسولة على الشاطئ ترافقهم. وكان الناس على متن العبّارة جميعهم يطعمونها بفتات الكعك المستدير المغطى بالسمسم التي وجدتها هذه الطيور الآكلة اللحم متعة لا تقاوم.

جلست امرأة بدينة ترتدي ثياباً كلاسيكية وابنها المراهق على المقعد أمامهما، جنباً إلى جنب. لكنهما كانا عالمين مختلفين. ومن وجهها استطاعت آرمانوش أن تعرف أن المرأة لم تكن من محبي النقل العام، وأنها تنظر باحتقار إلى الركاب، ولو كان بوسعها لألقت إلى البحر جميع المسافرين الذين لا يرتدون ثياباً أنيقة. أما الابن الذي بدا، مختبأ وراء نظارة ذات إطار سميك، شبه محرج من طريقة أمّه المتعالية. كانا أشبه بشخصيتين من شخصيات فلانيري أوكونور، قالت آرمانوش في نفسها:

«خبريني المزيد عن هذا البارون»، قالت آسيا فجأة، «كيف شكله؟ كم عمره؟».

احمرّ وجه آرمانوش. ومن داخل نور شمس الشتاء المتوهجة المتسربة من خلال الغيوم الكثيفة، بدا وجهها وجه شابّة مفتونة «لا أعرف. لم ألتق به شخصياً. إننا أصدقاء على الإنترنت، إني أعجب بأفكاره وعواطفه، كما أظن».

«ألا تريدين أن تقابليه ذات يوم؟».

«نعم ولا»، اعترفت آرمانوش بعد أن اشترت كعكة «صميت» من المقصف الصغير، المزدحم في الداخل. قطعت قطعة بيدها وانحنت فوق الدرابزين المحيط بسطح السفينة، وراحت تنتظر نورساً كي يقترب منها.

«لا داعي لانتظار النورس حتى يظهر»، قالت آسيا مبتسمة: «فقط إلقي إليه القطعة في الهواء وسيلتقطها على الفور».

فعلت آرمانوش كما طلبت منها آسيا. فظهر نورس من السماء الواسعة والتقط القطعة في الهواء.

«إني أتشوق لمعرفة المزيد عنه، ومع ذلك فإني أشعر الآن في أعماقي بأنني لا أريد أن ألتقي به على الإطلاق. فما إن تواعدي أحداً حتى يموت السحر. ولا أستطيع تحمل أن يحدث هذا معه. إنه مهم للغاية بالنسبة لي. إن التواعد للقاء والجنس قصة أخرى، معقّدة للغاية...».

لقد بدأتا تدخلان الآن إلى المنطقة المظلمة التي تحرسها المحرمات الثلاثة. إنها إشارة جيدة حقاً، لأن هذا يدل على أن إحداهما بدأت تنجذب إلى الأخرى.

«السحر!» قالت آسيا، «ومن يحتاج إلى السحر؟ حكايات ليلى والمجنون، ويوسف وزليخة، العث والشمعة، أو العندليب والوردة. . . أساليب الحبّ من مسافات بعيدة، التزاوج حتى بدون لمس ـ الحبّ العذري! سلّم الحبّ الذي يتوقّع أن يصعد عليه المرء إلى الأعلى والأعلى، ويسمو بالنفس وبالآخر. ومن الواضح أن أفلاطون يعتبر أن أيّ اتصال جسدي حقيقي هو أمر فاسد ومنحط لأنه يعتبر أن هدف إله الحبّ، إيروس، الحقيقي هو الجمال. ألا يوجد جمال في الجنس؟ لا يوجد برأي أفلاطون. إنه يسعى إلى أشياء أسمى وأكثر رفعة. لكنك إن سألتني، فإني أظن أن مشكلة أفلاطون، مثل مشكلة آخرين كثيرين، أنه لم يضاجع مضاجعة حقيقية».

نظرت آرمانوش إلى صديقتها، مندهشة وقالت: «ظننت أنك تحبين الفلسفة. . .»، تلعثمت لأنها قالت ذلك.

«إني أحبّ الفلسفة»، اعترفت آسيا: «لكن هذا لا يعني بالضرورة أني أتّفق مع جميع الفلاسفة».

«إذن هل أفترض أنك لست من أنصار الحبّ العذري؟».

كانت آسيا تفضل أن تحتفظ لنفسها بهذه المعلومة، لا لأنها لا تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال، بل لأنها كانت تخشى من عواقب جوابها. وبما أن آرمانوش كانت مهذبة، فلم تشأ آسيا أن تخيفها. فكيف يمكنها أن تخبر آرمانوش بأنها، مع أنها لم تبلغ التاسعة عشرة من عمرها، تعرف أيدي رجال عديدين ولا تشعر بذرّة من الذنب؟ وكيف يمكنها أن تكشف الحقيقة، دون أن تعطي فتاة غريبة انطباعاً خاطئاً عنها وعن «عفة الفتيات التركيات؟».

كان هذا النوع من «المسؤولية القومية» غريباً تماماً على آسيا قازانجي. فلم تشعر مطلقاً من قبل أنها جزء من المجموعة، ولا توجد لديها النية في أن تكون كذلك سواء الآن أم في المستقبل. ومع ذلك كانت تحقق تجسيداً جيداً لشخص آخر، شخص أصبح وطنياً بين ليلة وضحاها. كيف يمكنها الآن أن تخرج من هويتها الوطنية، وأن تكون هي نفسها النقية، الآثمة؟ هل يمكنها أن تخبر آرمانوش بأنها تعتقد في أعماق قلبها بأنك عندما تمارسين الجنس مع رجل واحد فقط، هل يمكنك حقاً أن تتأكدي من أنه الشخص المناسب لك حقاً؛ وأن عقد الناس الفطرية غير المرئية لا تظهر إلا على السرير؛ وأنه لا يهم ما يظنه الناس دائماً، فإن الجنس هو في حقيقة الأمر شيء حسيّ أكثر من كونه شيئاً جسدياً. كيف يمكنها أن تبوح لها أنه كانت لديها علاقات عديدة في الماضي، كثيرة جداً، وكأنها تريد أن تنتقم من الرجال، لكن تنتقم منهم لأي سبب، كانت لا تزال لا تعرف. فقد كان لديها أصدقاء عديدون، أحياناً في وقت واحد، وأقامت علاقات متعدّدة انتهت دائماً بحسرة وبقلوب كسيرة، تجمّع كومة من الأسرار التي أبقتها بعيدة بحرص شديد وبمهارة عن حدود بيت قازانجي. هل يمكن أن تبح لها بهذه الأسرار؟ هل ستفهمها آرمانوش دون أن تطلق عليها أحكاماً. هل يمكنها حقاً أن تنظر بصدق إلى روح آسيا من طبقات برجها المعقّم ذاك؟

هل يمكن لآسيا أن تعترف لها بأنها حاولت أن تنتحر ذات مرة، وأنها كانت تجربة مريرة استمدت منها درسين أساسين: أن ابتلاع حبوب خالتك المجنونة ليست الوسيلة الصحيحة للقيام بهذا أو ذاك، وأنك إذا أردت أن تقتلي نفسك، فمن الأفضل أن يكون لديك سبب عقلاني في حال بقيت على قيد الحياة، بما أن «لماذا؟» سيكون السؤال الذي ستسمعه من كلّ جانب. هل يمكنها أيضاً أن تعترف بأنها لم تتمكن حتى الآن من فهم الإجابة عن هذا السؤال، سوى أنها تتذكر أنها كانت صغيرة جداً، حمقاء

جداً، غاضبة جداً، متوترة جداً من الكون الذي تعيش فيه؟ هل سيكون لأي من هذه الأشياء أي معنى بالنسبة لآرمانوش؟

هل يمكنها إذن أن تفضي لها بأنها حققت مؤخراً شيئاً من التقدم نحو الاستقرار والطمأنينة، لأنه أصبح لديها علاقة أحادية الآن، إلا أنها علاقة مع رجل متزوج يزيد عمره على عمرها مرتين، والذي تقابله بين الحين والآخر لتشاركه ممارسة الجنس، ولفافة حشيش، وملاذاً من الوحدة؟ كيف يمكنها أن تخبر آرمانوش بأن الحقيقة إذا عُرفت، فإنها ستحدث كارثة؟

لذلك، بدلا من أن تجيب، أخرجت آسيا من حقيبتها جهاز تسجيل «ووكمان» واستأذنتها أن تستمع إلى أغنية، أغنية واحدة فقط. جرعة من كاش شعرت بالحاجة إليها الآن. وأعطت إحدى السماعات لآرمانوش. قبلت آرمانوش السماعة بحذر وسألت: «ما الأغنية التي سنستمع إليها؟».

«كلب عجوز قذر يمتص البيضة».

«هل هذا اسم الأغنية؟ لم أسمع بمثل هذه الأغنية».

«نعم»، قالت آسيا بجدية: «لقد بدأت. هيا اسمعي. . .».

وبدأت الأغنية، في البداية مقدمة فاترة، ثم أنغام ريفية تصاحبها صرخات النورس وغناء بالتركية في الخلفية.

عندما بدأت آرمانوش تستمع، صُعقت أيضاً من هذا التنافر بين كلمات الأغنية والمكان المحيط للاستمتاع بالأغنية. وخطر لها أن أغنيتها هذه تشبه آسيا تماماً ـ مليئة بالتناقضات، والمزاج الغاضب، لا تنسجم تماماً مع البيئة المحيطة بها؛ حساسة، انفعالية ومستعدة للانفجار في أي لحظة. عندما مالت إلى الوراء، تضاءلت الدندنة في الخلفية وأصبحت طنيناً مضجراً، وتطايرت قطع الكعكة في الهواء، وهبت لمسة من السحر مع النسيم، وانزلقت العبّارة بسهولة ويسر، وسبحت أشباح السمك الذي عاش معهما ذات يوم في مياه بحر لازوردي كثيفة، لزجة.

عندما انتهت الأغنية كانتا قد وصلتا إلى الشاطئ. قفز بعض المسافرين قبل أن تصل العبّارة إلى رصيف الميناء تماماً. وراحت آرمانوش تراقب هذا الأداء البهلواني باندهاش، معجبة بالمواهب العديدة التي يتمتع بها أهالي إستانبول لمجاراة وتيرة المدينة السريعة.

وبعد خمسة عشر دقيقة، فُتح باب مقهى كونديرا الخشبي المتقلقل، مصدراً صريراً حاداً، ودخلت آسيا قازانجي، مرتدية لباساً هيبياً بنفسجي اللون، برفقة ضيفتها التي كانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة عادية. ووجدت آسيا المجموعة المعتادة جالسة في مكانها المعتاد وبمواقفها المعتادة.

«مرحباً بكم جميعاً!» قالت آسيا مزقزقة: «هذه آمي، صديقة من أمريكا».

«مرحبا، آمي»، حيّوها في صوت واحد: «أهلا بك في إستانبول».

«هل هذه أول مرة تأتين إلى هنا؟» سأل أحدهم. ثم بدأ الآخرون يسألون: «هل أعجبتك المدينة؟ هل أعجبك الطعام؟ إلى متى ستبقين؟ هل تزمعين أن تعودي. . .؟».

مع أنهم رحّبوا بها بحرارة، عادوا بسرعة أيضاً إلى موقفهم المعتاد من الإعياء الذي لا ينتهي، وذلك لأنه لا يمكن لأي شيء أن يفسد الإيقاع البطيء الذي يسود مقهى كونديرا. فبوسع الذين يرغبون في السرعة والاختلاف أن يغادروا هذا المكان بكل بساطة، لأنه يوجد الكثير منهم في الشوارع. أما هنا، فيسود الكسل الإلزامي والتكرار الأبدي. إن هذا المكان يرتبط بالأفكار الثابتة، والأشياء المتكررة، والوساوس، لأشخاص لا يريدون أن تكون لهم علاقة بالصورة الأكبر، إن كان هناك حقاً شيء من هذا القبيل.

خلال فترات التوقف القصيرة بين الأسئلة، تفحصت آرمانوش المكان

والناس بإمعان، وراحت تحدس من أين أتى اسم المقهى؟ التوتّر الدائم بين الواقع السوقي والمبتذل والخيال الذي لا يوثق به، رأي الناس في الخارج بالناس في الداخل، نوعية المكان الذي يشبه الحلم، وأخيراً، التعبير المتجهّم البادي على وجوه الرجال، وكأنهم يجترّون بيأس ما كانوا يرغبون في اختياره ـ إمّا أن يحملوا عبء علاقات الحبّ الفاشلة، أو أن يصبحوا أنصاف رجال حقيقيين بخفّة ـ كل شيء يستدعي مشهداً من رواية كونديرا. إلا أنهم لم يكونوا، ولم يستطيعوا أن يعرفوا ذلك، لأنهم كانوا مغلفين فيها أيضاً، كانوا جزءاً منها إلى حد كبير، كالسمك الذي ربما لا يفقه ضخامة المحيط الذي يسبح فيه من خلال عدسة المياه المغبشة المحيطة به.

إن تشبيه المقهى بمشهد من مشاهد رواية كونديرا ضاعف من اهتمام آرمانوش. كما أنها لاحظت أشياء عديدة أخرى، منها أن جميع الجالسين إلى الطاولة يتحدثون اللغة الإنكليزية، رغم عدم خلوها من اللهجة والأخطاء النحوية. وكان يبدو أنه لا توجد لديهم مشكلة في الانتقال من اللغة التركية إلى اللغة الإنكليزية. ففي البداية، عزت آرمانوش هذه السهولة إلى ثقتهم بأنفسهم، لكنها في آخر الأمر، بدأت تفكر بأن العامل الذي يسهّل ذلك قد لا تكون ثقتهم بلغتهم الإنكليزية بقدر انعدام ثقتهم بأيّ لغة مهما كانت. فقد كانوا يتصرفون ويتناقشون وكأن ما يقولونه أو كيف يقولونه غير مهم، إذ يكون باستطاعة أحدهم أن يعبّر عما يجيش في أعماق نفسه تماماً، وفي النهاية، فما اللغة إلا مجرد جثة من الكلمات المجوّفة تفسخت منذ أمد بعيد تنبعث منها رائحة كريهة.

ولاحظت آرمانوش أيضاً أن الأغلبية الساحقة من صور الطرقات المعلقة على الجدران تصوّر بلداناً غربية أو أماكن غريبة؛ والقليل منها فقط يقع في منزلة وسط. عندما تكونت لديها هذه الفكرة، لم تعرف كيف

تفسرها تماماً. فربما كان انطلاق المخيلة هنا موجه نحو الغرب، أو يسعى للهروب إلى أرض غريبة بعيدة.

انسل بائع متجول نحيف خلسة إلى المقهى، كي لا يراه الندل، الذين سيطردونه إلى الخارج لو رأوه. كان الرجل يحمل صينية كبيرة من اللوز الأصفر غير المقشّر فوق مكعّبات من الثلج.

«لوز!»، صاح، وكأنه ينادي اسم شخص يبحث عنه يائساً.

«تعال إلى هنا!» صاح رسّام الكاريكاتير المدمن، وكأنه يردّ على اسمه. فقد كان اللوز يتلاءم تماماً مع ما يشربه الآن: البيرة. فقد تخلى الآن علناً عن اسم «المدمن المجهول»، لأنه لم ير سبباً يجعله يدعو نفسه مدمناً على الخمر بينما هو ليس كذلك في حقيقة الأمر. فلم يبد أن هذا الاسم ينطبق عليه. لذلك قرّر أن يصبح المسؤول عن نفسه. فلم يشرب اليوم مثلاً، إلا ثلاث زجاجات من البيرة. فبعد أن جرع زجاجة من البيرة، بقيت أمامه زجاجتان أخريان، وبعدها سيتوقّف. نعم، أكد للجميع، فباستطاعته أن يطبّق هذا النظام بدقة دون توجيهات تافهة من شخص محترف. وبهذا النوع من الحسم، اشترى أربع مغارف من اللوز وكوّمها وسط الطاولة ليتمكن الجميع من تناولها بسهولة.

أما أرمانوش فكانت منهمكة في المراقبة والتفكير. فأخذت تراقب النادل النحيف ذا النظرة الحائرة وهو يأخذ الطلبات، وفوجئت قليلاً برؤية عدد من الناس يشربون الكحول. وتذكّرت تعليقها المشوش في الليلة الماضية عن المسلمين والكحول. هل يجب أن تذكر لزملائها في مقهى كونستانتينوبوليس ولع الأتراك بالكحول؟ وما مقدار ما يجب أن تكشفه لهم عما يجري هنا؟

بعد عدة دقائق، عاد النادل يحمل كأساً كبيرة من البيرة تطفو على سطحها رغوة كثيفة وضعها أمام رسّام الكاريكاتير المدمن، ودورقاً من

النبيذ الأحمر للآخرين. وعندما صبّ السائل القرمزي الداكن في كؤوس النبيذ الرائعة، انتهزت آرمانوش الفرصة لتراقب الأشخاص المتحلقين حول الطاولة. فقد خمّنت أن المرأة الحادة الطباع النزقة الجالسة إلى جانبها والتي تبعد أميالاً عن الرجل البدين ذي الأنف المنتفخ الذي يشبه البصلة لا بد أن تكون زوجته. وراحت تتفحص الواحد تلو الآخر: زوجة رسّام الكاريكاتير المدمن، ورسّام الكاريكاتير المدمن نفسه، ثم الصحفي الشاذ، والشاعر غير الموهوب بامتياز، وكاتب السيناريو غير الوطني الذي يكتب أفلاماً مغرقة في الوطنية، و. . . لم تتمالك نفسها من عدم التحديق لفترة أطول في الشابة السمراء المثيرة التي تجلس أمامها، التي بدا لها أنها لم تكن واحدة من أفراد المجموعة، بل حتى أنها لم تكن ترتبط بها جيداً. ومن المؤكد أن المرأة كانت مولعة بالهاتف الخلوي. فقد ظلت تعبث بهاتفها الوردي اللماع، تفتح غطاءه لسبب غير ظاهر، وتضغط على هذا الزرّ أو ذاك، ثم ترسل رسالة اس ام اس أو تتلقى رسالة. كانت منهمكة في العبث بهذا الجهاز الصغير. وكانت بين الحين والآخر تقترب من الرجل الملتحي الجالس إلى جانبها، وتحشر أنفها في أذنه. من الواضح أنها صديقة كاتب السيناريو الجديدة.

«لقد رسمت وشماً البارحة».

كانت الكلمات خارجة عن السياق إلى درجة أن آرمانوش لم تدرك فوراً إن كانت موجهة إلى أي شخص، ناهيك عنها. ومع ذلك، إما بدافع الملل التام، أو محاولة منها لمصادقة شخص آخر في المجموعة، كانت صديقة كاتب السيناريو الجديدة توجّه حديثها إليها: «هل تريدين أن تريه؟».

كانت زهرة سحلبية بريّة، حمراء كالجحيم، تتلوى حول سرتها.

«إنها جميلة»، قالت آرمانوش.

ابتسمت الشابة ابتسامة عريضة، سعيدة، وقالت: «شكرا»، وهي تربّت على شفتيها بمنديل مع أنها لم تأكل شيئاً.

في هذه الأثناء، كانت آسيا تراقب الفتاة أيضاً، بنظرة استهجان شديدة. وكعادتها، فقد كانت تفعل أحد أمرين عندما تلتقي بأنثى جديدة: إمّا أن تنتظر لترى متى ستبدأ تكرهها، أو أنها تختصر الطريق وتكرهها على الفور. أما الآن فقد اختارت السبيل الثاني. مالت آسيا إلى الوراء، وأمسكت كأسها بين الإبهام والسبّابة، وأخذت تنظر إلى السائل الأحمر. وحتّى عندما بدأت تتكلم، لم ترفع عينيها عن الكأس.

«في الواقع، عندما نتذكّر منذ متى عُرفت ممارسة الوشم...»، قالت آسيا، ومع أنها لم تنه جملتها، حتى بدأت جملة جديدة: «في بداية التسعينيات من القرن الماضي، وجد المستكشفون جسداً محفوظاً بشكل جيد في جبال الألب الإيطالية. كان عمره يتجاوز خمسة آلاف سنة، ومرسوماً عليه سبعة وخمسون وشماً. أقدم وشم في العالم».

«حقاً؟» سألت آرمانوش، «إني أتساءل ما نوع الوشم الذي كانوا يرسمونه آنذاك؟».

«في أغلب الأحيان كانوا يرسمون حيوانات، الأشياء التي كانت طواطم بالنسبة لهم، ربما حمير وأيائل وبوم وأكباش جبلية ـ وأفاع، بالطبع، أنا متأكّدة أنه يوجد طلب شديد على الأفاعي في جميع الأزمان».

«واو، عمرها أكثر من خمسة آلاف سنة!» عقّبت صديقة كاتب السيناريو بحماس.

«لكنني لا أظن أنه كان يوجد وشم في أعلى سرته!» رد عليها كاتب السيناريو وهو يهدل كالحمامة. وضحكا معاً، وتبع ذلك قبلة وعناق.

كانت هناك بضع طاولات مبعثرة على الرصيف خارج المقهى. جلس رجل وامرأة عابسين إلى إحدى الطاولات، ثم جاء رجل وامرأة آخران،

بوجهين مرهقين، جذّبين متوترين من وجوه المدينة المألوفة. راحت آرمانوش تراقب تعابير وجوههم بفضول، تشبّههم بشخصيات من رواية فيتزجيرالد.

«إننا ننحو إلى ربط الوشم بالأصالة، بالإبداع، بل وحتى بالعصرية. في الواقع، إن الوشم المرسوم حول سرتك هو أحد أقدم العادات في تاريخ العالم. ودعوني أذكّركم أنه في نهاية القرن التاسع عشر، اكتشفت مجموعة من علماء الآثار جسماً محنّطاً. جسد أميرة مصرية. اسمها أمونت. واحزروا ماذا وجدوا عليها؟ كان على جسدها وشم. احزروا أين؟» التفتت الآن آسيا إلى كاتب السيناريو، ونظرت في عينيه مباشرة وقالت: «عند سرتها».

رمش كاتب السيناريو، مرتبكاً من وفرة المعلومات لديها. وبدا أن صديقته الجديدة قد أعجبت أيضاً بمعلوماتها وسألتها: «كيف عرفتِ كلّ هذا؟».

«إن أمّها تدير صالوناً للوشم»، قاطع رسّام الكاريكاتير المدمن دون أن يرفع عينيه عن آسيا. غاص في كرسيه، مقاوماً رغبة جامحة في أن يقبّل شفتيها الغاضبتين، مقاوماً الرغبة الشديدة في طلب قنينة بيرة أخرى دون جلبة، مقاوماً الرغبة في أن يكفّ عن تمثيل شخصية الرجل الذي لم يكنه.

لم يلحظ مزاجه أحد سوى شخص واحد. فقد اكتشفت آرمانوش الدفء في عينيه وهو ينظر إلى آسيا، وأحست أنه قد يكون مغرماً بها.

أما آسيا فقد بدت في هذه الأثناء وكأنها انتقلت إلى حالة عقلية مختلفة تماماً، تتهيأ لشنّ هجوم آخر على صديقة كاتب السيناريو الجديدة. مالت إلى الأمام وعلى وجهها نظرة حادة، وقالت: «ومع ذلك قد يكون الوشم خطيراً للغاية».

انتظرت آسيا بضع ثوان كي يستوعب الجميع كلمة خطيرة، ثم

أضافت، «إذ يجب تعقيم الأدوات التي تستخدم في هذه العملية جيداً، لكن الواقع أنك لا تستطيعين أن تضمني عدم حدوث تلوّث مائة في المائة، وهو بالطبع أمر خطير، وخاصة أن الطريقة الشائعة في الوشم تكمن في حقن الحبر داخل الجلد بواسطة الإبر. . .».

لفظت آسيا كلمة الإبر بطريقة مخيفة إلى حد أن رعشة سرت في جسد جميع الجالسين إلى الطاولة. وكان رسّام الكاريكاتير المدمن يراقبها وبريق شيطاني يشع من عينيه، متلذذاً تماماً بهذا العرض الذي يشاهده أمامه.

«تدخل الإبرة في الجلد وتخرج منه مرات كثيرة بإيقاع يقارب ثلاثة ألف مرة في الدقيقة»، تابعت آسيا كلامها. أخرجت سيجارة من علبة سجائرها، وراحت تدفعها إلى الوراء والأمام وكأنها تصور طريقة إدخال الإبرة وإخراجها، ثم أشعلتها أخيراً. حاولت صديقة كاتب السيناريو الجديدة أن تبتسم لهذه الإيماءة الجنسية الصريحة، لكن شيئاً في عينيّ آسيا أوقفها في منتصف الطريق.

«إن تسمّم الدم والتهاب الكبد ما هما إلا مرضان من بين أمراض قاتلة كثيرة يمكن أن تنتقل إلى المرء في صالون الوشم. إذ يتعين على الفنان أن يستخدم مجموعة معقّمة جديدة في كلّ مرة، ويغسل يديه بالماء والصابون الحار، والأهم من كلّ هذا، يجب أن يستعمل سوائل معقمة، وأن يرتدي قفازات مطّاطية. . . نظرياً بالطبع. أقصد، هيا، من يهمه كلّ هذا الهراء؟».

«لقد فعل كلّ هذا. كانت الإبر جديدة وكانت يداه نظيفتين»، قالت الفتاة بلغة تركية تشي بالذعر.

لكن آسيا لم تستسلم، بل تابعت باللغة الإنكليزية: «نعم، جيد. لكن لسوء الحظ هذا لا يكفي. وماذا عن الحبر؟ هل تعرفين أنه يجب أن تستخدم إبر جديدة في كلّ مرة، بل يجب تغيير الحبر أيضاً؟ يجب أن تستعملي حبراً جديداً في كلّ جلسة، ولكلّ زبون».

«الحبر. . .» اعترى الآن الصديقة الجديدة قلق شديد.

«نعم، الحبر!»، قالت آسيا بثقة ويقين: «هناك إصابات عديدة يمكن أن تظهر بعد عملية الوشم بسبب استخدام الحبر فقط. وأكثر هذه الأشياء شيوعاً المكورات العقدية التي للأسف» ـ عبست ـ «تسبب ضرراً شديداً للقلب».

مع أن صديقة كاتب السيناريو الجديدة حاولت ألا تفقد هدوءها، لكنها ما إن سمعت هذه المعلومات، حتى شحب لونها، وكأن الدم سُحب من وجهها. وفي تلك اللحظة رّن هاتفها الخلوي، لكنها لم تنظر إليه.

«هل استشرت طبيباً قبل أن تفعلي ذلك؟» سألتها آسيا بتعبير يشي بالقلق، كانت تأمل أن تبدو مقنعة.

«لا، لم أفعل ذلك»، قالت صديقة كاتب السيناريو الجديدة. وقد شحب وجهها الآن، وظهرت خطوط جديدة حول شفتيها وعينيها.

«أوه، حقاً؟ حسناً، لا تقلقي»، رمت آسيا يديها: «من شبه المؤكد أنه لن يصيبك مكروه».

عندما قالت ذلك، انحنت إلى الوراء. ابتسم رسّام الكاريكاتير المدمن وآرمانوش، لكن لم يبد أحد من الجالسين أي ردّة فعل.

بعد أن قرر رسّام الكاريكاتير المدمن المشاركة في اللعبة، التفت إلى آسيا لاهياً بمكر وسألها: «لكنها تستطيع أن تزيله إذا أرادت، أليس كذلك؟ من الممكن إزالته، أليس كذلك؟».

«من الممكن ذلك»، أجابت آسيا على الفور: «وفي جميع الأحوال، فالعملية كلها مؤلمة ورهيبة في أحسن الأحوال. ويمكنك أن تختاري واحدة من الطرق الثلاث: الجراحة، المعالجة بالليزر، أو قشر الجلد».

عندما قالت ذلك، تناولت آسيا حبة لوز من الكومة أمامها وقشّرتها. ولم يتمالك جميع الجالسين حول الطاولة، بمن فيهم آرمانوش، من عدم

التحديق في حبة اللوز مذعورين. سعيدة بردّ فعل المستمعين إليها، ألقت آسيا حبة اللوز المقشّرة في فمها وراحت تمضغها بتلذذ. اتسعت عينا صديقة كاتب السيناريو الجديدة وهي تراقب آسيا تمضغ حبة اللوز.

«أنا شخصياً لا أنصح بإجراء العملية الثالثة. وهذا لا يعني أن العمليتين الأخريين أفضل. فيجب أن تبحثي عن اختصاصي جيد بالأمراض الجلدية ـ يكون جيداً جداً أو جرّاح تجميل. وهذا يكلّف كثيراً، لكن ماذا يمكنك أن تفعلي؟ تدفعين لقاء كلّ زيارة طناً من النقود، ويجب أن تدفعي ثمن زيارات كثيرة. وحتى عندما يُزال الوشم، ستبقى هناك ندبة ظاهرة، هذا بالإضافة إلى أن لون الجلد سيتغير. وإن أردت إزالة ذلك، فإنك بحاجة إلى جراحة تجميلية أخرى. وحتى في تلك الحالة لا يوجد ضمان بالمائة مئة».

أمسكت آرمانوش نفسها عن الضحك.

«حسناً، لماذا لا نشرب؟» قالت زوجة رسّام الكاريكاتير المدمن بابتسامة متعبة: «وهل هناك سبب أفضل للشرب أكثر من السيد تيبتوي؟ ماذا كان اسمه؟... سيش؟».

«سيشيتي»، قالت آسيا مصححة، وهي تلعن اليوم الذي حدثتهم فيه عن تاريخ الباليه، عندما كانت ثملة.

«نعم، نعم، سيشيتي»، قال الشاعر غير الموهوب ضاحكاً وراح يشرح لآرمانوش: «فلولاه لما تعين على راقصي الباليه أن يُتعبوا أنفسهم ويسيروا على أطراف أصابع أقدامهم، كما تعرفين.

«ماذا كان يفكّر آنذاك؟» أضاف أحدهم، ثم ضحك الجميع.

«هيا حدثينا يا آمي، من أين أنت؟» سأل الشاعر غير الموهوب آرمانوش في وسط همهمة المقهى المعتادة.

«في الحقيقة، آمي اختصار لآرمانوش»، قاطعت آسيا، وهي لا تزال في مزاج استفزازي: «إنها أمريكية أرمنية!».

لم تفاجئ كلمة أرمنية أحداً في مقهى كونديرا، لكن أمريكية أرمنية كانت قصّة أخرى. فلم تكن هناك مشكلة فيما يتعلق بأرمنية أرمنية ـ ثقافة متشابهة، مشاكل متماثلة ـ أما أمريكية أرمنية فهي تعني شخصاً يحتقر الأتراك. استدارت جميع الرؤوس نحو آرمانوش الآن، وكشفت نظراتهم عن اهتمام يشوبه الذعر، وكأنها كانت صندوقاً مبهرجاً لا يعرف أحد ماذا في داخله. فمن الممكن أن تكون في داخله هدية رائعة كما يبدو من الخارج، أو ربما توجد فيه قنبلة. عدّلت آرمانوش كتفيها وكأنها تعدّ نفسها لتلقي لكمة، لكنهم بما أنهم كانوا زبائن منتظمين في مقهى كونديرا منذ سنوات عديدة، فقد تشرّبوا خاصية هذا المكان التي تتسم بالخمول والبطء، وكانوا بحاجة لفترة من الوقت كي يستثار حماسهم.

لكن آسيا لم تدع حماسهم يفتر، فقالت: «هل تعرفون أن عائلة أرمانوش أصلاً عائلة إستانبولية؟» قالت بين فاصل مضغ حبتيّ لوز.

«لقد تعرضوا لجميع أنواع المعاناة في عام ١٩١٥. ومات الكثيرون منهم أثناء الترحيل ـ ماتوا من الجوع، والإعياء، والوحشية...».

ساد صمت مطبق. لم يعلّق أحد شيئاً. لكن آسيا دفعت الأمر أكثر تحت نظرة رسّام الكاريكاتير المدمن القلقة: «لكن والد جدّها قُتل قبل كلّ ذلك، لأنه» ـ والتفتت آسيا لتواجه آرمانوش، مع أن كلامها التالي كان موجهاً إليها أكثر مما كان موجهاً إلى المجموعة ـ «كان مثقّفاً»، ورشفت كأس النبيذ ببطء: «فقد كانت طبقة المثقفين الأرمن أول من تعرض للقتل كي لا تبقى للجالية أدمغتها القيادية».

لم يسد الصمت طويلاً.

«هذا لم يحدث»، هزّ كاتب السيناريو رأسه بقوة: «لم نسمع في حياتنا عن حدوث شيء كهذا»، وأخذ نفساً طويلاً من غليونه. ومن خلال الدخان المتشكل في دوائر راح ينظر في عيني آرمانوش، وخفت صوته

الآن ليتحول إلى همسة حنونة: «انظري، أنا آسف كثيراً لما حدث لعائلتك، أقدّم لك تعازيّ. لكنك يجب أن تفهمي أن ذلك كان في فترة حرب، وكان الناس يموتون على كلا الطرفين. هل لديك فكرة عن عدد الأتراك الذين قتلوا على يد المتمردين الأرمن؟ هل خطر لك أن تفكري بالجانب الآخر من القصّة؟ أراهن أنك لم تفعلي ذلك! وماذا عن معاناة الأسر التركية؟ كان الأمر كله مأساوياً، لكنك يجب أن تفهمي أن عام ١٩١٥ ليس عام ٢٠٠٥. فقد كان الزمن مختلفاً آنذاك. بل حتى لم تكن توجد دولة تركية رسمية آنذاك، بل كانت هناك الإمبراطورية العثمانية، بحق الله. ما قبل الحقبة الحديثة ومآسي ما قبل العصر الحديث».

زمّت آرمانوش شفتيها بحدّة إلى درجة أنهما أصبحتا شاحبتين. فقد كانت لديها حجج معاكسة كثيرة، ولم تكن تعرف من أين تبدأ. وتمنت أن يكون البارون باغداساريان هنا ليسمع كلّ هذا.

توقفت آرمانوش، وتدخلت آسيا على الفور: «أوه نعم؟ ظننت أنك لست من الوطنيين!».

«أنا لست كذلك»، قال كاتب السيناريو، رافعاً صوته قليلاً. وكي يحافظ على هدوء مزاجه، بدأ يمسد لحيته، وأضاف: «لكنني أحترم الوقائع التاريخية».

«لقد غسلت أدمغة الناس»، تدخلت صديقته الجديدة في محاولة منها لتأييد عشيقها ولتنتقم من حديث الوشم.

«إنكم تعرفون جيداً أنني لا أصدق تلك الترهات. وتعرفون أن هذه العروض هي لمجرد الترفيه والتسلية».

بذلت آرمانوش ما بوسعها كي تغيّر الأجواء. مع أنها كانت تعرف أن البارون باغداساريان لا يوافق على هذا تماماً، ورأت أن زيادة التوتّر لن يساعد في اعترافهم بالمجازر، فقالت: «تلك الصورة هناك»، وأشارت إلى

الحائط: «هل تعرفون أن صورة هذا الطريق في الإطار الذي يشبه الجزرة هو طريق في أريزونا. وقد سلكنا أنا وأمّي هذا الطريق مرات كثيرة عندما كنت طفلة».

«أريزونا»، همهم الشاعر غير الموهوب، وأطلق تنهيدة وكأن الاسم يدلّ على الأرض الطوباوية بالنسبة له، نوع من الشانغري ـ لا.

لكن آسيا لم تكن لتدع الأمر يمر هكذا. فقالت: «لكن هذا هو الأمر، بل إن ما تفعله أسوأ بكثير. فإذا كنت تؤمن بما كنت تفعله، إذا كان لديك إيمان ضبابي بتلك الأفلام، فأنا لا أزال أشك بموقفك، لكن على الأقل ليس بإخلا. . .صك. إنك تكتب تلك النصوص السينمائية للجماهير. تكتب وتبيع وتكسب مبالغ ضخمة من المال. ثم تأتي إلى هنا، وتختبئ في هذا المقهى الثقافي، وتنضم إلينا لتهزأ بنا بتلك الأفلام. إنه نفاق!».

شحب وجه كاتب السيناريو، وأصبحت قسماته حادة، وتجمدت عيناه: «من تظنين نفسك لكي تكلميني عن النفاق، يا آنسة لقيطة؟ لماذا لا تذهبين وتفتّشين عن أبيك بدلاً من أن تزعجينا هنا؟».

ومدّ يده إلى كأس نبيذه. لكن لم تكن هناك حاجة للقيام بذلك لأن كأساً أخرى امتدت إليه في تلك اللحظة: فقد قفز رسّام الكاريكاتير المدمن واستوى على قدميه، وأمسك كأس النبيذ، وألقاها على كاتب السيناريو، لكنه أخطأ الهدف. إذ أصاب الكأس إحدى الصور على الحائط، واندلق النبيذ في جميع الجهات، لكنها لم تنكسر على نحو مدهش. وعندما لم تصب الكأس هدفها، شمّر رسّام الكاريكاتير المدمن عن كميّه.

ومع أن حجم كاتب السيناريو يكاد يكون نصف حجم رسّام الكاريكاتير المدمن، وكان ثملاً مثله، فقد تمكن من تفادي اللكمة الأولى. ثم تراجع بسرعة إلى إحدى الزوايا، وعينه مثبتة على منفذ الخروج. لم

يرها قادمة نحوه. فقد اندفع الصحفي المثلي من فوق كرسيه إلى الزاوية، ودورق النبيذ في يده. وبلمح البصر كان كاتب السيناريو ملقى على الأرض، والدم يسيل من جبهته. وفيما راح يضغط بمنديل مليء بالدم على رأسه وكأنه جريح أصيب في معركة، راح يحدّق أولاً في الصحفي، ثم في رسّام الكاريكاتير، ثم أخذ ينظر إلى زاوية منحرفة.

ومع ذلك، يظل مقهى كونديرا مقهى مريحاً كئيباً للمثقفين، لم يصبه إيقاع الحياة بأي خلل، في السراء أو الضراء. فهذا مكان ليس لشجار السكارى. وحتى قبل أن يتوقف النزيف في جبهة كاتب السيناريو، عاد رواد المقهى إلى ما كانوا يفعلونه قبل هذا الفاصل المؤقت - فراح بعضهم يبتسم ابتسامة عريضة، وبعضهم يدردش على كأس نبيذ، أو فنجان قهوة، وانجرفت عيون الآخرين إلى الصور المؤطّرة على الجدران.

١١
مشمش مجفّف

كان الفجر على وشك أن يبزغ، ولم يكن يفصله عن تلك العتبة الغريبة بين الليل وضوء النهار سوى خطوة قصيرة واحدة. وهي الفترة الوحيدة التي لا يزال من الممكن أن يجد المرء فيها عزاء في الأحلام، مع أنه قد يكون قد فات الأوان لإعادتها مرة أخرى.

لو كانت هناك عين في السماء السابعة، عين سماوية تراقب كلّ شخص من الأسفل إلى الأعلى، لأبقت إستانبول تحت مراقبتها فترة من الزمن لتكوّن فكرة عما يفعله المرء وراء الأبواب الموصدة، وإن كان هناك أحد يتلفظ بكلمات بذيئة. أما بالنسبة للقابع في السماء، فلا بد أن هذه المدينة تبدو شيئاً متألقاً تتكون من نقاط تتلألأ في جميع الاتجاهات، مثل ألعاب نارية تنطلق وسط ظلام كثيف. أما الآن فقد كان النمط الحضري يتلألأ هنا بألوان متدرجة من البرتقالي، ولون الزنجبيل والفلزّ. إنها مجموعة ومضات، تضيء كلّ نقطة نور فيها شخصاً يصحو في هذه الساعة. ومن موقع العين السماوية، من ذلك الارتفاع الشاهق، لا بد أن جميع هذه المصابيح التي تضيء بانسجام تام، لا تتوقف عن الوميض، وكأنها ترسل رسالة مشفّرة غامضة إلى الله.

وباستثناء الومضات المتناثرة، لا يزال الظلام الدامس يخيم على مدينة إستانبول. وسواء على امتداد الشوارع الضيّقة الوسخة التي تتلوّى في

الأحياء القديمة، أو في العمارات السكنية الحديثة التي أصبحت تكتظ بها الأحياء الجديدة، أو في جميع الضواحي الفاخرة، كان الناس يغطون في سبات عميق. جميعهم ما عدا بعضهم.

وكالعادة، فإن عدداً من أهالي إستانبول يستيقظون في وقت مبكر أكثر من غيرهم. فالأئمّة مثلاً، صغيرهم وكبيرهم، ذوو الأصوات الرخيمة، وذوو الأصوات غير الرخيمة، أئمّة المساجد التي تزخر بها المدينة، يكونون أول المستيقظين، استعداداً لدعوة المؤمنين إلى صلاة الصبح؛ وهناك باعة الكعك الذين يكونون من أوائل المستيقظين أيضاً، الذين يتوجهون إلى المخابز لشراء الكعك بالسمسم الهشّ الذي سيبيعونه طوال النهار. ولذلك فإن الخبازين هم من أوائل المستيقظين أيضاً. ولا ينعم معظمهم إلا بساعات قليلة من النوم قبل أن يباشروا عملهم، بينما يوجد أناس آخرون لا يغمض لهم جفن أبداً في الليل. ففي كلّ يوم بدون استثناء، يشعل الخبازون أفرانهم عند منتصف الليل، لذلك تصبح المخابز في المدينة مثقلة بروائح الخبز اللذيذة قبل بزوغ الفجر.

وتستيقظ عاملات التنظيف باكراً أيضاً. إذ تنهض تلك النساء، من جميع الأعمار، في وقت مبكر من الصباح ليستقللن ما لا يقل عن حافلتين أو ثلاث حافلات مختلفة كي يصلن إلى مكان عملهن في بيوت الأثرياء، حيث سيقمن بفرك، وتنظيف، وصقل أرضيات البيوت طوال النهار. إنه عالم مختلف هنا. فالنساء الثريات يتبرجن دائماً ولا تبدو عليهن أعمارهن الحقيقية أبداً. وبخلاف أزواج عاملات التنظيف، يكون الأزواج في الضواحي مشغولين دائماً، وهم مؤدبون على نحو يثير الدهشة، ومخنثون بعض الشيء. ولا يعتبر الزمن سلعة نادرة في الضواحي، إذ يستخدمه الناس هناك بسخاء وبحرية كالماء.

بزغ الفجر الآن. كانت المدينة دبقة ولزجة، تكاد تكون كياناً هلامياً في هذه اللحظة، شكلاً غير منتظم، نصف سائل، ونصف صلب.

أما بالنسبة للعين السماوية في أعالي السماء، فإن مسكن عائلة قازانجي يبدو مثل فلك يومض من ماسات مغبشة في وسط ظلال الليل. إذ إن معظم غرفه مظلمة وهادئة الآن، ما عدا عدد قليل منها.

كانت آرمانوش واحدة من المقيمات في منزل عائلة قازانجي اللاتي استيقظن في هذه الساعة. فقد استيقظت مبكراً ودخلت إلى الإنترنت على الفور، متلهفة كي تخبر رواد مقهى كونستانتينوبوليس عن الحادثة المريعة التي وقعت البارحة. فقد حدثتهم عن الدوائر البوهيمية في إستانبول، ثم عن الشجار، ولخصت لهم كلّ صفة وتفصيل دونته في مخيلتها في مقهى كونديرا. وبدأت الآن تقدم لهم وصفاً كاملاً عن رسام الكاريكاتير المدمن، مضيفة كيف أنه وجد استخداماً جديداً للنبيذ على الطاولة.

يبدوأن رسّام الكاريكاتير رجل مسلّ، كتب المناهض للخافورما. إذن تقولين إنه ربما دخل السجن لأنه رسم رئيس الوزراء في هيئة ذئب؟ إن الدعابة عمل جدّي في تركيا!

نعم، يبدو أن الرجل لطيف، قالت السيدة طاووس / سيرامارك موافقة. حدثينا أكثر عنه.

لكن يبدو أنه كان لشخص آخر تفسير مختلف تماماً للحادثة.

هيا، لا يوجد شيء لطيف، أو مثير للاهتمام فيه، أو في أيّ شخصية أخرى في ذلك المقهى القذر. ألا ترون، جميعهم وجوه وأسماء من البوهيميين، الطلائعيين، الجانب الزائف والمدّعي من إستانبول. النخبة النموذجية من بلدان العالم الثالث الذين يكرهون أنفسهم أكثر من أي شيء آخر في العالم.

أجفلت آرمانوش عندما قرأت هذه الرسالة الحادّة من البارون باغداساريان وراحت تتطلع حواليها.

كانت آسيا نائمة في الجانب الآخر من الغرفة، والسلطان الخامس قابع

على صدرها، والسماعات على أذنيها، وكتاب مفتوح في يدها: «المجموع واللا نهاية: مقالة حول الجوانب الخارجية»، بقلم إيمانويل ليفيناس. وكانت هناك كذلك علبة أقراص سي دي بجانب سرير آسيا. جوني كاش يتشح بالسواد من رأسه وحتى أخمص قدميه، منتصباً إزاء سماء كئيبة رمادية وإلى جانبه كلب وإلى جانبه الآخر قطّة، يحدّق عابساً في شيء يتجاوز الإطار. وقد نامت آسيا وجهاز الووكمان يعيد ويكرر الشريط دون توقف. إنها ابنة أمّها في هذا الأمر أيضاً، تستطيع أن تقاوم جميع أنواع الأصوات، لكنها لا تستطيع أن تتحمّل الصمت.

من مكانها، لم تكن آرمانوش تتبين كلمات الأغاني، لكنها كانت تستطيع أن تسمع الإيقاع وهو يجري بسرعة. إنها تستمتع بسماع صوت كاش وهو يتدفق إلى الغرفة من السماعتين، كما تستمتع بالاستماع إلى مختلف الأصوات التي تتوزع في الداخل والخارج: آذان صلاة الصبح يتردّد صداه من المساجد البعيدة؛ صوت صلصلة بائع الحليب، وهو يترك قناني الحليب أمام مخزن البقالة في الشارع المقابل؛ وصوت تنفّس السلطان الخامس وآسيا المتناغم، صفير يشبه اندماجاً بين الشخير والقرقرة، مع أنه ليس من السهل أن تعرف من الذي يصدر الصوت؛ وصوت أطراف أصابع آرمانوش وهي تنتقل فوق لوحة المفاتيح تبحث عن أفضل ردّ تقدمه للبارون باغداساريان. كاد يبزغ الصباح، ومع أن آرمانوش لم تأخذ ما يكفيها من النوم، بدت مبتهجة، يعتريها إحساس بالنصر الذي يأتي بعد هزيمة النوم.

في الطابق السفلي توجد غرفة الجدّة كلثوم التي ربما كانت إيفان الرهيب في حياة أخرى، لكن حدّة شخصيتها وقسوتها لم تأتيا من دون سبب. شأن الكثيرين ممن يشعرون بالمرارة إزاء الحياة، فإن للجدّة قصّتها أيضاً. فقد نشأت في بلدة صغيرة على ساحل بحر إيجة حيث كانت الحياة شاعرية، لكنها معدمة. وتزوجت من عائلة قازانجي، وهي عائلة أكثر ثراءً

وأكثر تحضراً من عائلتها، لكنها كانت بالتأكيد عائلة منحوسة وسيئة الطالع. شعور عروس ريفية شابة بعدم الارتياح تجاه ابن عائلة بشوشة مهذبة، لكن نسبها منحوس. العبء الذي ألقي على كاهل صبيّة يتعين عليها أن تنجب أكبر عدد من الرجال، لأن لا أحد يعرف إلى متى سيعيشون، لكنها كانت تنجب الفتاة تلو الأخرى، وتتحمل بألم وهي ترى زوجها وهو يبتعد عنها مع ولادة كلّ فتاة.

كان ليفينت قازانجي رجلاً قلقاً، لم يكن يتورع عن استخدام حزامه لمعاقبة زوجته وأطفاله؛ صبي، فقط لو منحنا الله صبياً، لسار كلّ شيء على ما يرام. ثلاث بنات بالتسلسل، ثم الحلم، وأخيراً كان الطفل الرابع صبياً. وبأمل أن يطرأ تغيير على قدرهما، حاولا مرة أخرى، طفل خامس، لكنه كان فتاة مرة أخرى. ومع ذلك كان مصطفى يكفي، فقد كان كلّ ما يحتاجان إليه لاستمرار نسب العائلة. وأصبح مصطفى الصبي المدلّل، الذي يحظى بكلّ شيء، والمفضّل دائماً على البنات، الذي تلبي دائماً جميع نزواته... ثم توقّفت هذه النغمة، وحل الظلام واليأس محل الحلم: فقد غادر مصطفى إلى أمريكا كي لا يعود أبداً.

ولم يبادل أحد الجدّة كلثوم الحبّ، المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة رويداً رويداً كالأخريات، بل بلغتها بسرعة. فقد انتقلت فوراً من العذرية إلى التجاعيد، ولم تتح لها فرصة المكوث في الفترة التي تفصل بين هاتين المرحلتين. لذلك كرّست نفسها تماماً لابنها الوحيد الذي كانت تؤثره على بناتها، محاولة أن تجد فيه عزاء لكلّ شيء سلبته منها الحياة. لكنه ما إن وصل إلى أريزونا، حتى تحوّل وجود الصبي إلى مجرد بطاقات بريدية ورسائل. ولم يرجع إلى إستانبول لزيارة أفراد عائلته على الإطلاق. ودفنت الجدّة كلثوم في صدرها ألماً عميقاً، لأنها نُبذت ورُفضت. ومع مرور الزمن، ازداد قلبها قساوة، وأصبحت تحمل اليوم نظرة شخص حقق التقشّف في الحياة بإرادته ويريد البقاء هكذا.

وفي الزاوية اليمنى من الطابق الأول، تغط ما-الهيفاء في سبات عميق، خداها متوردان، فمها فاغر، وتشخر بسلام. وإلى جانب سريرها توجد خزانة بلون الكرز فيها نسخة من القرآن الكريم، ونسخة من كتاب الأولياء الصالحين، ومصباح جميل يبث لوناً أخضر لطيفاً. وإلى جانب الكتاب تقبع سبحة يمتزج فيها اللون الأحمر والأصفر وفيها حَجَرة عنبرية تتدلى من طرفها، وكأس نصفها ممتلئ فيها أسنانها الصناعية.

لقد فقد الزمن سيطرته عليها منذ أمد بعيد. فلم تعد توجد لديها إشارات تنظيمية، ولا أضواء تحذيرية، ولا علامات على طول طريق تاريخها السريع. فهي حرة في أن تتحرك في أيّ اتجاه، أو في أن تغيّر المجازات كما تشاء. وكان بإمكانها أن تقف في وسط الطريق تماماً، ترفض أن تتزحزح، ترفض أن تمضي إلى الأمام، بعد أن لم يعد ثمة شيء يدعى «تقدّم» في حياتها، بل أصبحت حياتها مجرد تكرار دائم للحظات معزولة.

وفي هذه الأيام، بدأت تعود إليها ذكريات محددة من أيام الطفولة، واضحة وحيوية وكأنها تحدث هنا والآن. ها هي فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين في الثامنة من عمرها في سالونيكي مع أمّها، تبكيان بصمت بعد موت أبيها في حروب البلقان؛ ثم ترى نفسها في إستانبول، في أواخر تشرين الأول، يوم إعلان الجمهورية التركية الحديثة. رايات. ترى رايات كثيرة، حمراء وبيضاء، وهلال ونجمة، تخفق وتصفق في الريح مثل ثياب غسلت حديثاً. ووراء الأعلام يقبع وجه رضا سليم، لحيته الكثة وعيناه الواسعتان الجديتان. ثم ترى نفسها شابّة تجلس أمام البيانو من نوع بنتلي، تعزف ألحاناً بهيجة أمام ضيوف متأنقين.

وفي الغرفة الصغيرة فوق غرفة ما ـ الهيفاء، تنام الخالة شكرية التي ترى الكابوس الذي ما فتئت تراه طوال السنوات الماضية. بأنها تلميذة في قاعة الدرس، ترتدي زياً مدرسياً قبيحاً رمادي اللون. يطلب منها المدير أن

تأتي إلى مقدمة الغرفة لاختبار شفوي. تتفصد عرقاً وهي تتلعثم وترتعش بقلق، قدماها ثقيلتان. ولم يكن لأي سؤال من الأسئلة التي تطرح عليها أي معنى. وتكتشف الخالة شكرية أنها لم تتخرج من المدرسة الثانوية. فقد تبين وجود خطأ في السجلات، وتعين عليها الآن أن تجتاز امتحان هذا الفصل كي تتخرّج وتصبح معلّمة. وكانت في كلّ مرّة، تستيقظ على المشهد نفسه تماماً. يسحب المدير صفحة الدرجات ويمسك قلماً ذا حبر وردي، ويكتب صفراً ضخما في المكان المكتوب عليه اسم شكرية.

هذا هو الكابوس الذي ما فتئت تراه طوال السنوات العشر الماضية، منذ أن فقدت زوجها، الذي سُجن بتهمة الرشوة ـ تهمة كانت الخالة شكرية ترفض تصديقها باستمرار. وقبل شهر واحد فقط من إطلاق سراحه، مات وهو يتفرج على مشاجرة، بعد أن سلبه حياته سلك كهربائي غبي مفعم بالحياة. وكان يتكرر هذا المشهد في أحلام الخالة شكرية وكان يتراءى لها المجرم (كان لا بد أن يكون هناك مجرم) الذي وضع السلك هناك وقتل زوجها. كانت تحلم بأنها تنتظر عند باب السجن، ثم يتغيّر باقي السيناريو في كلّ مرة. ففي بعض الأحيان، كانت توجد هناك لتبصق في وجه القاتل عندما يطلق سراحه من السجن، وتراه أحياناً أخرى من بعيد، وفي مرات أخرى، كانت تطلق عليه النار عندما يرى نور الشمس.

بعد أن فقدت زوجها، باعت الخالة شكرية بيتها وانضمت إلى الفتيات الأخريات اللاتي جئن ليعشن تحت سقف واحد. وفي الأشهر الأولى من مكوثها هناك، كان كلّ ما تفعله أن تذرف الدمع. وكانت تبدأ يومها بالتفرج على صور زوجها المرحوم، تكلّمها، تنشج فوق كلّ واحدة منها، حتى تنهي يومها منهكة من شدة الحزن. وتتورم عيناها، وتصبحان مثل حقيبتين منتفختين من الحزن، ويتقشّر أنفها من شدة البكاء ـ كان هذا هو حالها حتى عادت إلى البيت في صباح أحد الأيام من المقبرة، لتكتشف أن الصور القديمة قد اختفت جميعها.

«ماذا فعلتِ بصوره؟» صاحت الخالة شكرية، وهي تعرف جيداً إلى من توجّه الاتهام. «أعيديها إليّ!».

«لا»، أجابت الجدّة كلثوم، عابسة وجافة، «الصور موجودة. فلن أسمح لك أن تمضي أيامك وأنت تبكين عليها. فلكي يشفى القلب، يجب ألا تراها العين لفترة من الزمن».

لكنها لم تبرأ من ذلك. فقد اعتادت على تخيّل زوجها دون أن تنظر إلى صوره. وكانت بين الحين والآخر تجد نفسها تعيد تصميم وجهه، تضع له شارباً يكسوه الشيب، أو عدداً أكبر من خصلات الشعر هنا وهناك. وقد تزامن اختفاء الصور مع انتقال الخالة شكرية لتصبح مدرّسة التاريخ القومي التركي.

أما الخالة فريدة فكانت تنام في الغرفة أمام غرفتها. إنها امرأة ذكية وخلاّقة، امرأة تتكون من مجموعة من القطع المختلفة. لكنها لو استطاعت أن تجمع القطع معاً، لكان شيئاً رائعاً، فليس أمراً عادياً أن تكون مرهف الحساسية، بل من الرائع أن تكون مرهفاً للغاية، إلا أنه من المخيف أن تكون ذا حسياسية مرهفة. وبما أنه من المحتمل أن يحدث أيّ شيء في أي وقت، فهي لا تستطيع أن تثق بالأرض التي تسير عليها. إذ لا يوجد إحساس بالأمان أو بالاستمرارية. فكلّ شيء يأتي متفرقاً في قطع يجب جمعها معاً، ومع ذلك فهي تتحدى أيّ فكرة عن الاكتمال. وكانت الخالة فريدة تحلم بين الحين والآخر بأن لها حبيباً. كانت تريد حبّاً يستغرق كيانها، إلى حد أن يعتنق مخاوفها الكثيرة، أطوارها الغريبة، وانحرافاتها. حبيب يعشق كلّ شيء فيها. ولم تكن الخالة فريدة تريد حبّاً لجانبها الطيب ويتجنّب جانبها المظلم. بل كانت بحاجة إلى شخص يستطيع أن يقف إلى جانبها في السراء والضراء، في رشدها وجنونها. وربما لهذا السبب يجد المجانين صعوبة في الالتقاء بشخص، تقول لنفسها

ـ لا لأنهم مختلفون، بل لأنه يصعب العثور على شخص يريد أن يلتقي بعدة أشخاص مجتمعين في شخص واحد.

إلا أن هذه لم تكن سوى أحلام يقظة. لأن الخالة فريدة لم تكن في واقع الحال ترى أحبّة، بل كانت ترى قطعاً مجردة. وفي الليل، كانت تخلق مزيجاً بألوان مذهلة وبأشكال هندسية متعددة. الريح تهب بشدّة، وتيارات المحيط تنزلق بعنف، ويصبح العالم جرماً سماوياً مليئاً باحتمالات لا نهاية لها. فكلّ ما يمكن بناؤه يمكن هدمه أيضاً في الوقت نفسه. وقد طلب الأطباء من الخالة فريدة أن تأخذ الأمور بيسر وسهولة، وأن تتناول دواءها بانتظام. لكنهم لم يكونوا يعرفون كثيراً عن هذه الجدلية. اصنع وحطّم، اصنع وحطّم، اصنع وحطّم. إن عقل الخالة فريدة عقل فنانة تلصيقية ممتازة.

وإلى جانب غرفة الخالة فريدة، يوجد الحمّام وإلى جانبه غرفة الخالة زليخة. كانت مستيقظة. كانت جالسة باستقامة في سريرها، تنظر إلى غرفتها وكأنها غرفة شخص آخر، وكأنها تحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب كي تتقرب من الشخص الغريب صاحب الغرفة.

تنظر إلى ثيابها، عشرات التنانير، جميعها قصيرة، كلها صارخة ومبهرجة، أسلوبها في الاحتجاج على القوانين الأخلاقية التي نشأت فيها. وعلّقت على الجدران صوراً وملصقات عن الأوشام. ومع أن الخالة زليخة كانت في أواخر الثلاثينيات من عمرها، كانت غرفتها تشبه في أمور شتى غرفة فتاة مراهقة. لعلها لن تكبر أبداً ولن تفقد الغضب في داخلها، الغضب الذي نقلته دون قصد منها إلى ابنتها. وفي رأيها، فإن أي شخص لا يستطيع أن ينهض ويتمرد، أي شخص لا يتمتع بالقدرة على أن يعارض، لا يمكنه أن يقول إنه يعيش حقاً. ففي المقاومة يقبع سرّ الحياة. وينقسم الناس في رأيها إلى معسكرين: الخضراوات، الذين يرون أن كلّ شيء على ما يرام، وكؤوس الشاي، وهم الأشخاص الذين مع أنهم لا

يجدون أن أموراً كثيرة تسير على ما يرام، فإنهم يفتقدون القوّة على المواجهة. وهذا المعسكر الأخير هو الأسوأ بين المعسكرين. وقد وضعت الخالة زليخة قاعدة عنهم، عندما كانت تضع قواعد.

القاعدة الحديدية لحصافة المرأة الاستانبولية: إذا كنت هشّة مثل كأس الشاي، فإما أن تجدي طريقة كي لا تواجهي ماءً يغلي وتتمنين أن تتزوجي زوجاً مثالياً أو أن تنكسري بأسرع ما يمكن. لذلك، توقّفي عن كونك امرأة شبيهة بكأس الشاي!

أما هي فقد اختارت الخيار الثالث. إذ كانت الخالة زليخة تمقت الهشاشة. وحتى الآن، كانت المرأة الوحيدة بين نساء عائلة قازانجي التي تغضب عندما يتصدع كأس شاي تحت الضغط.

تمدّ الخالة زليخة يدها إلى علبة سجائر مارلبورو لايتس ملقاة على المنضدة الصغيرة إلى جانب السرير وتشعل سيجارة. إذ لم يغيّر تقدم العمر عاداتها في التدخين على الإطلاق. وكانت تعرف أن ابنتها تدخّن أيضاً. وكأن كلّ شيء يشبه مقطعاً تافهاً من كتيب صادر عن وزارة الصحة: ثمة احتمال بأن يصبح أطفال الآباء المدمنين على التدخين مدخنين بنسبة ثلاثة أضعاف. وتشعر الخالة زليخة بالقلق على صحة آسيا، مع أنها كانت تعرف أنها إذا تدخّلت في شؤونها كثيراً، وإذا أبدت إشارات بعدم الثقة وسوء الظن، فقد يولّد ذلك ردّة فعل عكسية. وفي الوقت نفسه يصعب عليك أن تتظاهري بأنك لا تبدين اهتماماً، بنفس صعوبة أن تناديك ابنتك «خالة». كان ذلك يقتلها. ومع ذلك، كانت لا تزال تعتقد أن هذا الأمر قد يكون أفضل لكلتيهما، وهو الشيء الذي حرر الابنة وأمها بطريقة ما؛ وعليهما أن تنفصلا اسمياً كي تتمكنا من الارتباط جسدياً وروحياً. والله هو الشاهد الوحيد عليها، لكن المشكلة الوحيدة هي أنها لم تكن تؤمن بوجوده.

تأخذ نفساً عميقاً، تحتفظ به في داخلها برهة، ثم تطلق الدخان بغضب. فإذا كان الله موجوداً ويعرف الكثير، فلماذا لم يفعل شيئاً بمعرفته هذه؟ لماذا يدع الأشياء تجري بالطريقة التي تجري بها؟ لا، فالخالة زليخة ثابتة العزم، ولا يمكن أن تستسلم للدين. فقد عاشت وهي تؤمن بأنها لن تستطيع أن تعرف شيئاً عن الله، وستموت كذلك. مخلصة ووفيه في كفرها. ولو كان الله موجوداً حقاً، لقدّر إنكارها الصادق، الذي يخص عدداً قليلاً من الناس، بدلاً من أن يُسمعها المتعصبون الدينيون المنتشرون في كل مكان، ذلك الكلام المعسول.

في الغرفة في الطرف الآخر من الطابق الثاني توجد غرفة الخالة بانو. وهي أيضاً مستيقظة في هذه الساعة. الشخص الثالث الذي يستيقظ في بيت عائلة قازانجي. كان ثمة شيء غير مألوف فيها هذا الصباح. فقد كان وجهها شاحباً، وعيناها الكبيرتان اللتان تشبهان عيون المها ترتعشان قلقاً. وأمامها توجد مرآة. تنظر إلى نفسها وترى امرأة شاخت قبل أوانها. وللمرة الأولى منذ سنوات، تشعر بالاشتياق إلى زوجها ـ الزوج الذي غادرته، لكنها لم تتخل عنه تماماً.

فهو رجل طيب يستحقّ زوجة أفضل. إذ لم يعاملها قط معاملة سيئة ولم يقل لها كلمة نابية، لكنها بعد أن فقدت ولديها، لم تعد الخالة بانو تتحمّل أن تعيش معه. وكانت تذهب بين الحين والآخر إلى بيتها القديم، مثل غريب يعرف تفاصيل مكان يعتريه شعور بأنه رآه من قبل. وكانت تشتري دائماً كمية من المشمش المجفّف وهي في طريقها إلى البيت، الذي كانت تحبّه كثيراً. وعندما تذهب إلى هناك، كانت تنظف البيت، وترتق بضعة أزرار، وتطهو بضعة أطباق، طعامه المفضّل دائماً، وترتّب البيت. ولم يكن هناك الكثير لكي ترتبه لأنه رجل يحافظ على ترتيب البيت ونظافته. وفيما تقوم الخالة بانو بذلك كان يراقبها عن كثب.

وكان يسألها دائماً في نهاية اليوم: «هل ستمكثين؟» ولا يتغير ردّها على ذلك مطلقاً، فتقول: «ليس اليوم».

وقبل أن تغادر البيت كانت تضيف: «يوجد طعام في الثلاجة، لا تنس أن تسخّن الحساء، والبلاكي يفسد بعد يومين. لا تنس أن تسقي نبتة البنفسج، لقد غيّرت مكانها ووضعتها بجانب النافذة».

يومئ ويهمس بنعومة، وكأنه يحدّث نفسه «لا تقلقي. أعرف كيف أعتني بنفسي. وشكراً على المشمش...».

ثم تعود الخالة بانو إلى بيت عائلة قازانجي. وهكذا تسير الأمور، يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة.

تبدو المرأة في المرآة مسنّة هذه الليلة. وكانت الخالة بانو تقول إن الشيخوخة السريعة هي الثمن الذي تدفعه لقاء مهنتها. فمعظم البشر يشيخون سنة بعد سنة، إلا قارئات الطالع: فهن يشخن بعد كلّ قصّة. ولو أرادت، لطلبت الخالة بانو التعويض عن ذلك. وكما أنها لم تطلب من الجني أي مكاسب مادية، لم تطلب أن تتمتع بجمال جسدي أيضاً. لعلها ستفعل ذلك ذات يوم. فقد منحها الله حتى الآن القوّة على الاستمرار دون أن تطلب المزيد. أما اليوم فإن الخالة بانو ستطلب شيئاً إضافياً.

يا الله، امنحني المعرفة، لأنني لا أستطيع أن أقاوم الرغبة في المعرفة، لكن امنحني القوّة أيضاً لأتحمل هذه المعرفة. أمين.

وتُخرج من أحد الأدراج سبحة من حجر الفيروز وتمسّد خرزاتها.

«حسناً إذن، أنا مستعدة، هيا لنبدأ. وكان الله في عوني!».

ابتسمت السيدة حلو، المدلاة من رف الكتب حيث يقبع مصباح الغاز، ابتسامة عريضة. ولم تكن تشعر بالارتياح لدور المراقب الذي وجدت نفسها فيه فجأة، غير سعيدة بالأشياء التي ستشهدها بعد قليل في هذه الغرفة. وفي هذه الأثناء، يبتسم السيد مرّ بمرارة، الابتسامة الوحيدة التي يعرفها. إنه راض. وأخيراً، اقتنعت الخالة بانو. لم تكن هيمنة السيد مرّ هي التي أقنعتها، بل فضولها القاتل. لم تستطع مقاومة الرغبة في

المعرفة. هذه الرغبة القديمة التي تعود إلى ما قبل عهد الطوفان في الحصول على مزيد من المعرفة... من يستطيع أن يقاومها، بالرغم من كل شيء؟

الآن، ستعود الخالة بانو والسيد مرّ بالزمن إلى الوراء. من عام ٢٠٠٥ إلى عام ١٩١٥. تبدو وكأنها رحلة طويلة، لكنها مجرد مسألة خطوات بالنسبة لسنوات غليباني.

أمام المرآة، بين الجني وسيدته، توجد طاسة فضّية من ماء زمزم من مكة المكرمة. وداخل الطاسة الفضية توجد ماء مفضضة، وتوجد داخل الماء قصّة، مفضضة أيضاً.

١٢

حبّ الرمان

أخذ أوهانيس ستامبوليان يمسّد طاولة المكتب المحفورة يدوياً والمصنوعة من خشب الجوز التي كان يجلس إليها منذ فترة مبكرة من بعد الظهر، وأحسّ بالسطح الناعم البرّاق تحت أصابعه. فقد قال له تاجر الأثريات اليهودي الذي باعها له إن هذه القطع نادرة جداً لأنه يصعب صنعها. فقد قُطعت من أشجار الجوز التي أُحضرت من جزر بحر إيجة، ثمّ زُيِّنت بدروج صغيرة، ودروج سرية تشبه قطعاً مطرزة جميلة. ورغم رهافة زخرفتها، كانت الطاولة متينة إلى حد أنها قد تدوم أجيالاً كثيرة.

«ستعيش هذه الطاولة أكثر منك، بل وحتى أكثر من أطفالك»، قال التاجر مقهقهاً، وكأن بضاعته تعيش أطول من حياة زبائنه دعابة تلازمه، «أليس من الرائع أن تعيش قطعة من الخشب حياة أطول من حياتنا؟».

ومع أنه كان يعرف أنه يقصد بهذه الملاحظة أن يُظهر جودة بضاعته، أحسّ أوهانيس ستامبوليان بوخزة ألم حزينة.

ومع ذلك فقد اشترى الطاولة، واشترى معها أيضاً دبوس زينة جميلاً في شكل رمانة، تكسوها بطريقة مرهفة خيوط من الذهب، وقد تصدعت قليلاً في الوسط، فبرزت في داخلها حبات من الياقوت الأحمر تتلألأ. كانت قطعة متقنة الصنع، صنعها حرفي أرمني في سيواس، كما قيل له. وكان أوهانيس ستامبوليان قد اشترى هذه القطعة هدية لزوجته، وكان يزمع

أن يقدمها لها هذه الليلة، بعد العشاء، أو ربما كان من الأفضل أن يقدمها لها قبل ذلك، عندما ينهي كتابة هذا الفصل.

ومن بين جميع الفصول التي كتبها، كان هذا الفصل أكثرها صعوبة. وكان يعرف أن كتابته ستكون أصعب من جميع الفصول الأخرى، وربما جعله ذلك يتخلى عن كتابة كتابه برمته. لكنه كان غارقاً حتى أذنيه في الكتاب، وكان المخرج الوحيد له أن يواصل الكتابة. فقد كان أوهانيس ستامبوليان شاعراً وكاتباً صحفياً مشهوراً، وكان يكتب سرّاً كتاباً بعيداً عن اختصاصه الرئيسي، ربما لقي رفضاً، أو سخرية، بل حتى احتقاراً. فعندما غمرت الإمبراطورية العثمانية إنجازات عظيمة، وحركات ثورية، وانقسامات قومية، كانت الجالية الأرمنية حبلى بالإيدولوجيات الإبداعية والمناقشات الحماسية. لذلك مكث في بيته وأخذ يكتب كتاباً للأطفال.

لم يكتب أحد من قبل كتاباً للأطفال باللغة الأرمنية، وهو شيء يكاد لا يصدّق. لماذا لا يوجد ولا حتى عمل أدبي واحد في هذا المجال؟ ألأن الأقلية الأرمنية أصبحت مجتمعاً غير قادر على اعتبار أطفالهم أطفالاً؟ هل الطفولة عبث، إن لم تكن ترفاً، تحظر على أقلية يجب أن تكبر بأسرع ما يمكنها؟ أم لأن الأدباء في إستانبول انقطعوا عن التقاليد الشفهية التي كانت الجدّات الأرمنيات ينقلنها بإخلاص إلى أحفادهن؟

كان عنوان القصة الحمامة الصغيرة الضائعة والبلد السعيد، وهي تحكي قصة حمامة ضلت طريقها في السماء الزرقاء، عندما كانت تطير مع أسرتها وصديقاتها إلى بلد سعيد. وكانت الحمامة تتوقّف في قرى وبلدات ومدن كثيرة، تبحث عن أحبائها، تتوقّف عند كلّ محطة، وتستمع إلى قصّة جديدة.

وهكذا، جمع أوهانيس ستامبوليان في كتابه هذا القصص الفولكلورية الأرمنية القديمة، التي انتقل معظمها شفوياً من جيل إلى جيل، والتي نسيها الآخرون منذ فترة طويلة. وخلال صفحات الكتاب، ظل وفياً لأصالة كلّ

حكاية وصحتها، ولم يكد يغيّر فيها ولا كلمة واحدة. لكنه قرر أن يختتم الكتاب بقصّة يكتبها هو. وكان يفكر بنشر الكتاب عند انتهائه في إستانبول وتوزيعه في المدن الرئيسية مثل أضنة وهاربوت ووان وترابزون وسيواس، حيث يعيش الأرمن بأعداد كبيرة. ومع أن المسلمين كانوا قد بدأوا يستخدمون آلة الطباعة منذ قرابة قرنين، كانت الأقلية الأرمنية تطبع كتبها ونصوصها قبل ذلك بكثير.

كان أوهانيس ستامبوليان يريد أن يقرأ الآباء الأرمن هذه القصص لأطفالهم قبل أن يخلدوا إلى النوم كلّ ليلة. وكان يكتب كتابه هذا منذ ثمانية عشر شهراً، ولم يكن يتاح له وقتاً كافياً يقضيه مع أطفاله. ففي عصر كلّ يوم، كان يدخل إلى غرفة مكتبه، يجلس إلى طاولته، ويستغرق في الكتابة وقتاً طويلاً. وعندما كان يخرج من الغرفة في الليل، يكون أطفاله قد أووا إلى فراشهم، ويغطون في النوم. وكان حافزه للكتابة قد سحر كلّ شيء، وكلّ شخص في حياته. ومن حسن الحظ، أنه كان على وشك أن ينهي عمله. وكان الفصل الذي شرع في كتابته هذا المساء هو الفصل الأخير، أصعب فصل في الكتاب كله وأكثره جهداً. وعندما ينهي كتابه، كان ينوي أن يجمع الأوراق ويربطها في شريط، ويضع الدبوس الذهبي داخل العقدة، ويقدّمها هدية إلى زوجته. فقد كان يزمع أن يهديها كتاب «الحمامة الصغيرة الضائعة والبلد السعيد».

«إقرئيه، أرجوك»، كان ينوي أن يقول لها: «إذا لم يعجبك احرقيه. كلّه. وأعدك بأني لن أسألك عن السبب. لكن إذا رأيت أنه كتاب جيد، أقصد، أنه يصلح للنشر والتوزيع، فخذيه إلى غرابيت أفندي في دار الفجر للنشر».

كان أوهانيس ستامبوليان يحترم رأي زوجته كثيراً. فقد كانت تتمتع بذائقة رفيعة في الأدب والفنون الجميلة. وبفضل استضافتها، أصبح هذا القناق الطباشيري اللون القابع على شاطئ البوسفور مركزاً للمثقفين

والفنانين منذ سنوات عديدة، وكان قد زاره عدد لا يحصى من الأدباء، وعدد من الكتّاب البارزين، وعدد من الطامحين لأن يصبحوا كتاباً مرموقين. كانوا يأتون لتناول الطعام، والشراب، وللقراءة، والتأمل، ويناقشون أعمال أحدهم الآخر بحماس شديد، ويناقشون بحماس أكبر أعمالهم هم.

بعد أن حلّقت الحمامة الصغيرة الضائعة طويلاً، أحست بالتعب والعطش، وجثمت فوق غصن شجرة يكسوه الثلج، غصن شجرة رمان بدأت تتفتح أزهارها. وعندما ملأت منقارها الصغير بقليل من الثلج، وروت عطشها، بدأت تذرف الدمع على أبويها.

«لا تبكي، أيتها الحمامة الصغيرة»، قالت شجرة الرمان. «دعيني أحكي لك قصّة. قصّة الحمامة الصغيرة الضائعة».

توقّف أوهانيس ستامبوليان دون أن يفهم تماماً ما الذي شوش تركيزه. أطلق تنهيدة تشي بالحنق، وقد فاجأه ذلك كثيراً. ففي الساعة الأخيرة من العمل كان عقله خاوياً من أية أفكار كئيبة. ولم يفهم السبب الذي جعله يشعر بقلق شديد في أعماقه، وكان عقله يعمل من تلقاء نفسه، يتأمّل في هواجس لا يعرف كنهها. ومهما كان سبب هذا الشعور بالانزعاج والقلق، كان لا بد له أن يتخلّص من هذا السبات. فهذا هو الفصل الأخير، القصّة الأخيرة التي يجب أن تكون جيدة. زمّ شفتيه وعاد إلى الكتابة.

«لكن من تتحدثين عنها، هي أنا. أنا هي تلك الحمامة!» هدلت الحمامة الصغيرة الضائعة باندهاش.

«أوه حقا؟» سألت شجرة الرمان، لكن لم يبد أنها فوجئت على الإطلاق. «إذن استمعي إلى قصّتك. . . ألا تريدين أن تعرفي شيئاً عن مستقبلك؟».

«إذا كان مستقبلاً سعيداً فقط»، قالت الحمامة الصغيرة الضائعة، «فأنا لا أريد أن أعرف عنه شيئاً إذا كان حزيناً».

فجأة اخترق الهواء الساكن صوت تهشم زجاج. أجفل أوهانيس ستامبوليان في كرسيه، توقّف عن الكتابة، والتفت غريزياً نحو النافذة، مشنفاً أذنيه، مجمداً. ولبرهة طويلة لم يسمع شيئاً سوى صرير الرياح. ومن الغرابة أنه وجد أن الصمت أكثر شؤماً من ذلك الصوت المخيف. كانت الليلة مثقلة بصمت شبحي، فيما كانت الريح تعوي في الخارج وكأنها تنقل غضب الله، في نوبة شديدة من الغضب لسبب لا يعلمه البشر. وبعكس الريح التي تلسع بقوة الجدران في الخارج، كان صمت مطبق يسود أركان البيت. وشعر أوهانيس ستامبوليان بوهن شديد بسبب هذا الهدوء غير المألوف إلى حد أنه شعر بشيء من الراحة عندما سمع أصواتاً قادمة من الطابق الأرضي. فقد كان أحدهم يعدو بسرعة من طرف البيت إلى آخره، ثم يعود، مذعوراً بخطوات تشحط على الأرض، وكأنه يهرب من شخص آخر، أو من شيء ما.

لا بد أن هذا يرفانت، قال في نفسه، عندما زحف قلق جديد إلى عينيه، وبدت فيهما نظرة تفكير عميقة وخوف. فقد كان أكبر أبنائه، يرفانت، شقياً دائماً وصاخباً، لكن عناده وتمرده في الأونة الأخيرة كانا قد تجاوزا كلّ الحدود. وفي الحقيقة، شعر أوهانيس ستامبوليان بالذنب، لأنه لم يكن يمضي معه وقتاً طويلاً كما يجب. ومن الواضح أن الفتى كان مشتاقاً لأبيه. وبالمقارنة معه، كان أطفاله الآخرون الثلاثة، صبيّان وبنت، مطواعين وسلسين وكأنه كانت لطاقة أخيهم الأكبر المسعورة تأثير مخدّر عليهم. وكانت تفصل بين الصبيين الأصغرين ثلاث سنوات، لكنهما كانا طفلين طيعين. ثم جاءت الشقيقة الصغرى، الفتاة الوحيدة في الأسرة، شوشان الصغيرة.

«لا تقلقي، أيتها الحمامة الصغيرة»، قالت شجرة الرمان مبتسمة ونفضت الثلج عن أغصانها. «فالقصّة التي سأحكيها لك، قصة سعيدة».

تزايد عدد الخطوات في الممر في الطابق الأرضي على نحو مرعب.

وأصبح يبدو له الآن أنه يوجد عشرات من يرفانت المشاكسين الذين يجرون من جانب إلى آخر، يطأون بقوة على الأرض. لكنه خيّل إليه في غمرة هذه الجلبة، فجأة، أنه سمع صوتاً، صوتاً غير متوقّع، وفظاً جداً، ملعلعاً وأجشاً لجزء من الثانية. وكان هذا كلّ شيء. ثم ساد صمت مرة أخرى، وكأن ذلك كلّه كان شيئاً من نسج خياله.

في الأحوال العادية، كان سيخرج راكضاً من غرفته ليتأكد من أن كلّ شيء يسير على ما يرام. أما الليلة فلم تكن ليلة عادية. ولم يشأ أن يزعجه أحد، ليس الآن، ليس وهو على وشك أن ينهي العمل الذي أمضى فيه ثمانية عشر شهراً. انتاب أوهانيس خوف شديد مثل غوّاص، الذي بعد أن غطس إلى الأعماق، لم يعد يستطيع أن يطفو ثانية إلى السطح. كانت دوامة الكتابة أشبه بكهف غائر يحيط به من جميع جوانبه، لكنه كان مغرياً أيضاً. وراحت الكلمات تقفز ذهاباً وإياباً على الورقة الجافّة، تستجديه أن يختتم القصّة الأخيرة، وأن يتركها لمصيرها الذي طال انتظاره.

«حسناً إذن»، هدلت الحمامة الصغيرة الضائعة «احكي لي قصّة الحمامة الصغيرة الضائعة. لكني أحذّرك، إذا سمعت أيّ شيء حزين، فإني سأرفرف بجنحي وأطير».

كان أوهانيس ستامبوليان يعرف ما كانت سترد عليها شجرة الرمان وكيف بدأت القصّة الأخيرة، لكنه قبل أن يتمكن من كتابتها على الورق، وقع شيء على الأرض في مكان ما، وتهشم إلى قطع صغيرة. وفي وسط هذا الانفجار سمع صوتاً يرافقه صوت شخير. ومع أن الصوت كان مكتوماً وقصيراً، فقد ميّز على الفور نشيج زوجته. قفز واقفاً، وخرج من هاوية كتابته، وبرز إلى السطح مثل سمكة ميتة.

* * *

عندما اندفع أوهانيس ستامبوليان نحو الدرج، تذكّر لقاءه في ذلك الصباح مع كريكور هاغوبيان، المحامي البارز والعضو في البرلمان العثماني.

«الأوقات سيئة، سيئة للغاية. استعد للأسوأ»، كان أول شيء تمتم به كريكور عندما التقيا في دكان الحلاق، «ففي البداية، جنّدوا الرجال الأرمن. «أفلسنا جميعنا متساوين، ألسنا جميعنا عثمانيين»؟ قالوا: «مسلمون وغير مسلمين، سنحارب العدو معاً»! لكنهم جرّدوا الجنود الأرمن من سلاحهم وكأنهم كانوا هم الأعداء. ثم جمعوا الرجال الأرمن في كتائب للعمل. والآن، يا صديقي، تقول الإشاعات... يقول البعض إن الأسوأ قادم».

رغم قلقه، لم تؤثر هذه الأخبار على أوهانيس ستامبوليان كثيراً. فقد كان مسناً، ولا يستطيعون تجنيده، وأولاده صغار جداً. وكان ليفون، أخ زوجته الأصغر، الشاب الوحيد في العائلة في سن التجنيد. لكنه تمكن من تفادي الخدمة العسكرية خلال حروب البلقان لأنه حصل على شارة «غير محروس» أثناء عملية الاختيار. فقد كان يتم إعفاء الرجال المعيلين الوحيدين لأسرهم من أداء الخدمة العسكرية. لكن ربما تغيرت هذه القاعدة العثمانية القديمة.

في هذه الأيام، لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من شيء تمام الثقة، فقد أعلنوا في بداية الحرب العالمية الأولى، أنهم سيجنّدون الشباب في أوائل العشرينيات من عمرهم فقط، إلا أنه مع ازدياد وتيرة الحرب، تم تجنيد الرجال في الثلاثينيات بل وفي الأربعينيات من أعمارهم أيضاً.

لم تكن الحرب تصلح لأوهانيس ستامبوليان، ولا العمل اليدوي الشاق. فقد كان يحبّ الشعر. كان يحبّ الكلمات، يشعر بكلّ حرف من حروف الأبجدية الأرمنية على لسانه وشفتيه. وبعد تمعن طويل توصل إلى أن ما تحتاجه الأقلية الأرمنية ليس السلاح، كما قال بعض الثوريين، بل

الكتب، المزيد من الكتب. ومع أن مدارس جديدة كانت قد أُسّست بعد التنظيمات، فقد كانوا بحاجة ماسّة إلى معلمين مثقفين ذوي عقول متفتحة أكثر وكتب أفضل. فقد أحرز شيء من التقدّم الإضافي بعد الثورة في عام ١٩٠٨. إذ دعم السكان الأرمن «حزب تركيا الفتاة» بأمل معاملتهم بعدل واحترام باعتبارهم غير مسلمين. فقد ذكر حزب «تركيا الفتاة» في إعلانه:

يتمتع كلّ مواطن بالحريّة والمساواة الكاملتين، مهما كانت جنسيته أو دينه، وأن يكون متساوياً في الالتزامات. فجميع العثمانيين متساوون أمام القانون فيما يتعلق بالحقوق والواجبات الخاصة بالدولة، ويكونون مؤهلين لشغل المناصب الحكومية، حسب قدراتهم الفردية وتعليمهم.

صحيح أنهم لم يفوا بوعدهم، وتخلّوا عن مبدأ العثمانيّة المتعددة القوميات لحساب مبدأ التتريك، إلا أن القوى الأوروبية الكبرى كانت تراقب الإمبراطورية عن كثب. ومن المؤكد أنها ستتدخل في حال حدوث شيء خطير. واعتقد أوهانيس ستامبوليان أنه حسب الظروف الحالية فإن «العثمانية» هي أفضل خيار للأرمن، لا الأفكار المتطرفة. فقد عاش الأتراك واليونانيون والأرمن واليهود معاً منذ قرون، ولا يزال بوسعهم أن يجدوا طريقة للتعايش تحت مظلّة واحدة.

«إنك لا تفهم شيئاً، أليس كذلك؟» قال كريكور هاغوبيان بغضب: «إنك تعيش في قصصك الخيالية!».

لم يره أوهانيس ستامبوليان غاضباً وعدائياً إلى هذه الدرجة من قبل. ومع ذلك لم يسايره: «لا أظن أن الحماسة مفيدة لنا»، وقد رفع صوته فوق مستوى الهمس بقليل. فقد كان يرى أن الحماس القومي لن يؤدي إلا إلى أن يجعل بؤساً يحل محل بؤس آخر، وأن هذا لا بد أن يكون ضد المحرومين والمعدمين. وفي النهاية انفصلت الأقلّيات عن الكيان الأكبر بتكلفة باهظة، إذ لم تكن القومية سوى بديل عن ظالمين جدد. فبدلاً من

أن يضطهدك شخص ينتمي إلى عرق مختلف، أصبح شخص من ملتك هو الذي يضطهدك.

«الحماسة!» اكتسى وجه كريكور هاغوبيان قناع من الكدر، «هناك أخبار تأتي من بلدات كثيرة في الأناضول. ألم تسمع عن الأحداث التي جرت في أضنة؟ إنهم يدخلون إلى بيوت الأرمن بذريعة البحث عن أسلحة، ثم ينهبونها. ألا تفهم؟ سيُنفى جميع الأرمن. جميعنا! وهنا أنت تخون شعبك».

ظل أوهانيس ستامبوليان هادئاً لبرهة، وهو يقضم طرفي شاربه. ثم تمتم ببطء، لكن بثقة: «يجب أن نعمل معاً، يهوداً ومسيحيين ومسلمين. قرون وقرون تحت سقف الإمبراطورية نفسها. إننا نعيش معاً طوال هذا الوقت، حتى لو لم نكن متساوين. إذ يمكننا الآن أن ننشر العدل بين الجميع، ونحوّل هذه الإمبراطورية معاً».

عندها اختتم كريكور هاغوبيان كلامه بهذه الكلمات الكئيبة: «اصح يا صديقي، فلم يعد هناك شيء اسمه معاً. عندما تنكسر الرمانة فإن جميع حباتها تنفرط وتتبعثر في جميع الاتجاهات، ولا يمكنك أن تعيدها وتجمعها ثانية».

عندما وقف أوهانيس ستامبوليان في أعلى الدرج دون أن يأتي بأي حركة، منصتاً إلى الصمت المخيف في البيت، تصوّر رمانة مكسورة، حمراء وحزينة. وبذعر ظاهر راح ينادي زوجته: «آرمانوش! آرمانوش، أين أنت؟».

لا بد أنهم جميعهم في المطبخ، قال لنفسه، وبدأ يهبط الدرج بسرعة إلى الطابق الأرضي.

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، أُعلن عن التعبئة العامة. ورغم أن جميع أهالي إستانبول كانوا يتحدثون عن ذلك، كانت تأثيراتها ظاهرة في

البلدات الصغيرة. فقد كانوا يقرعون الطبول في الشوارع، ويصيحون: سفربرلك! سفربرلك! كان ذلك عندما جُنِّد عدد كبير من الشباب الأرمن، أكثر من ثلاثمائة ألف شاب. في البداية، تم تسليم جميع هؤلاء الجنود أسلحة، مثل أقرانهم المسلمين. لكن بعد فترة وجيزة، طُلب منهم إعادة تلك الأسلحة. وبخلاف الجنود المسلمين، نُقل الشباب الأرمن إلى كتائب عمل خاصة. وانتشرت الشائعات بأن أنور باشا كان وراء هذا القرار. فقد أعلن: «إننا بحاجة إلى أيدي عاملة لشق الطرق كي يعبر الجنود منها».

وبعد ذلك وردت أنباء سيئة، هذه المرة عن كتائب العمل نفسها. وراح الناس يقولون إن جميع الشباب الأرمن يُستخدمون في أعمال شاقة لشقّ الطرق، مع أن بعضهم كان قد دفع «البدل» وأُعفوا من الخدمة. وقالوا إن الكتائب أُخذت لشقّ الطرق، إلا أن ذلك كان مجرد ذريعة. ففي واقع الحال، كانوا يحفرون حفراً عميقة وعريضة تكفي لـ. . . وقالوا إن الأرمن دفنوا في نفس الحفر التي أرغموا على حفرها.

«أعلنت السلطات التركية أن الأرمن سيصبغون بيض عيد الفصح بدمهم»، هذا ما قاله كريكور هاغوبيان قبل أن يغادر دكان الحلاق.

لم يصدق أوهانيس ستامبوليان هذه الشائعات كثيراً.

ومع ذلك فقد أقرّ بأن الأوقات سيئة.

في الطابق الأرضي، نادى اسم زوجته مرة أخرى، وأطلق تنهيدة عندما لم يسمع رداً. عندما خرج إلى صحن البيت، وتجاوز المنضدة المصنوعة من خشب الكرز الطويلة التي يتناولون عليها طعام الفطورعندما يكون الطقس معتدلاً، خطر بباله مشهد جديد من قصة الحمامة الصغيرة الضائعة.

«إذن اسمعي قصّتك»، قالت شجرة الرمان وهي تهز بضعة من أغصانها، نافضة بضع نقاط من الثلج: «كان يا ما كان، في قديم الزمان.

كانت مخلوقات الله كثيرة بكثرة الحبوب والكلام، وكان الكلام الكثير إثماً».

«لكن لماذا؟» هدلت الحمامة الصغيرة الضائعة: «لماذا كان الكلام الكثير إثماً؟».

كان باب المطبخ مغلقاً. كان ذلك غريباً في هذه الساعة من اليوم. لا بد أن آرمانوش تعمل هناك مع ماري، خادمتهم منذ خمس سنوات، فيما تحلّق الأطفال حولهما. ولم تغلقا الباب أبداً.

مدّ أوهانيس ستامبوليان يده إلى مقبض الباب، لكنه قبل أن يحركها، فُتح الباب الخشبي القديم من الداخل، وأصبح وجهاً لوجه أمام جندي تركي، رقيب. أصيب الرجلان بالصدمة عندما اصطدما ببعضهما ووقفا يحدّق أحدهما في الآخر دقيقة كاملة. أفاق الرقيب من سباته أولاً. فقد خطا خطوة إلى الوراء وأخذ يرمق الآخر من رأسه حتى أخمص قدميه. كان رجلاً أسمر وله وجه شاب رقيق، لولا قساوة نظرته.

«ماذا يحدث هنا؟» سأل أوهانيس ستامبوليان، ورأى زوجته وأطفاله وماري مصطفين أمام حائط المطبخ في الخلف، يقف أحدهم إلى جانب الآخر مثل أطفال معاقبين.

«لدينا أوامر بتفتيش البيت»، قال الرقيب. ولم يكن هناك ما يشي بعداوة في صوته، لكنه لم يكن يشي بأي تعاطف أيضاً. بدا وكأنه كان متعباً، ومهما كان سبب وجوده هنا، كان يريد أن ينفذ الأوامر الصادرة له بأسرع ما يمكنه ويذهب: «هل تتفضل وترينا الطريق إلى غرفة مكتبك؟».

توجهوا إلى مؤخرة البيت، وراحوا يصعدون بتثاقل الدرج الملتف الضخم. أوهانيس ستامبوليان في الأمام، والرقيب والجنود وراءه. عندما دخلوا غرفة المكتب في الطابق العلوي، بدأ الجنود يتحركون بسهولة، وراح كلّ منهم يتفحص قطعة من الأثاث مثل النحل الطنّان الذي يمتصّ

رحيق الأزهار البرية في الحقول. فتّشوا الخزائن، والدروج، وجميع رفوف المكتبة الممتدة من الحائط إلى الحائط. قلّبوا صفحات مئات الكتب بحثاً عن وثائق مخفية بين الصفحات؛ راحوا يتفحصون الكتب الأدبية الأثيرة لديه، «زهور الشرّ» لبودلير، و«الأوهام» لجيرار دي نيرفال، و«الليالي» لألفرد دي موسيه و«البؤساء» و«أحدب نوتردام» لهوغو. وبينما جالت عينا جندي أسمر، الذي كانت عيناه صغيرتين تشبهان خرزتين صغيرتين على نحو مريب في «العقد الاجتماعي» لروسو، تذكر أوهانيس ستامبوليان على الفور المقاطع التي كان الجندي يحدّق فيها دون أن يراها حقاً:

يولد الإنسان حرّاً لكنه مقيد بالسلاسل في كل مكان. ولكن الفرق يتمثل في أن المتوحش يعيش داخل نفسه، فيما يعيش الرجل الاجتماعي خارج نفسه، ولا يستطيع أن يعيش في آراء الآخرين، لذلك يبدو أنه يحصل على الإحساس بوجوده من حكم الآخرين عليه فقط.

عندما انتهوا من تفتيش الكتب، بدأوا يفتشون الدروج العديدة في طاولة المكتب المصنوعة من خشب الجوز. عندها رأى أحد الجنود الدبوس الذهبي على الطاولة. سلّمه إلى الرقيب، الذي أمسك الرمانة الصغيرة، وراح يزنها في راحة يده، ويفتلها في الهواء ليرى الياقوت في داخلها على نحو أفضل، ثم أعطاها إلى أوهانيس ستامبوليان بابتسامة.

«يجب ألا تترك مثل هذا الحجر الكريم الثمين أمام عيون الجميع. هيا، خذها»، قال الرقيب بنبرة من التهذيب الهادئ.

«نعم، شكراً لك. إنها هدية لزوجتي»، قال أوهانيس ستامبوليان بهدوء.

ابتسم له الرقيب ابتسامة تنم عن الثقة بين رجل وآخر. إلا أن تعابير وجهه تحوّلت بسرعة من المودة إلى التجهم والعبوس، وعندما تكلّم ثانية، لم يعد صوته يشي بالنبرة المعتدلة ذاتها.

«أخبرني ما المكتوب هنا»، قال الرقيب وهو يشير إلى حزمة من أوراق وجدها في أحد الدروج، مكتوب عليها بأحرف أرمنية.

تذكر أوهانيس ستامبوليان على الفور القصيدة التي كان قد كتبها عندما مرض واعترته حمّى شديدة. كان ذلك في خريف العام الماضي. إذ بقي طريح الفراش مدة ثلاثة أيام متتالية ولم يستطع أن يتحرك، بل كان يرتعش ويتفصد عرقاً وكأن جسمه أصبح مثل برميل ماء مليئاً بالثقوب يتسرب منها الماء بلا توقف. وكانت آرمانوش تقف بجوار سريره طوال ذلك الوقت، تضع مناشف باردة منقوعة بالخلّ على جبهته وتفرك صدره بقطع الثلج. وفي نهاية اليوم الثالث، عندما خفّت الحمّى أخيراً، خطرت لأوهانيس ستامبوليان قصيدة، ورحّب بها كتعويض عن معاناته وألمه. ومع أنه لم يكن رجلاً متديناً، كان يؤمن بشدة بالتعويضات الإلهية، التي كان يعتقد أنها تأتي من خلال إشارات صغيرة وهدايا كهذه.

«إقرأها» دفع الرقيب الورقة.

وضع أوهانيس ستامبوليان نظارته وراح يقرأ بصوت مرتعش الأسطر الأولى بصوت عال:

الطفل يبكي في نومه دون أن يعرف لماذا، نشيج من الاشتياق لا يتوقف لكنه خافت

يستحيل مواساته

هكذا أشتاق إليك. . .

«هذا شعر»، قال الرقيب مشدداً على الكلمة الأخيرة بترنيمة بدت كإحباط.

«نعم»، أومأ أوهانيس ستامبوليان، مع أني لست متأكّداً إن كان شعراً جيداً أم لا.

لكن البريق الذي رآه في عينيّ الرقيب لم يكن يشي بالعداء. لعل القصيدة أعجبته. ربما كان سيغادر الآن ويأخذ جنوده معه.

«أو ـ ها ـ نيس ستا ـ مبو ـ ليان»، همهم الرقيب، داغماً الكلمات، «إنك رجل واسع الإطلاع، رجل معرفة. إنك رجل مشهور ومحترم كثيراً. لماذا رجل محنّك ومتطور مثلك يتآمر مع مجموعة من المتمرّدين الدنيئين؟».

رفع أوهانيس ستامبوليان عينيه الداكنتين ورمش بعينيه وهو سارح الذهن. لم يعرف ماذا سيقول دفاعاً عن نفسه لأنه لم تكن لديه فكرة عن التهمة الموجه إليه.

«المتمرّدون الأرمن. . . لقد قرأوا قصائدك ثم تمردوا على السلطنة العثمانية»، قال الرقيب، مقطباً جبينه وهو يفكّر: «كنت تحثهم على التمرّد».

أدرك أوهانيس ستامبوليان فجأة التهمة الموجهة إليه، وخطورة هذه التهمة. فقال: «أيها الضابط»، وأخذ يحدّق بثبات في الرقيب الذي راح يحدّق فيه أيضاً، وقد خشي أنه إذا انقطع تواصلهما بالعيون، فربما انقطع إلى الأبد جسر التبادل الوحيد القائم بينهما: «إنك رجل متعلّم وتتفهم صعوبة وضعي. إن قصائدي هي صدى مخيلتي. إني أكتبها وأنشرها، لكنني لا أستطيع أن أتحكم بمن يقرأها وما هي نواياه».

بدا ممعناً في التفكير، أخذ الرقيب يطقطق مفاصل أصابعه الواحدة تلو الأخرى. ثم تنحنح وكأنه يريد أن يؤكد على أهمية ما يوشك أن يقوله: «إنني أفهم تلك المعضلة تماماً. لكنك تستطيع أن تتحكم بكلماتك. فأنت الذي يكتبها. أنت الشاعر. . .».

في جهد مستميت للتقليل مما بدأ يصبح رعباً حقيقياً بسرعة، أجال أوهانيس ستامبوليان الغرفة بعينيه حتى وقعت عيناه على عينيّ ابنه الأكبر الذي كان واقفاً بجوار الباب، يسترق النظر إلى الداخل. متى انسل خارج المطبخ؟ منذ متى يراقبهم؟ كانت وجنتا الفتى ورديتين من شدة غضبه من

الجنود. إلا أن شيئاً في قسماته كان يشي بأشياء تتجاوز ذلك بكثير. ومن الغريب أنه لم يكن يبدو على وجه يرفانت الصغير أي اضطراب، وكان حكيماً بعض الشيء. ابتسم أوهانيس ستامبوليان لابنه، محاولاً أن يقنعه بأن الأمور تسير على ما يرام، ثم أومأ له بأن يعود إلى أمّه. لكن يرفانت لم يتحرّك.

«أخشى أنك يجب أن ترافقنا»، قال الرقيب.

«لا أستطيع»، قال أوهانيس ستامبوليان تلقائياً، لكنه أدرك كم كان العذر الذي سيقدمه واهياً، «الليلة يجب أن أنهي كتابي... إنه الفصل الأخير... وبدلاً من ذلك طلب إذناً ليكلم زوجته».

قبل أن يأخذوه، كان الشيء الأخير الذي رسخ في ذاكرته قسمات زوجته، حدقتاها الواسعتان، وشفتاها الشاحبتان. لكن آرمانوش لم تبكِ، ولم يبد عليها أنها صدمت. بل بدت مرهقة للغاية، وكأن الوقوف عند مدخل الباب قد استنفد كلّ طاقتها. كم كان يتمنّى أن يمسك يديها الآن، أن يضمها إليه بقوة، وأن يهمس في أذنيها بأن تظل قوية، قوية دائماً، من أجل أطفالهما، ومن أجل الطفل القادم على الطريق. فقد كانت آرمانوش حامل بأربعة أشهر.

عندما دُفع خارج الباب إلى الشارع المظلم حيث كان الجنود مصطفين على كلا الجانبين، تذكّر أوهانيس ستامبوليان أنه نسي أن يقدم الهدية إلى زوجته. دسّ يديه في جيوبه وأحس بالارتياح عندما تحسس جيبه ولم يجد الرمانة الذهبية. لقد تركها في البيت، في أحد دروج الطاولة. وابتسم ابتسامة خفيفة عندما خطر له كم ستكون آرمانوش سعيدة عندما تجدها هناك.

* * *

ما إن غادر الجنود، حتى سمع صدى خطوات سريعة على عتبة الباب. كانت جارتهم التركية في البيت المجاور. امرأة بدينة لطيفة، مرحة دائماً، لكنها الآن لم تكن كذلك. إن رؤية تعابير الفزع على وجه جارتها، أخرج آرمانوش من غيبوبتها، وتركت الفزع يتملكها. شدت يرفانت إليها، وهمست وشفتاها ترتعشان وقالت له: «اذهب يا بني، اذهب إلى بيت خالك ليفون. . . اطلب منه أن يأتي إلى هنا مباشرة. أخبره بما حدث».

كان بيت الخال ليفون قريباً، عند زاوية ساحة السوق. كان يعيش وحيداً في بيت متواضع ذي طابقين، حيث اتخذ من الطابق الأول ورشة له. فبعد أن رُفض طلبه عندما تقدم لخطبة فتاة أرمنية جميلة كان قد وقع في غرامها في صباه، وربما كان لا يزال يحبها حتى الآن، قرر ألا يتزوّج أي فتاة أخرى، وأمضى سنواته يعمل بجدّ في ورشته، التي كانت تشتهر بجودة منتجاتها. فقد كان الخال ليفون صانع قدور، وكان يصنع أفضل القدور في السلطنة كلها.

عندما خرج يرفانت إلى الشارع سار بضع خطوات نحو بيت الخال ليفون، لكنه توقّف فجأة والتفت إلى الاتجاه المعاكس، الاتجاه الذي أُخذ أبوه منه، وراح يجري. ومع أنه جرى من جانب الشارع إلى الجانب الآخر، لم ير أي دليل على أبيه. لا شيء. لا أحد، وكأن الجنود الأتراك وأبوه قد اختفوا معاً.

بعد قليل وصل إلى بيت الخال ليفون، ومع ذلك لم يكن هناك أحد في الطابق العلوي. راح يقرع باب الورشة، راجياً أن يكون هناك. فلم يكن من غير المعتاد ألا يعمل الخال ليفون حتى ساعات متأخرة في مخزنه. لكن أحد صانعيه فتح الباب، رضا سليم، شاب تركي مراهق نشيط في عمله، هادئ، ذو بشرة بيضاء كالخزف، وذو شعر أسود لمّاع مجعد.

«أين خالي؟» سأل يرفانت.

«لقد ذهب المعلم ليفون»، قال رضا سليم بصوت مخنوق يكاد يخرج بصعوبة من حنجرته، «لقد جاء الجنود واقتادوه عصر هذا اليوم».

ما أن لفظ هذه الكلمات المشؤومة، حتى انهمرت الدموع من عينيّ رضا سليم التي كان يحاول إمساكها. كان الصبي يتيماً وكان ليفون بمثابة أب له خلال السنوات الستّ الماضية. قال: «لا أعرف ماذا أفعل. إني أنتظر. . .».

في طريق عودته إلى بيته، أخذ يرفانت يجري في الشوارع الملتوية شرقاً وغرباً، يبحث عن شيء، عن أيّ شيء يمكن أن يكون دليلاً مبشراً. اجتاز مقاهي خاوية، ميادين وسخة، بيوت متداعية تنبعث منها روائح «تورلو» وبكاء الأطفال الرضع. وكان الدليل الوحيد على الحياة مواء هرّة تتألم تقف بجوار بالوعة قذرة، تلعق بطنها الصغيرة حيث انشق اللحم وتجمّع الدم حول جرح عميق.

وبعد سنوات، عندما كان يرفانت يفكّر بأبيه، كان يتذكّر الهرّة الوحيدة في الشارع المظلم الخاوي. حتى في سيواس، في قرية بيركينيك الأرمنية الكاثوليكية الصغيرة التي ذهبوا إليها لاحقاً بحثاً عن ملجأ مع الجدّ والجدّة، والتي طردوا منها ذات ليلة على يد جنود اقتحموا البيت. حتى عندما وجد نفسه يسير وسط آلاف الأرمن المتضورين جوعاً الذين يحرسهم الجنود الممتطين أحصنة، حتى عندما كان يتعثر عبر سجادة سميكة من الطين والقيء والدم والغائط؛ حتى عندما لم يكن يعرف كيف يُسكت صياح أخته الصغيرة، شوشان، وفي أحد الأيام، وفي غمرة الاضطراب الذي أعقب ذلك، ترك يدها للحظة ولم يعد يراها، حتى عندما رأى قدميّ أمّه تنتفخان لتصبحا مثل وسادتين زرقاوين من الألم تغطيهما العروق الزرقاء والدم؛ وحتى عندما ماتت، هادئة وخفيفة مثل ورقة شجرة صفصاف جافة ملتفة في الرياح الهوجاء؛ وحتى عندما رأى جثثاً منتفخة تفوح منها روائح نتنة على طول الطريق، إسطبلات مليئة

بالدخان والنار؛ حتى عندما لم يتبق شيء يأكله هو وأخوته إلا الأعشاب مثل خراف في البادية السورية؛ حتى عندما أنقذتهم مجموعة من المبشّرين الأمريكيين الذين كانوا يجمعون الأيتام الأرمن الذين ضاعوا هنا وهناك وهم في طريقهم إلى المنفى؛ حتى عندما أحضروا إلى الكلية الأمريكية في سيواس التي أصبحت تستخدم كملجأ، ومن هناك أُرسلوا إلى أمريكا؛ حتى عندما وجد أخته الصغيرة شوشان بعد سنوات، في إستانبول وأحضرها إلى سان فرانسيسكو؛ وحتى بعد أن كان يحاط على العشاء بأطفاله وأحفاده بسعادة، ظلت تلك الهرّة محفورة في ذاكرته.

* * *

«هذا يكفي»، صاحت الخالة بانو، مجفلة. أرخت منديل رأسها، وغطّت به الطاسة الفضّية: «لا أريد أن أرى المزيد. لقد عرفت ما كنت أريد أن أعرفه. . .».

«لكنك لم تري كلّ شيء»، قال السيد مرّ معارضاً إياها بصوت ممطوط، «لم أخبرك عن القمل بعد».

«القمل؟» تأتأت الخالة بانو. فالروح التي دفعتها لإيقاف هذه الجلسة بدا أنها ولّت الآن. أمسكت منديل رأسها ونظرت إلى الطاسة ثانية.

«أوه نعم، القمل، يا سيدتي، إنه تفصيل مهم»، قال السيد مرّ، «أتذكرين الجزء الذي تركت فيها شوشان الصغيرة يد أخيها الكبير، وتاهت فجأة بين الناس؟ فقد التقطت القمل من أسرة كانت قد اقتربت منها بأمل الحصول على شيء من الطعام. ولم يكن يوجد لدى الأسرة طعاماً يكفيها، فأبعدتها عنها. وما هي إلا أيام قليلة حتى أصيبت شوشان الصغيرة بحمّى ملتهبة: التيفوس.

ندت عن الخالة بانو تنهيدة طويلة عالية.

«كنت هناك. رأيت كلّ شيء. جثت شوشان على ركبتيها. لم يكن

بوسع أحد في تلك القافلة أن يقدم لها المساعدة. تركوها هناك على الأرض، جبهتها مغطاة بالعرق، وشعرها مليء بالقمل!».

«كفى»! نهضت الخالة بانو على قدميها.

«لكن ألا تريدين أن تستمعي إلى أهم جزء؟ ألا تريدين أن تعرفي ما حدث لشوشان الصغيرة؟» سألها السيد مرّ، وقد بدا أنه أهين: «لقد أردت أن تعرفي عن عائلة ضيفتك، أليس كذلك؟ حسناً، إن شوشان الصغيرة في قصّتي هي جدّة ضيفتك».

«نعم»، أجابت الخالة بانو: «لقد خمّنت ذلك. استمر».

«حسناً!» مضى السيد مرّ بحماس، متلذذاً بنصره، «بعد أن تُركت شبه ميتة في الطريق وبعد أن اختفت القافلة في الأفق، عثرت امرأتان من قرية تركية قريبة على شوشان الصغيرة. كانتا أماً وابنتها. أخذتا الفتاة المريضة إلى البيت وغسلتاها بصابون الغار وأزالتا القمل من شعرها بمحلول معدّ من أعشاب الوادي. قدمتا لها الطعام وعالجتاها. وبعد ثلاثة أسابيع، عندما توقّف مسؤول كبير في القرية مع رجاله واستجوب القرويّين إن كانوا قد صادفوا أياً من الأيتام الأرمن في المنطقة، أخفت الأمّ التركية شوشان في داخل صندوق مهر ابنتها، لتنقذها من أي أذى. وبعد شهر استردت الفتاة الصغيرة عافيتها، لكنها لم تكن تتكلم كثيراً، وكانت تبكي في نومها في الليل».

«ظننت أنك قلت إنها جُلبت إلى إستانبول. . .». «في نهاية المطاف، نعم». فخلال الشهور الستّة التالية اعتنت الأمّ وابنتها بها، وكأنها فرد من أسرتهما، وربما واصلتا رعايتها. إلا أن مجموعة من قطاع الطرق كانت تغير على البيوت وتنهبها. وكان قطاع الطرق هؤلاء يتوقفون عند كلّ قرية تركية وكردية في المنطقة ويسلبونها. ولم يستغرقوا وقتاً طويلاً حتى اكتشفوا فتاة أرمنية صغيرة هناك. ورغم عويل الأمّ وابنتها، أخذوا

شوشان. فقد سمعوا الأوامر بتسليم جميع الأيتام الأرمن الذين تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة إلى دور الأيتام في أنحاء البلاد. لذلك لم يمض وقت طويل حتى أصبحت شوشان نزيلة ملجأ للأيتام في حلب، لكن بسبب عدم وجود مكان لها، أعيدت إلى مدرسة في إستانبول يقوم برعايتها عدد من hocahanim، وكان هناك عدد من المحسنين ومحبي الخير. وشأن الأطفال الآخرين ارتدت ثوباً أبيض، ومعطفاً أسود بدون أزرار. وكان في المدرسة صبية وفتيات. وقد خُتن الصبيان جميعهم، وبُدِّلت أسماؤهم. وكذلك شوشان. فأصبح الجميع ينادونها الآن شيرمين. وأعطيت أيضاً الرقم ٦٢٦».

«كفى»، قالت الخالة بانو وأعادت منديل رأسها إلى الطاسة الفضّية، وألقت نظرة طويلة وثاقبة إلى الجني.

«نعم، يا سيدتي، كما ترغبين»، برطم السيد مرّ، «على أية حال، لقد اجتزت أهم جزء في القصّة. فإذا رغبت في الاستماع إلى ذلك الجزء أيضاً، أخبريني لأننا نحن الغليباني نعرف كلّ شيء. لقد كنا هناك. لقد حدثتك عن ماضي شوشان، عندما كانت فتاة صغيرة، التي هي الآن جدة آرمانوش. أخبرتك بالأشياء التي لا تعرفها ضيفتك. هل ستخبرينها بذلك؟ ألا تظنين أن لها الحقّ في أن تعرف؟».

لبثت الخالة بانو صامتة. هل ستحكي لآرمانوش القصّة التي عرفتها الليلة؟ وحتى لو أرادت أن تحكي لها، فكيف ستقول لها إنها رأت قصّة عائلتها في طاسة فضّية من الماء أراها إياها أحد الغليباني، واحداً من أسوأ أنواع الجنّ؟ هل ستصدقها آرمانوش؟ وحتى لو صدقتها، أفليس من الأفضل ألا تعرف الفتاة ما عرفته هي عن هذه التفاصيل الحزينة؟

التفتت الخالة بانو نحو السيدة حلوة لمواساتها. لكن بدلاً من أن تجيبها، كان كل ما حصلت عليه من الجنية المحسنة ابتسامة خجولة ووميض مفاجئ من الهالة المحيطة برأسها، تومض في ظلال من لون

الإجاص، واللون الوردي، والأرجواني. ومع هالة الجنيّة، خطر لها سؤال شائك: هل من الأفضل حقاً أن يعرف البشر المزيد عن ماضيهم؟ ثم المزيد والمزيد. . .؟ أم من الأفضل أن يعرفوا القليل عن الماضي، بل وحتى أن ينسوا ذلك القدر القليل الذي يتذكرونه؟

* * *

بزغ الفجر الآن. خطوة قصيرة تفصل الليل عن ضوء النهار. الفترة الوحيدة من اليوم التي يكون فيها الوقت مبكراً لإيواء الآمال بتحقيق أحلام المرء، إلا أن الآوان يكون قد فات للحلم، فقد ابتعدت أرض مورفيوس الآن.

إن عين الله كلية القدرة والمعرفة؛ إنها عين لا تغمض أبداً، بل إنها تومض. لكن لا يمكن لأحد أن يعرف ما إذا كانت الأرض كلها تحت المراقبة أيضاً. فإذا كانت هذه مرحلة يعرض فيها مشهد إثر مشهد من أجل العين السماوية، فقد تكون هناك أوقات في الوسط تسدل فيه الستائر، ويغطي منديل رأس من الشاش طاسة فضّية.

إن إستانبول مكان خليط تعيش فيه عشرة ملايين نفس. إنها كتاب مفتوح مؤلف من عشرة ملايين قصّة مختلطة ومشوشة. إستانبول تستيقظ من نومها المرتبك والمبلبل، مستعدة لفوضى ساعة الازدحام. ومن الآن وصاعداً، ستُستجاب دعوات كثيرة، وسُتدوّن تجديفات كثيرة، وسيراقب الكثير من الآثمين، والكثير من الأبرياء.

لقد حلّ الصباح في إستانبول الآن.

١٣

تين مجفّف

على مدى شهور السنة، يعرف كلّ شهر الفصل الذي ينتمي إليه، ويتصرّف بناءً على ذلك، تعرف ذلك جميع الشهور إلا شهراً واحداً: وهو شهر آذار.

فشهر آذار أكثر شهر يتسم بعدم التوازن في إستانبول، من الناحيتين النفسية والجسدية. فقد يقرّر آذار أنه ينتمي إلى فصل الربيع، ويصبح دافئاً مفعماً بالشذى العطر، لكنه يغيّر رأيه بغتة بين عشية وضحاها، ويصبح شهراً ينتمي إلى فصل الشتاء، فيرسل رياحاً باردة، وثلجاً ممزوجاً بالمطر. أما اليوم، فهو يوم سبت في التاسع عشر من شهر آذار، يوم مشمس على نحو غير معهود، تزيد حرارته على المعدل في مثل هذه الفترة من السنة. لذلك خلعت آسيا وآرمانوش كنزتيهما وهما تسيران في الطريق العريض الواقع في مهبّ الريح الممتد من أورتاكوي إلى ميدان تاكسيم. كانت آسيا ترتدي ثوباً طويلاً من الباتيك، موشى برسوم يدوية بألوان البيج والبني الكاراميل. وفي كلّ خطوة تخطوها، كانت طبقات من القلائد والأساور تصدر صلصلة وقعقعة. أما آرمانوش، فكانت وفية لأسلوبها في ارتداء الثياب: بنطلون جينز أزرق، وقميص فضفاض كتب عليه بأحرف كبيرة «جامعة أريزونا»، وصندل وردي اللون يشبه نعال الباليه. كانتا في طريقهما لزيارة صالون الوشم.

«إني سعيدة بأنك ستقابلين آرام أخيراً»، قالت آسيا بابتسامة مشرقة، فيما راحت تنقل حقيبتها المصنوعة من الخيش من كتف إلى آخر، وأضافت: «إنه شخص في غاية اللطف».

«سمعت أنك تذكرين اسمه من قبل، لكنني لا أعرف من هو».

«أوه، إنه. . .» توقفت آسيا، تبحث عن الكلمة الملائمة بالإنكليزية. فقد بدت كلمة «بوي فريند» خفيفة جداً لمثل هذه الحالة، ولم تبدُ عبارة الزوج المقبل معقولة. وبدا أن كلمة خطيب مناسبة أكثر، لكنهما في الواقع لم يُخطبا رسمياً: «إنه الشخص الآخر بالنسبة للخالة الأخرى، الخالة زليخة».

في الجانب الآخر من الطريق، وتحت قوس عثماني منحوت ومزخرف بشكل رائع، لمحتا صبيين غجريين، أحدهما يُخرج علباً فارغة من صناديق القمامة ثم يكومها في عربة متداعية. فيما جلس الصبي الآخر على حافة العربة وأخذ يفرز العلب، باذلاً ما بوسعه كي يبدو أنه مستغرق في عمله مستمتعاً بدفء الشمس. ربما كانت هذه هي الحياة الرعوية، قالت آسيا في نفسها. وكانت مستعدة لأن تعطي أيّ شيء كي تأخذ مكان ذلك الصبي على العربة. ففي البداية، ستذهب وتشتري أكثر الأحصنة خمولاً ووهناً، ثم تركب العربة، وتصعد بها وتهبط في شوارع إستانبول الشديدة الانحدار، وتجمع أشياء. وستجمع بشوق المصنوعات اليدوية الأقل جاذبية في الحياة الإنسانية، تعانق الأنقاض المتعفنة تحت سطحها المصقول. وانتاب آسيا شعور بأنه ربما كان الزبّال في إستانبول يعيش حياة أقلّ توتراً بكثير من حياتها ومن حياة أصدقائها في مقهى كونديرا.

فإذا أصبحت زبّالة، فإنها ستتجول في أرجاء المدينة وهي تصفّر ألحان جوني كاش، ونسيم عليل يداعب شعرها، وأشعة الشمس تدفئ عظامها. وإذا تجرأ أحد على أن يعكّر صفو هذا التناغم الرائع، فإنها ستبث الرعب في نفسه، وستهدده بعشيرتها الغجرية الكبيرة التي ربما كان كل فرد من

أفرادها متهم بجريمة من نوع ما. وخلصت آسيا إلى أنه رغم مشكلة الفقر، وما دام الفصل لم يكن فصل شتاء، فإنه من الممتع أن تجمع القمامة. ودوّنت ملاحظة عقلية لنفسها كي تتذكّر ذلك إن لم تتمكن من الحصول على وظيفة أفضل بعد تخرجها من الجامعة. وعلى وقع هذه الملاحظة راحت تصفّر، وعندما وصلت إلى نهاية الأغنية لاحظت آسيا أن آرمانوش لا تزال تنتظر ردّاً مفصلاً عن السؤال الذي سألتها إياه قبل بضع دقائق.

«إن الخالة زليخة وآرام يلتقيان منذ مدة لا يعلمها إلا الله. إنه مثل زوج أمي على ما أظن: أو ربما توجب عليّ أن أدعوه عمّي... مهما كان».

«لماذا لا يتزوجان؟».

«يتزوجان؟» بصقت آسيا الكلمة من فمها وكأنها تلفظ طعاماً علق بين أسنانها. كانتا تتجاوزان الآن جامِعي العلب الفارغة، ولدى معاينتها عن كثب مثاليها في الحياة، أدركت آسيا أنهما لم يكونا صبيين بل فتاتين. وهذا ما زاد إعجابها. فقد كان تشويش الحدود بين الجنسين سبباً آخر جعلها ترغب في أن تصبح جامعة قمامة. وضعت سيجارة بين شفتيها، لكنها بدلاً من أن تشعلها، راحت تمتص طرفها لبرهة، وكأنها لوح شوكولاتة ملفوفاً بورق السيلوفان. ثم كشفت عن فكرة تعتمل في داخلها: «في الحقيقة، أنا واثقة من أن آرام لا يمانع من أن يتزوجها، لكن الخالة زليخة لن تقبل أبداً».

«لكن لماذا؟» أرادت آرمانوش أن تعرف.

هبت نسمة باتجاههما، وأحست آرمانوش بهبة هواء لاذعة من البحر. إن هذه المدينة مزيج من الروائح، بعضها قوية وزنخة، وبعضها حلوة ومنعشة. وكانت كلّ رائحة تقريباً تذكّر آرمانوش بنوع من الطعام، إلى حدّ

أنها بدأت تظن أن إستانبول شيئاً يمكن تناوله. فقد مضت ثمانية أيام على إقامتها هنا، وكلما مكثت أكثر، بدت لها إستانبول أكثر تشعباً وذات وجوه متعددة. لعلها بدأت تعتاد على أنها أجنبية في هذه المدينة، إن لم تكن أخذت تعتاد على المدينة نفسها.

«أظن أن هذا بسبب تجربة الخالة زليخة مع أبي الذي لا أعرفه»، تابعت آسيا كلامها، «وهذا ما يجعلها تعارض الزواج بشدة. أظن أنه توجد لديها مشكلة ثقة مع الرجال».

«حسناً، يمكنني أن أتفهم هذا»، قالت آرمانوش.

«لكن ألا تظنين أنه يوجد فرق كبير بين الجنسين عندما يتعلق الأمر بالشفاء من علاقة حبّ؟ أقصد عندما تخرج المرأة من زواج أو من علاقة حبّ فاشلة، وكلّ هذا الخراء، فهي تتجنب عادة أن تقيم علاقة أخرى لفترة من الزمن. أما الرجل، فهو على عكس ذلك تماماً. فما إن يخرج أحدهم من كارثة حتى يبدأ مسيرة البحث عن أخرى. إن الرجل لا يستطيع أن يعيش وحيداً».

هزت آرمانوش رأسها قليلاً معربة عن موافقتها، مع أن هذا النمط لم يكن ينطبق على حالة والديها تماماً. فقد كانت أمّها هي التي تزوّجت ثانية بعد طلاقها مباشرة، فيما ظل أبوها وحيداً حتى الآن. ثم سألت آرمانوش:

«آرام هذا. . . من أين هو؟».

«إنه من هذه المناطق، مثلنا تماماً»، قالت آسيا، لكنها فهمت مغزى سؤالها بسرعة. مندهشة لجهلها، أشعلت السيجارة التي كانت تمتصها وأخذت منها نفساً. كيف لم تفهم المغزى الحقيقي؟ فآرام ينتمي إلى أسرة أرمنية في إستانبول. ومن الناحية النظرية، فهو أرمني.

ومع ذلك كان يسود إحساس بأن آرام قد لا يكون أرمنياً أو تركياً أو من أيّ جنسية أخرى. بل إن آرام هو آرام فقط، إنسان فريد من نوعه.

شخص لا نظير له. إنه رجل فاتن، رومانسي جداً، أستاذ العلوم السياسية الذي يقول غالباً إنه ينحو لأن يعيش حياة صيّاد سمك في قرية بائسة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. إنه قلب هشّ، روح ساذجة، وشريحة متنقّلة من الفوضى؛ متفائل طوباوي، كثير الوعود، لا مبال؛ رجل فوضوي وذكي وصادق إلى درجة كبيرة. إنه رجل فريد من نوعه، ولم تكن آسيا تربط بينه وبين أيّ هوية جماعية. اعترتها رغبة في أن تقول شيئاً قريباً من هذا، لكنها أجابت ببساطة: «في الحقيقة، إنه أرمني».

«لقد خمّنت ذلك»، ابتسمت آرمانوش ابتسامة خفيفة.

بعد خمس دقائق وصلتا إلى صالون الوشم.

«أهلاً وسهلاً!»، صاحت الخالة زليخة بصوت متكلف أجشّ قليلاً، وعانقتهما بمودة. ومهما كان نوع العطر الذي تضعه، فقد كان قوياً ـ مزيجاً من التوابل والخشب والياسمين. وكان شعرها الأسود منسدلاً على كتفيها في خصلات جميلة، صبغت بعضها بمادة براقة جداً إلى حد أنها كلما تحرّكت تحت أضواء الهلوجين، كان شعرها يومض ويلمع. نظرت إليها آرمانوش مشدوهة، وأحست لأول مرة شعوراً بالتعاطف يمتزج فيه الخوف بالإعجاب، تخيّلت أن آسيا تشعر به نحو أمّها منذ طفولتها.

كان الصالون أشبه بمتحف صغير. فقبالة المدخل توجد صورة مؤطّرة ضخمة لامرأة لا تعرف جنسيتها، وقد أدارت ظهرها نحو الناظر لتعرض الوشم المفصّل بدقة كبيرة على جسمها. كانت صورة عثمانية مصغّرة. وبدت مثل مشهد من مأدبة، فيها بهلوان يمشي فوق الجالسين إلى المائدة، على حبل مشدود من كتف إلى الكتف الأخرى. كانت هذه الصورة التقليدية المصغرة التي توشم على ظهر امرأة معاصرة شيئاً مثيراً. وكُتبت تحتها بالإنكليزية عبارة: الوشم رسالة مرسلة من وراء الزمن!

وكانت توجد في الصالون أيضاً واجهات عرض زجاجية عرضت فيها

مئات تصاميم الوشم ومجوهرات توضع على الأنف. وقد جمعت تصاميم الوشم تحت عناوين عديدة: «ورد وأشواك»، «قلوب دامية»، «قلوب مطعونة»، «طريق الشامان»، «مخلوقات مخيفة مكسوة بالشعر»، «تنانين ملساء مخيفة»، «شعارات وطنية»، «أسماء وأعداد»، «سيمورغ وعائلة الطيور»، وأخيراً «رموز صوفية».

لا تذكر آرمانوش أنها رأت من قبل هذا العدد القليل من الناس المتواجدين في غرفة واحدة الذين يصدرون كل هذه الجلبة. فبالإضافة إلى الخالة زليخة، كان هناك رجل غريب الأطوار ذو شعر برتقالي يمسك بيده إبرة، ومراهق وأمّه (يبدو أنه كان متردداً في أن يبقى أم يذهب)، ورجلان بشعر طويل، نبتت شعيرات على ذقنيهما، وكانا يبدوان أنهما خارج المكان والزمان تماماً. وكانا يشبهان عضوين من أعضاء فرقة روك مخدّرين من سبعينيات القرن العشرين، وقد بدآ يستردان عافيتهما بعد رحلة مضنية. كان أحدهما يجلس في كرسي كبير مريح، يمضغ علكة بصوت مسموع ويدردش مع صديقه، ورسم على كاحله وشماً بشكل بعوضة أرجوانية. واكتشفت آرمانوش أن الرجل الذي يمسك الإبرة هو مساعد الخالة زليخة وفنان موهوب. وراحت آرمانوش تنظر إليه بإمعان وهو منهمك في عمله، تنصت بدهشة إلى الصوت المنبعث عن إبرة الوشم.

«لا تقلقي. فالصوت أكثر دراماتيكية من الألم نفسه»، قالت الخالة زليخة، بعد أن قرأت ما يدور في خلدها، ثم أضافت بغمزة: «كما أن الزبون قد اعتاد على هذا. ولا بد أن هذا وشمه العشرون. وفي بعض الأحيان، يصبح الوشم كالإدمان، ولا يعد وشم واحد يكفي. فمع كلّ وشم جديد، تكتشفين أنك ترغبين في رسم وشم آخر. أتساءل لماذا لم تدرج مراكز الشفاء من الإدمان في برامجها هذا الشيء حتى الآن».

لاذت آرمانوش بالصمت برهة طويلة، وركّزت بصرها بطرف عينها على عازف الروك الغريب. فإذا كان الرجل يشعر بأيّ ألم، فإنه لم يكن

يبدي ذلك، وتساءلت في نفسها، «لماذا يريد أحد أن يرسم بعوضة أرجوانية اللون على كاحله؟».

ضحكت الخالة زليخة ضحكة خافتة. «لماذا؟ إننا لا نسأل هذا السؤال هنا. وكما ترين، فإننا في هذا الصالون نرفض استبداد القرار. فمهما كان التصميم الذي يطلبه الزبون، فأنا واثقة من أن هناك سبباً، سبباً قد لا يعرفه هو نفسه، وأنا لا أسأل لماذا على الإطلاق».

«وماذا عن عمليات الثقب؟».

«ذات الشيء»، قالت الخالة زليخة، مشيرة إلى الحلق في أنفها وهي تبتسم. وأضافت، «إن عمره تسع عشرة سنة. لقد فعلت ذلك بنفسي عندما كنت في عمر آسيا».

«حقاً؟».

«نعم، دخلت إلى الحمّام، واستخدمت جزرة صغيرة وإبرة معقّمة وقطعاً من الثلج للتخدير، والكثير من الغضب أيضاً. كان يعتريني غضب شديد ضدّ كلّ شيء، لكن غالباً ضد عائلتي. قلت لنفسي إني سأفعل هذا وسأثقب أنفي. كانت يداي ترتعشان من شدة توتري، لذلك ثقبته بطريقة خاطئة في المرة الأولى، وآذيت الغشاء. نزفت كثيراً. لكنني تعلمت بعد ذلك، وثقبته في المنخر».

«حقاً»؟ قالت آرمانوش مرة أخرى، لكنها بدت حائرة هذه المرة لما آل إليه الحديث.

«نعم!» ربتت الخالة زليخة على أنفها بفخر، «لقد وضعت فيه حلقة، وخرجت من الحمّام هكذا. آنذاك، كنت أستمتع في أن أزعج أمّي وأجعلها تفقد عقلها».

عندما سمعت آسيا الكلمات الأخيرة من مكانها، رمت أمّها بنظرة ضاحكة.

«لكن ما أحاول أن أقوله هو، أني ثقبت أنفي لأنه كان شيئاً محرّماً. تفهمين ما أقصد؟ إذ لم يكن يسمح لفتاة تركية تنتمي إلى عائلة تقليدية أن تضع حلقة في أنفها، لذلك مضيت وفعلت ذلك وحدي. لكن الزمن تغيّر الآن. ولهذا السبب نحن هنا. ففي هذا الصالون ننصح زبائننا، ونرفض أحياناً بعض الأشخاص، لكننا لا نقدم لهم أحكاماً. لا نسأل عن السبب على الإطلاق. لقد تعلّمت ذلك في وقت مبكر من الحياة. فإن أنت أطلقت أحكاماً على الناس، فإنهم سيذهبون ويفعلونها في جميع الأحوال».

حوّل المراهق نظرته من واجهة العرض الزجاجية إلى الخالة زليخة وسألها: «هل يمكنك أن تطيلي ذيل هذا التنين بحيث يغطّي ذراعي كلها؟ أريد أن أجعله يمتد من مرفقي حتى رسغي، وكأنه يزحف على ذراعي».

قبل أن تجيبه الخالة زليخة، تدخلت الأمّ قائلة: «هل أنت مجنون؟ لا يمكن! لقد اتفقنا أن ترسم شيئاً صغيراً وبسيطاً، مثل طير أو خنفساء صغيرة. لن أسمح لك أبداً أن ترسم ذيل تنين. . .».

لساعتين اثنتين، راحت آسيا وآرمانوش تراقبان سير العمل في الصالون فيما كان الزبائن يأتون ويذهبون. ودخل خمسة طلاب مدرسة ثانوية، وقال كلّ منهم إنه يريد أن يضع حلقة في حاجبه، لكن ما أن ثقبت الإبرة المعقّمة حاجب الطالب الأول، حتى غيّر الآخرون رأيهم. ثم دخل مشجع لإحدى فرق كرة القدم وطلب رسم شعار فريقه على صدره. ثم دخل أحد القوميين المتطرفين، وطلب أن يرسم العلم التركي على طرف إصبعه كي يلوّح بالعلم كلما هزّ إصبعه في وجه الآخرين. وأخيراً، دخلت مطربة مخنّثة شقراء أرادت أن تكتب اسم حبيبها على مفاصل أصابعها.

ثم دخل رجل متوسط العمر بدا شكله طبيعياً بشكل غير عادي بين الزبائن غير العاديين في صالون الوشم. إنه آرام مارتيروسيان.

كان آرام رجلاً طويلاً، وسيماً وممتلئاً قليلاً، له وجه لطيف لكنه مرهق، ولحية سوداء، وشعر وخطه الشيب، وغمازتان عميقتان تظهران كلما ابتسم. وكانت عيناه تشعان ذكاءً من وراء نظارته ذات الإطار السميك. ومن الطريقة التي كان ينظر فيها إلى الخالة زليخة، يستطيع المرء أن يتبين الحبّ الموجود بينهما على الفور. الحبّ والاحترام والتكامل. فعندما كان يتكلم، كانت الخالة زليخة تكمّل قسماته، وعندما كانت تومئ، كان آرام يكمّل كلماتها. كانا شخصين معقدين، يبدو أنهما توصلا إلى انسجام رائع معاً.

عندما بدأت آرمانوش تحدثه، بدت لغتها الإنكليزية وكأنها لغة ثانية، كما كانت تفعل عندما تلتقي بشخص جديد في إستانبول. لذلك قدّمت نفسها بتمهل وبإيقاع بطيء جداً، لغة إنكليزية تكاد تكون لغة أطفال. وفوجئت بسماع إنكليزية آرام التي أخذت تتدفق بطلاقة، بلهجة بريطانية حاذقة.

«لغتك الإنكليزية جيدة جداً»، قالت له آرمانوش: «هل لي أن أسألك كيف أتقنت اللكنة البريطانية؟».

«شكراً»، قال آرام، «لقد أنهيت دراستي الجامعية والعليا في الجامعة في لندن. لكن يمكننا أن نتكلّم باللغة الأرمنية إن أردت».

«لا أستطيع أن أتكلم الأرمنية»، هزّت آرمانوش رأسها: «فعندما كنت طفلة، علمتني جدتي القليل منها، لكن بسبب انفصال أبويّ، لم أكن أمكث في مكان واحد لمدة طويلة، وكانت هناك عراقيل دائماً. وبين العاشرة والثالثة عشرة، كنت أرتاد في الصيف معسكراً للشبان الأرمن. كان ذلك ممتعاً وتحسنت لغتي الأرمنية هناك، لكنها تدهورت بعد ذلك».

«لقد تعلّمت الأرمنية من جدتي أيضاً»، قال آرام مبتسماً: «في الواقع قالت لي أمّي وجدتي يجب عليّ أن أتعلم لغتين، لكنهما اختلفتا ما هي

اللغة الثانية. فقد قالت أمّي من الأفضل أن أتكلّم اللغة التركية في المدرسة والإنكليزية في البيت، بما أني كنت سأغادر البلد عندما أكبر. لكن جدتي كانت حازمة في هذا الأمر. فقد أرادت أن أتعلّم التركية في المدرسة، والأرمنية في البيت».

فُتنت آرمانوش بهالة آرام، لكنها فُتنت بتواضعه أكثر. وراحا يتحدثان قليلاً عن الجدّات الأرمنيات في الشتات وفي تركيا وفي أرمينيا.

في الساعة السادسة والنصف مساء، سلّمت الخالة زليخة المخزن لمساعدها، وتوجهوا هم الأربعة إلى حانة قريبة.

قالت آسيا لآرمانوش: «قبل أن تغادري إستانبول، يريد آرام والخالة زليخة أن يصطحبانا إلى حانة كي ترى أمسية نموذجية من الشراب».

بينما كانوا يعبرون شارعاً خفيف الإضاءة، شاهدوا عمارة سكنية تطل من نوافذها مومسات مخنثات يراقبن المارة. وكانت المومستان في الطابق الأول قريبتين جداً من الشارع إلى حد أن آرمانوش رأت تفاصيل وجهيهما المطليين بطبقة كثيفة من المكياج. كانت إحداهما امرأة مكتنزة ذات شفتين غليظتين، وشعر سميك أحمر يتوهج مثل ألعاب نارية في الظلام. قالت شيئاً بالتركية وضحكت.

«ماذا قالت؟» سألت آرمانوش آسيا.

«قالت إن أساوري رائعة وكثيرة جداً عليّ».

ولدهشة آرمانوش، نزعت آسيا إحدى أساورها ذات الخرز وقدمتها إلى الخنثى ذات الشعر الأحمر، التي قبلت الهدية بسعادة، ووضعتها في يدها في الحال، وبأصابع مشذّبة ومطلية بلون قرمزي، رفعت علبة كوكاكولا دايت، وكأنها ترفع نخباً لآسيا.

تساءلت آرمانوش التي راحت تراقب المشهد بعينين معجبتين، ماذا ستقول جين جينيت عن هذا المشهد. تلك الكولا بطعم فانيلا الكرز

الدايت، وأساور الخرز، ورائحة المني اللاذعة، والبهجة الطفولية التي يمكنها أن تتعايش جميعها في شارع قبيح في إستانبول؟

* * *

كانت الحانة نظيفة وأنيقة يسودها جو من المرح والمؤانسة بالقرب من زقاق الزهرة. وما أن جلسوا، حتى ظهر نادلان يدفعان عربة عليها أطباق من المازاوات.

«آرمانوش، لماذا لا تفاجئينا مرة أخرى بمفردات المأكولات التي تعرفينها؟» قالت لها الخالة زليخة.

«حسناً، لنرى ماذا هناك، يالانجي صرما، طرشي، باتليجان، توبيك، إنجينار. . .» بدأت آرمانوش تسمّي الأطباق التي كان النادلان يضعانها على المائدة.

استمر الرّواد يأتون أزواجاً أو جماعات، ولم تمض عشرون دقيقة حتى اكتظت الحانة. وفي وسط هذه الوجوه والأصوات والروائح غير المألوفة، فقدت آرمانوش إحساسها بالمكان. فقد أحست أنها ربما كانت في أوروبا أو في الشرق الأوسط أو في روسيا. وشربت الخالة زليخة وآرام العرق. واحتست آسيا وآرمانوش نبيذاً أبيض. ودخّنت الخالة زليخة سجائر، وراح آرام يدخن سيجاراً، بينما راحت آسيا، التي لا تدخن أمام أمّها، تمضغ اللحم داخل فمها للتعويض عن ذلك.

«إنك لا تدخّنين هذا المساء»، قالت آرمانوش لآسيا، الجالسة إلى جانبها.

«أيوه، حدثيني عنها»، تنهدت آسيا، ثم خفضت صوتها ليصبح همساً، «هس! الخالة زليخة لا تعرف أني أدخّن».

فوجئت آرمانوش أن آسيا كانت تستمتع بإغضاب أمّها، بتمرد وبسادية

تقريبا، كلما أتيح لها ذلك، لكن عندما وصل الأمر إلى تدخين سيجارة أمامها، أصبحت فتاة طيعة.

وخلال الساعة التالية، أخذوا يدردشون بتكاسل فيما كان الندل يجلبون صحناً تلو الآخر. ففي البداية جلبوا المازاوات ـ الأطباق الباردة ـ ثم تلتها الأطباق الدافئة، ثم الأطباق الحارة، والحلويات ثم القهوة. لا بد أن هذا هو الأسلوب المتبع هنا، قالت آرمانوش لنفسها، فبدلاً من أن تختار من قائمة الطعام، تأتي القائمة كلها إليك.

وعندما اشتدت الضوضاء وازدادت سحب الدخان في الحانة، اقتربت آرمانوش من آرام، واستجمعت شجاعتها لتطرح عليه السؤال الذي كان يلحّ عليها كثيراً: «آرام، فهمت أنك تحبّ إستانبول، لكن ألم تفكر أبداً بالمجيء إلى أمريكا؟ أقصد، يمكنك أن تأتي إلى كاليفورنيا، مثلاً. فهناك جالية أرمنية كبيرة، كما تعرف...».

حدّق آرام فيها دقيقة كاملة، وكأنه يدقق في تفاصيل وجهها، حتى غاص في كرسيه، وضحك ضحكة محيّرة. انزعجت آرمانوش قليلاً من هذه الضحكة، التي شعرت أنها أسكتتها. لم تكن متأكدة إن كانت قد فهمت جيداً، انحنت إلى الأمام وحاولت أن توضح ما قالته أكثر: «إن كانوا يضطهدونك هنا، فيمكنك أن تأتي إلى أمريكا دائماً. فهناك جاليات أرمنية عديدة، وستكون أكثر من سعيدة لأن تقدم لك ولأسرتك يد المساعدة».

لم يضحك آرام هذه المرة. بل ابتسم ابتسامة دافئة، دافئة لكنها متعبة قليلاً.

«لماذا أريد أن أفعل ذلك يا عزيزتي آرمانوش؟ فهذه المدينة مدينتي. فقد ولدت ونشأت في إستانبول. إن تاريخ عائلتي في هذه المدينة يعود إلى ما لا يقل عن خمسمائة سنة. إن أرمن إستانبول ينتمون إلى إستانبول،

شأن الأكراد والأتراك واليونانيين واليهود. كنا نعيش في الماضي معاً، لكننا أخفقنا بعد ذلك. ولا يمكننا أن نخفق مرة أخرى».

ظهر النادل وجلب هذه المرة كالاماري وبلح البحر ومعجّنات مقلية.

«إني أعرف كلّ شارع من شوارع هذه المدينة»، واصل آرام، وجرع رشفة أخرى من العرق: «أحبّ أن أتمشى في هذه الشوارع في الصباح وفي المساء وفي الليل عندما أكون مرحاً ومنتشياً؛ أحبّ أن أتناول طعام فطوري مع أصدقائي على شاطئ البوسفور أيام الأحد؛ أحبّ أن أتمشى وحدي وسط الناس. إني أعشق جمال المدينة الفوضوي هذا، العبّارات، الموسيقى، الحكايات، الحزن، الألوان، والفكاهة السوداء...».

لاذا بالصمت، وألقى كلّ منهما نظرة بعيدة ونادرة إلى الآخر، وأدركا أنه ربما كانت هناك أكثر من مسافة جغرافية تفصل بينهما ـ فقد ظنّ أنها متأمركة كثيراً، وقالت في نفسها إنه متأترك كثيراً. الفجوة الجارحة بين الأطفال الذين مكثوا، والأطفال الذين اضطروا للمغادرة.

«انظري، لا يوجد لدى الأرمن في الشتات أصدقاء أتراك. ومعرفتهم الوحيدة بالأتراك هي من خلال القصص التي سمعوها من أجدادهم أو من آخرين. وجميع هذه القصص فظيعة ومفجعة للغاية. لكن صدقيني، كما هو الحال في أي أمة، يوجد في تركيا أيضاً أناس طيبون وأناس سيئون. إن الأمر بهذه البساطة. فلديّ أصدقاء أتراك هم أقرب إليّ من أخي الذي هو من لحمي ودمي. وهناك بالطبع ـ رفع كأسه وأشار بها إلى الخالة زليخة ـ حبي المجنون هذا».

أدركت الخالة زليخة أن اسمها قد ذكر فغمزتهما، ورفعت كأس العرق، وقالت «Serefe»، وتبعها الجميع وراح أحدهم يقرع كأسه بالآخر ويقول «Serefe» هذه الكلمة، التي سرعان ما تبين أنها لازمة تتكرر كلّ عشر أو خمس عشرة دقيقة. وساعة أخرى وسبعة Serefe أخرى، كانت

عينا آرمانوش متوهجتين بالكحول. وراحت تتسلى بمراقبة نادل أبرص يجلب الأطباق الساخنة ـ السمك البحري المشوي المخطّط فوق طبقة مفروشة بالفلفل الأخضر، وسمك السلور المنقوع بالريحان مع السبانخ، وسمك السلمون المشوي على الفحم، والروبيان المقلي في صلصة الثوم الكثيرة التوابل.

ضحكت آرمانوش وهي ثملة قبل أن تلتفت إلى آرام وتسأله: «أخبرنا، لا بد أن يكون لديك بعض الأوشام أيضاً. لا بد أن الخالة زليخة قد رسمت لك وشماً».

«مستحيل»، قال آرام من وراء ستارة من الدخان الرقيق التي تشكلت في دوائر من سيجاره: «إنها لا تسمح لي أن أفعل ذلك».

«نعم»، أضافت آسيا: «إنها لا تسمح له بأن يضع وشماً».

«حقاً؟» قالت آرمانوش مندهشة عندما التفتت إلى الخالة زليخة، «ظننت أنك مولعة بالأوشام».

«نعم، أنا كذلك»، أجابت الخالة زليخة: «فأنا لا أعارض أن يضع وشماً، بل أعارض التصميم الذي يطلبه».

ابتسم آرام. «إن الوشم الذي أريده هو شجرة تين رائعة. لكن، بخلاف الأشجار الأخرى، تكون شجرة التين هذه مقلوبة رأساً على عقب، جذورها معلقة في الهواء. فبدلاً من أن تكون جذورها ممتدة في الأرض، يجب أن تكون ممتدة في السماء. إنها في غير مكانها، لكنها ليست بدون مكان».

لاذوا جميعهم بالصمت بضع ثوان، وراحوا يراقبون ضوء الشمعة المرتعش على الطاولة.

«إن شجرة التين تلك...» أشعلت الخالة زليخة آخر سيجارة في علبتها ونفثت دخانها دون قصد باتجاه آسيا: «إن شجرة التين طالع

مشؤوم. إنها لا تجلب الحظّ السعيد. أنا لا أمانع في تنفيذ رغبة آرام في أن تكون جذوره في الهواء، لكني أعترض على شجرة التين. فإذا اختار أن تكون شجرة كرز، مثلاً، أو شجرة بلوط، وجذورها في الهواء، فإني سأفعل ذلك في الحال».

في تلك اللحظة دخل إلى الحانة أربعة موسيقيين غجر، يرتدون جميعهم قمصاناً بيضاء حريرية وبناطيل سود، ويحملون آلاتهم الموسيقية - عود وكلارينت وقانون ودربكة. اشتد الحماس في صفوف الزبائن، الذين بعد أن أكلوا وشربوا حتى الثمالة، أصبحوا مستعدين للغناء.

عندما وقف الموسيقيون بالقرب منهم، شعرت آرمانوش بالخجل. وكي لا يحرجونها، لم يطلبوا منها أن تغني. وتبين أن آسيا لا تجيد الغناء. وأخذوا ينصتون للخالة زليخة وهي ترافق الموسيقيين بصوت رخيم، غير الصوت الأجش الذي كان يصدر عنها عندما تدخن سيجارتها. ولاحظت آرمانوش أن آسيا كانت تنظر إلى أمّها بنظرة تشي بالفضول.

عندما طلب رئيس الفرقة إن كانوا يريدون سماع أغنية معيّنة يحبون سماعها، لكزت الخالة زليخة آرام وقالت: «هيا، اطلب أغنية. غنِّ، يا عندليبي!».

بخجل انحنى آرام إلى الأمام، ثم همست شيئاً في أذن الموسيقي. وما أن بدأت الفرقة تعزف اللحن المطلوب، لمفاجأة آرمانوش، حتى بدأ آرام يغني - لا بالتركية، ولا بالإنكليزية، بل بالأرمنية.

في كلّ صباح عند الفجر

آه... أقول لحبيبتي،

إلى أين تذهبين؟

تدفّق صوته بطيئاً وحزيناً، فيما ازدادت سرعة الإيقاع مع ارتفاع صوت

الكلارينت والدربكة التي يصعب التحكم بها في الخلفية. وارتفع صوت آرام ثم هبط في موجات رخيمة. في البداية، كان صوته خجولاً، لكنه سرعان ما أصبح ثابتاً في لحنه.

إنها السلسال الذهبي

من ذكرياتي،

إنها الدرب إلى

قصة حياتي.

حبست آرمانوش أنفاسها، لم تفهم جميع الكلمات، لكنها شعرت بحزن عميق في قلبها. عندما رفعت رأسها، شدتها قسمات الخالة زليخة. كانت النظرة التي جسّدت الخوف من السعادة والتي لا تظهر إلا على الذين يقعون في الحبّ فجأة.

عندما انتهت الأغنية وانتقل الموسيقيون إلى الطاولة المجاورة، ظنت آرمانوش أن الخالة زليخة ستقبّل آرام. لكنها بدلاً من ذلك، ضغطت على يد آسيا برقة، وكأنها تعترف لها بأن حبّها لرجل أتاح لها الفرصة بأن تفهم حبّها لابنتها بشكل أفضل. «حبيبتي»، همهمت، وزحفت رجفة ألم إلى نبرتها. لكن إذا كانت الخالة زليخة تخطّط لقول شيء لابنتها، فقد كتمت هذه الرغبة بسرعة. فأخذت علبة جديدة من السجائر، وقدمت لها سيجارة.

عندما رأت مشاعر أمّها بدأت تطفو إلى السطح، فوجئت آسيا بأنها قدمت لها سيجارة. أشعلت السيجارة لنفسها ثم لأمّها. وعندما تصاعد الدخان بطيئاً في دوائر بينهما، ابتسمت الابنة والأمّ في وجه إحداهما الأخرى. وبدا أنهما متشابهتان على نحو مذهل من هذه الزاوية والضوء، وجهان صبّهما ماض لا يعرف أحد عنه شيئاً، وقد اختارت الأخرى ألا تتذكر.

عند ذلك شعرت آرمانوش بنبض المدينة لأول مرة منذ أن وصلت إلى إستانبول. فقد عرفت فجأة لماذا وكيف يقع الناس في حبّ إستانبول، رغم كلّ الحزن الذي قد تسببه لهم. فليس من السهل ألا تقع في حبّ مدينة بهذا الجمال المفجع.

بهذا الاعتراف رفعت كأسها وقالت: «Serefe».

١٤

مـــاء

هل أدخل وأطلب منهما أن تخفضا صوتيهما؟» سألت الخالة فريدة الواقفة أمام غرفة البنات، مثبّتة نظرتها على مقبض الباب.

«أوه، اتركيهما وشأنهما!» قالت الخالة زليخة من فوق الأريكة التي ارتمت عليها. «إنهن منتشيات قليلاً، وعندما تكوني في حالة انتشاء فإنك تستمعين إلى الموسيقى بصوت مرتفع»، ثم كررت كلمة، «مرتفع» بصوت عال.

«منتشيات»، جأرت الجدّة كلثوم، «انتبهي، لماذا هما منتشيات؟ ألا يكفي أنك تجلبين العار إلى هذه العائلة دائماً؟ انظري إلى التنورة التي ترتدينها. إن مناشف تجفيف الصحون في المطبخ أطول من تنوراتك! إنك أمّ بدون زوج، مطلّقة. اسمعيني جيداً! لم أر في حياتي امرأة مطلقة تضع حلقة في أنفها. يجب أن تخجلي من نفسك يا زليخة!».

رفعت الخالة زليخة رأسها عن الوسادة التي كانت تحتضنها وقالت: «ماما، لكي أكون مطلقة، كان يجب أن أكون متزوجة أولاً. لا تحرّفي الحقائق. لا يمكن أن أُسمّى مطلّقة أو أرملة أو أيّ اسم من تلك الأسماء الدبقة التي تحتفظين بها في قاموسك للنساء المنكودات الحظ. فابنتك هذه خاطئة ترتدي تنورات قصيرة، وتحبّ أن تضع حلقة في منخرها، وتحبّ الطفلة التي أنجبتها خارج إطار الزواج. أأعجبك ذلك أم لم يعجبك!».

«ألا يكفي أنك أفسدت ابنتك وأرغمتها على الشراب؟ لماذا جعلت الضيفة المسكينة تشرب؟ إنها مسؤولية مصطفى؛ إنها ضيفة أخوك في هذا البيت. كيف تجرئين على إفساد البنت!».

«مسؤولية أخي! نعم، صحيح!» ضحكت الخالة زليخة بكآبة، وأغمضت عينيها.

في هذه الأثناء، كان جوني كاش يغني بأعلى صوته في غرفة البنات. وكانت الفتاتان تجلسان بجانب بعضهما أمام طاولة المكتب تحدّقان في شاشة الكمبيوتر، وسلطان الخامس متكوّر بينهما، عيناه نصف مغمضتين. كانت الفتاتان مستغرقتين في الإنترنت إلى حد أنهما لم تسمعا النقاش الدائر خارج باب غرفتهما. فقد كانت آرمانوش قد دخلت إلى مقهى كونستانتينوبوليس، وعزمت على أن تصطحب آسيا معها هذه المرة.

كتبت: مرحبا بالجميع! ألم تفتقدوا السيدة روحي المنفية؟

عادت مراسلتنا من إستانبول. أين كنت؟ هل إلتهمك الأتراك؟ كتب المناهض للخافورما.

حسناً، إحدى الملتهمات معي الآن. أريد أن أقدم لكم جميعاً إحدى صديقاتي التركيات.

أعقب ذلك فترة صمت.

واسمها المستعار بالطبع: فتاة اسمها تركية.

ماهذا؟ لم يتمالك أليكس الرواقي نفسه من الامتناع عن السؤال.

إنه تفسير آخر لعنوان أغنية جوني كاش هذه. على أي حال، يمكنك أن تسألها بنفسك. ها هي. أعزائي في مقهى كونستانتينوبوليس، أعرّفكم على «فتاة اسمها تركية». «فتاة اسمها تركية» أعرّفك على رواد مقهى كونستانتينوبوليس.

مرحبا! تحيات من إستانبول، كتبت آسيا.

لم يأت ردّ من أحد.

أرجو أن تأتوا في المرة القادمة أنتم أيضاً إلى إستانبول مع آرمان...

لم تدرك آسيا أنها أخطأت إلا عندما صفعتها آرمانوش على يدها... مع السيدة روحي المنفية.

أوه، شكراً. لكنني بصراحة لست في مزاج لأن أقوم بجولة سياحية إلى بلاد سبّبت الكثير من المعاناة لجميع أفراد أسرتي. قال المناهض للخافورما مرة أخرى.

الآن توقفت آسيا عن الرّد.

انظري، لا تفهمينا خطأ، لا يوجد لدينا شيء ضدك. قال التعايش البائس. إني واثق من أن المدينة لطيفة وجميلة، لكننا في الحقيقة لا نثق بالأتراك. سيتقلب ميسروب في قبره لو، لا سمح آرامازت، نسيت ماضيّ بهذا الشكل.

«من هو ميسروب؟ «سألت آسيا آرمانوش بصوت يكاد يتجاوز الهمس، وكأنهم سيسمعونها.

حسناً. لنبدأ بالأساسيات. الحقائق. إذا تمكّنا من عرض الحقائق يمكننا عندئذ أن نتحدّث عن الأمور الأخرى، قالت السيدة طاووس/سيرامارك. لنبدأ بهذه الرحلة السياحية إلى إستانبول. هذه المساجد الرائعة التي تعرضونها على السيّاح اليوم، من صممها؟ سنان! فقد صمّم القصور، والمستشفيات، والخانات، والقنوات... إنكم تستغلون ذكاء سنان ثم تنكرون أنه كان أرمنياً.

لم أكن أعرف أنه أرمني، كتبت آسيا مشوشة. لكن سنان اسم تركي.

حسناً، إنكم تحسنون تتريك أسماء الأقلّيات، أجاب مناهض الخافورما.

حسناً، أرى أن ما تقوله صحيح. صحيح أن التاريخ القومي التركي

تحكمه الرقابة، لكن هذا هو حال التاريخ القومي في جميع البلاد. فالدول القومية تخلق أساطيرها الخاصة بها ثم تؤمن بها. رفعت آسيا رأسها وكوّرت كتفيها وتابعت الطباعة. في تركيا يوجد أتراك، وأكراد، وقوقازيون، وجورجيون، وبونتيانس، ويهود، وأبازاس، ويونانيون... وأنا أجد أنه من الإغراق في التبسيط والخطورة بمكان التعميم على هذا النحو. إننا لسنا برابرة متوحشون. بالإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من دارسي الثقافة العثمانية سيقولون لك إنها كانت ثقافة عظيمة في أشكال شتى. وكانت أعوام ١٩١٠ فترة عصيبة للغاية. لكن الأشياء لم تعد كما كانت قبل ١٠٠ سنة.

تدخلت السيدة طاووس/ سيرامارك على الفور وكتبت، لا أعتقد أن الأتراك تغيّروا على الإطلاق. فلو تغيّروا، لاعترفوا بالمجازر.

المجزرة كلمة مشحونة بقوة، ردّت فتاة اسمها تركية. إنها تعني أنها إبادة منظّمة، جيدة التخطيط، ومفلسفة. صدقاً، لست متأكّدة إن كانت الدولة العثمانية كانت هكذا في ذلك الوقت. لكني أعترف بالظلم الذي لحق بالأرمن. أنا لست مؤرخة. ومعرفتي محدودة وغير دقيقة، وكذلك هي معلوماتكم.

كما ترين، هنا يكمن الفرق. ليس للمظلوم سوى الماضي، علّقت ابنة سافو.

إذا لم تكوني تعرفين قصّة أبيك، فكيف تتوقّعين أن تخلقي قصتك الخاصة بك؟ انضمت السيدة طاووس/ سيرامارك.

ابتسمت آرمانوش لنفسها. حتى الآن، كان كلّ شيء يسير على النحو الذي تصورته، باستثناء البارون باغداساريان، الذي لم يردّ بعد على أيّ شيء.

خلال ذلك، كانت عينا آسيا لا تزالان مثبتتين على الشاشة، وكتبت،

إني أدرك خسارتكم وحزنكم. وأنا لا أنكر الأعمال الوحشية التي ارتكبت. إنه ماضيّ الذي أنكفئ عنه. أنا لا أعرف من هو أبي أو ما هي قصته. لو أتيحت لي الفرصة لأعرف المزيد عن ماضيّ، حتى لو كان حزيناً، فهل أختار أن أعرفه أم لا؟ إنها معضلة حياتي.

إنك مليئة بالتناقضات، أجاب مناهض الخافورما.

جوني كاش لا يهمه ذلك! تدخلت السيدة روحي المنفية.

قولوا لي، ماذا يمكنني أنا كتركية عادية أن أفعل الآن لأخفف من آلامكم؟

لم يكن تركي آخر قد طرح مثل هذا السؤال على الأرمن في مقهى كونستانتينوبوليس من قبل. فقد كان قد دخل زائران تركيان إلى المقهى مرّتين منذ فترة، وكانا كليهما من الشبان القوميين المتعصبين، وحاولا إثبات أن الأتراك لم يرتكبوا أي خطأ بحق الأرمن، وإذا كان ثمة من سبب، فالأرمن هم من ثار على النظام العثماني وقتلوا الأتراك. ومضى أحدهم يقول إنه إذا كان النظام العثماني مجرماً حقاً كما يدّعون وقتل الأرمن، فكيف يوجد أرمن الآن يتحدثون عن ذلك. وإن وجود الكثير من الأرمن الذين يسوطون الأتراك بسياطهم دليل واضح على أن العثمانيين لم يضطهدونهم.

حتى اليوم كان لقاء المقهى كونستانتينوبوليس مع الأتراك عبارة عن تبادل عاصف من التشهير ومناجاة النفس. أما هذه المرّة فكانت النبرة مختلفة تماماً.

يمكن لدولتك أن تعتذر، أجاب التعايش البائس.

دولتي؟ أنا لا علاقة لي بالدولة، كتبت آسيا وهي تفكّر برسّام الكاريكاتير المدمن الذي قُدِّم إلى القضاء لأنه رسم رئيس الوزراء في هيئة ذئب. انظروا، أنا عدمية! ولم تذكر بيانها الشخصي عن العدمية.

إذن تستطيعين أنت نفسك أن تعتذري، تدخّل المناهض للخافورما.

أتريدني أن أعتذر عن شيء لا علاقة لي به شخصياً؟

أنت تقولين ذلك، كتبت السيدة طاووس / سيرامارك. إننا نولد جميعنا في الاستمرارية مع مرور الزمن ويظل الماضي يعيش في الحاضر. إننا نأتي من سلالة عائلية، ثقافة، أمة. هل ستقولين عفا الله عما سلف.

فيما راحت عينا آسيا تحدّقان في الشاشة، شعرت بالارتباك، وكأنها في وسط محاضرة تقدمها ونسيت ماذا ستقول بعد ذلك. راحت تمسّد رأس السلطان الخامس عدة مرات وهي شاردة الذهن، قبل أن تعود أصابعها إلى لوحة المفاتيح.

هل أنا مسؤولة عن جريمة أبي؟ سألت فتاة اسمها تركية.

إنك مسؤولة عن الإقرار بجريمة أبيك، أجاب المناهض للخافورما.

اضطربت آسيا من فظاظة هذا القول، الذي أغضبها قليلاً، لكنه أعجبها أيضاً. وفي داخل الوهج المشعّ من جهاز الكمبيوتر، أصبح وجهها شاحباً وساكناً. كانت تحاول دائماً أن تبعد ماضيها بقدر ما بوسعها عن المستقبل الذي كانت ترجو أن تحققه. بأمل ألا يستغرق الماضي كل اهتمامها، مهما كانت ذكريات الماضي، سواء كان مظلماً أو كئيباً. والحقيقة أنها، كانت تعرف أن الماضي يعيش في الحاضر، رغم أنها كانت تكره أن تقرّ بذلك.

طوال عمري كنت أريد أن أكون بدون ماضي. فكوني لقيطة لا يعني أنه لا يوجد لديّ أب أكثر من أن لا يكون لديّ ماضي... وها أنت الآن تطلب مني أن أمتلك الماضي وأن أعتذر من أجل أب أسطوري!

لم يأت أي ردّ، لكن كان يبدو ان آسيا لم تكن تنتظر رداً. بل استمرت في الطباعة وكأن أصابعها تتصرّف من تلقاء ذاتها، وكأنها كانت تبحر بعينين مغمضتين.

ومع ذلك، ربما سيساعدني وجودي بلا ماضي في نهاية الأمر في التعاطف مع ارتباطكم بالتاريخ. يمكنني أن أدرك أهمية الاستمرارية في الذاكرة الإنسانية. يمكنني أن أفعل ذلك... وإنني أعتذر عن جميع الآلام التي ألحقها أسلافي بأسلافكم.

لم يقتنع مناهض الخافورما فقاطعها قائلاً: إن اعتذارك لنا لا يعني الكثير. اعتذري لنا بصوت مرتفع أمام الدولة التركية.

هيا! سحبت آرمانوش فجأة لوحة المفاتيح نحوها وكتبت، غير قادرة على مقاومة الإغراء في التدخّل. هذه السيدة روحي المنفية، ما الذي ستحصل عليه سوى أن تتورط في مشكلة؟».

يجب أن تعاني من هذه المشكلة إن كانت صادقة! انفجر المناهض للخافورما.

لكن قبل أن يجيب أحد على ذلك، جاء تعليق غير متوقّع على الإطلاق.

حسناً، الحقيقة يا عزيزتي السيدة روحي المنفية ويا عزيزتي الفتاة اسمها تركية... إن بعض الأرمن في الشتات لا يريدون أن يعترف الأتراك بالمجازر. فإذا فعلوا ذلك، فإنهم سيسحبون البساط من تحت أقدامنا ويسلبون أقوى رابطة توحّدنا. فمثل الأتراك الذين اعتادوا على إنكار خطئهم، اعتاد الأرمن على التلذذ بوضع أنفسهم في شرنقة أن يكونوا الضحيّة. يبدو أنه توجد بعض العادات القديمة التي يجب أن تتغير من كلا الطرفين.

هذا ما قاله البارون باغداساريان.

* * *

«ما زالتا مستيقظتين»، راحت الخالة فريدة تذرع خارج غرفة البنات يميناً ويساراً، «هل هناك شيء؟».

فقد كانت النساء الأكبر سنّا قد أوين إلى الفراش، وكذلك فعلت الخالة شكرية، بما أنها معلّمة منضبطة. وغفت الخالة زليخة على الأريكة.

«لماذا لا تأوين إلى فراشك، يا أختي، ودعيني أحرس بابهما لأتأكد من أنهما على ما يرام» قالت الخالة بانو وضغطت على كتف أختها. ففي بعض الأحيان، عندما يشتد مرضها، كان يعتري الخالة فريدة خوف شديد من الضرر الذي قد يأتي من أيّ شخص أو من أيّ شيء في العالم الخارجي.

«دعيني آخذ النوبة الليلية»، قالت الخالة بانو مبتسمة: «اذهبي ونامي. ولا تنسي أن عقلك يصبح غريباً في الليل. لا تتحدثي إلى غرباء».

«نعم»، أومأت الخالة فريدة، وبدت للحظة مثل فتاة صغيرة أعجبتها حكاية. وبدا واضحاً أنها أحست بالارتياح واتجهت إلى غرفتها.

عندما أغلقتا الانترنت، نظرت آرمانوش في ساعتها. لقد حان وقت مخابرة أمّها. فخلال هذا الأسبوع، اعتادت على أن تخابرها يومياً في الوقت ذاته، وكانت روز تلومها في كلّ مرة لأنها لم تكن تخابرها أكثر. حاولت ألا تبدو متضايقة من هذا النمط الثابت، اتصلت بالرقم وانتظرت أمّها لترفع السماعة.

«آمي!!!» ارتفع صوت روز ليصبح صراخاً، «حبيبتي، هل هذا أنت؟».

«نعم، ماما. كيف حالك؟».

«كيف حالي؟ كيف حالي؟» كرّرت روز، وقد بدت مرتبكة وصوتها مكتوماً، «يجب أن أغلق السماعة الآن، لكن عديني، عديني، أن تتصلي بي بعد عشر. . . لا، لا، عشر دقائق لا تكفي، بعد خمس عشرة دقيقة تماماً. يجب أن أغلق الآن وأستجمع أفكاري وسأنتظر مخابرتك. عديني، عديني»، ردّدت روز بشكل هستيري.

«أوكي، ماما، أعدك»، تلعثمت آرمانوش، «ماما، هل أنت على ما يرام؟ ماذا يجري؟» لكن روز كانت قد أغلقت الخط.

نظرت آرمانوش إلى آسيا مذهولة، وشاحبة، وحزينة وهي تمسك الهاتف بيدها، وقالت: «لقد طلبت مني أمي أن أتصل بها بعد قليل ولم تسألني لماذا لم أتصل من قبل. هذا ليس من عادتها. إنها ليست على طبيعتها».

«أرجوك استرخي»، تقلّبت آسيا في سريرها، ورفعت رأسها من تحت اللحاف، وقالت: «ربما كانت تقود سيارتها أو شيئاً من هذا القبيل، ولا تستطيع أن تتكلّم على الهاتف».

لكن آرمانوش هزّت رأسها، ظلّ القلق يكسو وجهها: «يا إلهي، هناك شيء على غير ما يرام. ثمة مكروه».

* * *

بعد أن تورمت عيناها من شدة البكاء، واحمرّ أنفها إلى درجة تثير الشفقة، مدّت روز يدها إلى مناديل ورقية عندما انفجرت في البكاء. كانت تشتري دائماً المناديل الورقية ذاتها من المخزن نفسه: متينة، ذات قدرة جيدة على الامتصاص، ماركة «الشرارة». وكانت الشركة تنتج أنواعاً مختلفة من هذه المناديل، وكانت المناديل التي تفضلها روز تسمى «مقصدي»، رُسمت عليها قواقع بحرية، وأسماك، ومراكب، جميعها باللون الأزرق، وكانت تعوم بينها الكلمات التالية: لا أستطيع أن أغيّر اتجاه الريح، لكنني أستطيع أن أعدّل أشرعتي كي أصل إلى غايتي دائماً.

كانت روز تحبّ هذا الشعار. كما كان لون الصور المطبوعة اللازوردي يطابق لون البلاطات في مطبخها، الجزء الذي تفتخر به أكثر من أي جزء آخر من البيت كله. فعندما اشتروا البيت، لم تُضع روز وقتاً فأعادت ديكور المطبخ، وأضافت رفوفاً تُسحب إلى الخارج، ووضعت

فوقها رفاً مصقولاً من الأعلى يتسع لثلاثين قنينة نبيذ في الزاوية - مع أنها لم تكن تشرب الخمر، لا هي ولا مصطفى - وزيّنت الغرفة كلها بمقاعد دوّارة من خشب البلوط. وعندما شعرت بالخوف، لم تتهالك على أحد تلك المقاعد.

«يا إلهي، بقي أمامنا خمس عشرة دقيقة. ماذا سنقول لها؟ أمامنا خمس عشرة دقيقة فقط كي نحسم أمرنا»، صاحت في وجه مصطفى.

«روز، عزيزتي، أرجوك أن تهدئي»، قال مصطفى وقد نهض عن كرسيه. فلم يكن يحبّ المقاعد، لذلك احتفظ بكرسيين من خشب الصنوبر في المطبخ، واحد له، والآخر له أيضاً. اقترب من زوجته وأمسك بيدها، آملاً أن يخفف من قلقها. «ستهدئين، ستهدئين جداً، أتفهمين؟ وستأسلينها بهدوء أين هي الآن بالتحديد. هذا أول شيء يجب أن تسأليها، اتفقنا؟».

«ماذا لو لم تخبرني؟» قالت روز.

«ستخبرك. إسأليها بلطف، وستخبرك بلطف». كان مصطفى يتحدث بهدوء: «لكن بدون توبيخ. يجب أن تحافظي على هدوئك. هيا، اشربي قليلاً من الماء».

أمسكت روز الكأس بيدين مرتعشتين. «هل هذا ممكن؟ لقد كذبت عليّ ابنتي الصغيرة! كم كنت غبية عندما وثقت بها. طوال هذا الوقت كنت أظن أنها في سان فرانسيسكو مع جدتها ثم تبين لي أنها كذبت على الجميع... والآن جدتها... أوه، يا إلهي، كيف سأخبرها؟».

البارحة، عندما كانا في المطبخ، هي تصنع الفطائر، وهو يقرأ صحيفة الديلي ستار أريزونا، رنّ الهاتف. رفعت روز سماعة الهاتف والملعقة الكبيرة لا تزال بيدها. كانت المخابرة من سان فرانسيسكو. زوجها السابق، بارصام تشكمكجيان.

كم سنة مضت لم يتبادلا فيها أي كلمة؟ فبعد طلاقهما كان يضطر أحدهما للاتصال بالآخر من أجل ابنتهما الصغيرة. لكن عندما كبرت آرمانوش، قلّت محادثاتهما وأصبحت نادرة ثم توقّفت كلياً. فمنذ فترة زواجهما القصيرة، لم يبق سوى شيئان: النفور المتبادل وابنة.

«يؤسفني أن أزعجك يا روز»، قال بارصام برقة لكن بصوت جافّ: «لكنه أمر طارئ. يجب أن أتكلم مع ابنتي».

«ابنتنا»، صحّحت روز بمرارة، وما إن خرجت الكلمة من فمها حتى تأسفت على مرارتها على الفور.

«روز، أرجوك، يجب أن أنقل لآرمانوش خبراً سيئاً. أرجوك هل تستطيعين أن تناديها لتتكلم على الهاتف؟ إنها لا تجيب على هاتفها الخلوي. كان عليّ أن أتصل بها هنا».

«انتظر... انتظر أليست عندكم؟».

«ماذا تعنين؟».

«أليست عندكم في سان فرانسيسكو» وارتعشت شفتا روز رعباً.

تساءل بارصام إن كانت زوجته السابقة تلعب عليه. حاول ألا يبدو صوته غاضباً: «لا، يا روز، لقد قرّرت أن تعود إلى أريزونا. إنها تمضي العطلة الربيعية هناك».

«يا إلهي!! لكنها ليست هنا! أين ابنتي؟ أين هي؟» بدأت روز تنشج، وانتابتها نوبة من نوبات القلق التي كانت تهاجمها، والتي خيّل إليها أنها تخلت عنها منذ زمن بعيد.

«روز، أرجوك أن تهدئي؟ لا أعرف ماذا يحدث، لكنني واثق من أنه يوجد تفسير واحد. فأنا أثق بآرمانوش من كلّ قلبي. فهي لن تفعل أيّ خطأ. متى تكلّمت معها آخر مرة؟».

«البارحة، إنها تتصل بي يومياً ـ من سان فرانسيسكو!».

توقّف بارصام. لم يخبرها أنّ آرمانوش كانت تتصل به أيضاً من أريزونا، «هذا جيد، هذا يعني أنها بخير. يجب أن نثق بها. إنها فتاة ذكية يوثق بها، إنك تعرفين ذلك. عندما تخابرك في المرة القادمة اطلبي منها أن تتصل بي. قولي لها إن الأمر عاجل. هل فهمت يا روز؟ هل ستفعلين ذلك؟».

«يا إلهي!»، اشتد بكاء روز. لكن خطر لها فجأة أن تسأله: «بارصام، قلت إن هناك خبر سيء، ما هو؟».

«أوه. . .» مرت لحظات صمت ثقيلة: «أمّي. . .» ولم يستطع أن يكمل جملته.

«فقط قولي لآرمانوش إن جدتها شوشان ماتت وهي نائمة. لم تستيقظ هذا الصباح».

* * *

مضت الدقائق الخمس عشرة ببطء شديد. راحت آرمانوش تذرع الغرفة تحت نظرات آسيا القلقة. وأخيراً، حان وقت الاتصال بأمّها ثانية. هذه المرّة، رفعت روز سماعة الهاتف في الحال.

«آمي، سأسألك سؤالاً واحداً وستقولين لي الحقيقة؛ أتعدينني بأنك ستقولين لي الحقيقة».

أحسّت آرمانوش بموجة قلق تعتمل في بطنها.

«أين أنت؟» قالت روز، بصوت متهدج: «لقد كذبت علينا! إنك لست في سان فرانسيسكو، ولست في أريزونا، أين أنت؟».

ابتلعت أرمانوش ريقها بصعوبة، وقالت: «ماما، أنا في إستانبول».

«ماذا؟».

«ماما، سأخبرك بكلّ شيء، لكن أرجوك اهدئي». شعّت عينا روز بالاستياء. كم كانت تكره أن تسمع الجميع يطلبون منها أن تهدأ.

«ماما، أنا آسفة جداً لأني جعلتك قلقة. كان يجب ألا أفعل ذلك. أنا آسفة، لكن لا يوجد شيء يمكنك أن تقلقي عليه، صدقيني».

وضعت روز يدها على الهاتف، وقالت لزوجها بنبرة توبيخ وكأن ذلك حدث بسببه: «ابنتي الصغيرة في إستانبول»، ثم صرخت في السماعة: «بحقّ الجحيم ماذا تفعلين هناك؟».

«في الواقع، إني أمكث في بيت حماتك. إنها عائلة رائعة».

مندهشة، التفتت روز ثانية إلى مصطفى، موبخة إياه بحدّة أكثر: «إنها تمكث مع عائلتك».

وقبل أن يتمكن مصطفى قازانجي الذي شحب لونه من أن يفه بكلمة واحدة، قالت: «إننا آتيان إلى هناك. لا تختفي في أي مكان. نحن آتيان. ولا تغلقي هاتفك الخلوي ثانية أبداً»، وأغلقت الهاتف.

«بحقّ الجحيم عما تتحدّثين؟» ضغط مصطفى ذراع زوجته، بشكل أقوى مما كان ينوي، «لن أذهب إلى أيّ مكان».

«نعم، ستذهب»، قالت روز: «سنذهب. ابنتي الوحيدة في إستانبول!!!» صرخت، وكأن آرمانوش قد أُخذت رهينة.

«لا أستطيع أن أترك عملي الآن».

«يمكنك أن تأخذ إجازة بضعة أيام. وإذا لم تذهب، فسأذهب وحدي».

قالت روز، أو شخص يشبه روز: «سنذهب إلى هناك، لنتأكد أنها آمنة، ونعيدها معنا».

* * *

في وقت متأخر من تلك الليلة، فيما كنّ يتأهبن ليأوين إلى الفراش رنّ جرس بيت قازانجي.

«إن شاء الله خير»، همست ما ـ الهيفاء من سريرها، والسبحة في يدها، والقلق يرتسم على وجهها. مدت يدها إلى كأس الماء الذي يوجد فيها طقم أسنانها، وأخذت رشفة وهي لا تزال تبتهل إلى الله. فالماء هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يطفئ حدة الخوف.

رفعت الخالة فريدة، التي كانت لا تزال صاحية، سماعة الهاتف، والتي كانت أكثر واحدة في العائلة، تحبّ الثرثرة والتكلم على الهاتف.

«ألو؟».

«مرحباً، فريدة، هل هذا أنت؟» جاء صوت ذكوري عبر السماعة. ودون أن ينتظر رداً، أضاف: «أنا. . . من أمريكا. . . مصطفى. . .».

مبتهجة بسماع صوت أخيها، ابتسمت الخالة فريدة ابتسامة عريضة، وقالت: «لماذا لا تتصل أكثر؟ كيف حالك؟ متى ستأتي لزيارتنا؟».

«اسمعي، يا عزيزتي، أرجوك. هل آمي ـ آرمانوش عندكم؟».

«نعم، نعم، طبعاً، لقد أرسلتها لكي تمكث معنا. لقد أحببناها كثيراً»، قالت الخالة فريدة مبتسمة: «لماذا لم تأت معها، أنت وزوجتك؟».

لبث مصطفى دون أن يأتي بحركة، وقطّب جبينه قلقاً. كانت تمتد وراءه من النافذة أرض أريزونا، الموثوقة دائماً، السرّية دائماً. فمع مرور الزمن، تعلّم أن يقدّر الصحراء اللا متناهية. فعندما كان ينظر إلى الوراء، كانت تهدئ من مخاوفه، وكانت طمأنينتها تخفّف من حدة خوفه من الموت. ففي أوقات كهذه، كان يتذكّر، وكأن جسمه هو الذي يتذكر وحده، المصير الذي ينتظر جميع الرجال في عائلته. في أوقات كهذه كان يشعر بأنه على وشك أن ينتحر. أن يجد الموت قبل أن يجده الموت. لقد عاش حياتين مختلفتين تماماً. مصطفى ومصطفى. وفي بعض الأحيان، كان يبدو أن الطريقة الوحيدة لرأب الفجوة بين اسمين يكمن في إسكاتهما

في وقت واحد ـ كي ينهي حياته بطريقة غير متوقعة. أبعد الفكرة عن رأسه. صوت يشبه التنهيدة. ربما كان هو. ربما كانت الصحراء فقط.

«أظن أننا. سنأتي لزيارتكن لبضعة أيام ونعيد آمي معنا... إننا آتيان».

بدا أن هذه الكلمات قد خرجت بسهولة وطلاقة، وكأن الزمن ليس سلسلة من التقطعات، بل استمرارية بدون انقطاع، تنحني بسهولة حتى عندما تنكسر. سيأتي مصطفى لزيارتهن، وكأنه لم يمض على غيابه أكثر من عشرين سنة.

١٥
الزبيب الأصفر

على الفور، أثار النبأ العظيم بقدوم مصطفى وزوجته الأمريكية لزيارتهن سلسلة من ردود الفعل في بيت قازانجي. وكانت أول ردة فعل وأهمها إحضارهن جميع أنواع المنظّفات، ومساحيق الغسيل، ورقائق الصابون. وخلال يومين أصبح البيت برمته، من أعلاه إلى أسفله، يشعّ بالنظافة، وغُسلت النوافذ ولُمّعت، ونُفض الغبار عن الرفوف، وغُسلت الستائر وكويت، وحُكّت ونُظّفت كلّ بلاطة في أرضية الطوابق الثلاثة جميعها. ومسحت الخالة شكرية أوراق النباتات في غرفة الجلوس ورقة ورقة، نبات المسك وزهرة الجرس، وإكليل الجبل والجويسئة العطرية. حتى أنها مسحت أوراق نبتة أم غيلان. وفي هذه الأثناء، فاجأت الخالة فريدة الجميع بأن أخرجت مفرش الطاولة العزيز على قلبها، الذي كان جزءاً من مهرها. لكن لم يكن ثمة أدنى شكّ بأن الجدّة كلثوم كانت أكثرهن تأثراً وحماساً لدى سماع هذا النبأ. ففي البداية لم تصدق أن ابنها الوحيد سيأتي لزيارتهن بعد كل هذه السنوات، وعندما اقتنعت أخيراً، ظلت حبيسة المطبخ في وسط الصحون والملاعق والشوك والسكاكين، ومكوّنات الطعام، تطهو الأطباق التي يفضلها ابنها الأثير لديها. وأصبح الهواء داخل المطبخ الآن مثقلاً بروائح المعجّنات المخبوزة الطازجة. فقد خبزت نوعين مختلفين من فطائر البرك بالفرن بالسبانخ وبجبنة الفيتا ـ

وأعدّت حساء العدس، وسلقت قطعاً من لحم الضأن، وهيّأت مزيجاً من الكفتة كي تقليها حال وصول الضيفين. ومع أنها صمّمت على أن تعدّ ستّة أطباق مختلفة قبل انتهاء النهار، فمما لا شك فيه أن أهم طبق في قائمة الجدّة كلثوم كان طبق حلوى: العاشورة.

فخلال سنوات طفولته ومراهقته، كان مصطفى قازانجي يحب العاشورة أكثر من أي حلوى أخرى، وإذا لم تكن تلك الأطعمة الجاهزة الأمريكية الفظيعة قد أفسدت عاداته في الطعام، كما كانت الجدة كلثوم تتمنى، فإنه سيسعد كثيراً لرؤية أطباق الحلوى التي يحبها تنتظره في الثلاجة، وكأن الحياة هنا لا تزال كما كانت في الماضي، يستطيع أن يختار منها ما يحلو له.

فقد كانت العاشورة رمزاً للاستمرار والاستقرار، صورة مصغّرة عن الأيام الجيدة التي تأتي بعد كلّ عاصفة، مهما بلغت شدة هذه العاصفة.

نقعت الجدّة المكوّنات في اليوم السابق وبدأت تتهيأ الآن للشروع في الطهي. فتحت الخزانة وأخرجت قِدراً كبيراً. القِدر الذي تطهو فيه العاشورة عادة.

المكوّنات

١/٢ كوب حمّص

١ كوب حنطة مقشّرة

١ كوب رزّ أبيض

كوب ونصف سكّر

١/٢ كوب بندق محمّص، مقطّع

١/٢ كوب فستق حلبي

١/٢ كوب صنوبر

١ ملعقة صغيرة فانيلا

١/٣ كوب زبيب أصفر

١/٣ كوب تين مجفف

١/٣ كوب مشمش مجفف

١/٢ كوب قشور البرتقال

ملعقتان كبيرتان من ماء الورد

التزيين

ملعقتان كبيرتان من القرفة

١/٢ كوب لوز أبيض ومقطّع

١/٢ كوب حبّ الرمان

التحضير

تُنقع معظم المكوّنات في صحون منفصلة في اليوم السابق على النحو التالي:

يُغمر الحمّص في الماء البارد ويُنقع طوال الليل. يجب غسل الحنطة والرزّ جيداً قبل غمرهما في الماء في صحن مختلف. يُنقع التين والمشمش وقشور البرتقال في الماء الحار لمدة نصف ساعة، ثم تصفى عنها الماء، ويجب الاحتفاظ بماء النقع؛ تُقطّع، وتُخلط بالزبيب الأصفر، وتوضع جانباً.

طريقة الطهي

يُغمر الحمّص بغالون من الماء البارد. يُغلى ويُطهى على حرارة متوسطة حتى تصبح حبات الحمّص طرية، لمدة ساعة تقريباً. وفيما يُطهى الحمّص، يُغلى ٢ ـ ١/ ٢ كوارت من الماء، تُحرّك في الحنطة والرزّ، ويُغلى ببطء على حرارة منخفضة لمدة تقارب الساعة، ويُحرّك كثيراً، حتى يصبح الرزّ والحنطة طريين.

يضاف الماء المنقوع المحتفظ به، والسكّر، والبندق المقطّع، والفستق الحلبي، وحبّات الصنوبر إلى القِدر حتى يغلى على حرارة متوسّطة، ويُحرّك باستمرار. يُغلى ببطء ويُحرّك لمدة٣٠ دقيقة أو أكثر. يُترك المزيج حتى يصبح سميكاً قليلاً، حتى يصبح شبيهاً بحساء سميك. تضاف الفانيلا والزبيب والتين والمشمش وقشور البرتقال، ويُطهى لمدة٢٠ دقيقة أخرى، ويُحرّك باستمرار. تُطفأ النار ويمزج بماء الورد. تترك العاشورة حتى تصبح درجة حرارتها بدرجة حرارة الغرفة لمدة ساعة أو أكثر. تُرشّ عليها القرفة وتُزيَّن باللوز المقطع وحبّ الرمان.

في غرفة البنات، كانت آرمانوش هادئة تفكّر منذ الصباح الباكر. ولم تكن تشعر بالرغبة في أن تخرج أو أن تفعل أيّ شيء.

ومكثت آسيا معها في الغرفة تلعب معها «الطاولة» وتستمع إلى جوني كاش.

«ستّة ستّة! أيتها المحظوظة!».

لكن آرمانوش لم تظهر سعادة للنرد الذي ألقت به. بل راحت تحدق عابسة في قطع أحجار اللعب، وكأنها تريد أن تحركها بقوة نظرتها.

«ينتابني إحساس بأن مكروهاً قد وقع ولم تخبرني به أمّي».

«أرجوك لا تقلقي»، قالت آسيا وهي تمضغ طرف قلمها الرصاص،

مشتهية جرعة من النيكوتين. «لقد تكلّمت مع أمّك وهي في صحة جيدة. وبفضلك سيزوران إستانبول الآن. سيأتيان ويقابلانك وسرعان ما تعودين إلى بيتك...». ومع أن آسيا كانت تريد أن تهدئ من روعها، خرجت منها الكلمات وكأنها اعتراض. ففي الواقع كانت حزينة لأن آرمانوش ستغادرها بهذه السرعة.

«لا أعرف. لا أستطيع أن أتخلص من هذا الشعور»، تنهدت آرمانوش، «فأمّي لا تسافر إلى أي مكان، ولا حتى إلى كنتاكي، مسقط رأسها. إن مجيئها إلى إستانبول يحيّرني. ولكن من الناحية الثانية، فهكذا هي. لا يمكنها أن تتحمّل للحظة واحدة ألا تسيطر على حياتي وتتحكم بها. إنها مستعدة لتطير حول العالم كي تبقيني تحت عينيها».

بينما راحت تنتظر آرمانوش أن تحزم أمرها وتقرر إلى أي مربع ستنقل أحجارها، دست آسيا ساقيها تحتها، وهي تفكر بمادة أخرى من بيانها الشخصي في العدمية.

المادة العاشرة: إذا وجدت صديقة عزيزة، احرصي على ألا تتعودي عليها، ولا تنسي أن كلّ واحدة منا وحيدة في الوجود، وأن العزلة الأبدية ستتجاوز أي صداقة عرضية إن آجلاً أم عاجلاً.

رغم شعور آرمانوش بالاكتئاب، إلا أن ذلك لم يؤثر على مهارتها في اللعب كثيراً. وعندما جاء النرد «ستّة ستّة»، اقتحمت عرين آسيا، وهزمت منافستها هزيمة شنعاء، وهزمتها بثلاثة أحجار دفعة واحدة. لقد انتصرت!

كزّت آسيا بأسنانها على القلم بقوة.

المادة الحادية عشرة: حتى إذا وجدت صديقة عزيزة كنت قد اعتدت على صحبتها كثيراً إلى درجة تجعلك تنسين المادة العاشرة، لا تتجاهلي الحقيقة بأنها لا تزال تستطيع أن تلحق بك هزيمة في مجالات أخرى من

الحياة. فعلى لوحة لعبة الطاولة، كما في الولادة والموت، فإن كل منا وحيد.

بوجود ثلاث قطع، وبوجود بوابتين فقط كانتا لا تزالان مفتوحتين على الجهة الأخرى، كان على آسيا الآن إما أن تأتي بـ «خمسة خمسة» أو «ثلاثة ثلاثة». ولا يوجد شيء آخر يمكن أن ينقذها من الهزيمة. بصقت على راحة يديها ليأتيها الحظ السعيد، وتضرعت إلى جنيّ الطاولة الذي كانت تتخيّله دائماً بأنه غول نصفه أبيض ونصفه أسود، وبأن بؤبؤا عينيه هما النرد الذي يفتل ويدور بجنون. ألقت النرد: «ثلاثة اثنان»، «اللعنة، اللعنة!» لم يعد بوسعها أن تلعب، فشبكت يديها، وأخذت تبرطم متذمرة.

«مسكينة!» قالت لها آرمانوش.

وضعت آسيا قطعتيّ الحجر الأسودين على الخط وهي تنصت إلى البائع المتجول في الخارج يجأر بأعلى صوته: «زبيب! عندي زبيب أصفر. للصغار وللجدّات بدون أسنان، زبيب أصفر لكلّ إنسان!» وعندما تكلّمت ثانية، رفعت صوتها ليطغى على صوت البائع.

«أنا واثقة من أن أمّك لطيفة. فكّري في الأمر، لو لم تكن لطيفة لما تجشمت عناء هذه الرحلة الطويلة من أريزونا إلى إستانبول؟».

«أظن أنك محقّة». هزت آرمانوش رأسها وألقت بالنرد.

«ستّة ستّة» مرة أخرى!

«هل ستستمرين في أن تأتي بستّة ستّة إلى ما لانهاية؟ هل هذا النرد مسحور أم ماذا؟» صاحت آسيا بارتياب، «هل تغشين يا آنسة».

ضحكت آرمانوش وقالت: «أوه نعم، لو كنت أعرف كيف أغش!».

لكنها ما أن أوشكت على أن تحرك حجرين آخرين من أحجارها البيض إلى المكان الفارغ، حتى توقّفت آرمانوش فجأة. كانت شاحبة وساهمة.

«يا إلهي، كيف لم أر هذا؟» صاحت آرمانوش بحزن: «إنها ليست أمّي، كما ترين، إنه أبي. هكذا تكون ردة فعل أمّي عندما يحدث مكروه لأبي... أو لعائلة أبي... يا إلهي، لقد حدث مكروه لأبي!».

«لكنك تخمنين ذلك»، حاولت آسيا أن تهدئ من روعها لكنها لم تفلح: «متى تحدثت إلى أبيك آخر مرة؟».

«منذ يومين»، قالت آرمانوش: «لقد اتصلت به من أريزونا وكان في صحة جيدة، كان كلّ شيء يبدو طبيعياً».

«انتظري، انتظري، انتظري! ماذا تقصدين أنك اتصلت به من أريزونا؟».

احمرّ وجه آرمانوش خجلاً، وقالت: «لقد كذبت»، ثم هزت كتفيها، وكأنها استمرأت عملاً قامت به من أجل التغيير. «لقد كذبت على جميع أفراد أسرتي لأتمكن من المجيء إلى هنا. فلو قلت لهم إنني ذاهبة إلى إستانبول وحدي، لقلق الجميع، ولما تركوني أسافر إلى أي مكان. لذلك فكرت بأن أذهب إلى إستانبول أولاً، ثم أخبرهم بكل شيء عندما أعود. فأبي يظن أنني مع أمّي في أريزونا، وأمّي تظن أنني مع أبي في سان فرانسيسكو. أقصد، كانت تظن، على الأقل حتى البارحة».

نظرت آسيا إلى آرمانوش غير مصدقة أذنيها، لكن سرعان ما تلاشت نظرتها، وحلّت محلها نظرة أقرب إلى الاحترام. ربما لم تكن آرمانوش تلك الفتاة النقية الجيدة السلوك كما كان يخيّل لآسيا. فربما يوجد في مكان ما من عالمها المضيء مكان للعتمة والوسخ والانحراف. لم يزعج الاعتراف آسيا، بل زادها احتراماً لآرمانوش. أغلقت الطاولة، ووضعتها تحت إبطها، وهو رمز يعني أنها قبلت الهزيمة، رغم عدم معرفة آرمانوش بهذه الطريقة الثقافية في التعبير عن هزيمتها. سألتها آسيا: «لا أظن أن ثمة شيئاً على غير ما يرام... لكن قولي لي، لماذا لا تخابري أباك؟».

وكأنها كانت تنتظر هذه الكلمات، تناولت آرمانوش الهاتف. ومع الفارق في التوقيت، كان الوقت في ساعات الصباح الأولى الآن في سان فرانسيسكو.

بعد رنة واحدة رفع أحدهم السماعة. لم تكن الجدّة شوشان كالعادة، بل كان أبوها.

«حبيبتي»، انطلقت من بارصام تشكمكجيان تنهيدة حبّ عميقة عندما تناهى إليه صوت ابنته. كانت هناك خشخشة غريبة في الاتصال، مما جعلهما يدركان البعد الجغرافي الفاصل بينهما. «كنت سأخابرك في الصباح. أعرف أنك في إستانبول؛ لقد اتصلت بي أمّك وأخبرتني بذلك».

أعقب ذلك لحظة صمت مشوبة بالتوتر، لكن بارصام تشكمكجيان لم يعلّق على ما فعلته، ولم يؤنبها، بل مضى يقول: «كنت أنا وأمّك قلقين عليك. ستسافر روز إلى إستانبول مع زوج أمّك... سيأتيان ليحضرانك. سيصلان إلى إستانبول غداً عند الظهر».

تجمّدت آرمانوش الآن في مكانها. ثمة شيء ليس على ما يرام. أن يتحدث أبوها وأمّها، والأكثر من ذلك، أن يعلم أحدهما الآخر بما يجري، دليل على وجود شيء ما.

«بابا، هل حدث شيء؟».

توقّف بارصام تشكمكجيان قليلاً، وقد اعتراه شعور مفاجئ بالحزن من ثقل ذاكرة طفولة انبثقت فجأة.

فعندما كان صبياً صغيراً، كان يأتي إلى حيّهم كلّ سنة رجل يعتمر قلنسوة غامقة مدبّبة من الأمام، ويرتدي رداءً أسود، ويتنقل من بيت إلى بيت برفقة شمّاس الكنيسة المحلية. كان قساً مهاجراً يبحث عن أطفال أذكياء كي يعيدهم إلى أرمينيا ليصبحوا قساوسة.

«بابا، هل جميعكم بخير؟ ماذا يجري؟».

«أنا بخير يا حبيبتي. لقد اشتقت إليك»، كان كلّ ما بوسعه أن يقوله.

كان بارصام منجذباً إلى الدين في صغره، وكان أفضل تلميذ في مدرسة يوم الأحد. لذلك كان الرجل ذو القلنسوة السوداء يزورهم في بيتهم مراراً، ويتحدث مع شوشان عن مستقبل الصبي. وذات يوم، عندما كان بارصام وأمّه والقسيس جالسين في المطبخ يرشفون شاياً حاراً، قال القس إنه إذا كان سيقرر شيئاً، فهذا هو الوقت لاتخاذ القرار.

لم ينس بارصام تشكمكجيان بريق الخوف المنبعث من عينيّ أمّه. فبقدر ما كانت تحترم القس، وبقدر ما كانت ستبدو سعيدة لأن ترى ابنها يرتدي الرداء الكهنوتي عندما يكبر، وبقدر ما كانت تريد ابنها الوحيد أن يكون في خدمة الله، لم يكن بإمكان شوشان إلا أن تنكفئ خوفاً، وكأنها كانت أمام رجل يريد أن يختطف ابنها. إذ أجفلت بقوة وخوف جعل الكوب في يدها يرتعش، واندلق قليل من الشاي على فستانها. فهزّ القسيس رأسه بهدوء، واكتشف ظلّ قصّة مظلمة تتوارى في ماضيها. ربّت على يدها وباركها، ثم غادر البيت، ولم يعد ثانية ولم يفتح معها هذا الأمر ثانية.

في ذلك اليوم انتاب بارصام تشكمكجيان شيئاً لم يشعر به من قبل، ولم يشعر به ثانية في حياته. كان هاجساً مخيفاً. لم تكن ردة الفعل هذه، إلا ردة فعل أمّ فقدت طفلاً بمثل هذا الخوف العميق في مواجهة خطر أن تفقد طفلاً آخر. فربما كان لدى شوشان ابن آخر في فترة ما، وانفصل عنها.

الآن وفيما كان حزيناً على وفاة أمّه، لم يكن يجرؤ على إخبار ابنته بنبأ وفاتها.

«بابا، كلّمني»، قالت آرمانوش بسرعة.

وشأن أمّه، كانت أسرة أبيه قد رُحّلت عن تركيا في عام ١٩١٥. فقد

كان يجمع سركيس تشكمكجيان وشوشان ستامبوليان شيئاً مشتركاً، شيئاً كان يشعر به أطفالهما فقط، لكن لم يفهموا ما هو تماماً. كان الصمت يتناثر بين كلماتهما. فعندما جاؤوا إلى أمريكا تركوا وراءهما حياة أخرى في بلاد أخرى، وكانا يعرفان أنك مهما استدعيت الماضي، فثمة أشياء لا يمكن تذكّرها.

تذكّر بارصام أباه وهو يرقص حول أمّه، يرسم دوائر داخل دوائر بذراعيه المرفوعتين مثل طير محلق؛ وكانت الموسيقى تبدأ بطيئة، ثم تزداد سرعة. وكان الأطفال يرون هذه الدوّامة الشرق أوسطية بإعجاب من الجانب فقط، لا من العمق. وقد تركت الموسيقى أثراً واضحاً عليه منذ نشأته. ولسنوات عديدة، كان بارصام يعزف على الكلارينت في فرقة أرمنية، ويرقص مرتدياً الثياب الشعبية التقليدية، سروالاً فضفاضاً أسود وقميصاً أصفر. يتذكّر أنه كان يغادر بيته مرتدياً ذلك اللباس، فيما كان ينظر إليه جميع الأطفال الآخرين في حيّهم غير الأرمني بعيون ساخرة. وفي كلّ مرة، كان يتمنّى إما أن ينسى الأطفال ما رأوه، أو أن لا يكترث بسخريتهم به. لكنه كان مخطئاً في كلّ مرة.

وبينما كان يشارك في نشاط أرمني تلو الآخر، كان كلّ ما يريده حقاً أن يصبح مثلهم، لا أكثر، ولا أقل، أن يصبح أمريكياً، وأن يتخلّص من هذه البشرة السمراء الأرمنية. وحتى بعد مضي سنوات، كانت أمّه توبّخه بين الحين والآخر، وتذكّره كيف أنه عندما كان صغيراً، سأل أحد الجيران الأمريكان من أصل هولندي يسكن في الطابق العلوي عن نوع الصابون الذي يستخدمه، لأنه يريد أن يصبح أبيض مثله. الآن وبعد أن تدفقت إليه ذكريات طفولته مع فقدان أمّه، أحسّ بارصام تشكمكجيان بالذنب لأنه بدأ ينسى بسرعة اللغة الأرمنية التي تعلمها عندما كان طفلاً. وأسف الآن لأنه لم يتعلّم المزيد من أمّه، ولم يعلّم ابنته المزيد.

«بابا، لماذا سكتّ؟» سألته آرمانوش، بصوت يشي بالخوف.

«هل تذكرين معسكر الشباب الذي ذهبت إليه عندما كنت مراهقة؟».

«نعم، طبعاً»، أجابت آرمانوش.

«هل زعلت مني لأني لم أعد أرسلك إلى هناك؟».

«بابا، أنا التي لم أكن أرغب في الذهاب إلى المعسكر، هل نسيت؟ كان ممتعاً في البداية، لكني بعد ذلك وجدت أني كبرت على مثل هذا المعسكر. وكنت أنا التي طلبت منك ألا ترسلني إلى هناك في السنة التالية...».

«صحيح»، قال بارصام متردداً: «لكن كان بوسعي أن أبحث عن معسكر آخر للمراهقين الأرمن في عمرك».

«بابا، لماذا تثير هذا الموضوع الآن؟» أحست آرمانوش أنها على وشك البكاء.

لم تكن لديه الشجاعة لأن يخبرها. ليس بهذه الطريقة، ليس على الهاتف. فلم يكن يرغب أن تعلم بوفاة جدتها وهي وحيدة على بعد آلاف الأميال. وعندما حاول أن يقول بضع كلمات ليصرف انتباهها، ارتفع صوته قليلاً على همهمة اندلعت في الخلفية. همهمة تدل على وجود جمع من الناس. بدا وكأن العائلة كلها كانت هناك، أقرباء وأصدقاء وجيران تحت سقف واحد، وكان هذا بالنسبة لآرمانوش دليلاً على أمرين اثنين لا ثالث لهما: إما أن يكون أحدهم قد تزوج، أو أن أحداً قد مات.

«ما الخطب؟ أين جدتي شوشان؟» قالت آرمانوش بهدوء، «أريد أن أكلّم جدتي».

هنا اضطر بارصام تشكمكجيان أن يخبرها.

* * *

منذ فترة متأخرة في المساء، كانت الخالة زليخة تذرع الغرفة بحيوية لم تكن تعرف كيف تحتويها. ولم يكن بوسعها أن تفضي لأحد في البيت عن سبب اضطرابها. وكانت كلما دفنت مشاعرها في أعماقها، ازداد حالها سوءاً. في البداية، فكّرت أن تغلي لنفسها قليلاً من «الزهورات» في المطبخ لتهدئ من أعصابها، إلا أن رائحة الطهي الكثيفة التي كانت تغمر المطبخ كادت تجعلها تتقيأ. ثم دخلت إلى غرفة الجلوس لتتفرج على التلفزيون، لكنها عندما وجدت اثنتين من أخواتها منهمكتين بشكل مسعور في تنظيف الغرفة وتتحدثان بحماس عن اليوم التالي، غيّرت رأيها على الفور.

عندما عادت إلى غرفتها، أغلقت الخالة زليخة باب غرفتها، أشعلت سيجارة، وأخرجت رفيقها الذي كانت تحتفظ به تحت فراشها لمثل هذه الأيام العصيبة: قنينة فودكا. وبسرعة راحت تجرع منها، لكنها سرعان ما بدأت تشرب بخمول، حتى جرعت ثلث القنينة. وبعد أربع سجائر وستّة كؤوس صغيرة، زال شعورها بالقلق. بل إنها لم تعد تشعر بشيء، إلا بالجوع. وكان كلّ ما أمكنها أن تتناوله من طعام خفيف في غرفتها حفنة من الزبيب الأصفر الذي اشترته من البائع المتجول النحيف الذي كان ينادي أمام البيت هذا المساء.

وعندما جرعت نصف القنينة، وعندما لم تبق سوى حفنة من الزبيب، رنّ هاتفها الخلوي. كان آرام.

«لا أريد أن تظلي في البيت هذه الليلة»، كان أول شيء قاله لها: «أو غداً، أو بعد غد. في واقع الأمر لا أريدك أن تمضي يوماً واحداً بعيدة عني في الأيام المتبقية من حياتي».

كان ردّ الخالة زليخة أن أطلقت ضحكة.

«أرجوك يا حبيبتي، تعالي وأقيمي معي. اتركي هذا البيت على

الفور. لقد أحضرت لك فرشاة أسنان. حتى توجد لديّ منشفة نظيفة!» حاول آرام أن يمازحها، لكنه توقّف في منتصف الجملة: «أقيمي معي حتى يذهب».

«إذن كيف سنفسّر غيابي المفاجئ لعائلتي العزيزة؟» قالت الخالة زليخة متذمرة.

«إنك لست بحاجة لأن تفسري لهن شيئاً»، قال آرام متوسلاً: «انظري، لا بد أن هذه هي فائدة أن يغرد المرء خارج السرب في عائلة تقليدية. مهما فعلت، فأنا واثق من أن أحداً لن يصدم بذلك. هيا تعالي. أرجوك تعالي وأقيمي معي».

«وماذا سأقول لآسيا؟».

«لا شيء، لست مضطرة لأن تقولي لها شيئاً... إنك تعرفين ذلك». تكوّرت الخالة زليخة في وضع جنيني وهي لا تزال تمسك الهاتف بيدها بإحكام. أغمضت عينيها، وكانت مستعدة لتغط في النوم، لكنها حشدت طاقتها لتسأله: «آرام، متى سينتهي؟ فقدان الذاكرة القسري هذا. هذا النسيان الدائم. لا تقولي شيئاً، لا تتذكري شيئاً، لا تكشفي شيئاً، ليس لهم، ليس لنفسك... هل سينتهي هذا الأمر؟».

«لا تفكري بذلك الآن»، حاول آرام أن يهدئ من روعها: «أريحي نفسك. إنك تقسين على نفسك كثيراً. تعالي إلى هنا غداً صباحاً».

«أوه يا حبيبي... كم أتمنّى أن أستطيع...» وأشاحت الخالة زليخة بوجهها الحزين، وكأنه يمكنه أن يراقبها بواسطة سماعة الهاتف، ثم أضافت: «إنهن يردن أن أذهب إلى المطار لاستقباله. فأنا الوحيدة التي أستطيع أن أقود السيارة في هذه العائلة، ألا تذكر؟».

لبث آرام صامتاً، معترفاً بذلك.

«لا تقلق»، همست الخالة زليخة: «أحبّك... أحبّك كثيراً... لننم الآن».

ما أن وضعت السماعة، حتى غطت الخالة زليخة في نوم عميق. كيف أغلقت الهاتف الخلوي، وكيف أعادت قنينة الفودكا، وكيف أطفأت السيجارة في المنفضة، وكيف أطفأت النور، وكيف انسلت تحت الأغطية، لم تتذكر شيئاً من كلّ ذلك عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وصداع شديد يعتريها.

* * *

«هل الطقس بارد في إستانبول؟ هل عليّ أن أجلب ملابس أدفأ؟» سألت روز، رغم وجود ثلاثة أسباب رئيسية تجعلها ألا تطرح هذا السؤال: الأول، لأنها سألت هذا السؤال من قبل، والثاني، لأنها انتهت من حزم أمتعتها، والثالث، لأنها كانت في طريقها الآن إلى مطار توسون، وقد فات الآوان لطرح مثل هذا السؤال.

كان يرغب في أن يذكّر زوجته بهذه الأسباب الثلاثة، لكن مصطفى قازانجي ظل مثبتاً عينيه أمامه على الطريق، لكنه اكتفى بأن هزّ رأسه.

في يوم رحلتهما، غادرت روز ومصطفى البيت في الساعة الرابعة مساءً متوجهين إلى المطار. كانت بانتظارهما رحلتان: رحلة قصيرة، ورحلة طويلة جداً. فقد كانا سيسافران من توسون إلى سان فرانسيسكو أولاً، ثم يستقلان الطائرة من سان فرانسيسكو إلى إستانبول. وبما أن هذه كانت أول رحلة لها إلى بلد ليست اللغة الإنكليزية فيه اللغة الأساسية، ولا يتناول أهله فطائر المابل المشبّعة بالعصير في الصباح، وجدت روز نفسها مستثارة وحزينة في الوقت نفسه. ففي الواقع لم تكن من ذلك النوع الذي يحب السفر والاكتشاف، ولولا ذلك الحلم الذي طالما تمنته بالسفر إلى بانكوك، لكنه لم يتحقق، لما حصلت هي ومصطفى على جوازات سفر. وكان كلّ شيء يتعلق بالسفر في العالم بالنسبة لها كان ينحصر في مشاهدتها مجموعة مؤلفة من ستة أفلام على قرص دي في دي بعنوان

«اكتشاف أوروبا»، جعلتها تكوّن فكرة عن تركيا ـ لم تكن تزيد على نتف من المعلومات المتناثرة التي كانت تزل من لسان مصطفى بين الحين والآخر خلال سنوات زواجهما. لكن المشكلة تكمن في أن روز شاهدت الأقراص الستّة جميعها دفعة واحدة، وبما أنه صادف أن «الرحلة إلى تركيا» كانت في نهاية الفيلم، بعد العرض عن الجزر البريطانية، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وإيطاليا، واليونان، وإسرائيل، بدأ الشك يساورها، ولم تعد تعرف إن كانت المشاهد التي رأتها هي مشاهد من تركيا أو من بلاد أخرى. وفي الحقيقة كان هذا الفيلم «اكتشاف أوروبا» معدّاً لأغراض تعليمية، وخاصة للأسر الأمريكية التي لا يتوفر لديها الوقت، ولا السبل، ولا الرغبة في السفر إلى الخارج، لكن كان على منتجي هذا الفيلم أن يدوّنوا ملاحظة تحثّ المشاهدين على عدم مشاهدة أقراص الدي في دي الستّة كلها دفعة واحدة، وألا «يسافروا» إلى أكثر من بلد واحد في جلسة واحدة، لأن ذلك سيشوش أفكارهم.

في مطار توسون الدولي، لم يتركا مخزناً لم يزورانه، وهذا يعني في واقع الأمر أنهما لم يزورا إلا كشكاً واحداً، ومكاناً واحداً لبيع الهدايا. ورغم اللوحة المبهرجة الألوان المكتوب عليها مطار دولي (فقد أطلق هذا الاسم بسبب الرحلات التي تنطلق من هذا المطار إلى المكسيك التي تبعد ساعة واحدة بالسيارة فقط)، كان المطار شديد التواضع، إلى حد أنه كان أشبه بمحطّة حافلات محلية، بل حتى أن مقهى ستار باكس لم يكلّف نفسه ويفتتح فرعاً فيه. ومع ذلك، فما إن وطأت قدما روز كشك الهدايا التذكارية، حتى وجدت عدة هدايا يمكن أن تقدّمها لأفراد عائلة مصطفى. وبالرغم من طبيعة هذه الرحلة المرتجلة، وقلقها المستمر على ابنتها هناك، باستثناء قلقها كيف ستخبرها بنبأ وفاة جدتها، ومع اقتراب موعد المغادرة، دخلت روز في نوع من المتاهة السياحية. ورغبة منها في أن تأخذ هدية لجميع أفراد عائلة مصطفى، الذين هم جميعهم من النساء، راحت تمعن

النظر بدقة في الهدايا المصفوفة على الرفوف، مع أنه لم تكن أمامها خيارات عديدة: دفاتر في شكل نبات الصبّار، سلاسل مفاتيح في شكل نبات الصبّار، قطع مغناطيسية في شكل نبات الصبّار، كؤوس تيكيلا طبعت عليها صور نبات الصبّار، وهدايا صغيرة وحلي رخيصة عليها صور، إن لم تكن صور نبات الصبّار، فكانت صور سحالي أو ذئاب. وفي نهاية الأمر، اشترت روز لكلّ امرأة من نساء قازانجي هدية ـ الهدايا نفسها كي تعدل بينهن ـ وهي قلم رصاص مقوس متعدد الألوان كتب عليه أنا أحبّ أريزونا في شكل نبات صبّار، وتي شيرت أبيض رسمت عليه خريطة أريزونا، وتقويم عليه صورة الوادي الكبير، وقدح كبير كتب عليه لكنها حرارة جافة، وقطع ممغنطة توضع على الثلاجة رسمت عليها صورة نبتة صغيرة حقيقية من الصبّار. واشترت أيضاً بنطالين قصيرين مزهرين من النوع الذي كانت ترتديه الآن، في حال أحبّ أحد في إستانبول أن يجربهما.

فبعد أن عاشت في توسون لمدة تزيد على عشرين عاماً، دوّن فوق كل بقعة من جسد روز، مع أنها كانت أصلاً ابنة ولاية كنتاكي، كلمة أريزونا. ولم تكن الثياب الخفيفة فقط ـ قمصان التي شيرت الخفيفة، وبناطيل الجينز القصيرة، وقبعات القشّ ـ هي التي كانت تكشف حقيقتها، أو النظارات الشمسية التي تظل ملتصقة بوجهها فقط، بل كانت لغة جسمها تشعّ بأسلوب أريزونا أيضاً. وكانت روز على وشك أن تبلغ السادسة والأربعين من عمرها هذه السنة، لكنها كانت لا تزال تتصرف مثل كاتب محكمة جنايات متقاعد، لم تتح له الفرصة في أن يرتدي ثياباً مزهرة في حياته، فبدأ يستمتع بارتدائها بعد أن أحيل إلى التقاعد ولم يعد يخلعها. وهناك أشياء عديدة كانت روز تأسف لأنها لم تفعلها في حياتها، منها أنها لم تنجب أطفالاً آخرين. فقد كانت تلوم نفسها لأنها لم تنجب طفلاً آخر عندما كان باستطاعتها أن تفعل ذلك. ولم يكن مصطفى متلهّفاً لإنجاب أطفال، ولم تكن روز تمانعه في ذلك. ربما لأنها كانت محاطة بتلامذة

الصف الرابع الابتدائي، لم تر حاجة إلى إنجاب أطفال بنفسها. وبصفة عامة كانت حياتها الزوجية مع مصطفى سعيدة. إذ كانت حياتهما الزوجية تستند إلى العادة أكثر مما تقوم على الولاء العاطفي المتبادل، لكنها بالرغم من ذلك، كانت أفضل من آلاف الزيجات الأخرى التي تدّعي أنها تقوم على الحبّ. كان قدراً غير متوقع، عندما تذكّرت كيف التقت بمصطفى لأول مرة بدافع الانتقام من عائلة تشكمكجيان. لكنها كلما عرفته أكثر، ازداد حبها له ورغبتها به. مع أن الإغراء بإقامة علاقة رومانسية كان يعتري روز سراً بين الحين والآخر، وكانت تداعبها الرغبة أحياناً في أن تعيش حياة مختلفة مع رجل آخر، لكنها كانت تشعر بالرضا بشكل عام إزاء الرجل الذي تعيش معه.

«اتركي الصلصة»، قال مصطفى عندما رأى روز تفكّر بشراء صلصة مكسيكية مليئة بالتوابل في قنينة في شكل نبات الصبّار: «صدقيني يا روز، لن تحتاجي إلى هذه الأشياء في إستانبول».

«حقاً، هل توجد في المأكولات التركية توابل كثيرة؟».

ورداً على هذا السؤال، وعلى العديد من الأسئلة الأخرى الواضحة والبديهية، لم تكن لدى مصطفى سوى أجوبة مقتضبة. فبعد سنوات عديدة من انفصاله التام عن الثقافة التركية، أصبحت ألفته بها أشبه بلوحة رُسمت على ورق نفيس أزيل عنها الرسم بفعل الشمس والرياح، وامحت شيئاً فشيئاً. وأضحت إستانبول بالنسبة له طيف مدينة، مدينة لم يعد لها وجود سوى أنها تظهر له أحياناً في أحلامه. وكما اعتاد على تخيّل أحياء المدينة العديدة وشخصياتها وثقافتها، منذ أن استقر في أمريكا، فقد تخدّرت مشاعره شيئاً فشيئاً تجاه إستانبول، وتجاه كلّ ما يرتبط بها تقريباً.

ومع ذلك، كان ابتعاده عن المدينة التي ولد فيها شيء، والابتعاد كثيراً عن لحمه ودمه شيء آخر. فلم ير مصطفى قازانجي ضيراً من أن يمكث في أمريكا إلى الأبد، وكأنه لا يوجد له وطن يعود إليه، بل حتى أنه عاش

حياة تتطلع إلى الأمام خالية من أية ذكريات. فقد أصبح أجنبياً بلا ماض وبلا أجداد، رجلاً لم تعد توجد في ذاكرته أيام صبا تكدّره. وطوال هذه السنوات، مرت أوقات أحسّ فيها بالرغبة، بطريقته، في أن يعود ليرى أفراد عائلته ويواجه الشخص الذي كانه ذات يوم، إلا أن مصطفى اكتشف أن هذا الأمر لم يكن سهلاً، وبدأ يزداد صعوبة مع تقدمه في العمر. وعندما رأى نفسه يبتعد عن ماضيه أكثر وأكثر، قطع جميع صلاته به. كانت هذه أفضل وسيلة له وللذين سبّب لهم الألم والمعاناة ذات يوم. فقد أصبحت أمريكا الآن وطنه. بل والحق يقال، أصبحت أريزونا أكثر من أيّ مكان آخر، المستقبل الذي اختار أن يستقر فيها ويطلق عليها «بيته» - البيت الذي أوصد بابه الخلفي على الماضي.

وكان يبدو أن مصطفى كان يفكّر وهو في الطائرة. فعندما أقلعت الطائرة، لبث جالساً دون أن يأتي بحركة، ولم يكد يغيّر وضعيته حتى بعد أن وصلت إلى ارتفاعها الثابت. بدا عليه الإرهاق، فقد استنزفته هذه الرحلة التي أُرغم عليها، والتي بدأت للتو.

أما روز فكانت على عكسه تماماً، إذ كانت مفعمة بالإثارة والعصبية. وراحت ترشف كوباً بعد كوب من القهوة السيئة الطعم التي تُقدم في الطائرة، وتمضغ الكعك الذي قدموه لهما، وتتصفح المجلة المجانية التي توزع على الركاب، وتتفرج على بريجيت جونز في فيلم «حافة العقل»، مع أنها كانت قد شاهدت هذا الفيلم من قبل، وانهمكت في ثرثرة طويلة مع السيدة العجوز الجالسة بجوارها (كانت ذاهبة إلى سان فرانسيسكو لزيارة ابنتها الكبرى ورؤية حفيدها المولود حديثاً)، وعندما غطت هذه الأخيرة في النوم، حاولت أن تجيب عن أسئلة التاريخ البسيطة التي ظهرت على شاشة الفيديو أمامها.

من تكبّد أشد الخسائر في الحرب العالمية الثانية؟

أ - اليابان

ب ـ بريطانيا العظمى

ج ـ فرنسا

د ـ الاتحاد السوفيتي

ما اسم الشخصية الرئيسية في رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل؟

أ ـ وينستن سميث

ب ـ أكاكي أكاكيفيتش

ج ـ السير فرانسيس درايك

د ـ غريغور سامسا

أجابت روز بالجواب «باء» عن السؤال الأول بثقة، لكن لم يكن لديها فكرة عن السؤال الثاني، فخمّنت الجواب «ألف». وسرعان ما فوجئت عندما علمت أن الجواب الأول خطأ والجواب الثاني صحيح. لو كانت آمي معها الآن، لأجابت على كلا السؤالين بثقة، لا بالصدفة. أحست باشتياق لابنتها عندما خطرت ببالها. فرغم جميع نزاعاتهما ومشاجراتهما، ورغم فشلها الشخصي كأمّ، كانت روز ما تزال واثقة من أن علاقتها بآمي جيدة. واثقة بقدر ثقتها من أن بريطانيا العظمى هي التي تكبّدت أشد الخسائر في الحرب العالمية الثانية.

ثم حطت الطائرة في سان فرانسيسكو.

وما أن دخلا صالة المطار، حتى تملك روز دافع قوي آخر بالتسوّق: شراء بعض المأكولات لتتسلى بها أثناء الرحلة. فقد كان الفتات الذي قدموه لهما في رحلتهما الأولى هزيلاً ويدعو للرثاء، لذلك قررت أن تتولى زمام أمورها بنفسها. ومع أن مصطفى حاول جاهداً أن يشرح لها أن شركات الطيران التركية، بخلاف الرحلات المحلية في أمريكا، تقدم مجموعة كاملة من أطايب الطعام، أرادت أن تكون في مأمن، قبل أن تبدأ الرحلة التي ستستغرق اثنتي عشرة ساعة.

اشترت روز رزمة من الفستق، ورقائق الجبن، وبسكويت رقائق الشوكولاتة، وكيسين من رقائق البطاطا، وحفنة من الحبوب مع العسل واللوز، وعلكة تحدث فقاعات. وكان قد مضى زمن طويل على فكرة مراقبة الكربوهيدرات لمجرد أنها كانت ترغب في أن تراقب شيئاً، أيّ شيء. لقد كان ذلك أمراً من الماضي عندما كانت شابة ومصمّمة على أن تثبت لعائلة تشكمكجيان أن هذه المرأة التي وصموها «أودار»، والتي لم يعتبرونها واحدة منهم قط، كانت في الواقع امرأة لطيفة ومحبوبة. أما الآن، وبعد عشرين سنة، فقد ابتسمت للصبيّة المستاءة التي كانت ذات يوم.

ومع أن إحساسها بالمرارة تجاه زوجها الأول وعائلته لم تنحسر تماماً، فقد تعلّمت روز مع مرور الزمن أن تتواءم مع عيوبها ومع عجزها عن القيام ببعض الأشياء، منها على سبيل المثال وركها وبطنها العريضين. وكانت تتبع حمية منذ وقت طويل، في فترات متقطعة، حتى أنها لم تتذكّر متى أوقفت حميتها بالضبط نهائياً. ومهما كان ذلك الزمن، تمكنت روز من التخلص لا من الباوندات، بل على الأقل من الحاجة إلى التخلص من الباوندات. وتوقّف هذا الدافع بكل بساطة. فقد أحبها مصطفى كما هي. ولم ينتقد شكلها على الإطلاق.

أُعلن عن بدء صعود الركاب إلى الطائرة فيما كانا واقفين في رتل أمام محل ويندي، ينتظران شراء سندويشة كبيرة من لحم الخنزير وعليها كريمة وبطاطا مخبوزة ليكونا في مأمن من أمرهما، إذا لم يكن الطعام الذي يقدم على الطائرة التركية صالحاً للأكل. أخذا طلبهما في الوقت المناسب، وهرعا إلى البوابة، حيث كان عليهما أن يخضعا لتفتيش أمني إضافي خاص بالرحلات الدولية العابرة للقارات، وخاصة الرحلات المتوجهة إلى الشرق الأوسط. راحت روز تراقب بعينين قلقتين، فيما أخذ ضابط مهذب، لكنه متجهّم، يفتّش في الهدايا التي اشترتها في توسون. رفع

الضابط قلم الرصاص في شكل نبات الصبّار إلى الأعلى وراح يهزه يمنة ويسرة، وكأنه يهزّ إصبعه لأمر خاطئ كانت على وشك أن ترتكبه.

ما أن أصبحا داخل الطائرة، حتى استرخت روز بسرعة، وراحت تستمتع بكلّ تفصيل من تفاصيل التجربة - مجموعات السفر الصغيرة الأنيقة التي وزعوها عليهما، والوسادات المتشابهة، والأغطية، وعصابات العين، وتقديم المشروبات طوال الرحلة يتخللها سندويشات الديك الرومي الترحيبية. وسرعان ما بدأ تقديم العشاء، رزّ ودجاج مشوي بالفرن مع قليل من السلطة المقلية بالزيت. وكتب على قطعة من الورق وضعت في الصينية عبارة: **لا توجد منتجات من لحم الخنزير في مأكولاتنا**. وشعرت روز بالذنب لأنها اشترت السندويشات من محل ويندي.

«كنت محقّاً بشأن الطعام. إنه جيد»، قالت، وألقت إلى زوجها ابتسامة خجولة وهي تفتل صحن الحلوى في يدها، «وما هذا؟».

«العاشورة» قال مصطفى، وقد انكمش صوته على نحو غريب، وهو ينظر إلى الزبيب الأصفر الذي يزيّن الطبق الصغير، «كانت حلواي المفضّلة. إني واثق من أن أمّي طبخت قدراً كبيراً منه عندما سمعت بقدومي».

ومع أن مصطفى حاول ألا يتذكر هذه التفاصيل، لم يستطع أن يمحي مشهد عشرات الصحون الزجاجية المليئة بالعاشورة المصطفة على الرفوف داخل الثلاجة، لتوزع على الجيران. وبخلاف الحلويات الأخرى، كانت العاشورة تعد للآخرين دائماً بنفس الكمية التي تعد فيها لأفراد العائلة. لذلك، كانت تُطهى كمية كبيرة منها، وكان كلّ صحن يرمز إلى البقاء والتضامن والوفرة. واتضح افتتان مصطفى بهذه الحلوى عندما رأته أمه، وهو في السابعة من عمره، يتناول من الصحون التي طلبت منه أن يوزعها على الجيران.

فها هو يتذكر نفسه ينتظر في سكون العمارة بالقرب من بيتهم حاملاً الصينية بيده. كانت هناك ستّة صحون على الصينية، كلّ صحن منها لجار مختلف. في البداية، التهم الزبيب الأصفر الذي كان يزيّن الصحون، متخيلاً أنه إذا تناول الزبيب فقط، فلن يلاحظ أحد ما فعله. لكنه التهم أيضاً حبّ الرمان واللوز المبشور الذي يزين الصحون، وقبل أن يدرك ما أقدم عليه، كان قد التهم كلّ شيء، ستّة صحون دفعة واحدة، فأخفى الصحون الفارغة في الحديقة. وكان الجيران يحتفظون غالباً بالصحون ثم يعيدونها مليئة بطعام آخر، غالباً ما يكون عاشورة أخرى. ولم تكتشف عائلة قازانجي الإثم الذي ارتكبه مصطفى إلا بعد حين. وعندما اكتشفت أمه ما ارتكبه، لم توبّخه، رغم إحساسه بالحرج الشديد، لكنها بدأت تحتفظ، منذ ذلك الحين، بعدد إضافي من صحون العاشورة في الثلاجة له، وله وحده فقط.

«ماذا تريد أن تشرب يا سيدي؟» سألته المضيفة باللغة التركية، نصف منحنية نحوه. كانت عيناها زرقاوين بلون الياقوت، وترتدي صدرية بنفس اللون، رُسمت على ظهرها غيوم رمادية.

لوهلة تردّد مصطفى، لا لأنه لم يكن يعرف ماذا يريد أن يشرب، بل لأنه لم يعرف بأيّ لغة سيردّ عليها. فبعد هذه السنوات، أصبح يشعر بالراحة عندما يعبّر عن نفسه بالإنكليزية أكثر من التركية. ومع ذلك، فقد بدا له ذلك أمراً غير طبيعي أيضاً، فضلاً عن شعوره بالغطرسة عندما يتكلم بالإنكليزية إلى شخص تركي آخر. لذلك حلّ مصطفى قازانجي هذه المشكلة الشخصية بتحاشي الاتصال بأي شخص تركي في أمريكا. وبدت عزلته تجاه أبناء جلدته صارخة على نحو مؤلم في لقاءات عادية كهذه. تطلع حوله، وكأنه يبحث عن منفذ، وعندما لم يجد منفذاً قريباً، أجابها باللغة التركية: «عصير بندورة من فضلك».

«لا يوجد لديّ عصير بندورة»، قالت المضيفة وعلى وجهها ابتسامة

جميلة، وكأن ذلك كان دعابة كبيرة. فقد كانت واحدة من تلك الموظفات الوفيات التي لم تفقد إيمانها بالمؤسسة التي تعمل فيها، والقادرة على قول: «هل ترغب في مزيج بلودي ماري؟» بالوجه المبتسم ذاته.

أمسك المزيج القرمزي السميك ومال إلى الوراء، جبهته مجعّدة على نحو كئيب، وعيناه الكستنائيتان مشوشتين. عندها فقط لاحظ أن روز تحدّق فيه، وتتفحص حركاته بدقّة. أظلمت تعابير وجهها عندما سألته: «ما بك يا حبيبي؟ تبدو متوتراً. هل لأننا سنرى عائلتك؟».

بعد أن ناقش معها هذه الرحلة بالكامل، لم يبق لديه الكثير ليقوله لها الآن. وكانت روز تعرف أن مصطفى لم يكن يريد أن يذهب إلى إستانبول، وأنه رضخ إلى طلبها العنيد بالذهاب معاً. ومع أنها قدّرت له ذلك، فإنه يصعب القول إنها كانت تشعر بالامتنان له. إذ يحق لزوجة مضى على زواجها تسع عشرة سنة أن تطلب من زوجها تصرفاً لطيفاً مرة في العمر، قالت لنفسها، وأمسكت بيد مصطفى وضغطتها برقة.

باغتت هذه الحركة مصطفى. فقد اعترته كآبة هائلة عندما اقترب أكثر من زوجته. إذ تعلم منها شيئين أساسيين عن الحبّ: الأول، بخلاف ما يقوله الرومانسيون بغرور، فإن الحبّ مسيرة تدريجية أكثر من كونه زهرة تتفتّح فجأة من أول نظرة، والثاني، أنه قادر على الحبّ.

فخلال هذه السنوات اعتاد على حبها، ووجد فيها قدراً من الهدوء. ومع أن روز كانت كثيرة الطلبات، وصعبة المراس أحياناً، إلا أنها كانت صادقة دائماً مع جوهرها، ويمكن قراءتها وفكّ رموزها بسهولة. كانت جدولاً بسيطاً من الطاقات، وكان يعرف كلّ ردّ فعل محتمل يصدر عنها. فلم تتحداه قط، كما أنها لم تواجه الحياة حقاً، وكانت تتمتع بموهبة طبيعية لتتكيّف مع بيئتها المحيطة. كانت روز مزيجاً من القوى المتضاربة التي تعمل من تلقاء نفسها دون عناء، كانت خارج الزمن تماماً، ولذلك كانت خارج شجرة نسب العائلة أيضاً. فبعد أن التقى بها، تحوّلت عذابات

العائلة التي كانت تعتمل في داخله إلى حبّ يتقدم بصعوبة، لكنه كان سهل القياد، بأمل أن يقرّبه ذلك من الحبّ الحقيقي. وربما لم تكن روز زوجة مثالية في بداية عهد زواجها، عندما لم تتمكن من التكيّف مع عائلة أرمنية كبيرة، لكنها للسبب نفسه كانت الملاذ المثالي لرجل مثله، رجل يحاول أن يهرب من عائلته التركية الكبيرة.

«هل أنت على ما يرام؟» كرّرت روز سؤالها بحدة أكثر قليلاً هذه المرة.

في هذه اللحظة بالذات، غمرت موجة من القلق مصطفى قازانجي. فقد شحب لونه وكأنه لم يكن يستطيع أن يحصل على هواء كاف. فلم يكن من المفترض أن يكون على متن هذه الطائرة. كان عليه ألا يذهب إلى إستانبول. وكان على روز أن تذهب وحدها وتعيد ابنتها إلى البيت... البيت. كم اشتاق للعودة إلى أريزونا الآن، حيث يغلّف كل شيء دفق رقيق من الألفة.

«أظن أني يجب أن أتمشى قليلاً»، قال مصطفى، وقدم كأس شرابه إلى روز واستوى واقفاً لكي يسيطر على الشيء الذي بدأ يتحول بسرعة إلى نوبة رعب: «ليس من المفيد أن يجلس المرء هكذا ساعات طويلة».

عندما بدأ يتمشى نحو مؤخرة الطائرة في الممر الضيّق، راح ينظر إلى المسافرين في كلّ صفّ، بعضهم أتراك، بعضهم أمريكيون، وبعضهم من جنسيات أخرى. رجال أعمال، صحفيون، مصورون، دبلوماسيون، كتّاب رحلات، طلاب، أمهات مع أطفالهن حديثي الولادة، غرباء تماماً، يشاركونه الفضاء نفسه، بل وربما المصير ذاته. وكان بعضهم يقرأون كتاباً، أو صحفاً، ويشاهد بعضهم الآخر الملك آرثر وهو يقتل أعداءه في لعبة فيديو في الطائرة، بينما انهمك آخرون في لعب الكلمات المتقاطعة. وكانت هناك امرأة تجلس على مقعد بعد عشرة صفوف، سمراء لوحتها الشمس، في منتصف الثلاثينات من عمرها، تنظر إليه بإمعان. أشاح

مصطفى بعينيه عنها. كان لا يزال رجلاً وسيماً، لا بسبب جسده الطويل، الممتلئ، وقسماته الحادّة، وشعره الأسود اللمّاع فقط، بل بسبب تهذيبه وأناقته. ومع أنه جذب انتباه نساء كثيرات أثناء حياته، فإنه لم يخن زوجته. ومن السخرية أنه كلما تحاشى النساء الأخريات أكثر، انجذبن إليه.

عندما مرّ بجانب صفّ المقاعد الذي تجلس فيه المرأة السمراء، لاحظ مصطفى بقلق أن المرأة ترتدي تنورة قصيرة على نحو صفيق، وتلفّ ساقاً على ساق على نحو يخيّل إليك أنك تستطيع أن تلمح سروالها الداخلي. لم يعجبه هذا الشعور بالارتباك الذي سببته له التنورة القصيرة؛ ذكريات شائكة ثقيلة كان يتمنى أن ينساها إلى الأبد. رؤية أخته الصغرى، زليخة التي كانت مولعة دائماً بارتداء مثل هذه التنانير، تترنح فوق بلاطات أرصفة إستانبول بخطوات سريعة وكأنها هاربة من ظلّها. وعندما واصل طريقه متعثراً، اندفعت مقلتا عينيه إلى الطرف الآخر، باتجاه المكان الذي يجب ألا ينظر إليه. والآن بعد أن بلغ متوسط العمر، كان يتساءل أحياناً إن كان قد أحبّ النساء في حياته. طبعاً ما عدا روز. لأن روز لم تكن امرأة. بل كانت روز هي روز.

وبشكل عام، كان زوج أمّ جيد لابنة روز. ومع أنه أحبّ آرمانوش حقاً، لم يكن يرغب هو نفسه في أن ينجب طفلاً. لا أطفال بالنسبة له. ولم يكن يعرف أحد أنه في أعماق قلبه، كان يعتقد أنه لا يستحقّ أن يكون لديه أطفال. إذ لم يكن واثقاً إن كان سيكون أباً جيداً أم لا. سيضحك على مَنْ؟ إنه سيكون أباً فظيعاً، بل حتى أسوأ من أبيه.

تذكّر ذلك اليوم الذي التقى فيه روز، ذلك اللقاء الذي لعله لم يكن لقاءً رومانسياً، في أحد أقسام السوبر ماركت، حيث كان واقفاً وهو يمسك علبة حمّص في كلّ يد. وعلى مرّ السنين، تحدثا مراراً عن ذلك اليوم، وكانا يسخران من جميع التفاصيل التي كان بوسعهما أن يتذكراها. إلا أنه

كان لكلّ منهما ذكريات تختلف عن الآخر: فقد كانت روز تتذكر دائماً خجله وتوتره، فيما كان هو يتذكّر شعرها الأشقر اللامع وجرأتها التي أخافته في البداية. لكنه لم يعد يشعر بالخوف من روز، بل على العكس، جعله وجوده مع روز يشعر وكأنه ينساب في جدول هادئ، واثقاً بأنّه لن يشدّه إلى الأسفل، تدفق هادئ بدون مفاجآت. ولم يستغرق وقتاً طويلاً حتى بدأ يحبهّا.

في صباح كلّ يوم، كان يحلو لمصطفى أن يراقب روز وهي تعمل في المطبخ. كانا كلاهما يحبان المطبخ، ولكن لأسباب مختلفة تماماً. فقد كانت روز تحب المطبخ لأنها تحبّ الطهي، الذي كان يجعلها تشعر أنها في بيتها حقاً. أما مصطفى، فكان يحبّ أن يراقبها وهي تقف في وسط تلك التفاصيل الكثيرة العادية، المناشف الورقية التي تجاري لون البلاط، الأقداح التي تكفي حامية كاملة، وبركة صلصة حلوى الشوكولاتة المتجمدة على الطاولة. كان يحبّ أن ينظر إلى يديها وهي تقطّع، تحرّك، وتفرم. وكان أكثر شيء يريحه ويسعده في حياته، مراقبته لها وهي تعدّ الفطائر.

في الفترة الأولى، ظلت أمّه وأخواته الأكبر يبعثن له رسائل، يسألنه عن أحواله، ومتى سيأتي لزيارتهن. كن يسألنه أسئلة يتهرب من الإجابة عليها، وظل يرسل لهن رسائل وهدايا، وخاصة إلى أمّه، أكثر من أي شخص آخر. وخلال السنوات العشرين هذه، لم يلتق بأمّه ثانية إلا مرة واحدة، لم تكن في إستانبول، بل في ألمانيا. عندما كان في زيارة إلى فرانكفورت لحضور مؤتمر علماء الجيولوجيا، وطلب منها أن تسافر إلى هناك كي يراها. لذلك التقيا في ألمانيا، الأمّ والابن، مثل لاجئين سياسيين لا يستطيعان العودة إلى تركيا. وظلا يلتقيان بهذه الطريقة لسنوات عديدة.

في ذلك الحين كانت أمّه في توق شديد لرؤيته، لذلك لم تسأله لماذا لا يأتي إلى إستانبول. فمن المدهش كيف يتعود الناس بسرعة على مثل هذه الظروف الشاذّة.

عندما وصل مصطفى قازانجي إلى مؤخّرة الطائرة، توقّف أمام باب الحمّام، وراء رجلين يقفان في الرتل. انطلقت منه تنهيدة عندما تذكر الأمسية السابقة. إذ لم تكن روز تعرف أنه في طريق عودته إلى البيت من العمل، كان مصطفى يتوقّف بين الحين والآخر عند إحدى الزوايا في توسون ويزورها سرّاً خلال السنوات العشر الماضية، حيث يقبع ضريح إل تيراديتو.

كان مكاناً متواضعاً منزوياً في وسط مدينة توسون، وهو الضريح الوحيد في أمريكا المكرّس لروح شخص آثم، كما تذكر اللوحة التاريخية هناك. روح محرومة كنسياً، منبوذة. ولا يعرف أحد الكثير عن تفاصيل قصته التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر؛ من هو حقاً هذا الشخص الآثم، وما إثمه بالتحديد، والأهم من ذلك، كيف يمكن إقامة ضريح مكرّس لاسمه الفاسق. وكان المهاجرون المكسيكيون يعرفون عنه أكثر مما يعرفه الآخرون عنه، ولم يكونوا يرغبون في أن يشاركهم فيه الغرباء. لكن مصطفى قازانجي لم يعبأ بأن يبحث في التفاصيل التاريخية. بل كان يكفيه أن يعرف أن إل تيراديتو كان رجلاً طيباً، على الأقل لم يكن أسوأ منا، رغم ارتكابه أعمالاً شنيعة في الماضي، أخطاء دنيئة تكفي لأن تجعله آثماً. ومع ذلك فقد مُنح شيئاً يفتقد إليه الكثيرون من بني البشر وهو الضريح.

لذلك زار مصطفى الضريح ليلة أمس مرة أخرى، الأفكار تعذّبه. ومع أن توسون كانت بلدة صغيرة، إلا أنها كانت كبيرة عندما يتعلق الأمر بالأماكن المقدّسة، حتى كان بوسعه أن يذهب إلى مسجد هناك إذا رغب. لكنه لم يكن متديناً، ولن يكون. ولم يكن يحتاج إلى معابد أو كتب مقدّسة. ولم يكن يذهب إلى إل تيراديتو ليصلي، بل كان يذهب إليه لأنه المكان المقدّس الوحيد الذي لم يكن يطلب منه أن يغيّر نفسه ليصبح شخصاً آخر كي يلقى ترحيباً. كان يذهب إلى هناك لأنه كان يحبّ الإحساس بالمكان، المتواضع والقوطي. كان مزيجاً من الأرواح

المكسيكية مع الأعراف الأمريكية، عشرات الشموع والتعويذات التي يضعها أشخاص كثيرون، ربما كانوا آثمين هم أنفسهم، أوراق مطوية في الجدران يدوّن فيها الزوّار اعترافاتهم ويخفون ذنوبهم ـ تناشده جميعها في مزاجه الحالي.

«هل أنت على ما يرام، يا سيدي؟» قالت له المضيفة ذات العينين الياقوتيتين.

أومأ برأسه وأجاب، هذه المرة باللغة الإنكليزية.

«نعم، شكراً. أنا على ما يرام. فقط متوعك من الطيران قليلاً. . .».

* * *

تحت ضوء الشارع المخملي الذي يتسلل بين الستائر، كانت الخالة زليخة تغط في النوم، والهاتف الخلوي ما زال في يدها، وقنينة الفودكا مائلة عند ذقنها، والسيجارة في يدها الأخرى لا تزال مشتعلة.

دخلت الخالة بانو إلى غرفتها تمشي على أطراف أصابعها. وبسرعة أخمدت البطانية التي بدأت تشتعل، وأطفأت عقب السيجارة في المنفضة، وأخذت الهاتف الخلوي ووضعته فوق الخزانة، وأخذت قنينة الفودكا وأخفتها تحت السرير، ثمّ دسّت أختها تحت الملاءات، وأطفأت النور.

فتحت النوافذ. كان الهواء رقيقاً فيه لذعة ملوحة من نسيم البحر. وعندما هبّ الدخان وفاحت الرائحة من داخل الغرفة إلى خارجها، نظرت الخالة بانو إلى وجه أختها الصغرى الشاحب، المتعبة بشكل يتجاوز عمرها. وفي الضوء الخافت المصفرّ المتسلل من الخارج، أنار وجه زليخة، وكأن الكحول والحزن منحاها تألقاً قلّما يوجد في الطبيعة. قبّلتها الخالة بانو برقة وهدوء على جبينها، والحنان يتدفّق في عينيها. ثم نظرت يمنة ويسرة إلى الجنيين اللذين كانا يراقبان بعناية كلّ حركة من حركاتها، من على كتفيها.

«ماذا ستفعلين يا سيدتي؟» سأل السيد مرّ، وصوته يشي بنبرة من الشماتة. فلم يعبأ أن يخفي بهجته لرؤية سيدته عاجزة ومكتئبة. فقد كان يسعده دائماً أن يرى الأقوياء عاجزين.

اكتسى وجه الخالة بانو بلمسة من العبوس والتجهم. ولم تردّ. عندها قفز السيد مرّ جانباً وجلس إلى جانب السرير، قريباً على نحو خطر من الخالة زليخة التي كانت تغط في النوم. لمعت عيناه بالفكرة التي خطرت بباله للتو. أمسك طرف الملاءة بفظاظة، وكاد يوقظ الخالة زليخة، وربط الملاءة على رأسه مثل منديل رأس.

«دعني أقول لك شيئاً»، قال السيد مرّ، ذراعاه على جانبيه، ورفّع صوته حتى أصبح ذا نبرة أنثوية، يقلّد أحداً، «هناك أشياء في هذا العالم...».

عرفت الخالة بانو على الفور من هو الشخص الذي يقلّده، وأحسّت بوخز في عمودها الفقري.

«هناك أشياء سيئة للغاية تجري في هذا العالم لا يعرفها الناس الطيبون، باركهم الله جميعهم، وهذا بحد ذاته شيء جيد، كما أقول لك؛ ولا ضير من أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الأمور، لأن هذا يثبت معدن الطيبين. وإلا لما كانوا طيبين، أليس كذلك؟ لكنك إذا حدث ووطأت منجماً من الحقد، فلن تطلبي المساعدة من أحد من هؤلاء الناس».

حدقت الخالة بانو في السيد مرّ برهبة، لكنه سحب الملاءة الآن من فوق رأسه، وقفز عائداً إلى مكانه السابق، في مواجهة المكان الذي كان يتكلّم فيه، كي يصوّر المتحدث الثاني في حواره المتخيّل. ولكي يقلّد المتحدث الثاني، أمسك حفنة الزبيب الأصفر التي تبقت من الخالة زليخة ليلة البارحة، وبلمح البصر، رتّب حبات الزبيب بطريقة سحرية في الهواء، وجعل منها قلادة طويلة وعدّة أساور. ثم لبس القلادة، ووضع الأساور،

وابتسم ابتسامة عريضة. لم يكن من الصعب معرفة من بدأ يقلد الآن. لم يكن من الصعب التعرف على أسلوب آسيا.

ممتلئاً بإبداعه النرجسي، تابع السيد مرّ: «أتظنين يا خالة أنني سأطلب مساعدة من جني خبيث!».

نزع السيد مرّ القلادة والأساور الآن، وقفز عائداً إلى السرير، وأعاد الملاءة وغطى بها زليخة، وأجاب بنبرة أثخن: «ربما كان عليك أن تفعلي ذلك يا عزيزتي. لندعو الله أنك لن تحتاجي إلى ذلك».

«كفى! ما كلّ هذا؟» قاطعته الخالة بانو بقوة، مع أنها كانت تعرف الجواب.

«تلك». انحنى السيد مرّ إلى الأمام في شكل قوس مثل ممثل متواضع أمام موجة من التصفيق المدوّي لدى انتهاء عرضه «كانت لحظة من الزمن. شريحة صغيرة من الذاكرة».

اعتدل في وقفته والسمّ في عينيه، ثم رفع عقيرته: «إني أذكرك بكلماتك يا سيدتي!».

اعترى الخالة بانو شعور قوي بالخوف مما جعل جسمها كله يرتعش. كان ثمة خبث في نظرة هذا المخلوق، لم تعرف كيف تفسّر لنفسها لماذا لم تخرجه من حياتها نهائياً وإلى الأبد. كيف يمكنها أن تنجذب إليه هكذا، وكأنهما يتقاسمان سرّاً لا يمكن البوح به؟ لم يسبق للخالة بانو أن شعرت بالخوف من جنيها مثل الآن.

ولم تخف في حياتها من التصرفات التي يمكن أن ترتكبها.

١٦

ماء الورد

«ها هي ذي عين شرّيرة أخرى. هل سمعت ذلك الصوت الذي ينذر بالسوء؟ صوت تصدّع! أوه لقد تردد صدى ذلك في قلبي! إنها عين شرّيرة لشخص غيور وخبيث وماكر. فليحمنا الله جميعنا!».

هكذا قالت ما -الهيفاء صباح يوم الأحد وهي جالسة إلى مائدة الفطور فيما كان السماور يغلي في زاوية الغرفة. وبينما كان السلطان الخامس يموء تحت المائدة منتظراً أن تقدم له قطعة أخرى من جبن الفيتا، ظهر على شاشة التلفزيون المرشّح الذي طُرد هذا الأسبوع في النسخة التركية من برنامج «المبتدئ» في مقابلة كاملة يتحدث فيه عن الخطأ الذي ارتكب، ولماذا لم يكن يجب أن يُطرد من البرنامج، تصدعت كأس الشاي التي كانت آسيا تمسكها في يدها. وقد حدث ذلك فجأة مما جعلها تجفل. وكان كلّ ما تعرفه أنها كعادتها ملأت نصف كأس من الشاي الغامق الثقيل، الشاي المتخمّر، وأكملته بماء حار إلى الحافة، ثم، وفيما كانت على وشك أن ترشف منها، سمعت صوت تصدّع. وحدث شق من أعلى الكأس إلى أسفلها في خط متعرج، مثل ثلم مشؤوم ظهر على وجه الأرض بسبب زلزال عنيف. وبلمح البصر، بدأ الشاي في الكأس يرشح إلى الخارج، وتشكّلت بركة بنية داكنة فوق مفرش المائدة المخرّم.

«هل توجد عين شرّيرة عليك؟» قالت الخالة فريدة، وهي تراقب آسيا بارتياب.

«عين شرّيرة عليّ؟» ضحكت آسيا بمرارة، «أراهن أنه توجد عين شرّيرة! أليس كلّ مَنْ في هذه المدينة يغار من حسني وجمالي؟».

«توجد مقالة في صحيفة اليوم عن شاب في الثامنة عشرة من عمره خرّ صريعاً ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يجتاز الشارع. أظن أنه مات بسبب العين الشرّيرة»، قالت الخالة فريدة بنبرة تشي بالخوف.

«شكراً لرفع معنوياتي»، قالت آسيا، إلا أن ابتسامتها العريضة سرعان ما تحوّلت إلى تكشيرة عندما لاحظت أن خالتها المجنونة بدأت تحدّق الآن في المملحة في هيئة رجل الثلج، وإلى جانبها المملحة الأخرى في هيئة امرأة الثلج. فقد كانت آسيا قد أخفتهما في الخزانة البارحة بأمل ألا يراهما أحد قبل شهر. لكنهما ها هما على الطاولة مرة أخرى. ولم يكن شكل المملحتين سيئاً، بل كانتا في حالة جيدة على نحو يدعو للأسف ـ وكانتا متشابهتين أيضاً إلى درجة يصعب عليك أن تعرف أيهما تحوي الملح، وأيهما تحوي الفلفل.

«لو كانت ما -الهيفاء في صحة أفضل، لصبّت بعض الرصاص من أجلك»، قالت الخالة بانو وفي عينيها نظرة حانقة لم تشهدها آسيا على وجهها من قبل. ومع أن الخالة بانو كانت أكثر امرأة في المنزل تتمتع بخبرة في الأمور الظلامية غير المألوفة، لكنها لم تكن مخوّلة بصبّ الرصاص، لأنه يجب أن يقوم بهذا العمل شخص ممارس، حتّ لم يسمح لها بممارسته في الماضي.

وعلى نحو غريب، وقبل عشر سنوات تقريباً، عندما كانت لا تزال في مراحلها الأولى من الزهايمر، قرّرت الجدة ما ـ الهيفاء أن الوقت قد حان لاختيار المرأة التي ستنقل إليها سرّ صبّ الرصاص، لكنها لم تختر الخالة بانو خليفة لها، كما كن يتوقعن، بل اختارت الخالة زليخة، غير المؤمنة أصلاً ـ وهو قرار أحدث اضطراباً ولغطاً شديدين بين نساء العائلة في ذلك الحين.

«هل تمزحين؟» قالت الخالة زليخة عندما سمعت قرار المرأة العجوز، «لا يمكنني أن أصبّ الرصاص، حتى إني لست مؤمنة، فأنا لا أدرية»[1].

«لا أعرف ما معنى هذه الكلمة، لكني أستطيع أن أقول إنها كلمة غير جيدة»، شخرت ما - الهيفاء، وأضافت: «إنك تتمتعين بالموهبة. تعلّمي السرّ».

«لماذا أنا؟» سألت الخالة زليخة مرغمة نفسها على دراسة هذه الإمكانية: «لماذا لا تختارين أختي الكبيرة؟ ستكون بانو سعيدة للغاية إذا ما تعلمت السرّ. أنا آخر شخص يجب أن تعلّميه السحر».

«ليس لهذا علاقة بالسحر. فالقرآن يحرّم علينا ممارسة السحر!» ردت عليها ما - الهيفاء، وقد بدا أنها أحست بالإهانة، وأضافت: «إنك الشخص المناسب. فلديك التصميم والروح والغضب».

«الغضب؟ لكن لماذا تحتاجين إلى الغضب؟ سأكون المرشّحة المثالية إذا كان الأمر يتعلق بشتم الناس البغيضين، لكنني أشكّ في أنني سأكون ذات فائدة عندما يتعلق الأمر بمساعدة الآخرين»، قاطعتها الخالة زليخة بابتسامة عريضة.

«لا تقللي من شأن الطيبة فيك»، أجابت ما - الهيفاء. عندها أطلقت الخالة زليخة ملاحظة لتضع حداً لهذا الأمر بصورة نهائية: «أنا لست الشخص المناسب لهذه المهمة. قد أكون لا أدرية مشوّشة، لكن على الأقل لديّ الشجاعة كي أظل لا أدرية».

«اغسلي فمك بالصابون!» قاطعتها الجدة كلثوم مقطّبة الوجه، وهي تستمع إلى المناقشة.

---

(١) اللا أدري: الشخص الذي يعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها (المترجم).

لكن الخالة زليخة تحاشت الموضوع تماماً بعد ذلك. فقد كانت نصف عائلتها كمالية علمانية متحمسة، ونصفها الآخر متدين. ورغم أن أفكار الطرفين كانت متضاربة، فقد كانا متعايشين أيضاً تحت سقف واحد، ومع أنه أمر يتعذر تفسيره علمياً، وينطوي على انقسامات إيديولوجية، فقد كان يُعتبر أمراً عادياً في حياتهن، مثل تناولهن الخبز والماء كلّ يوم. وبما أن الإطار العام كان هكذا، فقد اختارت الخالة زليخة، من جهتها، أن ترفض كلا الجانبين.

لذلك، وبعد كل هذه السنوات، بقيت ما ـ الهيفاء، المرأة الوحيدة في العائلة التي ظلت تصبّ الرصاص في بيت قازانجي. وأحست أخيراً أنها مضطرة لوقف هذه الممارسة، لأنها وجدت نفسها ذات يوم أنها لا تعرف ماذا ستفعل بالمقلاة الملتهبة التي ذوّبت فيها الرصاص. «لماذا تعطيني مقلاة تغلي؟» سألت بذعر واضح. أخذن المقلاة منها بلطف، ومنذ ذلك الحين، لم يعدن يأتمنها على هذه المهمة. لكن بما أن الموضوع أثير ثانية الآن، التفتت الرؤوس جميعها إلى المرأة العجوز ليرين إن كانت تتابع حديثهن.

بما أنها كانت مركز اهتمام الجميع على مائدة الفطور، رفعت ما – الهيفاء رأسها والتفتت بفضول إليهن، فيما كانت تتابع مضغ قطعة من السجق بصوت مرتفع. ابتلعت لقمتها، وتجشأت، وعندما بدا أنها ستنزلق ثانية إلى عالمها الخاص، صُدمن جميعهن بجلاء ذاكرتها.

«عزيزتي آسيا، أنا من سيصبّ الرصاص لك كي أفقأ العين الشرّيرة، مهما تجمّعت حولك».

«أشكرك، يا جدتي»، قالت آسيا وهي تبتسم.

عندما كانت آسيا فتاة صغيرة، كانت ما ـ الهيفاء تصبّ الرصاص لها باستمرار لتفادي العين الشرّيرة التي تحيط بها. وبما أن آسيا كانت طفلة

نحيفة وضعيفة، فقد كانت تحتاج إلى قوة دفع في بداية حياتها المريضة. ولسبب ما، كانت تتعثر كثيراً وتسقط على وجهها، وكانت تجرح شفتها السفلية كلما سقطت. ولم يكن يخطر ببالهن أن الطفلة لم تبلغ مرحلة المشي بشكل متوازن بعد، بل كن يعتقدن أن ذلك كان بسبب العين الشرّيرة، لذلك كنّ يسلّمنها إلى الجدة ما ـ الهيفاء.

في البداية، كان ذلك يبدو مثل لعبة ممتعة بالنسبة لآسيا، لعبة مسلية ومثيرة، تُدخل البهجة إلى نفسها أيضاً لأنها كانت تشعر بالإطراء لأنها كانت في مركز الاهتمام. وكانت تتذكّر بفرح شديد كلّ عمل خارق خارج عن الطبيعة عندما كانت طفلة، وقد ترسخ في نفسها إيمان، لا بالسحر، بل بقدرة أسرتها على التحكم بالقدر. وكانت تستمتع بكلّ تفصيل من تفاصيل هذه الطقوس: أن تجلس القرفصاء على أجمل بساط في البيت، وتوضع بطانية فوق رأسها، مما كان يجعلها تشعر أنها محمية ومختبئة جيداً داخل هذه الخيمة الغريبة، تستمتع إلى الأدعية التي تنطلق من جميع الجهات، وكانت أخيراً، تسمع صوت النشيش، مثل صرخة، وصوت الجدة ما ـ الهيفاء وهي تصبّ الرصاص المذاب في مقلاة مليئة بالماء، وهي لا تفتأ تكرر: «Elemterefis kem gozlere sis. Goz edenin gozune kizgin sis»، وسرعان ما يتصلّب الرصاص، وتتكوّن منه أشكال تتغيّر باستمرار. فإذا صادف وإن كانت هناك عين شرّيرة في الجوار، فإن ثقباً سيحدث في الرصاص في شكل عين. وحتى يومنا هذا، لم تتذكر آسيا مرة واحدة لم يحدث فيها ثقب.

ورغم كل ذلك، ومع أن آسيا كبرت وهي ترى الخالة بانو تقرأ فناجين القهوة، والجدة ما ـ الهيفاء تطرد العين الشرّيرة، ورثت في النهاية لا أدرية أمّها في الشك. وخلصت إلى أن كلّ شيء يتوقف على موقفك إزاء الأمور. فإن كنت تبحث عن وحيد القرن الأرجواني اللون، فلن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تبدأ في رؤيته في كل مكان. وبالطريقة نفسها، إن كان

ثمة توافق بين الرجم بالغيب ـ سواء كانت فناجين قهوة أو صبّ الرصاص ـ وبين عملية التفسير، فلم يكن ذلك أعمق من التمييز بين الصحراء وقمر الصحراء. مع أن هذا الأخير يحتاج إلى الأول ليوفر خلفية للمشهد الذي لا شك في أن له وجوداً مستقلاً. فقمر الصحراء يوجد خارج الصحراء، وكذلك، فإن ما تراه العين الإنسانية في قطعة رمادية من الرصاص لا يمكن أن تتحوّل إلى الشكل الذي تتشكل به هناك. وإذا أمعنت النظر طويلاً وبقدر كاف من الإيمان، يمكنك أن ترى حتى وحيد قرن أرجواني اللون هناك.

لكن بالرغم من عدم تصديقها، بدأت ما ـ الهيفاء تتذكّر الآن العادة المتبعة، فلم تكن آسيا تنوي أن تعارض. فقد كان حبّها لما -الهيفاء عميقاً جداً، ولا يمكنها أن ترفض لها طلباً. «حسناً» هزت كتفيها بلا اكتراث، فقد كانت واثقة أيضاً بأن المرأة العجوز قد تنسى الأمر برمته خلال دقائق. «بعد أن نتناول الفطور ستصبّين لي الرصاص، كما كنت تفعلين في الماضي».

في تلك اللحظة، فُتح باب الحمّام في الطابق الأرضي، وانضمت إليهن آرمانوش. كان الأرق والضعف باديين عليها، وكان اليأس والقنوط ظاهرين في عينيها الجميلتين. لم تكن تلك آرمانوش التي كنّ يعرفنها، إذ لم تكن تكاد على صلة بالعالم من حولها، وبدا أنها كبرت قليلاً. دخلت وهي تسير ببطء وحذر.

«نأسف جداً على فقدانك جدتك»، قالت الخالة زليخة بعد برهة من الصمت: «أقدم لك أحرّ تعازينا الصادقة».

«شكراً»، أجابت آرمانوش، متحاشية النظر في عيونهن. أخذت كرسياً فارغاً وجلست بين آسيا والخالة بانو. ملأت آسيا كأسها بالشاي، وقدمت لها الخالة بانو البيض والجبن ومربى المشمش المصنوع في البيت. وقدمن

لها أيضاً قطعة الكعك الثامنة، فلم يكن قد تخلين عن عادة شراء ثماني قطع من كعك الصميت من البائع المتجول صباح كلّ يوم أحد.

ومع ذلك نظرت آرمانوش إلى الطعام بلا مبالاة، وحركت كأس الشاي بضع ثوان بدون تركيز، ثم التفتت إلى الخالة زليخة وسألتها: «هلّ يمكنني أن آتي معك إلى المطار لاستقبال أمّي؟».

«بالتأكيد، سنذهب إلى هناك معاً»، قالت الخالة زليخة، وترجمت ما قالته للأخريات.

«وأنا سآتي أيضاً»، قالت الجدة كلثوم.

«حسناً يا أمي، سنذهب جميعنا إلى المطار»، قالت الخالة زليخة. فقالت آسيا: «سآتي أنا أيضاً».

«لا يا آنسة، ستبقين أنت هنا»، ردت الخالة زليخة بنبرة حاسمة: «إبقي هنا وصبّي الرصاص».

حدقت فيها آسيا وكأنها تقول لها: ما هذا بحقّ السماء؟ لماذا تمنعها من الذهاب؟ وإذا كانت هناك أيّ درجة من الديمقراطية وحرية الكلام في هذا البيت، فهذا حق لكلّ واحدة منهن إلا هي. فعندما يتعلق الأمر بها، يتحوّل النظام المنزلي بصورة آلية إلى حكم ديكتاتوري مطلق. تنهدت آسيا وفي عينيها نظرة تجاور اليأس. ثم، وبدون أن تعرف السبب، أحست بدافع مفاجئ لأن تضع الفلفل في طعامها، أمسكت المملحة الخزفية. واكتسى وجهها بتعبير غير واثق، عندما رفضت الرجل الثلجي القبيح، وأمسكت المملحة في شكل المرأة الثلجية القبيحة، ورشت قدراً كبيراً من الملح فوق اللقيمات الأخيرة من البيضة المقلية التي تتناولها.

وظلت آسيا خلال الفترة المتبقية من الفطور ساهمة وواجمة. ثم وقفت الخالة بانو وهي تنظر إليها من الجانب، وسألتها بصوت مفعم بالشفقة: «لماذا لا نخرج أنا وأنت لنتسوق، يا حبيبتي؟ يمكننا أن نغادر بعد الفطور ونعود بعد ساعتين. سنجد متعة في ذلك!».

«لكن أولاً ـ» توقفت الخالة بانو في منتصف الجملة: «تعالي وساعديني في المطبخ كي نوزع العاشورة».

هزت آسيا رأسها مستسلمة. بحقّ السماء؟ قالت لنفسها. بحقّ السماء. . .؟

* * *

كانت رائحة المطبخ تشبه رائحة مطعم شعبي بعد ظهر عطلة نهاية أسبوع حافل. رائحة قرفة لاذعة تغطي كلّ ما عداها. تناولت آسيا مغرفة وبدأت تغرف العاشورة من قدر كبير، وتملأ الصحون الزجاجية الصغيرة العميقة. وتساءلت لماذا لم تشأ الخالة زليخة أن تأخذها معهن إلى المطار. فمن المؤكد أنه يوجد لها مكان في السيارة. وخطر ببالها أن الخالة زليخة ربما كانت تحاول أن تبعدها عن الضيفين. وقد لاحظت آسيا أن أمّها لم تكن سعيدة بنبأ عودة مصطفى بعد عشرين سنة من الغياب.

«هل أستطيع أن أساعدك؟».

عندما التفتت، رأت آرمانوش واقفة، تنظر إليها.

«بالتأكيد، لِمَ لا؟ شكراً»، أعطتها آسيا صحناً مليئاً باللوز المبشور وقالت: «يمكنك أن ترشي قليلاً منه فوق كلّ صحن؟».

خلال الدقائق العشر التالية، راحتا تعملان جنباً إلى جنب وتتبادلان كلمات حزينة قصيرة عن الجدة شوشان.

«لقد أتيت إلى إستانبول لأنني ظننت أني إن جئت وحدي إلى مدينة جدتي، فإني سأستطيع أن أفهم تراث عائلتي على نحو أفضل وأعرف موقعي في الحياة. أظن أنني كنت أريد أن ألتقي بالأتراك كي أستوعب بشكل أفضل ماذا يعني أن يكون المرء أرمنياً. كانت هذه الرحلة كلها محاولة للتواصل مع ماضي جدتي. وكنت سأقول لها إننا بحثنا عن بيتها. . . لكنها ذهبت الآن. . .»، وبدأت آرمانوش تبكي: «حتى أنه لم تتح لي فرصة رؤيتها للمرّة الأخيرة».

ضمت آسيا آرمانوش إليها بطريقة خرقاء لأنها لم تتعود إظهار الحبّ والحنان، وقالت: «أنا آسفة جداً لفقدانها»، وأضافت: «قبل أن تغادري إستانبول، يمكننا أنا وأنت أن نذهب ونتعقب بعض الذكريات من ماضي جدتك. يمكننا أن نذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى، ونتكلّم مع أناس آخرين، لعلنا نجد شيئاً».

هزّت آرمانوش رأسها وقالت: «إني أقدّر لك ذلك، لكن عندما تأتي أمّي، سيصعب عليّ أن أخرج وحدي. إنها مغرقة في حمايتي».

صمتتا عندما سمعتا وقع أقدام وراءهما. كانت الخالة بانو، التي جاءت لترى كيف تفعلان. راحت تراقبهما وهما تزيّنان صحون الحلوى. ثم قالت: «هل تعرف آرمانوش قصة العاشورة؟» سألت، مبتسمة، ولم يكن سؤالاً، بقدر ما كان مقدمة لرواية الحكاية.

فيما كانت الفتاتان تعملان معاً، تفرطان حبّ الرمان، وترشان مسحوق القرفة واللوز المبشور فوق عشرات صحون العاشورة المصفوفة على الطاولة، بدأت الخالة بانو تحكي.

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، وفي أرض ليست بعيدة جداً، كانت أساليب البشر حقيرة، وكان الزمن رديئاً. وعندما رأى الله كلّ هذه التعاسة، بعث رسولاً، نوح، ليقوّم أساليب البشر وسلوكهم، وليمنحهم فرصة للتوبة. لكن عندما بدأ نوح يعظ الحقيقة، لم ينصت إليه أحد، وقاطعوه باللعنات والشتائم، وراحوا يطلقون عليه أسماء: مجنون، مخبول، غريب الأطوار...».

ألقت آسيا نظرة بهيجة إلى خالتها، فقد كانت تعرف كيف تعاملها وسألتها: «لكن أكثر من أي شخص آخر، كانت خيانة زوجته هي التي دمّرت نوح، أليس كذلكِ يا خالتي؟ ألم تنضم زوجة نوح إلى صفوف الوثنيين والكفار؟».

«هذا صحيح، تلك الأفعى التي تتوارى بين الأعشاب!» أجابتها الخالة بانو، محتارة بين أن تروي قصّة دينية كما يتعين عليها، أو أن تزيّنها ببضع ملاحظات من عندها.

«بذل نوح كل ما بوسعه لإقناع زوجته وشعبه طوال ثمانمائة سنة... ولا تسأليني كيف حدث واستغرق كلّ هذا الوقت»، قالت الخالة بانو، «لأن الزمن مجرد نقطة في محيط، ولا يمكنك أن تقيسي نقطة بنقطة أخرى لتري أيهما أكبر، وأيهما أصغر. هكذا، أمضى نوح ثمانمائة سنة وهو يتضرع من أجل شعبه، يحاول أن يرشدهم إلى الطريق القويم. وذات يوم بعث الله له جبريل، وهمس له الملاك: «إبنِ سفينة وخذ زوجاً من كلّ نوع»...».

لم تكن القصّة تحتاج إلى الترجمة، فخفضت آسيا صوتها قليلاً، لأنها لم تكن تحب هذا الجزء كثيراً.

«في النهاية، صعد إلى سفينة نوح الأناس الطيبون والصالحون من جميع المعتقدات»، تابعت الخالة بانو: «داوود كان هناك؛ وكذلك موسى، وسليمان، والسيد المسيح، وسيدنا محمد عليه السلام. وبعد أن تجهزوا، صعدوا إلى السفينة وبدأوا ينتظرون.

«وسرعان ما حدث الفيضان. وأمر الله: «أيتها السماء! لقد أزفت الساعة! فليهطل ماؤك. لا تمسكي نفسك. أرسلي عليهم ماءك وغضبك»! ثم أمر الأرض: «أيتها الأرض، إمسكي ماءك، لا تتشربيه». وارتفعت الماء بسرعة كبيرة، ولم يعد أحد خارج السفينة حياً».

ارتفع صوت المترجمة الآن، لأن هذا الجزء كان الجزء المفضل لدى آسيا. فقد كانت تحبّ أن تتخيل الفيضان، وهو يجرف القرى والحضارات، وجميع ذكريات الماضي غير المرغوبة.

«وراحوا يبحرون لأيام وأيام، وملأت المياه كل مكان. وسرعان ما

أصبح الطعام شحيحاً. ولم يعد هناك طعام يكفي لإعداد وجبة طعام، لذلك أمر نوح: «اجلبوا كلّ ما عندكم»، ففعلوا ذلك، حيوانات وبشر وحشرات وطيور، وأناس من شتى الديانات، أحضروا ما لديهم مهما كان ضئيلاً. وطهوا جميع المكونات معاً، وهكذا أعدّوا قِدراً ضخماً من حلوى العاشورة. وابتسمت الخالة بانو بافتخار باتجاه القِدر الجاثم على الموقد، وكأنه القِدر الذي ذكر في الأسطورة. «هذه هي قصّة هذه الحلوى».

وحسب رواية الخالة بانو، فقد حدثت جميع الأحداث الهامة في تاريخ العالم في يوم عاشوراء ذاك. ففي ذلك اليوم، تقبّل الله توبة آدم؛ وفي ذلك اليوم، خرج النبي يونس من بطن الحوت الذي ابتلعه؛ وفي ذلك اليوم، التقى الرومي بشمس، وصعد المسيح إلى السماء، وأنزل الله الوصايا العشر على موسى.

«إسألي آرمانوش ما هو أهم شيء في تاريخ الأرمن»، قالت الخالة بانو.

ما أن ترجمت لها السؤال، حتى أجابت آرمانوش على الفور: «المجازر».

«لا أظن أن هذا يناسبك»، قالت آسيا لخالتها وهي تبتسم، ولم تترجم لها ما قالته آرمانوش.

آنذاك ظهرت الخالة زليخة في المطبخ مدججة بمحفظتها، وقالت: «حسناً، الذاهبون إلى المطار، لقد حان وقت الذهاب!».

«سآتي معكن»، وأسقطت آسيا المغرفة على الطاولة.

«لقد تحدّثنا في هذا الأمر»، ردّت الخالة زليخة بلا مبالاة. لم تكن تبدو على طبيعتها. فقد تخللت صوتها بحة مخيفة، وكأن شخصاً آخر كان يتكلم، مستخدماً فمها وأمرتها: «إبقي في البيت، يا آنسة».

كان أكثر ما أزعج آسيا أنها لم تتمكن من قراءة تعابير الخالة زليخة.

لا بد أنها فعلت شيئاً أزعج أمها، لكنها لم تعرف ما هو، ما لم، بالطبع، يكن وجودها أصلاً.

«ماذا فعلت لها هذه المرة؟» رفعت آسيا يديها بيأس عندما خرجت الخالة زليخة وآرمانوش.

«لا شيء يا عزيزتي. إنها تحبّك كثيراً»، تمتمت الخالة بانو: «ستبقين معي ومع الجني. سننهي تزيين العاشورة ثم نذهب إلى السوق».

لكن آسيا لم تشعر بالرغبة في التسوق. وبتنهيدة أمسكت حفنة من حبّ الرمان لترشه على الصحون المتبقية. نثرت الحبّ بانتظام، وكأنها كانت تترك وراءها علامات لكي يقتفي طفل في القصص الخرافية أثرها حتى يعود إلى البيت. وخطر لها أن حبّ الرمان ربما كان حجر الياقوت الثمين في حياة أخرى.

«خالتي»، التفتت إلى أكبر خالاتها وسألتها: «ماذا حدث لذلك الدبوس الذهبي الذي كان لديك؟ دبوس الزينة في شكل رمانة، أتذكرينه؟ أين هو؟».

شحب وجه الخالة بانو عندما همس السيد مرّ على كتفها اليسرى في أذنها: «متى نتذكّر الأشياء التي نتذكرها؟ لماذا نسأل الأشياء التي نسألها؟».

ومع أن فيضان نوح كان مخيفاً، فقد بدأ الطوفان ببضع قطرات خفيفة من المطر، التي لم يكد يُسمع لها صوت. قطرات متقطعة، تنبئ بحدوث كارثة، رسالة لم يلحظها أحد. وكانت تتجمع في السماء غيوم داكنة، قاتمة، رمادية وثقيلة، وكأنها محمّلة برصاص ذائب مليء بالعيون الشرّيرة. وكأن كلّ فتحة في كلّ غيمة، هي عين سماوية لا ترفّ، وتذرف دمعة على كلّ إثم أرتكب على وجه الأرض.

أما اليوم الذي أُغتصبت فيه الخالة زليخة، فلم يكن يوماً ماطراً. بل

لم تكن توجد ولا غيمة واحدة في السماء الزرقاء الصافية. تذكّرت السماء في ذلك اليوم المشؤوم لسنوات وسنوات قادمة، لا لأنها رفعت عينيها نحو السماء لتصلي، أو تتضرع إلى الله ليساعدها، بل لأنها أثناء مقاومتها، تدلى رأسها من السرير، وعندما لم تتمكن من أن تتزحزح من تحت ثقل وزنه، ولم تتمكن من أن تزيحه عنها، تعلّقت نظرتها نحو السماء دون قصد منها، ولم تر إلا منطاداً للدعاية يسبح في السماء ببطء. كان المنطاد برتقالياً وأسود، وكتب عليه بأحرف ضخمة: كوداك.

اعترت زليخة رجفة عندما فكّرت بوجود آلة تصوير ضخمة تلتقط صوراً عن كل ما يحدث على الأرض في تلك اللحظة من الزمن. كاميرا بولارويد تلتقط صورة اغتصاب في غرفة في قناق في إستانبول.

كانت وحدها في غرفتها منذ الصباح، تستمتع بوحدتها التي كانت مناسبة نادرة في عائلتها. فعندما كان أبوها على قيد الحياة، لم يكن يسمح لأي فرد في العائلة أن يغلق باب غرفته. إذ كانت الخصوصية تعني ممارسة عمل مريب. كان يجب أن يكون كلّ شيء واضحاً ومكشوفاً، في العراء. وكان الحمّام المكان الوحيد الذي تستطيع أن تقفل فيه الباب على نفسك، بل وحتى هناك، كان ثمة أحد يقرع الباب إذا أمضيت فترة أطول من المعتاد. ولم تتمكن زليخة من أن تغلق باب غرفتها وأن تختلي بنفسها إلا بعد أن توفي أبوها. ولم تدرك أخواتها أو أمّها حاجتها إلى وضع حاجز بينها وبين العالم. وكانت زليخة تتخيل بين الحين والآخر، كم كان رائعاً أن تخرج من البيت، ويصبح لها مكان خاص بها.

في وقت مبكّر من صباح ذلك اليوم، خرجت نساء عائلة قازانجي من البيت لزيارة قبر ليفينت قازانجي، لكن زليخة تعللت بشيء، لأنها لم تكن ترغب في زيارة المقبرة مع أفراد أسرتها. بل كانت تفضّل أن تذهب إلى المقبرة وحدها، وتجلس على الأرض المتربة، وتسأل أباها أسئلة عديدة

كان قد تركها بدون إجابات أثناء حياته. لماذا كان قاسياً دائماً ولم يكن يظهر حبه لمن هم من لحمه ودمه؟ كانت زليخة تريد أن تعرف. وكانت تريد أن تسأله أيضاً إن كان يعرف أن شبحه لا يزال يطاردهن ـ فحتى الآن كن يخفضن صوتهن أثناء النهار، يخشين أن يزعجن أباهن بسبب وجودهن. فلم يكن ليفينت قازانجي يحبب الضوضاء، وخاصة الجلبة التي يحدثها الأطفال. وعندما كانوا أطفالاً، كانوا يتكلّمون همساً. فبما أنك طفل في عائلة قازانجي، فذلك يعني أن تتعلم أولاً وقبل كل شيء، معنى الأب، وأن تتعلم أيضاً أن تؤجل الألم، المبدأ الذي كان يطبق في كلّ لحظة من حياتهن. فإذا حدث وسقطت إحداهن وجُرحت في الغرفة المجاورة لغرفته، مثلاً، كان عليها أن تكتم بكاءها، وتضغط بيدها بقوة على الجرح، وتهبط الدرج إلى الطابق الأرضي على أطراف أصابعها، وتتوجه إلى المطبخ أو إلى الحديقة، وتتأكد أنها ابتعدت ما يكفي كي لا يُسمع صوتها، وعندها فقط، وحيدة هناك، تستطيع أن تجهش في البكاء بسبب ألمها. ولم يكنّ يعرفن أيضاً أنهن إذا أحسنّ التصرف، فإن أباهن لن يغضب منهن ولن يعاقبهن.

وفي كلّ مساء، عندما يعود من العمل، كان الأطفال يتحلقون أمام الطاولة قبل العشاء، ينتظرون أن يتم تفتيشهم. ولم يكن يسألهم مباشرة إن كان سلوكهم جيد خلال النهار. بل كان يجعلهم يصطفون مثل كتيبة صغيرة، ويحدّق في وجه كلّ واحد منهم، لفترات متباينة: بانو (كانت قلقة على أشقائها أكثر من قلقها على نفسها، فالأخت الكبرى توفر لهم الحماية دائماً)، وشكرية (تعضّ على شفتيها كي لا تبكي)، وفريدة (تنظر وعيناها تدوران بعصبية)، ومصطفى، الابن الوحيد (يتمنّى أن يشقّ طريقه ويبتعد عن هذه المجموعة البائسة، فقد كان لا يزال يعتقد أنه الولد الأثير عند أبيه)، والبنت الصغرى، زليخة (إحساس بالمرارة يعلو قلبها). كانوا

ينتظرون هكذا إلى أن ينهي أبوهم حساءه، ثم يطلب شيئاً فشيئاً، واحداً أو اثنان أو ثلاثة منهم. . . أو أحياناً، إن كانوا محظوظين، جميعهم في الوقت نفسه، لينضموا إليه إلى المائدة.

ولم تكن زليخة تكترث بتوبيخ أبيها المتكرر، أو حتى بضربه على مؤخرتها في كلّ مرة يجري فيه هذا التفتيش قبل العشاء. كان يؤلمها أن تنتظر هناك إلى جانب المائدة كي يفتشهم، وكأن أي خطأ قد ترتكبه خلال النهار، يُكتب على جبينها بحبر غير مرئي لا يمكن لأحد أن يراه إلا أبيهم: «لماذا لا تفعلين الأشياء كما يجب؟» كان ليفينت قازانجي يسأل في كلّ مرة يقرأ جريمة على جبهة أحد الأطفال، ويقرّر معاقبتهم جميعهم عليها.

كان من شبه المستحيل ربط ليفينت قازانجي هذا بالرجل الذي كان، عندما تطأ قدمه خارج البيت. فقد كان جميع من يصادفونه خارج القناق، يعتبرونه نموذجاً للثقة والحصافة والاستقامة. ذلك الرجل الذي كانت كلّ صديقة من صديقات بناته تحلم بأن تتزوج رجلاً مثله ذات يوم. إذ كان لطفه يقتصر على الغرباء وحدهم، أما عندما كان يعود إلى البيت، فما إن كان يخلع حذاءه وينتعل خفه، حتى كان يتحول من رجل بيروقراطي لطيف، إلى أب استبدادي متوحش. وفي إحدى المرات، قالت ما ـ الهيفاء إن سبب معاملته بحزم وصرامة مع أطفاله لأنه عانى الكثير في طفولته، ولأن أمّه هجرته وتخلت عنه.

كانت زليخة تقول أحياناً إنه من حسن الحظ أن أباها مات مبكراً، مثل جميع الرجال الآخرين في سلالتهم. فربما لن يستمتع رجل مهيمن مثل كليفينت قازانجي، بشيخوخته بعد أن يصبح ضعيفاً ومريضاً ويحتاج إلى شفقة أولاده وعطفهم.

كانت زليخة تعرف أنها إن ذهبت لزيارة قبر أبيها، فإنها تريد أن تتحدث إليه، وإذا تحدثت إليه، فقد تبكي، وتنكسر مثل كأس شاي بسبب

عين شرّيرة. لكن حتى فكرة البكاء أمام الآخرين، كانت تكفي لردعها عن القيام بذلك. فقد كانت قد قطعت على نفسها عهداً أنها لن تصبح واحدة من تلك النساء الباكيات، وأنها عندما تشعر بأنها يجب أن تبكي، فإنها ستفعل ذلك عندما تكون وحدها. لذلك، في ذلك اليوم الماطر، قبل عشرين سنة، فضّلت زليخة أن تمكث في البيت.

أمضت معظم نهارها مستلقية على السرير، تتصفح مجلات، ومستغرقة في أحلام يقظة. وإلى جانب السرير، كان يوجد موسى حلاقة تزيل به شعر ساقيها، وزجاجة من مستحضر ماء الورد ترشه على ساقيها لتطرية جلدها بعد ذلك. ولو رأت أمّها ذلك، لغضبت أشد الغضب. فقد كانت أمها تعتقد أنه يجب على المرأة أن تزيل شعر جسدها بالتشميع، لا بموسى الحلاقة. فالحلاقة للرجال فقط. أما التشميع فهو طقس جماعي أنثوي تماماً. إذ كانت تتجمع نساء عائلة قازانجي مرّتين في الشهر في غرفة الجلوس ليزلن شعر سيقانهن. وكنّ يذبن أولاً قطعة من الشمع على الموقد، فتنبعث منها رائحة لطيفة مثل رائحة الحلوى. ثم يجلسن جميعهن على السجادة، ويضعن المادة الدبقة الحارة على سيقانهن، ولم يكن يتوقفن عن الدردشة طول الوقت. وعندما يتصلّب الشمع، كن ينزعنه. وكنّ في بعض الأحيان يذهبن جميعهن إلى الحمّام العمومي المحلي، ويزلن شعر سيقانهن هناك فوق كتلة الرخام الضخمة تحت وهج البخار. وكانت زليخة تكره الحمّام العمومي، ذلك الفضاء النسائي، كما كانت تكره طقوس التشميع. بل كانت تفضّل إزالة شعر ساقيها بشفرة الحلاقة، فهي سريعة، وبسيطة وبعيدة عن العيون.

دلّت زليخة ساقيها من فوق السرير، وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة أمامها. ووضعت كمية أكبر من المستحضر على راحة يدها، وفيما راحت تدهنه ببطء، كانت تتمعن في جسدها بإعجاب. كانت تدرك أنها جميلة، ولم تكن تحاول أن تخفي جمال جسدها. وكانت أمها تقول لها

إنه يجب على النساء الجميلات أن يتواضعن، وأن يحذرن الرجال. لكن زليخة كانت ترى أن هذا مجرد هراء، يصدر من امرأة لم تعرف الجمال في حياتها.

بتؤدة، سارت زليخة إلى الجانب الأخر من الغرفة، ووضعت شريط كاسيت في جهاز التسجيل. كان ألبومها المفضل «آلا توركا» بصوت إحدى المطربات الأثيرات لديها، خنثى ذات صوت رائع. فقد كانت هذه المطربة قد بدأت الغناء كرجل، وأدت أدوار البطولة كرجل في أفلام ميلودرامية، ثم أجرى عملية وتحوّل إلى امرأة. وكانت ترتدي دائماً ثياباً مبهرجة وصارخة، وتضع إكسسوارات متلألئة ومجوهرات كثيرة، وهكذا كانت زليخة ستفعل، لو امتلكت الكثير من المال. وكانت زليخة تحبّها كثيراً، وكانت تحتفظ بجميع ألبوماتها. وكانت المطربة على وشك أن تطرح في السوق ألبوماً جديداً، إلا أن العسكر منعوها من ذلك، العسكر الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على البلاد، رغم مضي ثلاث سنوات على وقوع الانقلاب. وكانت لدى زليخة نظرية في السبب الذي يجعل هؤلاء الجنرالات لا يحبون رؤية مطربة خنثى على خشبة المسرح: «لأن وجودها يهددهم»، غمزت للباشا الثالث، الذي كان متكوراً على السرير كوسادة ثقيلة من الفراء الأبيض النقي، ينظر إليها من خلال شقّين ضيّقين من عينين خضراوين رائعتين: «فصوتها سماوي، وثيابها زاهية جداً، وإني واثقة من أنهم يشعرون بالقلق عندما تظهر على شاشة التلفزيون، لأنه لن يستمع أحد إلى الجنرالات بصوتهم الأجش، وبدلاتهم الخضراء بلون الضفدع. هل يمكنك أن تتصوّر؟ هل يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ من أن يسيطر العسكر على الحكم؟ انقلاب عسكري يمر دون أن يلاحظ أحد ذلك!».

في تلك اللحظة سمعت أحداً يقرع باب غرفتها.

«أتحدّثين نفسك، أيتها السخيفة؟» قال مصطفى وقد حشر رأسه إلى الداخل: «اخفضي صوت هذه الموسيقى المزعجة!».

كانت عيناه الكستنائيتين تتألقان بوهج الشباب، وكان شعره الأسود مطلياً بسائل تلميع الشعر بكثرة، وممشطاً إلى الوراء، وكان يمكن أن يسمى شاباً وسيماً لولا ذلك التشنج اللاإرادي الذي يحدث في وجهه، لا يعلم إلا الله متى. فقد كان يميل رأسه إلى اليمين عندما يتكلّم، حركة آلية عنيفة تشتد عندما يصبح متوتراً أمام الغرباء. وكان يخيّل للبعض أن هذا التشنج اللاإرادي دليل على الخجل، أما زليخة، فكانت تظن أنه لم يكن سوى دليل على عدم شعوره بالأمان.

رفعت نفسها لتتكئ على أحد مرفقيها، وقالت باستهجان: «أستطيع أن أستمع إليها متى أشاء، وكيفما أشاء».

لكنه بدلاً من أن يتشاجر معها، أو يغلق الباب وراءه كما كان يفعل من قبل، توقّف برهة، وكأن فكرة ما قد حوّلت انتباهه: «لماذا ترتدين هذه التنانير القصيرة؟».

لم تكن زليخة تتوقع هذا السؤال، ونظرت إليه مذهولة، بعد أن رأت الآن ذلك الستار الرقيق في نظرته. وقالت في نفسها إنه في هذه السنة، أكثر من أي وقت مضى بدأ يصبح أحمق. ولفظت الكلمة الأخيرة بصوت مرتفع: «أحمق!».

تظاهر بأنه لم يسمعها، جال مصطفى بعينيه في أرجاء الغرفة، وقال: «هل هذا موسى حلاقتي هناك؟».

«نعم»، اعترفت زليخة، «كنت سأعيده لك».

«ماذا فعلت بموسي؟».

«هذا ليس من شأنك»، قالت، بشيء من التردد.

«هذا ليس من شأني؟» ازداد حاجباه تقطيباً: «تتسللين إلى غرفتي، وتسرقين موسى حلاقتي، وتحلقين شعر ساقيك لكي تكشفينهما لجميع رجال الحيّ، ثم تقولين لي إن هذا ليس من شأني. حسناً، سأقول لك. إنك مخطئة كثيراً يا آنسة! فمن شأني أن أتأكد أن يكون سلوكك جيداً».

أشرقت عينا زليخة قليلاً، وقالت: «لماذا لا تذهب وتشغل نفسك بشيء آخر؟ اذهب واستمني».

احمرّ وجه مصطفى. نظر إلى أخته والسمّ ينضح من عينيه.

كان من الواضح أنه أصبح في الآونة الأخيرة يعاني من مشاكل تتعلق بالنساء. فمع أنه تربى بين نساء من مختلف الأعمار، وتعوّد على أن يكون مركز اهتمامهن، كانت خبرته مع الجنس الآخر لا تزال متخلفة عن أقرانه الذكور. فمع أنه بلغ العشرين من عمره، كان مصطفى يشعر بأنه لا يزال عالقاً في تلك العتبة الخطرة بين الصبا والرجولة. ولم يكن يستطيع أن يعود إلى الأولى، ولا يستطيع أن يقفز إلى الأخيرة. وكان كلّ ما يعرفه عن تلك العتبة أنها كانت تثير أعصابه، وأنه لم يكن يحبّها. كان يمقت الشهوات الجسدية المنبعثة من جسمه، ومع ذلك كان ينجذب إليها. فقد تمكن في الماضي من أن يكبت رغباته، بعكس الفتيان في صفه في المدرسة، الذين كانوا يستمنون باستمرار. فعندما كان بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من عمره، تمكن من كبت ما كان يطلق عليه «هي»، بألا يستمني. لكنه في السنة الماضية، بعد أن سقط في امتحان دخوله إلى الجامعة، بعد سنوات من جلد الذات، وكره الذات، حدثت له ردة فعل معاكسة، وعاد إليه الحافز بشكل أقوى.

فقد بدأت «هي» تأتيه في كل مكان، وفي أي وقت من اليوم. في الحمّام، في القبو، في المرحاض، تحت ملاءة السرير، في غرفة الجلوس، وأحياناً، عندما كان يتسلل إلى غرفة أصغر أخواته، عندما لا يوجد أحد في البيت، وهي في سريرها، على كرسيها، أمام طاولتها... مثل أب نزواتي، كانت «هي» تطالبه بالطاعة المطلقة. لا يهم إلى أي مدى كان يطيعها، ولم يكن مصطفى يستخدم يده اليمنى، لأن اليد اليمنى مخصصة للأشياء النظيفة فقط، النظيفة والمقدسة. فبيده اليمنى يلمس القرآن، ويحمل السبحة، ويفتح أبواباً مغلقة؛ وبيده اليمنى يأخذ يد من

يكبرونه سناً ليقبّلها. وبقدر ما كانت اليد اليمنى مباركة، كانت اليد اليسرى مخصصة للأشياء الكريهة. لذلك لم يكن يستطيع أن يستمني إلا بيده اليسرى.

حلم ذات مرة أنه استمنى أمام أبيه. ولم تكن تظهر أي قسمات على وجه أبيه، وهو يراقبه من مكانه إلى مائدة العشاء.

آخر مرة رأى مصطفى أباه يحدّق فيه هكذا، عندما كان في الثامنة من العمر وهو يُختن. تذكّر ذلك الصبي البائس، وهو مستلق على سرير ضخم مبهرج يكسوه الساتان، والهدايا تحيط به من كلّ جانب، بانتظار إزالة تلك القطعة، والأقارب والجيران يحيطون به، بعضهم يتجاذب أطراف الحديث، وبعضهم يأكل، وبعضهم يرقص، فيما كان الآخرون يلاطفونه. كان هناك سبعون شخصاً يحتفلون بختانه، وانتقاله من مرحلة الصبا إلى مرحلة الرجولة. في ذلك اليوم، وبعد الختان مباشرة، وبعد أن أطلق صيحة رهيبة، اقترب منه ذلك الأب، قبّله على خدّه، وهمس في أذنه: «هل حدث ورأيتني أبكي من قبل يا بني؟» فهزّ مصطفى رأسه: لا، لم ير أحد أبي يبكي أبداً. «هل رأيت أمّك تبكي يا بني؟» فأومأ مصطفى بصدق. فقد كانت أمّه تبكي باستمرار. «جيد». ابتسم ليفينت قازانجي برقة لابنه وقال: «الآن وبعد أن أصبحت رجلاً، يجب أن تتصرف كرجل».

عندما كان يستمني لم يكن يجرؤ على أن يسحب بنطاله إلى الأسفل كله، لا خوفاً من أن يراه أحد في البيت متلبساً، بل لأن شبح أبيه كان يثير غضبه، وهو يهمس في أذنيه تلك الجملة مرات ومرات. وفجأة، وفي السنة الماضية، لم يهيمن جسده على إرادته فقط، بل كانت تهيمن عليه أيضاً نظرة أبيه التفقدية. ومثل مرض معدٍ، لأنه كان واثقاً من أنه لا بد أن يكون هذا نوعاً من مرض ما ـ فقد بدأ يستمني أثناء النهار والليل. توقّف. لا أستطيع أن أتوقّف. توقّف. لا أستطيع أن أتوقّف. ففي أحلامه كان

يرى والديه يباغتانه ويمسكانه متلبّساً. يندفعان إلى الباب بعنف، يكسرانه، ويمسكانه متلبّساً بجريمته. وفي وسط الصيحات والعويل، تقبّله أمّه، وتربّت على ظهره، أما أبوه فكان يبصق في وجهه ويصفعه على مؤخرته بقوة. وفي حين كان الأب يترك على جسده كدمات، كانت أمّه تمسح على جسده قليلاً من العاشورة، وكأن هذه الحلوى بلسم. وفي كلّ مرة يستيقظ، كان يشعر بالقرف ويرتجف، ويتشكل العرق في شكل حبيبات على جبينه، ولكي يخفف من حدة توتره كان يستمني.

لم تكن زليخة تعرف شيئاً عن كلّ هذا عندما سخرت منه.

«ألا تخجلين من نفسك»، قال مصطفى: «إنك لا تعرفين كيف تتحدثين مع من يكبرونك سناً. إنك لا تبالين عندما يصفّر لك الرجال في الشارع. تلبسين ثيابك مثل عاهرة، ثم تتوقّعين الاحترام؟».

ارتسمت على وجه زليخة ابتسامة محتقِرة: «ما المشكلة؟ أم أنك تخشى من العاهرات؟».

لم يفعل مصطفى شيئاً سوى أن يحدّق فيها.

في الشهر الماضي، اكتشف أسوأ الشوارع سمعة في إستانبول. وكان بوسعه أن يذهب إلى أماكن أخرى، حيث يمكنه أن يجد جنساً أرخص، وأقل رداءة، وأقل خزياً، لكنه كان يتعمد الذهاب إلى هناك ـ فكلما كان أكثر فجاجة وأكثر قبحاً، كان أفضل. كانت البيوت القذرة مصفوفة جنباً إلى جنب، تفوح منها الروائح العطنة، وتتناثر فيها البقع في كل مكان. وكانت المومسات يتواجدن في كلّ غرفة من كلّ طابق، المومسات اللاتي لعلهن لم يكن يرفضن نقودك، بل كنّ، بالرغم من ذلك، يحقّرن أداءك. كان يعود من هناك وهو يشعر بأنه قذر وضعيف.

«هل تتجسّسين عليّ؟» سأل.

«ماذا؟» قهقهت زليخة، وعندها فقط أدركت أنها اكتشفت شيئاً لم

تكن تعرفه: «إنك غبي جداً. إذا كنت تذهب إلى المومسات، فهذه مشكلتك، وماذا يهمني ذلك».

بعد أن أحس بالإهانة، شعر مصطفى برغبة ملحّة في أن يضربها. يجب أن تفهم أنها لا تستطيع أن تهزأ به بهذا الشكل.

نظرت إليه زليخة من طرف عينها، وكأنها تحاول أن تقرأ أفكاره، وقالت: «إن ما أرتديه وكيف أعيش ليس من شأنك»، وأضافت: «من تظن نفسك؟ لقد مات أبونا ولن أسمح لك أن تحلّ محله هكذا».

والغريب أنها ما أن قالت هذه العبارة، حتى تذكّرت أنها نسيت أن تجلب ثوبها الدانتيل من محل التنظيف الجاف في ذلك صباح. فقالت لنفسها: «تذكري أن تحضريه غداً».

«لو كان بابا لا يزال على قيد الحياة، لما استطعت أن تكلميني بهذه الطريقة»، أجاب مصطفى، واختفت نظرته الخافتة، وحلت محلها رعشة تشي بالمرارة: «لكن ذهابه لا يعني أنه لا توجد لدينا قواعد في هذا البيت. فلديك مسؤوليات تجاه أسرتك يا آنسة. لا يمكنك أن تجلبي العار إلى هذه العائلة التي تتمتع بسمعة جيدة».

«اخرس. مهما كان العار الذي يمكنني أن أجلبه، فلا يمكن أن يقارن بالعار الذي جلبته لها حتى الآن».

توقّف مصطفى، مضطرباً. هل اكتشفت أنه يلعب القمار، أم أنها كانت تخدعه ثانية؟ فقد كان يراهن على ألعاب رياضية، ليثبت لنفسه أنه أصبح شاباً. لو كان أبوه حياً لأوسعه ضرباً، مهما بلغ من العمر. بالحزام الجلدي الخمري ذي الإبزيم النحاسي. هل يمكن أن يكون هناك سبب منطقي بأن حزاماً يؤلم أكثر من الأحزمة الأخرى، أم أن خياله كان يركّز على حزام معيّن، وبذلك يدع نفسه يعتقد أنه لن يتألم أكثر من الأخرى، ويشعر بالامتنان، بل حتى يعتبر نفسه محظوظاً؟

لكن أباه ذهب الآن، ويجب التذكير بأنه هو السيد هنا.

«الآن بعد أن مات أبونا»، قال مصطفى: «أصبحت أنا المسؤول عن هذه العائلة».

«صحيح؟» قالت زليخة ساخرة: «أتعرف ما هي مشكلتك؟ أنك مدلل، أنك مدلل جداً، أيها الأير الذي لا يُقدر بثمن! اخرج من غرفتي».

وكأنها كانت في حلم، ومن زاوية عينها رأت يده ترتفع في الهواء ويصفعها على وجهها. كانت لا تزال لا تصدق أنه يمكن أن يضربها، راحت تحدّق فيه ساهمة، ثم استطاعت أن تنحني جانباً في اللحظة الأخيرة.

تفادت الصفعة لكن ذلك أثار حنقه. المحاولة الثانية ألهبت خدها. فردت له الصاع صاعين.

وبعد لحظات، كان أحدهما يمسك بتلابيب الآخر بعنف فوق السرير كطفلين، سوى أنهما لم يتشاجرا بهذه الطريقة عندما كانا طفلين. إذ لم يكن أبواهما يسمحان لأطفالهما بأن يتشاجروا. ولبضع ثوان، بدا أن زليخة هي التي انتصرت، بعد أن أوسعته ضرباً، أو هكذا خيّل إليها. فقد كانت امرأة طويلة قوية، ولم تكن من عادتها أن تشعر بأنها هشّة. ومثل مصارع في الحلبة، رفعت كلتا يديها في الهواء، وحيّت جمهورها المتخيّل، مبتهجة بانتصارها: «لقد انتصرت عليك!».

في تلك اللحظة لوى ذراعها خلف ظهرها وصعد فوقها. في هذه المرة اختلف كلّ شيء. كان هو مختلفاً. إذ راح يضغط على صدرها بإحدى ذراعيه، ويشد تنورتها بيده الأخرى إلى الأسفل.

كان أول شعور اعتراها آنذاك، هو الشعور بالمهانة، ثم المزيد من المهانة. كان الشعور بالخزي شديداً إلى درجة أنه لم يعد مكان في داخلها يتسع لأيّ شعور آخر. خارت قواها على الفور، وكادت أوصالها تتجمد

بطريقة مخزية، بطريقة كشفت عن تربيتها، شعور بالإحراج الشديد من انكشاف ثيابها الداخلية هيمن على كلّ شيء آخر.

لكن في تلك اللحظة، جرف إحساسها دفق قوي من الذعر بالعار والإهانة. حاولت أن توقفه بإحدى يديها، وحاولت باليد الأخرى أن تشد تنورتها إلى الأسفل، لكنه رفعها مرة أخرى بسرعة كبيرة. قاتلته بشراسة، قاتلها، صفعته، صفعها بشدة أكثر، عضته، لكمها في وجهها، لكمة واحدة وحيدة. سمعت صراخ أحد يقول: «توقّف!» بأعلى صوتها، صوت حاد وغير بشري، مثل صراخ حيوان في مسلخ. لم تتمكن من تمييز صوتها، تماماً كما لم تعرف جسدها، كما لو كانت أرضاً أجنبية، عندما ولجها.

عندها فقط لاحظت زليخة المنطاد المحلّق في السماء الصافية.

أغمضت عينيها وكأنها لعبة من ألعاب الطفولة، راجية أنها إذا لم تر، فلن تُرى. لم يعد هناك الآن سوى أصوات، أصوات وروائح. أصبح تنفّسه أثقل، وأطبق بيديه على صدرها وطوق رقبتها بقوة. خشيت زليخة أن يخنقها، لكنه سرعان ما أرخى أصابعه وتوقّفت الحركة. انبعث منه صوت مجروح عندما تهالك فوقها، وصدره يضغط على صدرها. كان بإمكانها أن تسمع سرعة نبضات قلبه. ولكن الشيء الذي لم تستطع أن تسمعه، كان صوتها. أحست وكأن الحياة كانت قد نضبت منها.

لم تفتح عينيها إلا عندما استرخى فوقها، وأصبح مرخياً في داخلها الآن. عندما نهض عنها، كان مصطفى لا يكاد يستطيع أن يمشي. مشى مترنحاً عبر الغرفة واتكأ إلى الباب، محاولاً أن يتمالك نفسه. أخذ نفساً عميقاً وفاحت منه رائحة ممزوجة من العرق وماء الورد. وقف هناك برهة، ظهره نحو أخته، قبل أن يتحرك ثانية وخرج يجري من الغرفة.

ما أن وصل إلى الردهة، حتى سمع الباب الخارجي يُفتح، فقد عادت

الأخريات. هرع إلى الحمّام، قفل الباب على نفسه، وفتح الدوش، لكنه بدلاً من أن يقف تحت الدوش، انهار وجثا على ركبتيه، وتقيأ.

«مرحباً!!! أين الجميع؟» سُمع صوت بانو من الغرفة الأمامية: «ألا يوجد أحد في البيت؟».

استوت زليخة واقفة على قدميها وحاولت أن تسوّي ثيابها. فقد حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة، ولعلها أقنعت نفسها أنه لم يحدث شيء على الإطلاق. إلا أن الوجه الذي رأته في المرآة، كشف عن قصّة مختلفة. ففي إطار صورتها المنعكسة، رأت عينها اليسرى منتفخة، وتحتها نصف دائرة زرقاء. وعندما رأت عينها كان أول ما اعترى زليخة إحساس بالذنب من ريبتها المعتادة. فطوال هذه السنوات كانت تسخر من أفلام الإثارة الرخيصة عندما تصبح عين أحدهم زرقاء، لم تكن تصدق أنه يمكن أن يتغير لون عين الإنسان من لكمة واحدة.

وتأكد لها أن وجهها هو الذي أصيب بالأذى، أما جسمها فلم يصب بشيء. راحت تلمس نفسها لترى إن كانت لا تزال تشعر. كيف يمكنها أن تحسّ بملمس أصابعها ولا شيء أكثر من ذلك؟ فإذا أوذيت أو كانت حزينة، فألن يعرف جسدها؟ ألن تعرف هي؟

سمعت طرقة على باب غرفتها ودون أن تنتظر ردّاً، مدت بانو رأسها إلى داخل الغرفة. كانت على وشك أن تقول شيئاً، لكن فمها فُتح وأُغلق بدون كلمات فيما وقفت متجمدة في مكانها تحدّق في أختها الأصغر. «ماذا حدث لوجهك؟» سألت بانو قلقة، كانت زليخة تعرف أنه إذا كان ثمة وقت للبوح بهذا الأمر، فهو الآن.

كان بوسعها أن تقول ما حدث الآن، أو أن تخفي الأمر إلى الأبد. «ليس الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة»، قالت ببطء، فقد ولّت اللحظة،

وقررت اختيارها، «خرجت أتمشى ورأيت رجلاً يضرب زوجته في وسط الشارع. حاولت أن أنقذ امرأة يوسعها زوجها ضرباً، لكني أظن أن الأمر انتهى وقد ضُربت أنا».

صدّقنها. كان شيئاً ينبغي لها أن تفعله، شيئاً لا يمكن أن يحدث إلا لها، إذا كان أن يحدث لأي شخص.

في اليوم الذي أُغتصبت فيه زليخة، كانت لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها. وهو سن يعتبر فيه الشخص راشداً وفق القوانين التركية. ففي هذه السن، يمكنها أن تتزوّج أو أن تحصل على رخصة قيادة، أو أن تدلي بصوتها في الانتخابات، إذا ما سمح العسكر بإجراء انتخابات حرّة مرة أخرى. وأصبح بإمكانها أن تجري إجهاضاً بمفردها أيضاً.

رأت زليخة الحلم نفسه مرات كثيرة. فقد كانت ترى نفسها وهي تمشي في الشارع تحت وابل من الأحجار. وفيما كانت قطع الحجارة تتساقط الواحدة تلو الأخرى من الأعلى، تحدث حفرة في الأسفل، يزيد عمق الحفرة أكثر، وبدأ الخوف يعتريها، تخشى أن تحذو حذوها، تخشى أن تبتلعها الهاوية الفاغرة فمها وألا يبقى لها أثر. «توقّفوا!» تصيح وقطع الأحجار تتساقط تحت قدميها. «توقفوا!» تأمر السيارات المتجهة نحوها بسرعة ثم تدهسها. «توقفوا!» تتوسل للمشاة الذين كانوا يدفعونها بأكتافهم: «أرجوكم توقفوا!».

وفي الشهر التالي، لم تأتها الدورة الشهرية. وبعد أسابيع قليلة زارت مختبراً افتتح حديثاً بالقرب من بيتها. اختبار حمل مجاناً مع كلّ اختبار لسكّر الدم! كتب على اللوحة عند مدخل المختبر. وعندما جاءت النتيجة، تبين أن نسبة السكّر في دم زليخة طبيعية، وتبين أنها كانت حاملاً.

* * *

كان يا مكان.

في أرض بعيدة، بعيدة جداً، عاش رجل وامرأة مع أربعة أطفال، ابنان وابنتان. وكانت إحدى البنات قبيحة، والأخرى جميلة. وقرر الأخ الأصغر أن يتزوّج الأخت الجميلة. لكنها لم تكن تريد ذلك. خلعت ثيابها الحريرية وذهبت إلى الماء لتغسلها. غسلتها وبكت. كان الجو بارداً. كادت يداها وقدماها أن تتجمّد. عادت إلى البيت وقرعت على الباب، لكنه كان موصداً. قرعت على نافذة أمّها، فأجابتها أمّها: «سأدعك تدخلين إذا ما ناديتني حماتي». ثم قرعت على نافذة أبيها، فأجاب: «سأدعك تدخلين إذا ناديتني حماي». ثم قرعت على نافذة أخيها الأكبر، فأجاب: «سأدعك تدخلين إذا ناديتني نسيبي». ثم قرعت على نافذة أختها، فأجابت: «سأدعك تدخلين إذا ناديتني أخت زوجي»، ثم قرعت على نافذة أخيها الأصغر، فسمح لها أن تدخل. عانقها وقبّلها، وقالت: «لتنشق الأرض وتبتلعني!».

وانشقت الأرض وهربت إلى مملكة تحت الأرض[(١)].

* * *

عندما كانت آسيا تنظر من نافذة المطبخ وهي تمسك بيدها ملعقة، أطلقت تنهيدة وهي تراقب سيارة ألفا روميو الفضّية تغادر.

«أترى؟» التفتت إلى السلطان الخامس وقالت: «لم تشأ الخالة زليخة أن أرافقهن إلى المطار. لقد عادت تعاملني باحتقار».

كم كانت غبية عندما سمحت لنفسها أن تكون ضعيفة في تلك الليلة عندما خرجوا وشربوا! يا له من غباء أن ترأب الفجوة بينهما. إنها لن تزول تماماً. فستظل هذه الأمّ التي تطلق عليها «خالة» بعيدة عنها، ولا يمكن

(١) قصّة شعبية هندية أوروبية، بعنوان: «الأخ يريد أن يتزوج أخته».

رأب الهوة بينهما. حنان الأمّ، حبّ الابن، المودة الأسرية، من المؤكد أنها لم تكن بحاجة إلى أي منها... توقفت آسيا وبصقت وقالت: «خراء».

المادة الثانية عشر: لا تحاولي أن تغيري أمّك، أو بدقة أكثر، لا تحاولي أن تغيري علاقتك مع أمّك، لأن هذا لن يسبب لك إلا الإحباط. وافقي بكل بساطة. وإذا لم تتمكني من القبول والموافقة ببساطة، فارجعي إلى المادة الأولى.

«هل تكلمين نفسك؟» قالت الخالة فريدة، عندما دخلت إلى المطبخ في تلك اللحظة.

«في الواقع، نعم»، وعلى الفور تركت آسيا غضبها الذي يشبه الهذيان: «كنت أقول لصديقي القط أنظر كيف يبدو الأمر غريباً. ففي آخر مرة كان الخال مصطفى هنا، لم تكن قد ولدت بعد، وكان الباشا الثالث يحكم البيت. لقد مضى على ذلك عشرون عاماً. أليس هذا غريباً؟ فالرجل لا يزورنا أبداً، وها أنا الآن أصبّ له العاشورة لأننا لا نزال نرحب به».

«وماذا قال القط؟» سألتها الخالة فريدة.

ابتسمت آسيا بسخرية وقالت: «يقول إني محقة، فلا بد أن هذا البيت هو بيت مجانين. يجب أن أفقد كلّ الأمل وأعمل على صياغة بياني العام».

«طبعاً سنرحب بخالك. فالعائلة عائلة، شئت أم أبيت. إننا لسنا مثل الألمان الذين يركلون أطفالهم خارج البيت وهم في الرابعة عشرة من عمرهم. فلدينا قيم عائلية قوية. إننا لا نلتقي مرة واحدة في السنة لكي نتناول الديك الرومي...».

«عما تتحدّثين؟» سألت آسيا مشوشة، لكنها قبل أن تصل إلى نهاية سؤالها، خمّنت الجواب: «هل تشيرين إلى عيد الشكر عند الأمريكيين؟».

«مهما كان»، إذ لم تكن الخالة فريدة تأبه لهذه المعلومات، وتابعت: «إن ما أريد أن أقوله إنه لا توجد لدى الغربيين أواصر عائلية قوية. إننا لسنا مثلهم. فإذا كان أحدهم أبوك، فإنه سيظل أبوك إلى الأبد؛ وإذا كان الشخص أخوك، فإنه سيظل كذلك حتى النهاية. بالإضافة إلى أن كلّ شيء في هذا العالم أصبح غريباً»، وأضافت الخالة فريدة: «لهذا السبب أحبّ أن أقرأ الصفحة الثالثة من الصحف الشعبية. أقصّها وأجمعها كي لا ننسى كم أن العالم مجنون وخطر».

لم تكن قد سمعت خالتها تحاول أن تبرر سلوكها وتجعله منطقياً من قبل، لم تتمالك آسيا نفسها من ألا تنظر إليها باهتمام متجدد. جلستا هناك في المطبخ وسط الروائح التي تفتح الشهية، فيما تسللت أشعة شمس آذار عبر النافذة.

جلستا معاً إلى أن غادرت الخالة فريدة عندما سمعت مطربها المفضّل يعلن عن عرض لقطات فيديو جديدة، ورغبت آسيا في أن تدخن سيجارة. لم تكن ترغب في أن تدخن سيجارة كما كانت تشتهي أن تدخن تلك السيجارة مع رسّام الكاريكاتير المدمن، مع أنها فوجئت بأنّها اشتاقت إليه كثيراً. كان أمامها ما لا يقل عن ساعتين حتى عودة الضيفين من المطار. وحتى لو تأخرت، فمن سيكترث بها؟ قالت في نفسها.

بعد دقائق قليلة، أغلقت آسيا الباب وراءها بهدوء.

* * *

سمعت الخالة بانو صوت الباب، لكنها قبل أن تناديها، كانت آسيا قد خرجت.

«ماذا تزمعين أن تفعلي يا سيدتي؟» نعق السيد مرّ.

«لا شيء»، همست الخالة بانو بعد أن فتحت درج خزانة وأخرجت صندوقاً. كان في داخل الغطاء المخملي الدبوس بشكل الرمانة.

وبما أنها كانت أكبر بنات عائلة قازانجي، فقد قدم لها أبوها هذا الدبوس هدية، الذي ورثه من أمّه ـ لا من زوجة أبيه، ما ـ الهيفاء، بل من الأمّ التي لم يتحدّث عنها مطلقاً، الأمّ التي تخلت عنه عندما كان طفلاً، الأمّ التي لم يغفر لها طوال حياته. قالت الخالة بانو إن الدبوس رائع ومحزن في آن معاً. لم يعرف أحد ذلك، لكنها وضعت الرمانة الذهبية التي بذورها من الياقوت في ماء مملّح لتغسل قصتها الحزينة.

تحت نظرة الجني اليقظة، راحت الخالة بانو تداعب الدبوس، تتحسس بهجة الياقوت المتوهج في داخله. وإلى أن التقت بآرمانوش لم يخطر ببالها أن تسأل عن قصّة الدبوس في شكل الرمانة. أما الآن، وبعد أن عرفت القصّة، لم تعد تعرف ما الخطوة التالية التي ستقدم عليها. ومع أنها شعرت بالرغبة في أن تقدم الدبوس لآرمانوش، لأنها تعتقد أنه يخصها أكثر من أي شخص آخر، فقد تردّدت لأنها لم تكن تعرف كيف ستشرح لها سبب تقديمه لها.

هل يمكن أن تعرف آرمانوش تشكمكجيان أن هذا الدبوس يخص جدتها شوشان دون أن تحكي لها بقيّة القصّة؟ إلى أي حد يمكنها أن تروي هذه القصص التي تعلمتها عن طريق السحر إلى الآخرين؟

* * *

في الجانب الآخر من المدينة، دخلت آسيا بعد أربعين دقيقة عبر الباب الخشبي الذي يصدر صريراً في مقهى كونديرا.

«أنتِ، آسيا!» صاح رسّام الكاريكاتير المدمن مبتهجاً. «هنا! أنا هنا!».

عانقها، وعندما انسحبت من بين ذراعيه، قال: «عندي لك أخبار،

خبر جيد، وخبر سيء، وخبر لم أفصح عنه بعد. أي خبر تريدين أن تسمعيه أولاً؟».

«قل لي الخبر السيء»، قالت آسيا.

«سأدخل السجن. لم تلق رسومي التي أشبّه فيها رئيس الوزراء بالبطريق قبولاً جيداً، كما أظن. فقد حكم عليّ بالسجن ثمانية أشهر».

حدّقت آسيا فيه بدهشة، سرعان ما تحولت إلى ذعر.

«اصمتي يا عزيزتي»، دمدم رسّام الكاريكاتير المدمن بصوت وديع، ووضع إصبعه على شفتيها: «ألا تريدين أن تسمعي الخبر الجيد؟» ثم ابتسم مفتخراً، «لقد قرّرت أن أكون صادقاً مع قلبي وأطلّق زوجتي».

عندما تلاشى ظلّ الحيرة الذي ارتسم على وجهها، خطر ببال آسيا أخيراً أن تسأله: «وما الخبر السرّي الآخر؟».

«هذا هو رابع يوم لم أشرب فيه، ولا حتى قطرة! إنك تعرفين السبب؟».

«أظن لأنك انضممت إلى مدمني الكحول المجهولين ثانية»، أجابت آسيا.

«لا!» قال رسّام الكاريكاتير المدمن متشدقاً، وقد بدا أنه جُرح: «لأنه مضى أربعة أيام على رؤيتي لك آخر مرة، وأردت أن أكون صاحياً عندما نلتقي ثانية. إنك حافزي الوحيد في هذه الحياة لأن أصبح شخصاً أفضل»، احمرّ وجهه الآن، وأضاف: «الحبّ! أنا أحبك يا آسيا».

انزلقت عينا آسيا الكستنائيتان نحو لوحة معلقة على الجدار، صورة طريق مليء بالحفر الذي جرى فيه سباق الهجن في عام ١٩٩٧ في منغوليا. سيكون من الجميل أن تري هذه الصورة الآن، قالت لنفسها، أن تجتازي صحراء غوبي بسيارة جيب ذاتية الدفع، وأنت تنتعلين حذاءً طويلاً ثقيلاً قذراً، وتضعين نظارات شمسية على عينيك، تتخلّصين من مشاكلك

وأنت تمضين قدماً، حتى تصبحين خفيفة مثل لا شيء، خفيفة مثل ورقة جافّة في مهب الريح، وهكذا تذهبين إلى دير بوذي في منغوليا.

* * *

«لا تقلقي، يا عصفورتي الصغيرة»، قالت شجرة الرمان وهي تبتسم وتنفض الثلج عن أغصانها. «فالقصّة التي سأحكيها لك قصّة سعيدة».

زمّ أوهانيس ستامبوليان شفتيه، فيما كان عقله يعمل بشكل محموم، وقد ابتلعته دوامة الكتابة. فمع إضافة كلّ سطر جديد إلى قصته الأخيرة في كتاب الأطفال، كانت تعود إليه أجيال من الدروس في شكل دوامة، بعضها تحزن قلبه، وبعضها الآخر ترفع من معنوياته، لكنها كانت جميعها تنبض من زمن آخر، زمن لا بداية ولا نهاية له. فقد كانت قصص الأطفال أقدم قصص في العالم، حيث تتحدث أشباح الأجيال التي ولّت منذ زمن بعيد عبر الكلمات. وكان دافعه لإنهاء هذا الكتاب غريزياً وفطرياً لا يمكن كبحه. فالعالم مكان كئيب منذ أن بدأ كتابته، وعليه الآن أن ينهي الكتاب بدون جلبة.

«حسنا، إذن»، هدلت الحمامة الصغيرة الضائعة: «احكي لي قصّة الحمامة الصغيرة الضائعة. لكنّي أحذّرك، إذا سمعت أيّ شيء حزين، فإني سأحلق بعيداً».

بعد أن اقتاد الجنود أوهانيس ستامبوليان، لم تعد أسرته ترغب في الدخول إلى غرفة مكتبه لأيام عديدة. فقد كانوا يدخلون إلى جميع الغرف، ما عدا هذه الغرفة، وظل الباب مغلقاً وكأنه كان لا يزال فيها يعمل ليل نهار.

لكن القنوط الذي ساد البيت ازداد حدةً، ولم يعد من الممكن الزعم أن الحياة قد تعود إلى سابق عهدها. وسرعان ما قررت آرمانوش أنهم سيكونون في حال أفضل إذا ذهبوا إلى سيواس، حيث مكثوا مع والديها

لفترة من الزمن. وبعد اتخاذهم هذا القرار دخلوا غرفة أوهانيس ستامبوليان ووجدوا مخطوطته: «الحمامة الصغيرة الضائعة والبلاد السعيدة»، التي كانت على وشك الانتهاء. ووجدوا بين طياتها دبوس الزينة بشكل الرمانة.

رأت شوشان ستامبوليان دبوس الزينة للمرة الأولى على طاولة المكتب المصنوعة من خشب الجوز التي قدمها لها أبوها. وبهتت جميع التفاصيل الأخرى عن ذلك اليوم المشؤوم، أما دبوس الزينة فلم يبهت. ربما كان الوميض المنبعث من الياقوت هو الذي أدهشها، وإلاّ لرأت العالم يتهاوى من حولها. ومهما كان السبب، لم تنس شوشان دبوس الزينة بشكل الرمانة. حتى عندما وقعت نصف ميتة على الطريق إلى حلب وبقيت وحدها؛ ليس عندما وجدتها الأمّ وابنتها التركيتان وأخذتاها إلى بيتهما لعلاجها؛ وليس عندما أخذها قطاع الطرق إلى ملجأ الأيتام؛ وليس عندما توقّفت عن أن تكون شوشان ستامبوليان وأصبحت شيرمين ٦٢٦؛ وليس بعد سنوات عندما وجدها رضا سليم قازانجي صدفة في ملجأ الأيتام، واكتشف أنها ابنة أخت معلّمه الراحل، ليفون، وقرّر أن يتخذها زوجة له؛ وليس عندما أصبحت في اليوم التالي شيرمين قازانجي؛ وليس عندما علمت أنها أصبحت حاملاً وأنها ستصبح أمّاً، وكأنها لم تكن لا تزال طفلة صغيرة.

كانت القابلة القوقازية قد كشفت جنس الطفل قبل ولادته بعدة أشهر، من شكل بطنها وأنواع الأطعمة التي كانت تشتهيها، ومن الحلويات التي كان يصنعها المخبز الذي افتتحه الروس البيض الذين هربوا من روسيا، والبقلاوة، والبونبون، وأنواع الحلويات الأخرى. . . لأن شيرمن قازانجي لم تشته أثناء فترة حملها أيّ شيء حامض أو مالح، وهي الأشياء التي كانت ستشتهيها لو كانت حاملاً بفتاة.

وبالفعل كان صبياً ولد في أوقات صعبة.

«أدعو الله أن ينعم على ابني حياة أطول من حياة أيّ رجل في هذه

العائلة»، قال رضا سليم قازانجي عندما سلمته القابلة الطفل. ثم قرّب شفتيه من أذن الطفل وأعلن الاسم الذي سيحمله فيما بعد: «سيصبح اسمك ليفون».

لم يكن تكريم معلّمه الذي تعلّم منه فنّ صناعة القدور الحافز الوحيد الذي جعله يختار هذا الاسم. فبتسمية ابنهما ليفون، كان يرجو أيضاً أن يكرّم زوجته بعد أن اعتنقت الإسلام.

وهكذا اختار اسم ليفون. وكأي مسلم تقي كرّر الاسم في أذنه ثلاث مرات: «ليفون! ليفون! ليفون!».

وفي الوقت نفسه، لم تفه شيرمين قازانجي بأي كلمة، وظلت جامدة مثل قطعة حجر.

لم يستغرق الأمر طويلاً كي يتردد الصدى الثلاثي الذي عاد إليهم في شكل سؤال سلبي. «ليفون؟ أيّ اسم إسلامي هذا؟ لا يوجد صبي مسلم يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم!» قالت القابلة بصوت مرتفع.

«سيكون اسم ابننا هكذا»، رد عليها سليم قازانجي، وهو دفاع ما فتئ يكرره في كلّ مرة: «لقد قرّرت. سيكون اسمه ليفون!».

لكنه عندما أخذ الطفل إلى موظف السجل المدني، لان قليلاً.

«ما اسم الصبي؟» سأله الموظف الهزيل، الضامر، الذي كان يبدو أنه عصبي دون أن يرفع رأسه من فوق سجل ضخم مغلّف بالقماش.

«ليفون قازانجي».

رفع الموظف نظارته، وأسندها فوق أرنبة أنفه وألقى نظرة طويلة إلى رضا سليم قازانجي وقال له: «في الحقيقة إن قازانجي اسم جميل، لكن اسم ليفون ليس اسم مسلم».

«إنه ليس اسم مسلم. إنه اسم رجل طيب»، أجاب رضا سليم قازانجي بعصبية.

«يا سيد»، رفع الموظف صوته قليلاً، وراح يتحدث وكأنه رجل مهم وعالم بالأمور: «أعرف أن عائلة قازانجي عائلة مهمة. لكن اسم مثل ليفون لن يخدمك جيداً. إذا سجلنا هذا الاسم، فربما تعرض هذا الصبي إلى مشاكل في المستقبل. إذ سيظن الجميع أنه مسيحي، مع أنه مسلم بكل معنى الكلمة... أم أنا مخطئ؟ أليس الصبي مسلماً؟».

«بالتأكيد إنه مسلم»، صحّح رضا سليم على الفور: «الحمد لله». ولوهلة سريعة خطر له أن يفضي إلى الموظف أن أمّ الصبي امرأة أرمنية يتيمة اعتنقت الإسلام وسيكون هذا بادرة طيبه لها، لكن شيئاً في داخله قال له أن يحتفظ بهذه المعلومات لنفسه.

«حسناً إذن، مع كلّ الاحترام الذي يستحقه هذا الرجل الطيب الذي تريد أن تسمّي هذا الطفل باسمه، دعنا نجري تغييراً طفيفاً عليه. اجعله شيئاً قريباً من ليفون، إذا أردت، لكن اختر اسماً إسلامياً هذه المرة. ما رأيك بليفينت؟» ثم أضاف الموظف بلطف، لطيفاً جداً بالنسبة لقسوة ما كان على وشك أن يقوله: «وإلا فإني لن أسجله».

وهكذا أصبح ليفينت قازانجي؛ الصبي الذي ولد على رماد ماض لا يزال يحترق؛ ولم يكن يعرف أحد أن أبا الصبي كان يريد أن يسميه ليفون؛ الصبي الذي ستهجره أمه ذات يوم وينشأ متجهماً مليئاً بالمرارة؛ الصبي الذي أصبح أباً يعامل أطفاله بقسوة.

لو لم يكن بسبب دبوس الزينة بشكل الرمانة، هل كانت شيرمن قازانجي ستجد الدافع لأن تهجر زوجها وابنها؟ من الصعب قول ذلك. فقد بدأت تدخل معهما أسرة وحياة جديدتين ذات اتجاه واحد. فلكي يصبح لها مستقبل، كان عليها أن تكون امرأة بلا ماضٍ. إذ لم تكن هوية طفولتها شيئاً يزيد على لقيمات من الذاكرة، مثل فتات الخبز الذي بعثرته وراءها، كي يتناولها طير ما، بما أنها هي نفسها لن تتمكن من العودة إلى بيتها من الطريق ذاته. مع أن أجمل ذكريات طفولتها تلاشت في النهاية،

لكن دبوس الزينة بقي محفوراً في عقلها بوضوح. وعندما ظهر بعد سنوات رجل قادم من أمريكا ووقف عند عتبة دارها، كان دبوس الزينة هو الذي جعلها تعرف أن هذا الرجل الغريب لم يكن سوى أخوها.

فقد ظهر يرفانت ستامبوليان عند باب بيتها بعينيه اللامعتين الداكنتين وحاجبيه الكثين، وأنفه الحادّ، وشارب كث يصل إلى ذقنه، جعله يبدو وكأنه يبتسم حتى عندما يكون كئيباً. وبصوت مرتعش وبكلمات مقتضبة، أخبرها من هو ثم قال لها، بلغة نصف تركية ونصف أرمنية، إنه قطع كلّ تلك المسافة من أمريكا ليبحث عنها. وبقدر ما كان يرغب في معانقة أخته في الحال، كان يعرف أنها أصبحت الآن امرأة مسلمة متزوّجة. فظل واقفاً عند مدخل الباب. كان نسيم إستانبول من حولهما يرسم دوائر، وللحظة بدا وكأنهما تحررا من إيقاع الزمن.

وفي نهاية لقائهما القصير، أعطى يرفانت ستامبوليان شيئين إلى شيرمن قازانجي: دبوس الزينة الذهب بشكل رمانة، ووقتاً كي تفكر.

حائرة ومذهولة، أغلقت الباب وانتظرت كي تستوعب لحظة الكشف تلك. وكان ليفينت يزحف على الأرض إلى جانبها ويهمهم بحماس شديد.

هرعت إلى غرفتها، وأخفت الدبوس في أحد الدروج في خزانتها. وعندما عادت وجدت الطفل يضحك، فقد تمكن من الوقوف على قدميه. ووقف الطفل هكذا ثانية كاملة، ثم خطا خطوة، ثم خطوة أخرى، ثم وقع بقوة على مؤخرته، كان الخوف البهيج من خطواته الأولى يلمع في عينيه. وفجأة ابتسم الصبي بفمه الخالي من الأسنان وصاح: «ما ـ ما».

ساد البيت كله لمعان شبحي نادر، عندما خرجت شيرمن قازانجي من ذهولها، وراحت تكرر لنفسها «ما ـ ما». كانت هذه هي الكلمة الثانية التي خرجت من فم ليفينت، وبعد أن حاول أن يقول «دا ـ دا» لفترة، وأخيراً

قال «با ـ با» البارحة. أدركت الآن أن ابنها لفظ كلمة بابا بالتركية، أما كلمة ماما فقد لفظها بالأرمنية. لم يكن عليها أن تنسى اللغة التي كانت عزيزة عليها ذات يوم، بل أصبح عليها الآن أن تعلّم ابنها بالطريقة ذاتها. حدّقت في الطفل، مشوشة ومكتئبة. فلم تشأ أن تصحح «ما ـ ما» وتستبدل الكلمة التي تعادلها باللغة التركية. فقد برزت إلى السطح صور أسلافها المتجهمة. فلم يفلح الاسم والدين والجنسية والأسرة الجديدة الهيمنة على ذاتها، فقد همس دبوس الزينة اسمها وكان ذلك بالأرمنية.

ضمت شيرمن قازانجي ابنها إلى صدرها، ولم تفكر طوال ثلاثة أيام كاملة بالدبوس.

لكنها في اليوم الثالث، وكأن عقلها يفكر، وقلبها يتألم دون أن تعي ذلك، هرعت إلى الدرج، وأخرجت الدبوس وأمسكته بقوة في راحة يدها، تستشعر بدفئه.

تمتاز أحجار الياقوت بلونها الأحمر الناري. لكن ليس من النادر أن تغيّر لونها، فتصبح في داخلها داكنة أكثر وأكثر، وخاصة عندما يتعرض أصحابها للخطر. وثمة نوع من الياقوت يطلق عليه الخبراء اسم «دم الحمامة» ـ وهو ياقوت ثمين أحمر قان فيه مسحة من اللون الأزرق، كأنه داكن في أعماقه. كانت الياقوتة تلك، آخر ذكرى متبقية من «الحمامة الصغيرة الضائعة والبلاد السعيدة».

في عشية اليوم الثالث، وجدت شيرمن قازانجي لنفسها لحظة تخلو فيها إلى نفسها بعد العشاء، فانسلت إلى غرفتها. كانت تتوسل لأن تجد عزاء لا يمكن لأحد أن يمنحه إياها، راحت تحدّق في دم الحمامة.

عندها فقط قررت ما يجب أن تفعله.

وبعد أسبوع، وفي صباح يوم الأحد، توجهت إلى الميناء حيث كان أخوها بانتظارها وقلبه يخفق بقوة ومعه تذكرتان إلى أمريكا. وبدلاً من أن

تحمل حقيبة، حملت شيرمن كيساً صغيراً فقط. فقد تركت جميع ممتلكاتها. أما دبوس الزينة بشكل الرمانة، فقد وضعته في مغلف مع رسالة أوضحت فيها وضعها وطلبت من زوجها شيئين: أن يقدم دبوس الزينة إلى ابنهما ليتذكرها، وأن يسامحها.

* * *

عندما حطت الطائرة في إستانبول، كانت روز مرهقة. وكانت تحرك قدميها المتورمتين بحرص شديد، وقد خشيت ألا تدخلا في حذائها، مع أنها كانت تنتعل حذاءً جلدياً برتقالي اللون مريحاً من ماركة DKNY. وتساءلت كيف تستطيع هؤلاء المضيفات أن يبقين على أقدامهن بكعوب أحذيتهن العالية طوال يوم كامل من الطيران.

استغرق مصطفى وروز نصف ساعة لختم جواز سفرهما، واجتياز الجمارك، واستلام حقائبهما، ثم صرفا بعض النقود، واستأجرا سيارة. فقد فكّر مصطفى أنه من الأفضل أن تكون لديهما سيارتهما الخاصة، بدلاً من أن يستخدما سيارة العائلة. واختارت روز أولاً من الدليل سيارة تشيروكي لاردو كبيرة ذاتية الدفع، لكن مصطفى نصحها باستئجار سيارة أصغر تلائم مع الشوارع المزدحمة في إستانبول. واتفقا على استئجار سيارة تويوتا كورولا.

بعد ذلك بقليل، خرجا من صالة القادمين، وهما يدفعان عربة تحمل حقائب متشابهة. وجدا نصف دائرة من الغرباء ينتظرون في الخارج. شاهدا بين المجموعة آرمانوش أولاً، تبتسم وتلوح بيدها، وإلى جانبها الجدة كلثوم، ويدها اليمنى تضغط على قلبها، تكاد تفقد وعيها من شدة حماسها. وكانت تقف وراءهما بخطوة الخالة زليخة، طويلة ومتعالية، ترتدي نظارة شمسية بعدسات أرجوانية داكنة.

١٧
رزّ أبيض

أمضت روز ومصطفى اليومين الأولين من زيارتهما إلى إستانبول في تناول الطعام. وعلى المائدة، أجابا عن أسئلة كثيرة طرحتها عليهما نساء عائلة قازانجي من جميع الاتجاهات: كيف هي الحياة في أمريكا؟ هل توجد صحراء حقاً في أريزونا؟ هل صحيح أن الأمريكيين يعيشون على كمية كبيرة من الطعام الجاهز، ثم يبدأون حمية غذائية في المسابقات التلفزيونية؟ هل النسخة الأمريكية من مسلسل «المبتدئ» أفضل من النسخة التركية؟ وإلى ما هنالك.

ثم أعقب ذلك سلسلة من الأسئلة الشخصية: لماذا لم ينجبا أطفالاً معاً؟ لماذا لم يأتيا إلى إستانبول من قبل؟ لماذا لن يبقيا فترة أطول؟ لماذا؟

وكان للأسئلة تأثير معاكس عليهما. ولم تكن روز تمانع هذا الاستجواب. فإن كان ثمة شيء تستمتع به، هو أن تكون في مركز الضوء. أما مصطفى، فقد كان ينجرف باستمرار إلى الصمت، ويزداد انكماشاً. فقد كان يتكلم قليلاً، ويمضي معظم وقته في قراءة صحف تركية، المحافظة منها والتقدمية، وكأنه يريد أن يلحق بركب البلد الذي هجره. وكان يسأل بين الحين والآخر أسئلة عن هذا السياسي أو ذاك، أسئلة كان يجيب عنها أي شخص يعرف الجواب. ومع أنه كان قارئ صحف نهم، إلا أنه لم يكن يبدي اهتماماً بالسياسة.

«هكذا إذن، يبدو أن حزب المحافظين الموجود في الحكم بدأ يفقد دمه. ما فرصتهم في الفوز في الانتخابات القادمة؟».

«إنهم أوغاد! إنهم مجموعة من الكذابين»، هدرت الجدة كلثوم، بدلاً من أن تجيب. كان هناك في حضنها صينية عليها كومة من الرزّ تنقّيه من قطع صغيرة من الحجارة أو القشّ قبل أن تطهيه، «كلّ ما يعرفونه أنهم يعدون الناس ثم ينسون ما يقولونه عندما يُنتخبون».

من الكرسي ذي المسندين الذي يجلس عليه مصطفى بالقرب من النافذة، نظر إلى أمّه من فوق الجريدة التي يمسكها بيده، وسأل: «وماذا عن حزب المعارضة؟ الديموقراطيون الاجتماعيون؟».

«نفس الشيء!» جاء الجواب: «جميعهم حفنة من الكذابين. جميعهم سياسيون فاسدون».

«لو كان لدينا عدد أكبر من النساء في البرلمان لتغير كلّ شيء»، شاركت الخالة فريدة في الحديث، وهي ترتدي القميص الذي أهدته لها روز والمكتوب عليه بأحرف كبيرة «أحبّ أريزونا».

«ماما على حق. إذا سألتني، فإن المؤسسة الوحيدة الجديرة بالثقة في هذا البلد هي الجيش دائماً»، قالت الخالة شكرية: «الحمد لله عندنا الجيش التركي. فلولاه».

«نعم، لكنهم يجب أن يدعونا نحن النساء للخدمة بالجيش»، قاطعتها الخالة فريدة: «فأنا مستعدة للإلتحاق في الجيش على الفور».

توقّفت آسيا عن ترجمة الحديث لروز وآرمانوش، الجالستين إلى جانبها، وضحكت ضحكة مكتومة عندما قالت بالإنكليزية: «إحدى خالتيّ تناصر المرأة، والأخرى عسكرية في الصميم! وهما تتفقان جيداً. يا له من بيت مجانين».

التفتت الجدة كلثوم إلى ابنها، وقد اعتراها فجأة قلق: «وماذا عنك يا عزيزي؟ متى ستنهي خدمتك العسكرية؟».

كانت روز تجد صعوبة في متابعة الترجمة، التفتت روز إلى زوجها وغمزته.

«لا تقلقي بشأني»، قال مصطفى: «بشرط أن أدفع مبلغاً معيناً، وأثبت لهم أني أعيش وأعمل في أمريكا، لا يتعين عليّ أن أؤدي خدمة عسكرية كاملة. سأجري التدريب الأساسي فقط. شهر واحد، هذا كلّ ما في الأمر...».

«لكن ألا يوجد موعد نهائي لهذا؟» سألت إحداهن.

«نعم يوجد»، أجاب مصطفى: «يجب أن تجري هذا التدريب حتى تبلغ الحادية والأربعين من العمر».

«حسناً، إذن يجب أن تفعلها هذه السنة»، قالت الجدة كلثوم: «فقد بلغت الأربعين الآن...».

رفعت الخالة زليخة رأسها، التي كانت جالسة عند طرف الطاولة، تصبغ أظافرها بلون كرزي لمّاع، ورمقت مصطفى وقالت: «يا له من عمر مصيري»، همست فجأة: «العمر الذي مات فيه أبوك، مثل أبيه وجدّه... يجب أن تكون قلقاً الآن لأنك بلغت الأربعين، يا أخي... فقد اصبحت قريباً جداً من الموت...».

كان الصمت الذي أعقب ذلك قاتلاً، مما جعل آسيا تنكفئ بشكل لا شعوري.

«كيف تكلمينه بهذه الطريقة؟» استوت الجدة كلثوم واقفة، وصينية الرزّ لا تزال في يدها.

«يمكنني أن أقول أي شيء أريد أن أقوله وإلى من أشاء»، قالت الخالة زليخة باستهجان.

«إنك تخجلينني! هيا اخرجي»، قالت الجدة كلثوم، بصوت منخفض وفولاذي: «هيا اخرجي من بيتي الآن».

كان قد بقي ظفران لم تصبغهما بعد. تركت الخالة زليخة الفرشاة في القنينة، وسحبت كرسيها وخرجت من الغرفة.

* * *

في اليوم الثالث من زيارتهما، مكث مصطفى في غرفته طوال النهار، متعللاً بالمرض. فقد اعترته حمّى، لم تقلل من طاقته فحسب، بل وأوهنت قدرته على الكلام أيضاً، لأنه أصبح شديد الهدوء. فقد شحب وجهه، وجفّ فمه، واحمرت عيناه كثيراً، مع أنه لم يشرب مسكراً ولم يذرف دمعة. ولساعات طويلة، ظل مستلقياً في السرير لا يتحرك، يمعن النظر في أشياء يتعذر تمييزها من الأوساخ والغبار في السقف. وفي أثناء ذلك، كانت روز وآرمانوش والخالات الثلاث قد عدن من جولة في شوارع إستانبول، وخاصة في الشوارع القريبة من مراكز التسوق. وخلدن إلى النوم في وقت أبكر من المعتاد في تلك الليلة.

«روز، حبيبتي»، همس مصطفى لزوجته وهو يداعب شعرها الأشقر الفاتح. فقد كان شعر زوجته الأملس، المستوي، الأشقر، يشعره دائماً بالراحة والهدوء، بخلاف شعر أخواته الأسود وماضيه ذي الشعر الأسود. استلقت إلى جانبه، بجسدها الدافئ والناعم. قال لها: «روز، حبيبتي. يجب أن نعود. دعينا نسافر غداً».

«هل جننت؟ فأنا لا أزال مرهقة من السفر». تثاءبت روز، ومدّت أطرافها التي تؤلمها. كانت ترتدي ثوب نوم حريري مطرّز كانت قد اشترته اليوم من السوق الكبير، وبدت شاحبة ومرهقة، لا بسبب إرهاق السفر فحسب، بل بسبب سعار وحمى التسوّق أيضاً: «لماذا أراك متوتراً وعصبياً؟ ألا تستطيع أن تتحمل رؤية أسرتك لبضعة أيام؟» وسحبت الملاءة

الناعمة حتى ذقنها، وفي دفء السرير ضغطت صدرها على صدره. ثم ربتت على يده وكأنها تسترضي طفلاً، وقبّلت رقبته برقة وبنعومة، لكنها عندما حاولت أن تنسحب، شعر بالرغبة في المزيد. فقد كان جائعاً للشهوة.

«كلّ شيء على ما يرام»، قالت روز وقد توتّر جسدها وتسارعت أنفاسها، لكنها سرعان ما تضاءلت، وقالت: «أنا متعبة جداً، آسفة يا حبيبي. . . سنبقى خمسة أيام أخرى ونسافر». وبذلك أطفأت المصباح إلى جانبها، وما هي إلا ثوان قليلة حتى غطت في النوم.

استلقى مصطفى في الضوء الخافت، شاعراً بالارتباك من انتصابه، وبدت عليه خيبة الأمل والتوتر. ومع أن عيناه كانتا ثقيلتين ولم يغمض له جفن، ظل مستلقياً فترة طويلة دون أن يأتي بحركة إلى أن سمع قرعاً على الباب. «نعم؟».

فُتح الباب قليلاً، وبعد ثانية أطلت الخالة بانو برأسها إلى داخل الغرفة. سألت بصوت متردد منخفض: «هل يمكنني أن أدخل؟» وعندما سمعت موافقته، راحت تمشي بحذر وقد غاصت قدماها العاريتان في السجادة، ثم توقّفت. توهّج منديل رأسها الأحمر وكأن نوراً غامضاً ينيره، وجعلتها الحلقات الداكنة تحت عينيها تبدو أشبه بشبح: «لم تنزل إلى الطابق الأرضي طوال اليوم. أردت أن أطمئن عليك»، همست وهي تراقب روز، النائمة على الجانب الآخر من السرير، تطوق وسادتها بذراعيها.

«كنت أشعر بقليل من التوعك»، نظر مصطفى إليها، وبسرعة نظر بعيداً.

«هيا يا أخي»، قالت بانو وهي تقدم له صحناً من العاشورة المزيّن بحبّ الرمان، «كما تعرف، فقد أعدت لك ماما قِدراً ضخماً من

عاشورة»، وابتسم وجهها الجدّي المتجهم، وأضافت: «يجب أن أقول، إنها هي التي طهته، وأنا التي زيّنت الصحون».

«شكراً، إنك لطيفة جداً»، تأتأ مصطفى واعترته رعدة سرت في عموده الفقري. فقد كان دائماً يخشى أخته الكبيرة. وكان صوته يتخلى عنه ما أن يشعر بنظرات بانو موجهة إليه تفتشه. ومع أنها جعلت تفحّص الآخرين إحدى عاداتها، ظلت هي نفسها مليئة بالألغاز والغموض. كانت بانو نقيض روز تماماً: فلم تكن الشفافية من مزاياها. كانت تشبه كتاباً مليئاً بالألغاز دُوِّن بأحرف أبجدية غامضة. ومهما حاول مصطفى أن يقرأ نواياها، لم يتمكن طوال حياته من أن يفهم تعابير وجهها الغامضة. ومع ذلك، فقد بذل ما بوسعه كي يبدو أنه يقدّرها أشد التقدير، عندما تناول منها صحن العاشورة.

وأعقب ذلك صمت ثقيل لا يدرك غوره. لم يكن هناك صمت أقسى من الصمت الذي ساد الآن بالنسبة لمصطفى. وكما لو كانت منزعجة من ذلك، تقلّبت روز في نومها، لكنها لم تستيقظ.

في مرات كثيرة من حياته، كان يدفع مصطفى حافز مفاجئ ليعترف لزوجته بأن ما تراه فيه لم يكن هو كلّه. وفي أحيان أخرى، كان يشعر بالرضا وهو يتقمص رجلاً بدون ماض، رجلاً ربى النكران في ذاته. فقد كان نسيانه هذا متعمّداً، مع أنه لم يكن محسوباً. فمن ناحية، كان يوجد في مكان ما في عقله باب لا يُغلق مهما حدث؛ وكانت بعض الذكريات تهرب منه على الدوام. ومن الناحية الأخرى، كان هناك حافز يدفعه لنبش ما كان قد حذفه العقل بمهارة. هذان التياران التوأمان كانا يرافقانه طوال حياته. أما الآن، وبعد أن عاد إلى بيت طفولته، وتحت نظرة أخته الأكبر الثاقبة، عرف أن أحد التيارين سيفقد قوّته لا محالة. وكان مصطفى يعرف أنه إذا مكث في هذا البيت فترة أطول، فإنه سيبدأ يتذكر. وكلّ ذكرى تحفزّ وراءها ذكرى أخرى. فما إن وطأت قدماه عتبة بيت طفولته، حتى

تحطم السحر الذي حماه طوال هذه السنوات من ذاكرته وتناثر. كيف كان بوسعه أن ينكفئ في نسيانه الذي صنعه بنفسه؟

«أريد أن أسألك شيئاً»، سألها مصطفى فاغراً فمه، ولهاثه يكاد يشبه لهاث صبي يتلقى ضربات على مؤخرته.

حزام جلدي ذو إبزيم نحاسي. عندما كان مصطفى صبياً، كان يفتخر بأنه لم يكن يبكي أبداً، ولم يكن يذرف دمعة واحدة، عندما كان أبوه يستل حزامه الجلدي. وبقدر ما تعلّم كيف يسيطر على دموعه، لم يتمكن من كبت لهاثه. كم كان يكره هذا اللهاث. كان يبذل جهداً ليأخذ نَفَساً. يكافح للحصول على فضاء. يكافح للحصول على حنان.

توقّف قليلاً وكأنه يريد أن يستجمع أفكاره، ثم قال: «ثمة شيء يلحّ عليّ منذ حين...». كانت نبرة من الخوف تشي صوته الذي عادة ما يكون هادئاً. تسلل ضوء القمر عبر الستائر وأحدث دائرة صغيرة فوق السجادة التركية الوثيرة. كان يركّز على تلك الدائرة عندما سأل: «أين والد آسيا؟».

التفت مصطفى إلى أخته الكبيرة في الوقت المناسب ليرى قسماتها المتجهمة، لكن بانو سرعان ما استعادت رباطة جأشها.

«عندما التقينا في ألمانيا، قالت لي أمي إن زليخة أنجبت طفلاً من رجل خطبت له لفترة وجيزة. لكنها قالت إنه تركها».

«لقد كذبت عليك ماما»، قاطعته بانو: «لكن ماذا يهم الآن؟ فقد كبرت آسيا دون أن ترى أباها. وهي لا تعرف من هو. والعائلة لا تعرف من هو أيضاً»، ثم أضافت بسرعة: «إلا زليخة طبعاً».

«حتى أنت لا تعرفين؟» سألها مصطفى بنبرة تشي بالشك: «فقد سمعت أنك قارئة طالع جيدة. تقول فريدة إنك استعبدت جنياً سيئاً تحصلين منه على جميع المعلومات التي تحتاجينها. يبدو أن الزبائن يأتون

إليك من كل مكان. الآن هل تريدين أن تقولي لي إنك لا تعرفين هذا الخبر الحاسم؟ ألم يكشف لك الجني شيئاً؟».

«في الحقيقة أخبرني»، قالت بانو: «وكنت أتمنى أني لم أعرف الأشياء التي أعرفها».

أخذت دقات قلب مصطفى تتسارع وهو يستوعب الكلمات. أغمض عينيه مذعوراً. لكن حتى وراء عينيه المغمضتين، كان بإمكانه أن يرى نظرة بانو الثاقبة، بالإضافة إلى عينين أخريين تشعان في الظلام. كانتا مجوفتين ومرعبتين. هل كان ذلك جنيها الشرّير؟ لكن لا بد أن هذا كله مجرد حلم، لأنه عندما فتح مصطفى قازانجي عينيه ثانية، وجد نفسه وحيداً مع زوجته في الغرفة.

لكن صحن العاشورة كان هناك إلى جانب سريره ينتظره. حدّق فيه، وفجأة عرف السبب الذي جعلها تضعه هناك، وما المطلوب أن يفعله تماماً؟ كان الاختيار اختياره... إلى يساره.

نظر إلى يده اليسرى، التي كانت تنتظر الآن بجانب الصحن. ابتسم لقوة يده. الآن يمكن ليده أن تمسك هذا الصحن، أو أن تدفعه بعيداً. إذا اختار الخيار الثاني، فإنه سيستيقظ في الغد إلى يوم آخر في إستانبول، وسيرى بانو جالسة إلى مائدة الفطور. ولن يتكلما عما دار بينهما في الليلة السابقة. وسيتظاهر كل منهما أن صحن العاشورة هذا لم يُعدّ ولم يقدم له على الإطلاق. أما إذا اختار الخيار الأول، فإن الأمور ستعود إلى نقطة البداية. لكن بما أنه وصل إلى حدود عمر رجال عائلة قازانجي، كان الموت وشيكاً على أي حال، ولن يحدث يوم زائد أو يوم ناقص فرقاً كبيراً عند هذه النقطة من حياته. وتردد في مؤخرة رأسه صدى قصّة قديمة - قصّة رجل هرب إلى آخر بقعة في الكرة الأرضية هرباً من ملاك الموت، ليلتقي به في المكان الذي كان مقدراً أن يلتقيا فيه أصلاً.

لم يكن خياراً بين الحياة والموت أكثر من كونه خياراً بين الموت الذي يتحكم به المرء وبين الموت المفاجئ. وبالتراث العائلي ذاك، كان واثقاً من أنه سيموت قريباً على أي حال. ويمكنه الآن، وبيده اليسرى، يده الآثمة، أن يختار الزمان والكيفية.

تذكّر قصاصة الورق الصغيرة التي دسّها في الجدار الحجري في ضريح إل تراديتو التي كتب فيها: «اغفر لي. لكي أعيش، ويجب أن يُمحى الماضي».

بدأ يشعر الآن بأن الماضي قد بدأ يعود. ولكي يعيش، يجب أن يُمحى...

طوال هذه السنوات، كان ينهشه ندم فظيع، شيئاً فشيئاً، دون أن يؤثر على واجهته الخارجية. لكن يبدو أن المعركة بين النسيان والتذكر قد انتهت أخيراً. مثل بحر منبسط يمتدّ على مدّ البصر تستطيع العين أن تراه بعد انحسار المدّ، وكانت ذكريات ماضي منغص قد طفت على السطح هنا وهناك، بعد أن انحسرت المياه. مدّ يده إلى صحن العاشورة. وأخذ يأكله، رويداً رويداً، يتذوق كلّ لقمة يضعها في فمه.

أحس بالارتياح لأنه هجر ماضيه ومستقبله في الوقت نفسه.

شعر بالارتياح لأنه هجر الحياة.

وبعد أن أنهى العاشورة بثوان قليلة، تملكه تشنج حادّ أسفل بطنه، ولم يعد قادراً على أن يتنفّس. وبعد دقيقتين اثنتين توقّف تنفّسه تماماً.

بهذه الطريقة مات مصطفى قازانجي وهو في الأربعين وثلاثة أرباع السنة.

١٨

سيانيد البوتاسيوم

غُسل الجسد بلوح من صابون الغار، الذي كان عاطراً، ونقياً، وأخضر مثل حقول الجنة الشاسعة كما يقال. فُرك، ونُظِّف، وغُسل، ثم تُرك ليجفّ عارياً فوق قطعة الحجر المنبسطة في ساحة الجامع قبل أن يُلفّ بكفن قطني من ثلاث قطع، ووضع في التابوت، ورغم إلحاح العجائز بضرورة دفنه في اليوم ذاته، إلا أنه وضع في سيارة دفن الموتى وتقرر إعادته إلى بيت قازانجي.

«لا يمكنكم أن تأخذوه إلى البيت!» صاح مغسّل الموتى الضامر بعد أن سدّ المنفذ إلى باحة المسجد، وعبس وتجهم في وجه الجميع، ثم أضاف: «والله إن الرجل سيتعفن! إنكم تحرجون الميت».

وفي نقطة ما بين «أنتم» و«هو»، بدأ الرذاذ يهمي؛ قطرات متناثرة تهطل باستحياء، وكأن المطر أراد أيضاً أن يشارك في كلّ هذا، لكنه لم يتحيّز إلى أي طرف بعد. وبدا في يوم الثلاثاء هذا، من شهر آذار، أن أكثر الشهور تقلباً وإخلالاً بالتوازن في إستانبول، قد غيّر رأيه مرة أخرى، وقرّر أنه ينتمي إلى فصل الشتاء.

«لكن يا أخي مغسّل الموتى»، قالت الخالة فريدة، وقد أدخلت عصبية الرجل على الفور في عالمها الشيزوفراني: «سنعيده إلى بيته كي يتمكن الجميع من رؤيته للمرّة الأخيرة. يا أخي، كان يعيش في الخارج

منذ سنوات طويلة، وكدنا ننسى وجهه. فبعد عشرين سنة، عاد أخيراً إلى إستانبول، وفي اليوم الثالث من زيارته، لفظ أنفاسه الأخيرة. كان موته مفاجئاً، ولن يصدق الجيران والأقارب البعيدين أنه توفي إذا لم تتح لهم فرصة رؤيته وهو مسجى».

«يا امرأة، هل جننت؟ لا يوجد شيء مما تتكلمين عنه في ديننا!» قال مغسّل الموتى، راجياً أن تتوقّف عن قول ما تريد أن تقوله: «فنحن المسلمون، لا نضع ميّتنا في ساحة عرض ليتفرج عليه الآخرون»، وتصلّب وجهه بوضوح عندما أضاف: «إذا أراد جيرانك أن يروه، فيجب أن يزوروا قبره في المقبرة».

فيما وقفت الخالة فريدة قليلاً لتفكّر بما قاله، حدّقت الخالة شكرية، الواقفة إلى جانبها، في الرجل عاقدة الحاجبين، كما اعتادت أن تنظر إلى طلابها أثناء الاختبارت الشفوية التي تجريها عليهم، عندما يكون جوابهم غير منطقي.

«لكن يا أخي مغسّل الموتى»، تابعت الخالة فريدة، وقد فهمت الآن قصده، «وكيف يمكنهم أن يروه وهو يقبع على عمق ستّة أقدام تحت الأرض؟».

ارتفع حاجبا مغسّل الموتى الكثين السميكين باستياء شديد، لكنه فضّل ألا يجيب، بعد أن تأكد من عبث مناقشة أيّ شيء مع هاتين المرأتين.

كانت الخالة فريدة قد صبغت شعرها باللون الأسود في صباح ذلك اليوم. فقد كان هذا لون شعر حدادها. هزّت رأسها بحزم ثم أضافت: «لا تقلق. تأكد تماماً من أننا لن نعرضه كما يفعل المسيحيون في الأفلام».

عابساً أمام مقلتي عينيّ الخالة فريدة اللتين لم تكفا عن الحركة، وهي ترفرف بيديها، لاذ مغسّل الموتى بالصمت لوهلة فظيعة، ولم يعد يبدو أنه منزعج الآن أكثر من كونه مكتئباً، وكأنه أدرك فجأة أنها أكثر الأشخاص

الذين رآهم في حياته جنوناً. وراحت عيناه الجاحظتان تتطلعان حوله بحثاً عن مساعدة من أحد. وعندما لم يجد أحداً يهبّ إلى نجدته، انزلقت عيناه نحو الجثمان الذي كان ينتظر بفارغ الصبر أن يتوصلوا إلى حسم أمرهم واتخاذ قرار يحدد مصيره، ثم عادتا أخيراً مرة أخرى إلى الخالتين، لكن إن كان ثمة رسالة مخفية في مكان ما في هذه النظرات الباردة التي لم تكف عن الدوران، لم يكن بإمكان أحد منهم أن يفهم مغزى هذه النظرات.

نفحته الخالة شكرية إكرامية سخية.

وهكذا أخذ مغسّل الموتى إكراميته، وأخذ أفراد عائلة قازانجي ميتهم.

وبسرعة كبيرة، تشكلت قافلة مؤلفة من أربع سيارات. وسارت في مقدمة الموكب سيارة دفن الموتى الخضراء اللون وفق لون الشريعة الإسلامية، وذلك لأن اللون الأسود مخصص لجنائز الأقلّيات من الأرمن واليهود واليونانيين. ووضع التابوت خلف السيارة ذات الجوانب الثلاثة، وبما أنه كان يجب أن يرافق الميت شخص ما، تطوعت آسيا لهذه المهمة. وكانت آرمانوش، بوجهها المضطرب، تمسك بيد آسيا بقوة، لذلك بدا أن الفتاتين هما اللتان ستقومان بهذه المهمة.

«لا أسمح لأي امرأة بأن تجلس في مقدمة السيارة»، قال السائق الذي كان يشبه مغسّل الموتى إلى حد يثير الدهشة. لعلهما كانا أخوين؛ ففي حين يغسل أحدهما الميت، ينقله الآخر، وربما كان هناك أخ ثالث يعمل حفار قبور في المقبرة.

«حسناً، يجب أن تفعل ذلك لأنه لم يعد هناك رجال آخرون في عائلتنا»، قالت الخالة زَليخة موبّخة السائق من الخلف، بصوت حاد إلى درجة أن الرجل لاذ بالصمت. فربما خطر له أنه إذا لم يعد هناك رجال حقاً يرافقون الميت في العربة، فمن الأفضل أن ترافقه هاتان الفتاتان، بدلاً من أن ترافقه هذه المرأة المخيفة بتنورتها القصيرة جداً، وحلقة أنفها.

وهكذا كفّ الرجل عن التذمر، وراحت السيارة تسير بتثاقل.

وكانت روز تقود سيارتها التويوتا كورولا وراءهم مباشرة. وكان الفزع باد عليها من الطريقة التي كانت تترنح بها السيارة وتقف، تتحرك إنشاً إنشاً، وكأنها أصيبت بفواق إيقاعي متشنج، أو أن حركة المرور الهمجية قد أفزعتها.

وبهلعها المتزايد، لم يكن بالإمكان تصوّر روز الآن وهي تقود سيارتها ذات الأبواب الخمسة، ماركة غراند تشيروكي ليمتد، الذاتية الدفع، والمجهّزة بمحرّك ٨ سليندر. تلك المرأة التي كانت تهدر في شوارع وجادات أريزونا العريضة، أصبحت الآن سائقاً مختلفاً في شوارع إستانبول المزدحمة المتلوية. والحق يقال، كانت روز الآن منذهلة تماماً، وكادت حيرتها وعدم تركيزها أن يغطيا على حزنها. فبعد أقل من اثنتين وسبعين ساعة من وصولهما، أحست وكأنها سقطت في حفرة في الكون، وتعثرت في بعد آخر، في أرض غريبة لا يبدو فيها شيء طبيعي، وحتى الموت فقد خنقته اللاسريالية.

وجلست الجدة كلثوم إلى جوارها، لا تستطيع أن تتواصل مع هذه الكتلة الأمريكية التي لم ترها طوال حياتها، والتي لم تشعر بالقلق والشفقة تجاهها أيضاً بعد أن فقدت زوجها، بقدر ما كانت تشعر هي نفسها بالقلق والشفقة على نفسها، بعد أن فقدت ابنها الوحيد.

وفي المقعد الخلفي، كانت تجلس ما ـ الهيفاء، التي وضعت اليوم وشاحاً على رأسها ذا حواف شديدة السواد. كانت روز قد أمضت وقتاً طويلاً في يومها الأول في إستانبول، وهي تحاول أن تفهم المعايير الجوهرية التي تجعل بعض النساء في تركيا يضعن مناديل على رؤوسهن، فيما تظل بعض النساء الأخريات حاسرات الرأس. لكنها سرعان ما استسلمت، ولم تتمكن من حلّ اللغز حتى على المستوى المنزلي، أو حتى في داخل العائلة. فلماذا كانت ما ـ الهيفاء تضع وشاحاً بينما لم تكن

كنّتها كلثوم تضع وشاحاً، ولماذا كانت إحدى الخالات تضع منديل رأس، فيما لا تضع أي من أخواتها الثلاث منديلاً؟ كان شيئاً يستعصي عليها فهمه.

ووراء الويوتا مباشرة، جاءت سيارة الخالة زليخة الفضية، ماركة إلفا روميو، حيث انحشرت في داخلها أخواتها الثلاث مع السلطان الخامس الذي كان متكوراً في سلة جاثمة فوق حضن الخالة شكرية، التي كانت شديدة الهدوء اليوم، وكأنه كان لموت إنسان تأثير مهدّئ عليها.

وإلى جانب سيارة إلفا روميو، كانت تئزّ سيارة الفولكسفاغن الخنفساء الصفراء التي يقودها آرام، الذي وجد صعوبة كبيرة في فهم السبب الذي جعل نساء عائلة قازانجي يقررن أن يأخذن الميت إلى البيت، لكنه كان من الحكمة بحيث أدرك أن لا يتعب نفسه بمحاولة الاعتراض على ما تقوله تلك الخالات، وخاصة إذا ما اجتمعن بهذا الشكل، لذلك وجد أنه من الأفضل ألا يسأل. وهكذا أخذ يقود سيارته وراء الموكب، محاولاً أن يتأكد من أن حبيبته على ما يرام وسط كلّ هذه المعمعة.

عند إشارات المرور المكتظة إلى درجة لا توصف في شيشلي، وعلى مسافة لا تبعد كثيراً عن المقبرة الإسلامية، حاول مغسّل الموتى أن يوجّه دفة السير، فصادف أن اصطفت السيارات جميعها في صف واحد، مثل كتيبة عسكرية تسير في مقدمة جيش لا يقهر بحماس شديد لشنّ حرب، لكن دون وجود قضية مشتركة. مدت الخالة فريدة رأسها من النافذة ولوّحت يساراً ويميناً، وبدا أنها كانت مستثارة لاصطفافهم بهذا الشكل. فهذه هي المرة الأولى التي تصرّفن فيها بتوافق وبإجماع في الرأي، حتى بسبب ضوء أحمر آلي. تجاهلت روز إيماءتها، فيما ردت الجدّة كلثوم على إشارتها.

عند الضوء الأحمر التالي، أخذت آسيا، التي كانت تجلس بين آرمانوش وسائق العربة، تتفحص السيارات المحيطة بهن، إلا أنه لحسن

الحظ، لم تعد إحداهن ترى الأخرى. أحست براحة مفاجئة عندما لم يعد أحد من من عائلة قازانجي في مجال رؤيتها، سوى الرجل المسجّى في التابوت في مؤخرة السيارة، ولكن حتى هذا قد لا يكون ضمن مجال رؤيتها إذا لم تلتفت إلى الوراء. وفيما راحت السيارة تنجرف مع حركة المرور الهلامية، سميكة ومجمدة كالحجر، تنسل من هنا وهناك بين فتحات غير متوقّعة، برزت أمامهم شاحنة كوكا كولا حمراء مشعة.

عندما تغيّر لون إشارة المرور إلى الأخضر، عادت السيارة تتحرك، وظهر في المجاز إلى يمينهم أسطول من السيارات المحشوة بأنصار فريق كرة قدم يضعون قبعات وأوشحة، ويرفعون أعلاماً ورايات ومناديل، وصبغ بعضهم شعرهم بلون الفريق الذي يؤيدونه: الأحمر والأصفر. وبسبب الإحباط الذي أصاب أنصار كرة القدم من بطء حركة المرور، غاص معظمهم مؤقتاً في مرحلة فتور، وراحوا يدردشون بتكاسل، ويلوّحون بمنديل أو بمنديلين من النوافذ المفتوحة بين الحين والآخر.

عندما عادت حركة المرور تتقدم قليلاً إلى الأمام، عادوا يطلقون صيحاتهم الحماسية وأناشيدهم. وما هي إلا لحظات، حتى حشرت سيارة أجرة صفراء أُلصقت عليها عشرات من الملصقات الكبيرة، نفسها بطريقة متهورة وطائشة في المسافة الصغيرة بين سيارة دفن الموتى وشاحنة الكوكا كولا أمامهم. أخذ السائق الجالس إلى جانب آسيا يلعن بغضب عندما اضطر أن يبطئ في سيره. وفيما راح سائق السيارة يهدر بالمزيد من الشتائم، وفيما كانت آرمانوش تراقب سيارة الأجرة الواقفة أمامهم بدهشة متزايدة، بذلت آسيا جهدها لفك الرموز المكتوبة على اللاصقات الكبيرة. ورأت ملصقاً ملوناً بألوان تتغير مع تغير الضوء كتب عليها: **لا تقل إني بائس. فللبؤساء قلوب أيضاً.**

كان سائق سيارة الأجرة في الأمام رجلاً داكن البشرة، قاسي القسمات، وله شارب أشيب يشبه شارب زاباتا، ولا يقل عمره عن ستين

عاماً، وعمره لا يلائم أن يحدث مثل هذه الجلبة مع مؤيدي فريق كرة القدم. وكان ثمة تناقض شديد بين شكل الرجل التقليدي والهيجان الذي يقوده. لكن الشيء المثير أكثر، الراكبان اللذان كانا يرافقانه في السيارة. فقد طلى الرجل الجالس إلى جانب السائق نصف وجهه باللون الأصفر، والنصف الآخر باللون الأحمر. واستطاعت آسيا أن ترى هذا بوضوح من مكانها خلف سيارة الأجرة بعد أن مدّ هذا الرجل رأسه من النافذة المفتوحة، وراح يلوّح براية صفراء وحمراء بيد، ممسكاً بيده الأخرى المقعد الأمامي باسترخاء. وكان الجزء العلوي من جسمه يلوح ويهتز خارج السيارة، بينما كان جزؤه السفلي داخل السيارة. كان يبدو مثل شخص شطره ساحر إلى نصفين. وحتى من مسافة بعيدة، رأت آسيا أن أنف الرجل كان قرمزياً بسبب الكحول، فأفسد التناغم بين نصف وجهه الأصفر ونصف وجهه الأحمر، مرجحاً الكفّة للون الأحمر. وفيما راحت تفكّر أي نوع من المشروبات ـ البيرة أو العرق أو كليهما ـ الذي يمكنه أن يضفي على أنف شخص هذا الظلّ المعيّن، رفع المؤيد الآخر طبلاً في الهواء وأخرجه من نافذة السيارة المفتوحة في المقعد الخلفي بيد، وتمسك بداخل السيارة باليد الأخرى. وبتناغم تام، أخرج مثيرا الشغب نصف جسديهما من النوافذ، مثل أغصان شجرة سيارة أجرة صفراء مشذّبة.

ثم أخرج الرجل الجالس في المقعد الأمامي عصا، وراح يقرع بها الطبل الذي يحمله الرجل الآخر في الهواء. لا بد أن استحالة هذا العمل حفّزتهما وشحذت من عزيمتهما، لأنهما سرعان ما راحا ينشدان نشيداً على قرع الطبل. فوقف عدد كبير من المارة على الأرصفة مذهولين بما يشاهدونه، وأخذ عدد كبير منهم يصفّق، وانضموا إلى الثنائي، وراحوا ينشدون الكلمات بحماس شديد ومتزايد:

لتسمع الأرض، والسماء، والماء صوتنا

وليرتعش العالم كله بخطواتنا الثقيلة.

«ماذا يقولون؟» لكزت آرمانوش آسيا، لكن آسيا تباطأت في الترجمة لأن انتباهها كان منصباً على أحد المشاة. فقد كان فتى نحيفاً يرتدي أسمالاً بالية، يستنشق صمغاً من كيس بلاستيكي ويضرب بقدميه الحافيتين على الأرض بإيقاع مع النشيد. وبعد بضع ثوان توقف الصبي عن استنشاق الصمغ، وراح يردد النشيد، لكن وراءهم جميعهم، مثل صدى غريب: «. . . بخطواتنا الثقيلة. . .».

في هذه الأثناء، بدأ الأنصار الآخرون يلوّحون بأعلامهم وراياتهم من خارج نوافذ سياراتهم، وانضموا إلى الغناء ببهجة شديدة. وكان الطبّال يتوقّف بين الحين والآخر، ويستخدم عصاه ليرسم أفاع خيالية في الهواء أمام المشاة والباعة المتجولين الواقفين على الرصيف، وكأنه يوجّههم جميعهم، وينظّم هرج المدينة ومرجها.

عندما انتهى الشطر الأول من الأغنية، حدث اضطراب لأنه بدا أنه لم يكن يعرف كلمات الشطر الثاني من النشيد إلا عدداً قليلاً من أعضاء الجوقة الملوّنة. إلا أنهم لم يدعوا هذا التفصيل المزعج يزعزع تضامنهم، فراحوا ينشدون من البداية مرة أخرى، هذه المرّة بحماس أشد.

لتسمع الأرض، والسماء، والماء صوتنا
وليرتعش العالم كله بخطواتنا الثقيلة.

وهكذا تدفّقوا جميعهم على طول الشارع في سيل أحمر وأصفر، في وسط الفوضى والصخب. وفي داخل سيارة دفن الموتى، أخذت آرمانوش وآسيا والسائق يراقبون المشهد بصمت، وعيونهم مركزة على سيارة الأجرة الصفراء أمامهم. واقتربوا كثيراً من السيارة إلى حد أن آسيا استطاعت أن ترى علب بيرة فارغة تتدحرج في النافذة الخلفية.

«انظرا إليهم! هل يمكن لرجال بالغين راشدين في أعمارهم أن يتصرفوا هكذا؟» قال سائق سيارة دفن الموتى حانقاً، ثم تابع: «في بعض

الأحيان، يموت أحد أنصار أحد الفريقين، وتطلب أسرته أو أصدقاؤه المجانين المتهورين أن يُلفّ تابوته بعلم فريق كرة القدم هذا أو ذاك. ثم يطلبون مني بكلّ صفاقة أن أنقل هذا التابوت المدنس إلى المقبرة! إذا سألتني، فإني أقول لك إن هذا كله كفر! يجب أن يكون هناك قانون يمنع هذا الهراء. وأقول إنه يجب ألا يسمح إلا بلّفه بعباءة خضراء. لا شيء آخر. ماذا يظن هؤلاء الناس أنهم يفعلون؟ أليسوا مسلمين أم ماذا؟ لقد متّ، بحق الله، فلماذا تحتاج إلى علم كرة قدم؟ هل بنى الله ملعباً هناك في السماء؟ هل توجد مباريات في الجنة؟».

عندما لم تعرف آسيا كيف تردّ على سؤاله الأخير، تململت في مقعدها، إلا أن انتباه السائق انتقل إلى سيارة الأجرة الصفراء مرة أخرى. انبعث رنين ذو نغمة ميكانيكية من هاتف الرجل المتدلي خارج النافذة الأمامية. كان لا يزال يتمسّك بالسيارة بيد، ويقود أوركسترا المدينة باليد الأخرى. وحاول مثير الشغب الجليل هذا أن يجيب على هاتفه، ناسياً أنه لا توجد لديه يد ثالثة تقوم بهذه المهمة. فاختلّ توازنه، وسقط منها شيئان: أولهما عصا الطبل، ثم الهاتف الخلوي. وسقطا على الطريق، أمام سيارة دفن الموتى تماماً.

توقّفت سيارة الأجرة فجأة، فتوقفت سيارة دفن الموتى وراءها ولم يعد يفصل بين السيارتين سوى شعرة. اندفعت آسيا وآرمانوش إلى الأمام بسبب هذا التوقّف المفاجئ، ثم نظرتا في وقت واحد لتتأكدا من أنه لم يحدث مكروه للتابوت في الخلف. كان بخير وسلام.

وبلمح البصر، قفز الرجل خارج السيارة، وهو لا يزال يبتسم ويغني. كان نصف وجهه الأصفر ونصف وجهه الأحمر يتقدان حماسة. نظر إلى الوراء، وكأنه يعتذر للسيارات خلفه لأنه جعلها تتوقف. وعندها لاحظ أن السيارة وراءهم تماماً لم تكن سيارة عادية، بل سيارة خضراء رمادية، رمز الموت، تطاردهم مثل ظلّ مشؤوم. ولدقيقة طويلة مزعجة، وقف الرجل

هناك في وسط المرور، وقد بدا حائراً. وأخيراً، عندما مرقت من جانبه سيارة أخرى مكتظة بالأنصار، يرددون النشيد، وكان رفيقه لا يزال يقرع الطبل بيده بنفاد صبر، خطر له أن يلتقط هاتفه الخلوي والعصا من الأرض. وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على التابوت في سيارة دفن الموتى، استدار وعاد أدراجه إلى سيارة الأجرة. ولم يخرج هذه المرة، جذعه من النافذة، بل ظل في داخلها، ولبث هادئاً.

لم تتمالك آرمانوش وآسيا نفسيهما عن الابتسام.

«لا بد أنك تعمل في أكثر المهن احتراماً في هذه المدينة»، قالت آسيا للسائق، الذي كان يراقب المشهد برمته معهما: «إذ إن ظلّك قد يثير الرعب في نفس حتى أشد أنصار الكرة تطرفاً وحدة طبع».

«لا»، قال السائق: «فالراتب ضئيل جداً، ولا يوجد تأمين، ولا تأمين صحي، ولا يوجد لديّ حق في الإضراب، لا شيء. كنت في الماضي أقود شاحنات كبيرة أنقل بضائع لمسافات طويلة، مثل الفحم والنفط وغاز البوتان والمياه المعبأة. . . كلّ ما يخطر ببالك. كنت أنقلها جميعها».

«هل كان ذلك العمل أفضل من عملك هذا؟».

«أتمزحين؟ طبعاً كان أفضل! فما كان عليك إلا أن تملئي الشاحنة في إستانبول، وتتوجهين إلى مدينة أخرى. ولا يوجد رئيس أن تتملقيه، ولا مشرف تداهنيه! إنك سيدة نفسك. وإذا أردت، يمكنك أن تقودي شاحنتك ببطء لكن بشرط ألا يطلب منك رئيسك أن تسلمي الحمولة بسرعة. عندها يجب أن تقودي الشاحنة بلا توقف ودون أن يغمض لك جفن. وما عدا ذلك، فقد كان عملاً نظيفاً. نظيفاً ومحترماً. لا يتعين عليك أن تنحني لأحد».

بدأت حركة المرور تتحرك بسرعة. وسرعان ما انعطف أسطول سيارات كرة القدم يميناً نحو الملعب.

«إذن لماذا تركت عملك ذاك؟» سألته آسيا.

«ذات يوم غفوت وأنا أقود الشاحنة. ففي لحظة كنت أقود بسرعة على الطريق، وفي اللحظة التالية سمعت صوت انفجار فظيع، وكأن يوم القيامة قد وقع واستدعانا الله جميعنا. عندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي داخل مطبخ في كوخ حقير على قارعة الطريق».

«ماذا يقول؟» همست آرمانوش.

«صدقيني، إنك لا ترغبين في معرفة ما يقول»، ردت عليها آسيا همساً.

«حسناً، إسأليه كم ميتاً يحمل في سيارته كلّ يوم؟».

عندما ترجمت السؤال، هزّ السائق رأسه وقال: «حسب الفصل الذي نحن فيه. والربيع أسوأ الفصول جميعها؛ إذ لا يموت كثير من الناس في الربيع. ثم يأتي الصيف، أكثر الفصول ازدحاماً. حيث تتجاوز درجة الحرارة ثمانين درجة، ويصبح الجو محموماً إلى درجة كبيرة، وخاصة المسنون... فهم يتساقطون كالذباب... في الصيف، يموت الإستانبوليون بأعداد كبيرة!».

توقّف وهو يفكّر، وترك على آسيا عبء التفسير السيمانطيقي للجملة الأخيرة التي قالها. ثم نظر إلى أحد المشاة الذي يرتدي بدلة، ويصدر أوامر بصوت مرتفع على هاتفه الخلوي:

«تباً، جميع هؤلاء الأغنياء! إنهم يكدسون المال طوال حياتهم، لماذا؟ يا لهم من حمقى! هل للأكفان جيوب؟ إنه كفن قطني سنرتديه جميعنا في النهاية. هذا كلّ ما في الأمر. لا ملابس أنيقة. لا مجوهرات. هل يمكن للمرء أن يرتدي بدلة أو فستان سهرة وهو ذاهب إلى القبر؟ من يحمل أعمدة السماوات لهؤلاء الناس؟».

لم يكن لدى آسيا رد على ذلك، لذلك لم تحاول أن تجيب.

«إذا لم يكن هناك أحد يرفعها فكيف نستطيع أن نعيش تحت هذه السماء؟ فأنا لا أرى أعمدة سماوية، أليس كذلك؟ كيف يمكن للمرء أن يلعب كرة القدم في هذه الملاعب إذا قال الله: سأتوقف عن حمل السماء؟».

فيما كان السؤال لا يزال يحوم في الهواء، انعطفوا عند الزاوية ووصلوا أخيراً إلى بيت قازانجي.

كانت الخالة زليخة تنتظرهم أمام البيت. تبادلت بضع كلمات مع السائق ونفحته إكرامية.

كانت سيارة الفولكسفاغن، وسيارة ألفا روميو الفضية اللون، وسيارة التويوتا كورولا مركونة أمام البيت. كان يبدو أن الجميع قد وصلوا قبلهم. كان البيت مليئاً بالمعزّيات، ينتظرن إنزال التابوت.

* * *

عندما دخلت آسيا وآرمانوش إلى البيت وجدتاه مكتظاً بالنساء. ومع أن معظم المعزيات كن قد تجمّعن في غرفة الجلوس في الطابق الأول، فقد تفرق بعضهن الآخر وتوزعن في الغرف الأخرى، إما ليغيّرن حفاضات أطفالهن، أو ليوبخن طفلاً، أو ليثرثرن قليلاً، أو ليصلين بعد أن حان وقت صلاة العصر. وعندما لم تبق هناك غرفة نوم يمكنهما اللجوء إليها، توجهتا إلى المطبخ، فوجدتا جميع الخالات يتهامسن عن المأساة التي ألمّت بهن، وهن يهيئن صواني العاشورة ليقدمنها للمعزّيات.

«لقد انهارت ماما المسكينة. من كان يخطر بباله أن العاشورة التي أعدتها لمصطفى سُتقدم إلى المعزّيات؟» قالت الخالة شكرية الواقفة إلى جانب الموقد.

«نعم، وزوجته الأمريكية منهارة أيضاً»، قالت الخالة فريدة، دون أن ترفع نظرها عن البقعة الغامضة على أرض المطبخ، وأضافت: «يا لها من

امرأة مسكينة. ففي أول مرة تأتي فيها إلى إستانبول في حياتها تفقد زوجها. يا له من شيء فظيع».

قالت الخالة زليخة بهدوء، الجالسة إلى الطاولة، التي كانت تنصت إلى أخواتها وتدخن سيجارة: «حسناً، أظن أنها ستعود إلى أمريكا الآن وتتزوّج مرة أخرى. إذ تعرفن جميعكن أن نصيب المرأة حسب الشريعة ثلاثة. فإن كانت قد تزوّجت للمرّة الثانية، فعليها أن تتزوّج للمرّة الثالثة. لكنني أتساءل، من هو الزوج الثالث الذي سيقع عليه اختيارها بعد أن تزوجت رجلاً أرمنياً ثم رجلاً تركياً؟».

«إن المرأة حزينة وهي في الحداد الآن، كيف يمكنك أن تقولي مثل هذه الأشياء؟» سألتها الخالة شكرية.

«الحداد مثل العذرية»، أطلقت الخالة زليخة تنهيدة: «يجب أن تمنحيها للشخص الذي يستحقّها أكثر».

فغرت الخالتان فميهما عندما سمعتا ذلك، وأجفلتا باندهاش. في تلك اللحظة، دخلت آسيا وآرمانوش، يتبعهما السلطان الخامس يموء جائعاً.

«هيا يا أخواتي، لنعط شيئاً للقطّ ليأكله قبل أن يلتهم العاشورة كلها» قالت الخالة زليخة.

عندها فقط التفتت الخالة بانو، التي كانت منهمكة في العشرين دقيقة الأخيرة في العمل على الطاولة، تغلي الشاي، وتقطع شرائح الليمون، وتستمع إلى النقاش الجاري دون أن تشارك فيه، إلى أختها الأصغر وقالت: «لدينا أشياء أكثر أهمية يجب أن نفعلها».

فتحت الخالة بانو أحد الأدراج، وأخرجت سكيناً كبيراً يلمع، وتناولت بصلة ملقاة على الطاولة، وشطرتها إلى نصفين. ثم أمسكت نصف البصلة براحتها ودفعتها إلى أنف الخالة زليخة.

«ماذا تفعلين؟»، قالت الخالة زليخة بعد أن قفزت من على كرسيها.

«أساعدك كي تذرفي قليلاً من الدموع يا عزيزتي»، هزّت الخالة بانو رأسها، وأضافت: «لا أظن أنك تريدين أن ترى النساء الأخريات هذا، أليس كذلك؟ فمهما كانت روحك حرة، فإنك بحاجة لأن تذرفي دمعة أو دمعتين في بيت الميت».

وضعت الخالة زليخة البصلة تحت أنفها، وأغمضت عينيها، وبدت مثل تمثال طليعي لم تتح له الفرصة لأن يعرض في أحد المتاحف العامة: **المرأة التي لا تستطيع أن تبكي والبصلة.**

فتحت الخالة زليخة عينيها الخضراوين وقطرتا دمعة. لقد بدأ تأثير البصلة.

«جيد»، هزت الخالة بانو رأسها، وقالت: «هيا، يجب أن نذهب جميعنا إلى غرفة الجلوس. لا بد أن الضيفات بدأن يتساءلن أين صاحبات البيت، وقد تركن ميتهن وحده».

هكذا قالت الأخت التي كانت تؤدي دور «الأمّ» إلى الخالة زليخة، التي كانت تهدهدها بأغاني تختلق نصفها من بنات أفكارها، وتطعمها الكعك من علب كرتون كانت سرعان ما تتحول إلى طاولات خيالية، وتحكي لها قصصاً تنتهي دائماً بزواج الفتاة الجميلة من الأمير، تحتضنها وتدغدغها، الأخت التي كانت تضحكها، ليس مثل أي شخص آخر.

«حسناً»، قالت الخالة زليخة موافقة: «هيا لنذهب».

وهكذا دخلن إلى غرفة الجلوس، الخالات الأربع في المقدمة، تتبعهما آرمانوش وآسيا.

وبخطوات متناسقة، دخلن إلى الغرفة التي تعجّ بالمعزّيات. الغرفة التي سجي فيها جثمان المرحوم.

كانت روز تجلس في زاوية الغرفة على وسادة أرضية، وغطت شعرها الأشقر بمنديل. كانت عيناها متورمتين من البكاء، وكان جسدها المكتنز

محشوراً بين عدد من الغريبات. وعلى الفور أومأت لآرمانوش ونادتها بأن تأتي إلى جانبها.

«آمي، أين كنت؟» سألتها روز، لكنها قبل تسمع ردها، ألقت عليها وابلاً من الأسئلة الأخرى: «لا أعرف ماذا يجري هنا. هل يمكنك أن تعرفي ماذا سيفعلون بجثمانه؟ متى سيدفنونه؟».

اقتربت آرمانوش التي لم تكد تعرف شيئاً هي نفسها، من أمّها وأمسكت يدها وقالت: «ماما، أنا واثقة من أنهم يعرفون ما يجب عمله».

«لكنني أنا زوجته»، قالت روز وتعثّرت عند الكلمة الأخيرة، وكأنها بدأت تشك في ذلك.

كان قد مُدِّد على الأريكة، ووضعت يداه وإبهاماهما معقودان معاً فوق صدره، ووضع عليه نصل فولاذي ثقيل كي لا تنتفخ بطنه. ووضعت على جفنيه قطعتان معدنيتان كبيرتان من الفضة كي لا تنفتح عيناه. وصُبَّت في فمه بضع ملاعق من ماء زمزم من مكة المكرمة. وأُحرقت إلى جانب رأسه قطع من بخور خشب الصندل في صحن نحاسي. ومع أن النوافذ كانت مغلقة جميعها، بل كانت منفرجة قليلاً، كان الدخان في الغرفة يتجدد كلّ بضع دقائق وكأن نسيماً لا يمكن رؤيته ينسلّ من مكان ما وراء الجدران. وعندما كان الدخان يرتفع ويدور في خطوط متعرجة حول الأريكة، كان يتلاشى أخيراً ويتحول إلى هبة رمادية. لكن الدخان كان أحياناً يتبع طريقاً متميّزاً، ينحدر ويقترب أكثر وأكثر من الجثّة في دوائر داخل دوائر، مثل طائر جارح يلاحق فريسته إلى الأرض. وأصبحت رائحة خشب الصندل، الحامضة والحادّة، أكثر كثافة إلى حد أن الدموع طفرت من العيون، ولم تكترث معظمهن بذلك، لأنهن كن يبكين أصلاً.

وكان محشوراً في الزاوية إمامٌ مقعد، وكان الجزء الأعلى من جسمه يتمايل وهو يتلو القرآن بصوت مرتفع. وكان ثمة إيقاع في تلاوته، نغمة

ترتفع وترتفع ثم تتوقف فجأة. حاولت آرمانوش ألا تعير بالاً للتباين الشديد والواضح بين جسم الإمام الضئيل، وأجساد النساء المكتنزة الجالسات حوله. وحاولت أيضاً ألا تنظر إلى الفراغ الذي يفترض أن يكوّن أصابع الرجل. فقد كان يوجد في كلّ يد من يديّ الإمام إصبع ونصف إصبع. وكان يستحيل على المرء ألا يتساءل ما حدث لها. هل ولد هكذا، أم أنها بترت؟ ومهما كانت قصة أصابعه، كان عدم اكتمال جسمه سبباً جعل تلك النساء يجلسن باسترخاء وراحة تامة إلى جانبه. ففي عدم اكتماله كان يكمن سرّ كماله، وفي عدم كماله، كان يكمن سرّ قدسيته. لقد كان روحاً من أرواح العتبات، ومثل جميع أرواح العتبات، كان ثمة شيء غريب فيه. فقد كان رجلاً تقياً إلى درجة أنك لا تستطيع اعتباره شخصاً واحداً. كان رجلاً تقياً ومقعداً إلى حد أنك لا تستطيع أن تتجاهل كم هو إنسان. ومهما يكن، لم يكن الإمام المقعد بحاجة إلى الأصابع ليقلّب صفحات القرآن الكريم في عقله. إذ كان يخزّنه كله في ذاكرته، كلّ آية وسورة.

في نهاية الآية، كان الإمام يتوقف لحظة أو لحظتين، يتذوق نكهة كلّ كلمة من تلك الكلمات المقدسة، ثم يعود للتلاوة. كان ذاك الإيقاع المتماوج المتناغم هو الذي يمس شغاف قلوب المعزّيات؛ مع أنهن لم يكن يفهمن اللغة العربية. وعندما كن ينهرن ويشهقن ويبكين، كانت النساء يحرصن دائماً على ألا يبكين بصوت مرتفع كي لا يغطي صوتهن على صوت الإمام. كما لم يكن يبكين بصوت منخفض أيضاً، غير ناسيات مطلقاً، ولا للحظة، أن هذا المكان الذي حشرن فيه جميعهن هو oluevi.

وإلى جانب الإمام، في المكان الثاني الأكثر احتراماً وإجلالاً، جلست ما ـ الهيفاء، بجسدها الضئيل الذي بدا أشبه بإجاصة جُففت تحت الشمس، فانكمشت.وتجعّدت. وكانت كلّ زائرة جديدة تقبّل يدها وتقدم لها تعازيها، لكن كان يصعب معرفة إن كانت تسمعهن حقاً. وفي أكثر

الأحيان، كانت ما ـ الهيفاء ترمق كل امرأة تقبّل يدها. لكنها كانت بين الحين والآخر، ترد على هذه الضيفة أو تلك، بمجموعة من الأسئلة: «من أنت يا عزيزتي؟» كانت تستفسر من القريبات أو الصديقات الدائمات: «أين كنت طوال هذا الوقت؟» «لا تذهبي إلى أيّ مكان، أيتها الشقية!» كانت توبّخ بعض الغريبات. ثم، وفي وسط صمتها الرائع، وملاحظاتها التي تستتبع الصمت، كان وجهها يصبح ساهماً تماماً، وترمش بذعر خفي. في تلك اللحظات، لم تكن تعرف سبب اجتماع جميع تلك النساء في غرفة جلوسهن وسبب بكائهن الشديد.

كانت الأريكة ساكنة؛ وكانت النساء في حركة لا تفتر. كانت الأريكة بيضاء، وكانت النساء متشحات بالسواد. كانت الأريكة لا تصدر صوتاً، ولم تكن النساء يكففن عن إصدار أصواتهن ـ وكأن عمل شيء معاكس تماماً للميت شيء ضروري من أجل الحياة. ثم نهضت النساء ووقفن وأحنين رؤوسهن بطاعة. كانت وجوههن تشي بالحزن والوقار، لكن بالفضول أيضاً، وهن يراقبن الإمام المقعد يهمّ بمغادرة الغرفة. وبعد أن أوصلنه إلى خارج البيت، قبّلت الخالة بانو يديه وشكرته مرات عديدة، بعد أن قدمت له إكرامية.

ما أن غادر الإمام، حتى سُمع صوت صرخة ثاقبة تمزّق الهواء. فقد أطلقت امرأة بدينة لم يرها أحد من قبل هذا الصوت. وتصاعدت صرختها الثاقبة بوتيرة عالية، وسرعان ما تضرج وجهها باللون الأحمر، وأصبح صوتها يصرّ صراً، وأضحى جسدها كله يرتعش. كانت في حالة بائسة للغاية، وكان ألمها بادياً جلياً فراحت الأخريات ينظرن إليها بوجل. كانت المرأة ندّابة، يُدفع لها مقدماً كي تأتي وتبكي في بيت الميت، تنوح وتولول للناس الذين لم ترهم في حياتها. كان عويلها مؤثّراً للغاية إلى حد أن النساء الأخريات لم يتمالكن أنفسهن وانطلقن في البكاء والعويل.

بعد أن وجدت نفسها محاطة بحشد من الحزينات الغريبات (حتى أن

أمّها بدت كالغريبة في هذه الحالة)، أخذت آرمانوش تشكمكجيان تراقب النساء وهن يتحركن في دوّامة من التغيير الدائم. وبانسجام تام، وفي فترات ثابتة، كانت المعزيات يغيّرن مقاعدهن لتحل محلهن قادمات جديدات. ومثل طيور متشابهة، كنّ يجثمن على الكراسي ذات المسند، وعلى الأريكة، وعلى الوسادات على الأرض، الواحدة ملتصقة بالأخرى، وأكتافهن تتلامس. كنّ يحيّين بعضهن بدون كلمات ويبكين بحرقة؛ تلك النساء اللاتي قد يكنّ هادئات عندما يكنّ وحدهن، لكنهن يبدأن يولولن بصوت مرتفع عندما يحزنّ بشكل جماعي. تعرفت آرمانوش الآن على بعض قواعد الحداد وطقوسه: فلم يعد يطهى طعام في البيت مثلاً. بل كانت كلّ زائرة جديدة تأتي وتحمل معها صينية من الطعام؛ وامتلأ المطبخ بالقدور والمقالي المقاومة للحرارة. ولم تعد ترى الملح، ولا اللحم، ولا مشروباً كحولياً، ولا روائح مشهّية من تلك الأشياء التي يخبزنها في البيت. ومثل الروائح، كانت الأصوات تضبط أيضاً. فلم يكن يُسمح بسماع الموسيقى، ولا بمشاهدة التلفزيون، ولا الاستماع إلى المذياع. وعندما خطر لها جوني كاش، راحت آرمانوش تبحث عن آسيا.

كانت جالسة على الأريكة مع مجموعة من الجارات، رأسها مرفوع عالياً، تفتل بأصابعها ضفيرة من شعرها وهي ساهمة وتنظر إلى الجثمان. وعندما أوشكت أن تتحرك باتجاهها، رأت آرمانوش الخالة زليخة تجلس إلى جانب ابنتها، وبتعبير لا يمكن قراءته همست شيئاً في أذنها.

* * *

إذن ها هو الجثمان، مُسجًى على الأريكة.

وبين مجموعة من النساء اللاتي لم يكنّ يتوقفن عن النواح والعويل، كانت آسيا تجلس صامتة، وقد شحب وجهها كثيراً.

«لا أصدق ما تقولينه»، قالت آسيا دون أن تنظر إلى أمها مباشرة.

«ليس عليك أن تصدقيني»، تمتمت الخالة زليخة: «لكني أدركت أخيراً أنني يجب أن أشرح لك الأمر. وإذا لم أقل لك ذلك الآن، فربما لن يكون هناك وقت آخر. لقد مات».

نهضت آسيا ببطء ونظرت إلى الجثمان. أمعنت النظر فيه كي لا تنسى أن هذا الجسد الذي غُسل بصابون غار أخضر، والملتف بكفن من ثلاث قطع، هذا الجسد الممدد أمامها الساكن الذي لا يتحرك، وفوق صدره قطعة فولاذ، وعلى عينيه قطعتان معدنيتان من الفضة، هذا الجسد الذي رُشّ على فمه قطرات من ماء زمزم، وعُطِّر ببخور خشب الصندل، كان أبوها.

خالها... أبوها... خالها... أبوها...

رفعت عينيها وأجالت بنظرها في الغرفة حتى رأت الخالة زليخة تجلس الآن دون أن يبدو عليها الحزن، بل حتى لم تؤثر عليها قطعة البصل. عندما نظرت آسيا إلى أمّها، عرفت لماذا لم تعترض على ابنتها التي كانت تدعوها «خالتي».

خالتها... أمّها... خالتها... أمّها...

خطت آسيا نحو أبيها الميت. خطوة واحدة ثم أخرى، اقتربت أكثر. تكاثف الدخان. وفي زاوية الغرفة كانت روز تنشج بألم. وكذلك كانت جميع النساء في سلسلة لا تنتهي. كانت كلّ واحدة منهن مربوطة في سلسلة من ردّ الفعل والإيقاع، كانت كلّ قصّة منسوجة في قصص الأخريات، سواء كانت صاحباتها يدركن ذلك أم لا. كانت هناك فترة سكون في كلّ نوح وعويل - أو ربما، في كلّ حزن مشترك هناك شخص لا يستطيع أن يحزن مع الآخرين.

«بابا...» همهمت آسيا.

في البدء كانت الكلمة، يقول الإسلام، التي تسبق أيّ وجود آخر.

سواء كان ذلك أم لا، فقد كان الحال مع أبيها عكس ذلك تماماً. في البدء كان غياب الكلمة، يسبق الوجود.

* * *

كان يا ما كان.

كان في قديم الزمان، في أرض ليست بعيدة كثيراً، عندما كان المنخل داخل القشّة، كان الحمار منادي البلدة، وكان الجمل حلاق البلدة... كنت أكبر سناً من أبي لذلك كنت أهزّ مهده عندما كنت أسمع بكاؤه... عندما كان العالم مقلوباً رأساً على عقب، وكان الزمن دائرة تدور وتدور، لذلك كان المستقبل أقدم من الماضي، وكان الماضي نظيفاً ونقياً مثل حبة بُذرت في الحقل حديثاً...

كان يا مكان، في قديم الزمان. كانت مخلوقات الله كثيرة جداً بعدد حبات القمح، وكان الكلام الكثير إثماً، لأنك تستطيع أن تعرف ما يجب ألا تتذكّره، وتستطيع أن تتذكّر ما يجب ألا تقوله.

* * *

إن سيانيد البوتاسيوم مركّب لا لون له، ملح البوتاسيوم وسيانيد الهيدروجين. إنه يشبه السكّر، وقابل للذوبان في الماء إلى درجة عالية. وبخلاف المركّبات السامّة الأخرى، له رائحة ملحوظة.

إذ تشبه رائحته رائحة اللوز. اللوز المرّ.

هل يجب تزيين صحن العاشورة بحبّ الرمان وبقطرات من سيانيد البوتاسيوم، الذي سيصعب اكتشافه لأن اللوز أحد مكوناته العديدة.

«ماذا فعلت يا سيدتي؟» نعق السيد مرّ، وبرزت على وجهه تكشيرة متجهمة، كما كان متوقّعاً منه: «لقد تدخّلت في طريق العالم!».

زمّت الخالة بانو شفتيها وقالت: «نعم»، والدموع تجري على خديها،

«صحيح أنني قدمت له صحن العاشورة، لكنه هو الذي اختار أن يتناوله. لقد قرّرنا كلانا أن هذه الطريقة أفضل، أفضل بكثير من أن يعيش وهو يحمل عبء الماضي. كانت أفضل من ألا أفعل شيئاً بعد أن عرفت. فالله لن يغفر لي أبداً. لقد أصبحت منبوذة إلى الأبد من عالم الطاهرين. لن أذهب إلى الجنّة. وسيلقي بي في نار جهنم. لكن الله يعرف أنه يوجد قدر ضئيل من الأسف في قلبي».

«ربما كان المطهر مأواك الأبدي»، قالت السيدة حلو محاولة أن تعزيها قليلاً، بعد أن أحست أنه لا حول لها ولا قوة وهي ترى سيدتها تبكي: «وماذا عن الفتاة الأرمنية؟ هل ستخبرينها عن سرّ جدتها؟».

«لا أستطيع. هذا أكثر من طاقتي. كما أنها لن تصدقني».

«الحياة صدفة، يا سيدتي»، قال السيد مرّ ثانية.

«لا يمكنني أن أحكي لها القصّة. لكنني سأعطيها هذا». فتحت الخالة بانو درجاً وأخرجت دبوس الزينة بشكل رمانة ذهبية دفنت في داخلها حبات الياقوت.

الجدّة شوشان، التي كانت صاحبة هذا الدبوس ذات يوم، واحدة من تلك الأرواح المنفية التي كان يطلق عليها اسم بعد آخر، لتهجر جميع الأسماء في كلّ مرحلة جديدة من حياتها. فقد ولدت باسم شوشان ستامبوليان، ثم أصبحت شيرمين ٦٢٦، ثم أصبحت شيرمين قازانجي، ثم شوشان تشكمكجيان. ومع كلّ اسم كان تكتسبه، كانت تفقد أيضاً شيئاً إلى الأبد.

وكان رضا سليم قازانجي رجل أعمال فطن، مواطناً متفانياً، وكذلك زوجاً جيداً وفق طريقته. كان ذكياً بحيث انتقل من صناعة القدور إلى صناعة الأعلام في بداية عهد الجمهورية، في الوقت الذي كانت فيه الأمة بحاجة إلى أعلام لتزيين الوطن كله. وهكذا أصبح واحداً من أغنى رجال

الأعمال في إستانبول. وزار ملجأ الأيتام في ذلك الوقت تقريباً، ليرى المدير من أجل ترتيبات محتملة في العمل. وهناك في الردهة الخافتة، رأى فتاة أرمنية اعتنقت الإسلام، في الرابعة عشرة من عمرها. وسرعان ما عرف أنها ابنة أخت الرجل الذي كان أكثر شخص يحترمه ويجلّه في هذا العالم: السيد ليفون، الرجل الذي علّمه فنّ صناعة القدور، والذي رعى الصبي المحتاج الذي كانه ذات يوم. والآن جاء دوره ليساعد عائلة معلّمه ليفون، قال لنفسه. ومع ذلك، عندما طلب يدها أخيراً بعد الزيارات المتكررة إلى دار الأيتام، لم تكن الشفقة ورد الجميل هما اللتان جذباه إليها، بل الحبّ.

كان مقتنعاً بأنها قد تنسى، وأنها لا بد أن تنسى في آخر الأمر. وكان مقتنعاً بأنه إذا ما عاملها بلطف واحترام، وإذا أنجبت له طفلاً، وقدم لها بيتاً رائعاً، فإنها ستنسى ماضيها رويداً رويداً، وسيلتئم جرحها في النهاية. كانت مسألة زمن فقط. فلا تستطيع النساء أن يحملن عبء طفولتهن عندما ينجبن طفلاً. وهكذا، عندما وصله النبأ بأن زوجته هجرته وذهبت مع أخيها إلى أمريكا، رفض أن يصدق في بادئ الأمر، ثم نبذها من حياته. واختفت شوشان من سجلات عائلة قازانجي، ومن ذكريات ابنها أيضاً.

لم تكن تسمية ابن شوشان باسم ليفون أو ليفينت ذات أهمية كبيرة بالنسبة له. ففي جميع الأحوال، نشأ ليصبح رجلاً فظاً غليظاً. وبقدر ما كان لطيفاً ومهذباً ورقيقاً خارج بيته، كان قاسي القلب فظاً مع أطفاله، أربع بنات وصبي.

تتمازج القصص العائلية إلى حد أنه قد يكون لما حدث في أجيال سابقة تأثير على تطورات لا علاقة لها بيومنا الحاضر.

فقد يكون الماضي أيّ شيء، لكنه لم ينصرم. فلو لم ينشأ ليفينت قازانجي ليصبح هذا الرجل المليء بالمرارة والظلم، هل كان من الممكن أن يصبح ابنه الوحيد مصطفى، شخصاً مختلفاً؟ ولو لم تصبح شوشان في

عام ١٩١٥، منذ أجيال مضت، يتيمة، فهل كانت آسيا أصبحت لقيطة اليوم؟

الحياة مجرد مصادفات، مع أن الأمر يحتاج إلى جني كي يستوعب هذا الأمر.

* * *

في وقت متأخر من بعد الظهر، خرجت الخالة زليخة إلى الحديقة. كان آرام الذي لم يشأ أن يدخل إلى البيت، ينتظرها منذ ساعات، وكان قد دخّن جميع سجائره منذ وقت طويل.

قالت له: «لقد أحضرت لك شاي». وداعب وجهيهما نسائم الربيع التي كانت تحمل معها، من كل حدب وصوب، روائح البحر المختلفة، وروائح العشب الذي بدأ ينمو، بل وحتى أزهار اللوز التي بدأت تتبرعم في إستانبول.

«شكراً يا حبيبتي»، أجاب آرام: «يا له من شاي رائع».

«هل أعجبك؟» وراحت الخالة زليخة تفتل كأس الشاي في يدها وقد أشرق وجهها: «حقاً إنه لأمر غريب للغاية. أتعرف ماذا تذكرت الآن؟ لقد اشتريت طقم كاسات الشاي منذ عشرين عاماً. إنه أمر غريب للغاية!».

«ما الغريب في الأمر؟» سأل آرام، وقد شعر في تلك اللحظة بهطول قطرة مطر.

«لا شيء»، قالت الخالة زليخة، مخفضة صوتها: «لم أكن أظن أنها ستعيش طوال هذه المدة. كنت أخاف دائماً أن تنكسر بسهولة، لكني أظن أنها عاشت لتروي الحكاية، فرغم كل شيء، حتى كؤوس الشاي تفعل ذلك!».

بعد بضع دقائق، خرج السلطان الخامس يختال من البيت، معدته ممتلئة، عيناه ناعسة. دار حولهما قبل أن يتكور ويجلس إلى جانب الخالة

زليخة. لوهلة بدا أنه مستغرق في لعق أحد مخالبه بعناية شديدة، لكنه توقّف، وراح يتطلع حوله مذعوراً ليعرف ما الذي عكّر هذا الصفاء. وعوضاً عن تقديم إجابة، سقطت قطرة دافئة على أنفه. ثم أعقبت ذلك قطرة أخرى، هذه المرة على رأسه. نهض القطّ ببطء شديد، وبإحساس عميق بالسخط، وراح يتمطط قبل أن يعود إلى البيت. قطرة أخرى. عاد بخطى سريعة.

لعله لم يكن يعرف القواعد. لم يكن يعرف أنه لا يجوز أن يلعن أي شيء يسقط من السماء.

حتى المطر.

شكر

لقد كتبت هذه الرواية وأنا أتنقل بين أريزونا ونيويورك وإستانبول. وإني إذ أتوجه بالشكر والامتنان لجميع العائلات الأرمنية والتركية التي رحّبت بي، واستضافتني في بيوتها، وطهت لي مأكولات لذيذة، وروت لي قصصها الشخصية، رغم صعوبة تذكّر ماضي مؤلم. وأنا مدينة للجدّات الأرمنيات والتركيات، اللاتي يتمتعن بقدرة طبيعية لتجاوز الحدود التي يعتبرها القوميون على كلا الجانبين أمراً بديهياً، وتحصيل حاصل.

وأتوجه بالشكر الجزيل لمارلي روسوف، ومايكل رادوليسكو، وكيليّ الأدبيين وصديقيّ العزيزين، لدعمهما المنقطع النظير، وعملهما وصداقتهما. وأشكر بول سلوفاك لتوجيهاته التحريرية وإيمانه وتشجيعه. وأتوجه بالشكر إلى موغي غوسيك، وآن بيتيردج، وأندرو ويديل، وديان هيغينس لمساهمتهم السخية.

وبين الطبعة التركية والطبعة الإنكليزية لهذه الرواية في عام ٢٠٠٦، صدر عليّ حكم بتهمة «تشويه سمعة تركيا» بموجب المادة ٣٠١ من قانون العقوبات التركي. وكانت التهم الموجهة ضدّي بسبب الكلمات التي وردت على لسان بعض الشخصيات الأرمنية في الرواية. فقد كان من الممكن أن يحكم عليّ بالسّجن لمدة ثلاث سنوات، لكن التهم أسقطت

في نهاية الأمر. وخلال هذه الفترة، كنت محظوظة لأنني تلقيت دعماً هائلاً من الكثير من الأشخاص، ومن الأصدقاء، والغرباء، من جنسيات وديانات مختلفة. إني أدين لهم بأكثر ما يمكنني أن أقوله.

وأخيراً، كما كان دائماً، فإني أشكر أيوب، لصبره وحبّه... لكونه هو نفسه...

* * *

الفهرس

١ ـ قرفة ٥
٢ ـ حمّص ٤٦
٣ ـ سكّر ٦٤
٤ ـ بندق محمّص ٧٦
٥ ـ فانيلا ٩٤
٦ ـ فستق حلبي ١١٢
٧ ـ قمح ١٤٧
٨ ـ حبّات الصنوبر ١٨٣
٩ ـ قشور البرتقال ٢٠٣
١٠ ـ لوز ٢٢٣
١١ ـ مشمش مجفّف ٢٥٣
١٢ ـ حبّ الرمان ٢٦٦
١٣ ـ تين مجفّف ٢٨٧
١٤ ـ ماء ٣٠٤
١٥ ـ الزبيب الأصفر ٣١٩
١٦ ـ ماء الورد ٣٤٩
١٧ ـ رزّ أبيض ٣٨٧
١٨ ـ سيانيد البوتاسيوم ٣٩٦
شكر ٤٢١

هذا الكتاب

قطرات المطر تتساقط من ضفائرها السوداء الملقاة على كتفيها العريضين. ومثل جميع نساء عائلة قازانجي، ولدت زليخة بشعر أسود فاحم أجعد، لكنها بخلافهن جميعهن، كانت تحبّ أن تبقيه هكذا. وكانت بين الحين والآخر تغمض عينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الأخضر، اللتين تكونان عادة مفتوحتين على وسعيهما، المتوهجتين بشعلة من الذكاء، تغمضهما نصف إغماضة، فتصبحان مثل خطين لا مباليين يميزان ثلاث فئات من الناس وهم: السذج الذين لا أمل يرجى منهم، والمنطوون على أنفسهم على نحو يائس، والمفعمون بالأمل بشكل يائس. وبما أنها لا تنتمي إلى أي من هذه الفئات الثلاث، كان يصعب فهم هذه اللامبالاة، حتى لو كانت مثل هذه الومضة الخاطفة. ففي لحظة تكون هنا، تغلّف روحها طبقة من عدم الإحساس المخدّر، وفي لحظة تالية، تذهب وتبقى وحدها في جسدها.